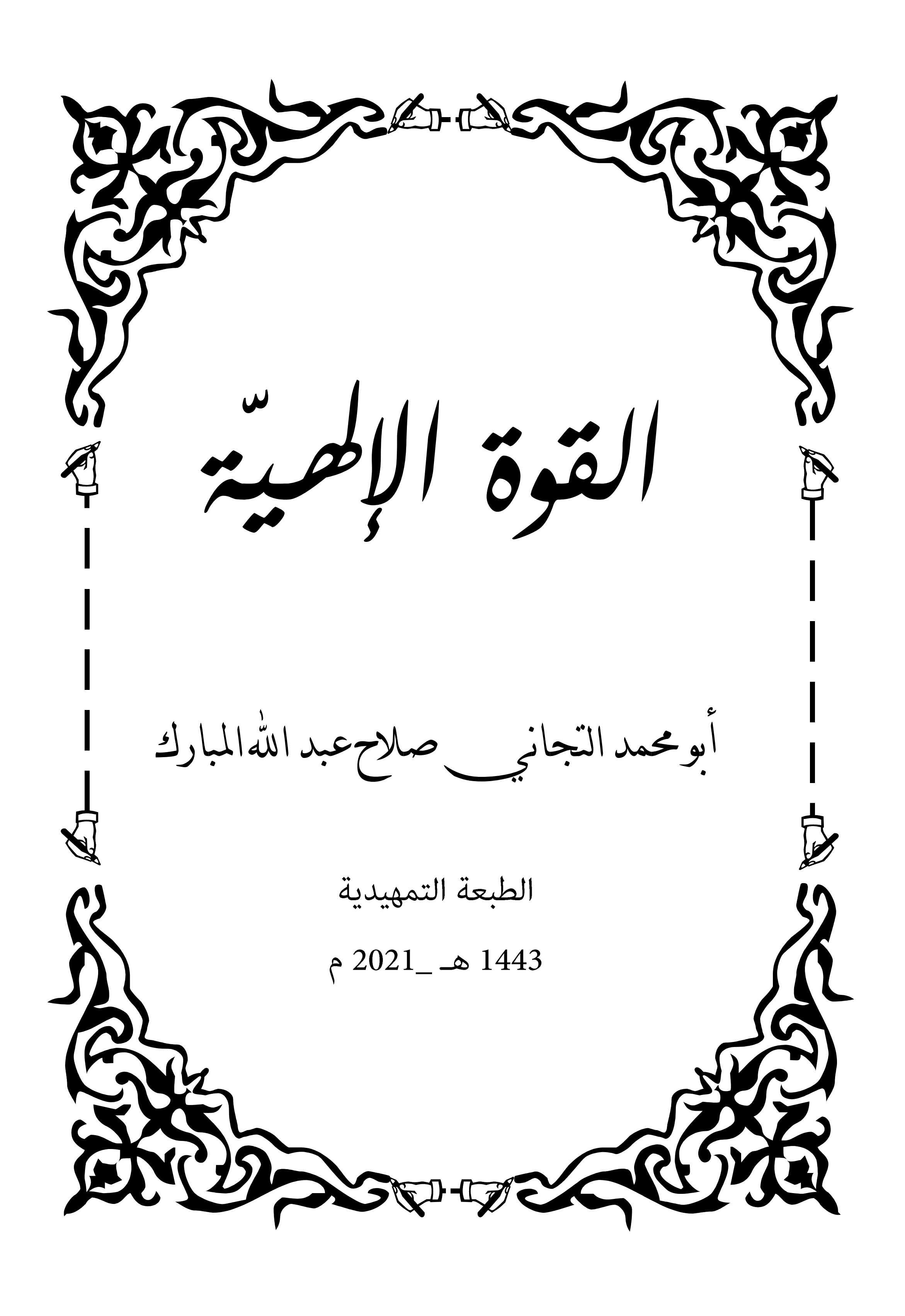


القوّة الإلهيّة

أبو محمد التجاني صلاح عبد الله المبارك

الطبعة التمهيدية

1443 هـ _2021 م

القوّة الإلهيّة

أبو محمد التجاني صلاح عبد الله المبارك

الطبعة التمهيدية

1443 هـ _2021 م

رب يسر وأعن يا كريم

بسم الله الرحمن الرحيم

(فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو أشد منهم قوة وكانوا بآياتنا يجحدون) [فصلت:15]

(ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين) [هود:52]

الإهداء

إلى روح أبي "صلاح عبد الله" وأمي "زهور حسن"، اسأل الله تعالى أن يجمعنا بهم في الفردوس الأعلى مع النبي محمد صلى الله عليه وسلم، وأن يجعل هذا العمل خالصا صالحا متقبلا.

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على أشرف المرسلين محمد بن عبد الله وعلى آله وصحبه أجمعين.

(الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير) [فاطر:1].

(الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجعل الظلمات والنور ثم الذين كفروا بربهم يعدلون). [الأنعام:1].

(الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا. قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا. ماكثين فيه أبدا). [الكهف:3_1].

(الحمد لله الذي له ما في السماوات وما في الأرض وله الحمد في الآخرة وهو الحكيم الخبير). [سبأ:1].

وبعد:

فقد كانت الفكرة من وراء هذا الكتاب(في تقديري): هي حاجة الفرد المسلم إليه، وهي حاجة تفرضها وتدعو إليها أولا:

الدعوة إلى الله عز وجل الذي بعث فينا رسوله الكريم صلى الله عليه وسلم الذي يقول: "بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ مقعده من النار"[1] وتفرضها ثانيا: المعرفة الكاملة بما يسره الله لنا من قوة وبما نحن فيه من نعمة ومنة كبيرتين، وتفرضها ثالثا: ظروف الضعف الذي يعتري الأمة الإسلامية في مجالات وضروب شتى، وتفرضها رابعا: ضرورة الذب عن الدين، ودفع تخرصات المرجفين، وإلقام الحجر الكافرين وأعداء الدين؛ لأهمية هذه الفروض والحقائق الظاهرة كتبت هذا الكتاب.

وبداية هذا الكتاب كانت مجموعة أفكار متلاحقة في ذهني الواحدة إثر الأخرى، حتى استقر عندي أهمية الطرح الذي أنا بصدده وضرورته، وأول هذه الأفكار المتلاحقة هي قضية انفصال بريطانيا عن الاتحاد الأوروبي، ليس الانفصال والخروج من الاتحاد هو ما شغلني رغم أبعاده وتبعاته ومراميه العديدة، ولكن تكوين الاتحاد الأوروبي بما ينطوي عليه هذا الاتحاد من قوة ضاربة وثقل كبير في المجتمع الدولي هو ما انصرفت إليه، ثم تولد السؤال تلقائيا بعد هذه

النظرة العجلى هل هناك قوة أعظم وأكبر من هذه القوة الضاربة والثقل الكبير، وكان الرد حاضرا على لساني: نعم القوة الإلهية.

ثم تابعت الأفكار عصفها فوجدت مشهدا عظيما للصحابي "المقداد بن عمرو "رضي الله عنه يقول لسيد القادة أجمعين، عليه أفضل الصلوات وأتم التسليم: يا رسول الله امض لما أراك الله فنحن معك، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد، لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

ووجدت مشهدا ثانيا للصحابي "سعد بن معاذ" رضي الله عنه يقول فيه: قد آمنا بك، وصدقناك وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب، صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

والكلمات على قوتها والإيمان المتزايد بها لم تكن فقط ما تتابعت أفكاري المتلاحقة فيها، فهناك مشهد إيماني آخر من مشاهد القوة وهو مشهد الملائكة عليهم السلام، يقول الله تعالى: (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين. وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم. إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام. إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) [الأنفال :9_13].

وليس من دواعي تأليف هذا الكتاب الذي أفسحت له زمنا كبيرا، وواصلت فيه البحث والتنقيب من مراجع شتى، وشددت ما بين أوله وأخره وأوسطه، واستللت فرائده وجواهره، حتى تجمع في يدي مادة لها فائدة عظيمة، فأودعتها دفتي هذا الكتاب؛ هو البحث فقط عن القوة وأسباب زيادتها، وكيف يكون

نقصانها ، والأسباب التي تقود إلى الهزائم والاندثار والفناء، ولا أزعم إني أتيت في كتابي بما لم يأت به الأوائل، أو بلغت الجبال طولا، لا ولكني (على ضعفي) أشير إلى مكامن القوة لدى المسلمين ولأمة الإسلام، ولعل غيري كان أجدر بهذه المهمة وأعلم واحكم، غير أني وطنت العزم عليها، وبريت لها أقلامي، وشحذت فيها ذهني، وجفوت أقراني وأندادي، وأقللت (علم الله) لأجلها منامي، فإن تحقق بعض الذي أصبو إليه فتلك نعمة ومنة يمتنها الله على عباده، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وإن أخفقت وضللت فمن نفسي ومن الشيطان، وعلى الله الثقة والتكلان، وهو المستعان، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

يبقى أن أشير إلى أنني كتبت أصول هذا الكتاب أولا في دراسة صغيرة الحجم باسم (مفهوم القوة والقوة الإلهية) في أواخر عام 2019، وتم نشرها في ذلك الوقت، غير أني وقفت عليها مرة أخرى، وأضفت ونقصت فيها بما يكون نقصانه أفضل وأجدى، وزدت فيها بما تكون زيادته أنفع وأقيم، وضمنت مع هذا في الكتاب مقالات كنت كتبتها في أوقات متفرقة، جاءت مناسبة ومتسقة مع مضمون

الكتاب، فسرتني لما وجدتها، وضممتها إليه، وآلفت بينها وبينه، والله وحده اسأل أن يسهل لي نشره، وأن يقيض لي ترجمانه، بعد أن نكصت بعلتي عن وعودها بالترجمة وهي تسأل الله أن يعينها على نظافة الأواني وكنس الديار، وقد عمدت بعد ذلك بمعونة الله وتوفيقه وفضله، إلى تقسيم الكتاب إلى بابين كبيرين، الباب الأول: (مفهوم القوة) والباب الثاني (القوة الإلهية).

الباب الأول يتضمن أربعة فصول، الأول في مفهوم القوة، ذكرت فيه تعريف القوة في اللغة والاصطلاح السياسي، وعلاقة السياسة الدولية بالقوة لما في تعريف السياسة الدولية من اتصال بمفهوم القوة، وبتعبير آخرا فإن السياسة الدولية تتلاقى مع القوة بمفهومها الشامل، باعتبار وصف السياسة الدولية هي: قدرة أو قوة الوحدات السياسية للتفاعل مع المتغيرات العالمية، أو بوصفها مجموعة البرامج التي تسعي من خلالها الوحدات الدولية إلى التأثير في بعضها البعض الأخر، وفي النسق الدولي عموما.

ولما كانت الدول الضعيفة (فيما هو متصور) تسعى لاكتساب القوة ضد دول أخرى، من الممكن أن تمثل تهديدا مباشرا لها أو غير

مباشر، سواء كان تهديدا سياسيا أو أيدلوجيا عقائديا، أو اقتصاديا أو عسكريا، أو إي نوع أخر من أنواع التهديد عن طريق الارتباط بالتحالف أو التكامل، أو الشراكة أو التعاون أو التكتل بين دولتين أو أكثر، فقد خصصت مساحة في هذا الفصل للحديث عن التكامل وشروطه وتعريفه عند "ارنست هاس" و "اميتاي اتزيوني" و"ليون ليندبرغ" و"كارل دويتش".

وتضمن الفصل الأول أيضا الحديث عن مفهوم الأمن والأمن القومي، إن التصور الحقيقي لمفهوم الأمن بمعناه الشامل المضاد للخوف: هو السياسات التي يتخذها الفرد أو الدولة لتحقيق المقاصد التي تضمن بقاء وسلامة الدولة وأركانها ومقوماتها، وهو بهذا المعنى مضاد شديد التضاد لكل معاني الخوف وعدم الاستقرار والطمأنينة للفرد أو الدولة، سواء كان أمنا قوميا ينتزع كل أسباب الخوف المهدد للدولة وحدودها الجغرافية، أو أمنا إقليميا ينتزع كل أسباب الخوف المهدد للإقليم الجغرافي المحدود، أو أمنا دوليا ينتزع كل أسباب الخوف المهدد للدول والوحدات السياسية، أو أمنا عالميا ينتزع كل أسباب الخوف المهدد

للدول والمنظمات العالمية والشركات العالمية متعددة الجنسيات.

مع ذلك فإن المفهوم يظل ناقصا، مهما أوتي الفرد أو الدولة أو الإقليم من أسباب القوة والمنعة، وذلك لاحتياجهم إلى مفهوم أكبر وأعظم، وهو القوة المطلقة التي لا تتأثر بالمتغيرات المادية أو الزمانية أو المكانية، ومن غير أن تكون معادلة القوة والأمن معادلة صفرية؛ فما تنجزه وتحققه دولة أو مجموعة دول في الأمن والاستقرار تفقده دولا أخرى. هذا المفهوم وهذه القوة العظمى المطلقة التي لا تحدها حدود أو تقيدها قيود، هي قوة الله جل وعز.

الفصل الثاني من الباب الأول خصصته لنظريات القوة، والحديث عن المثالية والواقعية، والجذور التاريخية للفكر الواقعي.

تعتقد المدرسة المثالية أن علاقة الدول بعضها البعض إنما ينبغي أن تكون من منظور الأخلاق، وهذه الأخلاق التي يخضع فيها الجميع للقواعد والقوانين التي وضعت لخدمة الجماعة، هي وحدها الضامن لتحقيق مصالح الدولة وأهدافها المطلوبة، وتعتبر أن مصلحة الفرد الذاتية هي مصلحة الدولة إذا

كانت مصالحه مضبوطة ومقيدة بالأخلاق، كما أن الدولة مصلحتها هي مصلحة الأفراد، إذا فالأخلاق هي التي تحكم الجميع حكاما ومحكومين.

المدرسة الواقعية من ناحية ثانية، والتي تمثل فيها كتابات "هانس مورجانثو" (السياسة بين الأمم) 1948و "كار" (أزمة الأعوام العشرين) 1939و "كينيث والتز" (نظرية السياسة الدولية) 1979من أكثر الكتابات تأثيرا على مدار القرن العشرين، تعتبر أن القوة في معناها المادي والمحسوس تؤسس إلى فهم وتحليل العلاقات الدولية، وترفض وتنكر الأخلاق كمبدأ لتفسير العلاقات الدولية، مثلما يقرر "مكيافيللي" أن الأخلاق هي نتاج القوة، وهو معنى يتفق مع الذئبية التي يصف بها "هوبس" النفس البشرية، وهي نظرة تشطح بعيدا عن المألوف والمتصور والواقع والدين!

لا تعتقد النظرية الواقعية الدفاعية أو "الواقعية الجديدة"، أن الدول مجبولة على العدوان مثل نظرية واقعية الطبيعة البشرية، لكن تعتبر أن الدول تسعى إلى البقاء وحسب.

يعتقد "كينيث والتز" الذي ارتبطت النظرية باسمه في أواخر سبعينات القرن الماضي، أن فوضى النظام الدولي هي ما تكره الدول إلى النزوع إلى التنافس بين الدول على القوة لأن القوة هي أساس البقاء، لا إلى التوسع والسيطرة والعدوانية لكن على أن تتصرف بطريقة دفاعية تحافظ على توازن القوى وتؤمن بقاءها.

ويدعو "والتز" في نظريته الدول العظمى لأن تبتعد عن اكتساب القوة المفرطة، لأن من شأنها (أي القوة المفرطة) أن تفرض على الوحدات الأخرى أن تتحد بصورة أكثر فاعلية لمنازلتها ومقاتلتها، ومحصلة ذلك أن يتركها في أسوأ حال مما لو امتنعت عنها.

الحقيقة أن كلتا النظريتين تصلحا لتفسير الحرب والاقتتال في العالم، فإن مظان نظرية "مورجانثو" واقعية الطبيعة البشرية موجود في جزء من العالم، ومظان نظرية الواقعية الدفاعية موجود في جزء آخر من العالم.

إن النفس البشرية وفقا لنظرية الطبيعة البشرية ليست مجبولة على الشر والعدوانية، ولكن يمكن تسميتها (إذا كانت عدوانية) بالمنحرفة والضالة ويقودها ويقويها

الشيطان، وفوضى النظام العالمي الذي يدعو ويكره الدول وفق نظرية الواقعية الدفاعية إلى القتال والحرب والتصرف بطريقة دفاعية تحافظ على توازن القوى وتؤمن بقاءها، هذه الفوضى أيضا يقودها ويقويها الشيطان.

وفي الفصل الثالث قدمت أنواع القوة الثلاثة الصلبة والناعمة والتحويلية، والمفاهيم المتداخلة مع مفهوم القوة الناعمة، مثل مفهوم " هابرماس" عن القوة الاتصالية ، ومفهوم "كينيث بولدنج" عن القوة التدميرية والقوة الإنتاجية والقوة التكاملية، ومفهوم "بارنت" و"دوفال " عن القوة التكوينية والقوة الإنتاجية، ومفهوم "بورديو " عن القوة الرمزية، ومفهوم "جرامشي " عن قوة الهيمنة، ومفهوم "فوكو" عن القوة التنظيمية، ومفهوم قوة تحديد جدول الأعمال، ومفهوم القوة المعيارية، ثم انصرفت في خاتمة الفصل إلى قياس قوة الدولة، ومقاربة الضوابط المنهاجية لقياس قوة الدولة بالقوة الإلهية.

إن الضوابط التي يتم أخذها في الاعتبار لقياس قوة الدولة وتحديدها على نحو أقرب للدقة والصواب، لا يمكن اعتبارها في نواحي أخرى أو قوى أخرى، فإذا كانت قوة الدولة

تتكون من مواردها البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية والعقائدية، فان القوة العقائدية والتي هي أهم مكون للقوة في الدولة المسلمة، والمحرك الأول للقوى الاقتصادية والعسكرية وغيرها، لا ينطبق عليها أو يتوافق معها القول بنسبية القوة إزاء الهدف، فقوة الهدف أو قوة الخصم ربما تتناسب بنسب غير متساوية وفقا لمعطيات ومخرجات القوة في كل، غير أن هذه القوى بأكملها تكون صفرا كبيرا إذا ما تناسبت مع القوة العقائدية أو القوة الإلهية.

ومما تتميز به قوة الدولة العقائدية أو القوة الإلهية، أو بتعبير آخر قوة الدولة التي تعتمد وتتوكل وتسلم أمرها وقيادها لله القوي، هو ثباتية تلك القوة وديمومتها، فهي ليست مؤقتة أو منقطعة لا بل دائمة ومستمرة في كل الأمكنة والأزمنة. وذلك مما يعلمه الله، قال الله تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني أعلم ما لا تعلمون) [البقرة:30].

وتناول الفصل الرابع والأخير من الباب الأول، توازن القوى والجذور التاريخية

لمفهوم توازن القوى، والسياسات المتبعة فيه وأنواعه والانتقادات الموجهة له.

إن طبيعة الصراع والنزاعات بين الدول يعتبر من الأسباب الموضوعية والعامل الرئيس لزيادة القوة، وتسخير المؤسسات العلمية والبحثية والعسكرية والمعلوماتية لهذا الغرض، وقد تميل الدول إلى إقامة الاتحادات والتكتلات والتحالفات لزيادة القوة، أو تلجأ إلى هذه الفرضيات باعتبارها ذرائع متاحة لسد النقص والضعف الذي يضرب الدولة، وكلا يدعي الوصل بليلى!

يمكن القول دون وجل أن سياسة توازن القوى تعتبر كابحا من كوابح الضرورة التي تقتضيها المعاملات والعلاقات الدولية، للحؤول دون تمكن دولة واحدة بالهيمنة والسيطرة العالمية.

أما الباب الثاني من الكتاب فيتناول (القوة الإلهية) وبه خمسة فصول: الفصل الأول عن الملائكة عليهم السلام، وذكرهم في القرآن الكريم وصفاتهم عليهم السلام، والملائكة خلق كثير لا يعلم عددهم إلا الله قال الله تعالى: (وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا

إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هي إلا ذكرى للبشر) [المدثر: 31].

وأفضل الملائكة هم الذين شهدوا معركة بدر، ففي صحيح البخاري عن رفاعة بن رافع: أن جبريل جاء للنبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما تعدون من شهد بدرا فيكم؟ قلت: خيارنا، قال: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة هم عندنا من خيار الملائكة.

ثم الفصل الثاني في محاولات تفكيك القوة الإسلامية، ودراسة الاستراتيجية الإسرائيلية واستهداف القوة الإسلامية.

إن من أسباب ضعف القوة الإسلامية: الانحراف العقائدي، واعني به المحاولات التي تمت ولا تزال من أجل ضرب الأمة وتفكيكها وإفشالها، والتي تتمثل بصورة واضحة في استهداف الأمة الإسلامية في عقيدتها أولا، وهذه هي البداية الفعلية الناجحة، لا بل مضمونة النجاح لضرب وتفكيك الأمة إلى دويلات وجماعات، تغلب فيها الفوضى والاقتتال والإحتراب بأيديهم لا بأيدي غيرهم، ومن أجل

تلك الغايات الخبيثة؛ ظهرت في الأمة دعوات وأفكار تدعو لنبذ الماضي، ويقصدون به الأصول والجذور الإسلامية، والالتحاق بركب الحضارة والتقدم والعلمانية واللادينية، وتحكيم العقل والتجربة والمادة، والتخلي عن النصوص والمنقول، والتخلي عن فكرة الآخرة والتشبث بفكرة الدنيا، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأباحت تلك الأفكار والدعوات التي يحركها الغرب بأيديهم وأيدي أذنابهم من بنو جلدتنا؛ عبادة المادة والحجر والبقر والفأر، ودعاء غير الله تعالى والاستغاثة بغيره، والتبرك بغيره، والاستعانة بغيره، وتبعهم في ذلك من تبعهم ولو بحيل ملتوية وحجج متهافتة، وهذا أول الأمر في إضعاف القوة الإسلامية.

وأفردت الفصل الثالث للحديث عن غزوة بدر الكبرى؛ التي هي أول مواجهة حقيقية بين قوى الكفر والشرك، وقوى النور والتوحيد.

إن قريشا خرجت لملاقاة المسلمين تدفعها حمية الجاهلية والقبلية، ونصر الأصنام ودين الآباء والأجداد، ونصر السمعة ورئاء الناس والفخر، وكلها نعرات جاهلية تمكنت فيهم

تمكنا كبيرا، شأنها في ذلك شأن كل القبائل العربية، حتى لا تسمع القبائل بضعف أو نقص في قوة قريش المهابة بين القبائل، وشتان وفرق كبير بين من يخرج من أجل سمعته وهيبته وسيادته، وإتباع عادات ونعرات، وبين من يخرج ابتغاء مرضاة الله ورضوانه وإعلاء كلمته، بين من يبتغي سيادة الدولة، ومن يقصد سيادة الدين، بين من يبتغي عرض الدنيا، ومن يبتغي الآخرة.

إن رفض الإسلام والتوحيد، والقبول بالكفر والشرك والإلحاد، والانحراف والعدول عن دعوة الحق وتوحيد الله تعالى، وتحكيم الأهواء والشهوات، والآراء والأصنام، والحمية والعصبية وحمية الجاهلية، هي محركات ودوافع جيش الكفر الذي كان يعتزم اقتلاع دعوة الإسلام، وهي محركات ودوافع منقطعة، لا تحقق نصرا أو تحرز تقدما، أمام محركات ودوافع متصلة بقوة الله والإيمان به.

إن الإيمان بالله الواحد وتقواه، هو أكبر محرك للبشر لتحقيق النصر وإحراز التقدم أمام أي قوة ظلامية منقطعة، تحقيق النصر أو النصر، أو تحقيق النصر والنصر. النصر أو الحسنيين، النصر الأول أو الحسنة الأولى هي الغلبة في الميدان، النصر الثاني أو

الحسنة الثانية هي الفوز بجنة الله. فإما هذا أو هذا، وإما هذا وهذا.

كانت نفسية الجيش المكي قبل المواجهة في بدر في وضعية غير مستقرة وغير مطمئنة، يغلب عليها الاضطراب والتشويش والرعب والفزع: رؤيا "عاتكة بنت عبد المطلب" التي فشت في أندية مكة وتناقلها الناس واحتسبوا أيامها الثلاث، أدخلت الشك والريبة وفتحت الباب للعديد من الاحتمالات والتخرصات، وجعلت "أبو جهل بن هشام" يقول في لهجة محتدة: يا بني عبد المطلب أما رضيتم ان يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم قد زعمت "عاتكة" في رؤياها أنه قال: انفروا في ثلاث، فسنتربص بكم هذه الثلاث فإن يك حقا ما تقول فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء، نكتب عليكم كتابا أنكم اكذب أهل بيت في العرب.

رسالة "ضمضم بن عمرو" وهو يصرخ: الغوث الغوث اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها. وهو واقف على بعيره وقد جدع أنفه، وحول رحله وشق قميصه، كانت بمثابة إنذار وجرس يدقه للموقف المعقد والمجهول

الذي يمضون إليه بالتزامن مع اليوم الثالث للرؤيا.

حديث" عمير بن وهب الجمحي" الذي لا يبعث على الاطمئنان من الوضع والمصير الذي يقبل عليه الجيش، ويدعو على استحياء إلى الرجوع ونبذ فكرة الاشتباك والالتحام: ما وجدت شيئا ولكن قد رأيت يا معشـــر قريش، البلايا تحمل المنايا، نواضـــح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم، فإذا أصـــابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فروا رأيكم؟

إذا أضـــيف إلى كـــل ذلـــك الوقـــائع والمناوشـــات القديمة بين قريش وبني بكر، والدماء التي سفكت بين الجانبين والتي كان آخرها قتل "مكرز بن حفص" ل "عامر بن يزيد بن عامر" ســـيد بني بكر وتعليق ســـيفه على أســـتار الكعبة، إذا أضـــيف ذلك الكر والفر بين الجانبين، الذي ربما تكون الجولة القادمة منه هي هجوم مرتقب من جانب بني بكر انتقاما لمقتل زعيمهم "عامر بن يزيد"، فإن ذلك من شأنه أن يثبط ويقلل من معنويات وهمة الجند، ويزيد الأمر المأزوم تعقيدا.

إن بقاء الدولة واستدامتها هو من بقاء قوتها ومنعتها، فإذا كانت الدولة قوية منيعة فهي باقية وتتمدد، وإن كانت ضعيفة سقطت وتهاوت، والرجال أو الجيش هو الركن الشديد الذي تقوم عليه.

إن الدولة تحتاج إلى رجال وقوة، ولكن رجال أتقياء موحدين يعرفون الله، وإلى قوة ولكنها في حاجة أعظم إلى القوة الإلهية.

الفصل الرابع والخامس من الباب الثاني، أوليت جل اهتمامي فيهما بتفصيل تفسير الآيات التي جاء ذكر مشاركة الملائكة بها في غزوة بدر الكبرى، وهي قول الله تعالى: (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين. ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون. ولله ما في السماوات وما في الأرض يغفر لمن

يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم) [آل عمران :129_123]

وقوله تعالى:

(كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون. يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين. ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون. إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين. وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم. إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام. إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) [الأنفال:13_5].

وجمعت في ذلك التفصيل تفسير "ابن كثير" الدمشقي و"البغوي" و"القرطبي" وتفسير الحافظ "ابن جرير الطبري" عليهم أجمعين رحمات الله تعالى، ونقلت في آخر الكتاب قول شيخ المفسرين "ابن جرير الطبري" :وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: أن الله عز وجل أخبر عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة) فوعدهم ثلاثة آلاف من الملائكة مددا لهم، ثم وعدهم بعد الثلاثة آلاف، خمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتقوا الله، ولا دلالة في الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف ولا بالخمسة آلاف، ولا على أنهم لم يمدوا بهم.

وقد يجوز أن يكون الله عز وجل أمدهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أنه أمدهم، وقد يجوز أن يكون لم يمدهم علي نحو الذي ذكره من أنكر ذلك، ولا خبر عندنا صح من الوجه الذي يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف ولا بالخمسة آلاف، وغير جائز أن يقال في ذلك قولة إلا بخبر تقوم الحجة به ولا خبر به كذلك، فنسلم لأحد الفريقين قوله، غير أن في القرآن دلالة على أنهم أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة، وذلك قوله تبارك وتعالى: (إذ

تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) [الأنفال:9] فأما في يوم أحد فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها في أنهم أمدوا، وذلك أنهم لو أمدوا لم يهزموا وينال منهم ما نيل منهم، فالصواب فيه من القول: أن يقال كما قال تعالى ذكره.

وإني بعد ذلك وقبل ذلك أتوجه لزوجتي العزيزة بالشكر والتقدير، حيث كان انصرافي في تصنيف الكتاب، يأخذ كثيرا من الوقت الذي كان من المفترض أن يكون مخصصا لملاطفة الأطفال ومجالستهم، ورغم أن مجالستي كانت من نصيب الكتاب؛ فإني أعاهدها أن اعدل بينهم إن شاء الله تعالى. وكم يسرني ويحزنني في آن واحد سؤال أبنتي "زهور" ذات الاثني عشر عاما عن كتابي، ومعرفتها حجم انشغالي به آناء الليل وأطراف النهار، يسرني ذلك أيما سرور، لا بل أعتبره دافعا معنويا يهون على مصاعبه ومعضلاته، قساوته وصلابته، إلا أن سؤالها عنه أيضا يحزنني في الوقت الذي يفترض أن اسألها عن دراستها وكتابها، وما تلاقيه فيهما من مصاعب، ولئن كنت أتقلب فيما أنا فيه من الحزن والسرور، فإني

أعاهدها كما عاهدت والدتها بالعدل في مستقبل أيامنا إن شاء الله تعالي.

وأنا والحمد لله وفرت وقتا كبيرا في كتابة هذا الكتاب، وليعذرني من وجدوا مني جفاء وقطيعة ليست بيدي ولا من طبعي، واخص منهم زملائي الذين وجدوني مقلا في الكلام وتجاذب أطراف الحديث في الشؤون الخاصة والعامة، أو وجدوني ساهما ومفكرا، ليعذروني ولتعذرني أيضا أسرتي: زوجتي وابني " محمد " وبناتي، فقد فرطت كثيرا فيما ينبغي أن أكون فيه، ولكنه كان متعذرا وصعبا إذا علموا أو تصوروا أن أمامي جبل باسق كلفت بنقله من مكانه إلى مكان أخر بعيد، وكنت كلما أوغل فيه تلاقيني صلابة وقساوة ما رأيتها من قبل، ولا طاقة لي بها، إلا أنني أسلمت أمري لله الباري واستعنت به أن ييسر لي أمري، ويحلل عقدة من لساني، وتيقنت أن ما أخطه لا أخطه بقلمي وبناني إن لم يأذن الله لي في ذلك وييسره، وقد تركت بعد ذلك إطالة الكتاب فيما لا فائدة فيه، ويحضرني في ذلك قول العماد الأصفهاني :إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتابا في يومه إلا قال في غده : لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو

ترك هذا لكان أجمل، وهذا من أعظم العبر، وهو دليل استيلاء النقص على جملة البشر.

وكنت وأيم الله كلما فرغت من الكتاب، ووضعت النقطة الأخيرة فيه، أعود إليه فاذا هو في نظري ناقص يستحق الزيادة فأضيف فيه وانقص، واكتب وامسح، وهذا الكر والفر هو دليل استيلاء النقص على جملة البشر.

وأنا بعد ذلك اسأل الله العلى القدير، أن يجد من يطالع كتابي هذا، فيه شيئا مفيدا ومساهمة نافعة، فإذا وجدت ذلك فهو من أعظم وأحمد المقاصد وارفعها، ويكفيني إلى يوم تكفيني، وأدعوه بعد ذلك الدعوات الصالحات بظهر الغيب، فقد امتلأت صحيفتي بالذنوب والخطايا، والله وحده المسئول بالمغفرة قبل أن تدركنا المنايا، وأخيرا فإن نجحت فيما أردت تبيانه فنعمة منها الله على وفضل، والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات، وإن قصرت وأخفقت فمن نفسي ومن الشيطان، ولا حول ولا قوة إلا بالله تعالى.

أبو محمد التجاني صلاح عبد الله المبارك

الخرطوم شتاء 2021 م

الباب الأول

مفهوم القوة

الفصل الأول

تعريف القوة

أولا: تعريف القوة في اللغة

قال "ابن منظور "في (لسان العرب): القوة من تأليف" ق و ى " ولكنها حملت على فعلة فأدغمت الياء في الواو كراهية تغير الضمة.. ابن سيده: القوة نقيض الضعف والجمع قوى وقوى، وقوله عز وجل: (يا يحي خذ الكتاب بقوة) أي بجد وعون من الله تعالى..وقد قوي فهو قوى وتقوى واقتوى كذلك، قال رؤبة:

وقوة الله بها اقتوينا

وقواه هو التهذيب وقد قوي الرجل والضعيف يقوى قوة فهو قوي وقويته أنا تقوية وقاويته فقويته أي غلبته.2

وقال "أبو علي القالي البغدادي" في (البارع في اللغة): القوة من تأليف قاف وواو وياء ولكنها حملت على فعلة فأدغمت الياء في الواو كراهية تغيير الضمة. والفعالة منها قواية يقال ذلك في الحزم ولا يقال في البدن قال عمرو بن براقة:

ومال بأعناق الكرى غالباته

فإني على أمر القواية حازم

متى تجمع القلب الذكي وصارما

وأنفا حميا تجتنبك المظالم

جعل مصدر القوى على فعالة. وقد تتكلف الشعراء ذلك في النعت اللازم، والقوة طاق من أطواق الحبل، والجميع القوى. وجاء الحديث :(يذهب الدين سنة سنة كما يذهب الحبل قوة قوة) وقال الشاعر:

لا يصل الحبل بالصفاء ولا يؤوده قوة إذا انجذما

ورجل شديد القوى، أي شديد أسر الخلق ممره.3

وتعريف القوة في (المعجم الوسيط):

أقوى الرجل: افتقر.. وقاويت فلانا: غالبته في القوة، فقويته: غلبته. قوى الرجل أو الشيء: أبدله مكان الضعف قوة. اقتوى: كان ذا قوة أو جادت قوته..تقوى: كان ذا قوة..القوة: ضد الضعف..الجمع قوى وقوات ويقال: رجل شديد القوى: شديد اسر الخلق.. (القوى) من أسماء الله تعالى.4

وفي (تاج العروس) للزبيدي: القوة بالضم: ضد الضعف يكون في البدن وفي العقل قال الليث: هو من تأليف: "ق و ي" ولكنها حملت على فعلة فأدغمت الياء في الواو كراهية تغير الضمة، الجمع: قوي بالضم والكسر، وقوله تعالى: (يا يحي خذ الكتاب بقوة) أي: بجد وعون من الله تعالى.. وقوي الضعيف (كرضي) قوة فهو قوي والجمع: أقوياء، وتقوى مثله كما في الصحاح، واقتوى كذلك. قال رؤبة:

وقوة الله بها اقتوينا

وقيل: اقتوى: جادت قوته، وقواه الله تعالى تقوية.. وأقوى: إذا استغنى وأيضا إذا افتقر كلاهما عن ابن الإعرابي، فالأول بمعنى: صار ذا قوة وغنى، والثاني بمعنى زالت قوته. 5

وفي (المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته): قوة مصدر فعلة

1_منعة وشدة وبطش (من أشد منا قوة) [فصلت: 15] القوة_البطش.

2_أنصار وأعوان (نحن أولو قوة) [النمل: 33] الأنصار.

3_جد واجتهاد (خذوا ما آتيناكم بقوة) [البقرة: 63] الاجتهاد.

4_ سلاح (واعدوا لهم ما استطعتم من قوة) [الأنفال :60] السلاح.

5_قدرة وطاقة (لو أن لي بكم قوة) [هود : 80] القدرة.6

وجمع" محمد بن أبي بكر بن القادر الرازي" في (مختار الصحاح) :(القوة) ضد الضعف، والقوة الطاقة من الحبل وجمعها (قوى) ورجل شديد (القوى) أي شديد أسر الخلق و (أقوى) الرجل إذا كانت دابته (قوية).. و(قوي) الضعيف بالكسر (قوة) فهو (قوي) و (تقوى) مثله و(قاواه فقواه) أي غلبه.7

القوة في المعنى اللغوي هي الحالة المضادة والمناقضة لمعاني الضعف والوهن، وكلمة القوة إذا أضيفت لغيرها من الكلمات، فإنها تعطي معان مختلفة؛ مثل كلمة الرأي فهي لا يفهم منها إلا معنى الرأي المجرد، وهو إبداء وإظهار فهم معين في قضية معينة، أما (قوة الرأي) و(رأي قوي) فيفهم منها الرأي بمعناه المتبادر إلى الذهن، ولكن مضافا إليه معنى جديد هو الرأي النافذ، أو السديد، أو الصائب الذي تقوم من خلفه براهين وأدلة وحجج، وعلى ذلك يختلف الصمت

والكلام والضرب، عن قوة الصمت وقوة الكلام وقوة الضرب.

النفس السوية تنزع إلى معاني القوة والشدة، وتأنف من معاني الضعف والهزال، والقوة إذا كانت في شيء زانته وزادته، وما نزعت من شيء إلا نقصت منه بمقدار ما كانت تضيفه أو أكثر، وقد جعل الله تعالى القوة في خلقه بمقدار ما تتناسب القوة إليه، فالرجل اشد وأقوى من المرأة وفقا لطبيعة كليهما، والأدوار التي يقومان ويضطلعان بها، والرجل في شبابه ويفاعته، أقوى واشد من كهولته ومشيبه.

وكان شعراء الجاهلية يفخرون بالقوة والإقدام، قال عمرو بن كلثوم:

ألا لا يعلم الأقوام أنا قد تضعضعنا وأنا قد ونينا

ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهل فوق جهل الجاهلينا

وقال عنترة بن شداد:

يخبرك من شهد الوقيعة أنني أغشى الوغى وأعف عند المغنم

وغير ذلك كثير من أشعار الجاهليين إن نحن تتبعناه.

وكلمة القوة واشتقاقاتها المتعددة مثل (القوي)، و(قوة) و(قوتكم)، و(قوي)، و(قويا)وردت في آيات عديدة من أي التنزيل، قال الله تعالى: (قالت إحداهما يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوي الأمين) [القصص: 26]، (فأما عاد فاستكبروا في الأرض بغير الحق وقالوا من أشد منا قوة أولم يروا أن الله الذي خلقهم هو اشد منهم قوة وكانوا بآيتنا يجحدون) [فصلت: 15].

وقال تعالى: (يا يحي خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا) [مريم: 12]، (ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين) [هود: 52]، (قالوا نحن أولو قوة وأولو بأس شديد والأمر إليك فانظري ماذا تأمرين) [النمل: 33]، (قال ما مكني فيه ربي خير فأعينوني بقوة اجعل بينكم وبينهم ردما) [الكهف: 95]، (وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم) [محمد: 13]، (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين كانوا من قبلهم كانوا هم أشد منهم قوة وآثارا في الأرض فأخذهم الله بذنوبهم وما كان لهم من دون الله من واق) [غافر: 21].

و (القوي)من أسماء الله تعالي، قال الله جل شأنه: (فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزى يومئذ إن ربك هو القوي العزيز) [هود:66]، (كتب الله لأغلبن أنا ورسلي إن الله قوي عزيز) [المجادلة: 21].

ثانيا: تعريف القوة في الاصطلاح السياسي

رغم الصعوبة في تعريف القوة في الاصطلاح السياسي؛ حيث أن الصعوبة والقساوة تكمن في أنها من المصطلحات والمعاني الجامعة، مما يجعل حصرها في أسطر قليلة أمرا شاقا، ذكر "كارل دويتش" أن تعريف القوة في ابسط معانيها: هي القدرة على السيطرة في صراع ما والتغلب على العوائق، وفي هذا المعني طرح "لينين" قبل الثورة الروسية على زملائه مشكلة أساسية في السياسة، وهو السؤال المكون من كلمتين" من؟ ومن؟" بمعني من سيكون سيد العمليات والأحداث؟ ومن سيكون ضحيتها 8.

ويعتبر "جوزيف ناي" في تعريف آخر أن القوة هي المقدرة على التأثير في الآخرين، وان تحصل على النتائج التي تريدها، وثمة

طرق ثلاثة لإنجاز هذا: بالإكراه (العصا)، بالمال (الجزرة)، وبالجذب والإقناع. العصا والجزرة صورة من صور القوة الصلبة، أما الجذب والإقناع فتسمي القوة الناعمة.9

أما "جون ميرشايمر" فإنه يعرف القوة بأنها: قدرات مادية محددة تملكها الدولة، وتمثل أصولا ملموسة تحدد قدرتها العسكرية بالأساس.10

ويعتمد "جون ميرشايمر" في تعريفه هذا للقوة، على التمييز بين القوة الكامنة والقوة الفعلية، فالقوة الكامنة تعتمد عنده بشكل رئيس على السكان، وعدد ثروات الدولة، وهما الركيزتين الأساسيتين للقوة العسكرية، أما القوة الفعلية فهي تتمثل في الجيش الذي يمثل القوة العسكرية، وقياسا على ذلك فان اليابان مثلا لا تعتبر من القوي العظمى رغم ما تمتلكه من ثروات ضخمة واقتصاد قوي؛ لأن جيشها قليل العدد، وهو ما يجعل من قوتها الفعلية قوة ناقصة.

"كينيث والتز" يعرف القوة بالتركيز على القدرات الممثلة في حجم السكان والإقليم وتوافر الموارد، والقدرة الاقتصادية والقوة العسكرية، واستقرار النظام السياسي وكفاءته. أما "هانس مورجانثو" فيعرفها

بأنها: القدرة على التحكم في أفكار وأفعال الآخرين.

وانتظر فثم مزيد، "روبرت دال" يعتقد في تعريفه للقوة: أن الدولة (أ) تمتلك قوة على الدولة (ب) بقدر ما تستطيع (أ) أن تجبر (ب) على فعل شيء، ما كانت الدولة (ب) لتفعله لولا ذلك. وهو يستند في تعريفه هذا على تعريف "فيبر" للقوة وهو: احتمال قيام شخص ما في علاقات اجتماعية بتنفيذ رغباته رغم مقاومة الآخرين، بغض النظر عن الأساس الذي يقوم عليه ذلك الاحتمال. ويدفع "غيلبن" وهو من الواقعيين الجدد بان القوة: هي عنصر فاعل قادر على فرض إرادته على الرغم من المقاومة. ويعترف بان أي نفوذ أو سلطة، يعتمد في النهاية على التدابير التقليدية للقوة سواء كانت قوة عسكرية أو اقتصادية.

مع ذلك يمكن القول إن القوة تعرف بالمقدرة التي لولا وجودها ما استطاع الكائن إنجاز شيء، وهي بذلك تحمل المعني المغاير تماما لمفهوم ومعني الضعف والوهن، أو هي الحالة التي إن تواجدت في الكائن، غيرت من خصائصه الطبيعية وميزته عن غيره بإضافات تجعله في وضع وحالة أفضل مما كان عليه، سواء كان ذلك الكائن أفرادا أو دولة،

فما ينطبق على الفرد ينطبق علي الدولة باعتبارها كائن وشخصية تحمل مقومات وذات.

إضافة لذلك، فان تعريف مصطلح القوة يقبل القول أيضا أنها استطاعة الأفراد أو الجماعات أو الدول في امتلاك الوسائل المحسوسة وغير المحسوسة، التي تتيح التمكن من الآخرين وهزيمتهم، وهي تجسيد لمعني السيادة، عليه فان الدولة ذات السيادة هي قطعا دولة قوية في بنيتها ومكوناتها وأركانها، ويصح المعني إذا كان القول إن كل دولة ليس لها سيادة هي دولة مهزومة ضعيفة؛ هذا إذا صح وصفها دولة أصلا! لأن السيادة تعتبر ركنا شديدا من أركان الدولة.

إن مطلب القوة وزيادة القوة هو من الضروريات التي تحتاجها الدول، لحماية رقعتها وحفظ حدودها أكثر من أي مطلب آخر، لان بها تقوم الدولة، ويحفظ الأمن، في هذا المعني كان "موسوليني" (رغم دمويته وفظاعته) يقول: إن إيطاليا لا تفتقد لبرامج ولكن لرجال وقوة.11

مع هذا فإن الدولة إذا كانت تسعى إلي زيادة قوتها، وبسط أمنها وسيطرتها، فإنه ليس معيارا ومقياسا للعدوانية، أو سوء

النوايا، لأن زيادة واكتساب القوة هو حق طبيعي وبديهي، فضلا عن أهميته المتناهية لحماية الحدود والدفاع عن البيضة، مع ذلك فان زيادة قوة الدولة هو من العوامل الهامة، إن لم يكن أهمها على الإطلاق في نفاذ السيادة على الداخل وربما على الخارج بقدر اقل إن لم يكن مساويا له، وبالعكس فان نقصان قوة الدولة لا يؤدي إلى فقدان سيادتها على الداخل والخارج فحسب، بل هي دولة مهزومة عند أول هيعة للحرب.

في ذات المفهوم يذهب "جيمس دورتي" و"روبرت بالتسغراف" في (النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية) إلى أن زيادة القوة قد لا تعني لرغبة في فرض ضغوط علي الطرف الأخر، بمقدار ما يكون مدفوعا بنوازع ودوافع ذات طبيعة سيكولوجية أو اقتصادية أو اجتماعية أو ثقافية، كما أن سعى الدول لتحقيق مثل هذه الأحداث غير السياسية، يفرض بدوره قيودا علي استخدام القوة السياسية خارج حدود الدول القومية، وبعض الدول تستخدم الجزء الأكبر من قوتها للتنمية الذاتية وتحسين مستوي الحياة الثقافية والاجتماعية داخلها، وثمة دول أخري تركز علي القوة من ناحية مختلفة، حيث تسعي

لتحقيق أمنها من خلال عدم التورط، أو العزلة أو الوقوف على الحياد أو الاسترضاء، أو القبول بالدوران في فلك قوة أعظم وحسب.12

وهذا السلوك يبدو مألوفا وطبيعيا في بعض الدول تبعا للاستراتيجيات التي تتبعها، وسأفصل الحديث عن بعض ذلك إن شاء الله تعالى، في فصل مخصص عن توازن القوى والنظريات التي تزدحم به، ما يهمنا الآن بعد أن تطرقنا لتعريف القوة في الاصطلاح هو علاقتها بالسياسة الدولية.

السياسة الدولية والقوة والتكامل

يرتبط تعريف السياسة الدولية في بعض وجوهه بالقوة، باعتبار وصف السياسة الدولية هي قدرة أو قوة الوحدات السياسية للتفاعل مع المتغيرات العالمية، أو بوصفها مجموعة البرامج كما يحدد " محمد السيد سليم " في كتاب (تطور السياسة الدولية في القرنين التاسع والعشرين) التي تسعي من خلالها الوحدات الدولية إلي التأثير في بعضها البعض الأخر، وفي النسق الدولي عموما، بشكل يؤدي إلي خلق مناخ ملائم لتحقيق أهدافها، وبوصفها ذات طبيعة تفاعلية لأنها تختلف عن السياسة الخارجية التي تتميز بأنها أنشطة وحدة دولية واحدة في النسق

الدولي تجاه الوحدات الأخرى، وبوصفها عملية هدفية واعية تتميز عن العلاقات الدولية، لأنها ترتبط بسعي الوحدات الدولية لتحقيق أهدافها .13

والسياسة الدولية بهذا الاعتبار وبهذا الوصف من التوافق والتجانس مع المحيط العالمي بمتغيراته ومكوناته، تعتمد على القوة بمفهومها الشامل، حيث أن القوة هي القدرة التي تسيطر وتتغلب بها الدولة علي الخوف المهدد لمصالحها وتنميتها وأركانها ومقوماتها وبقاءها، وهي من ثم ركن رئيس في مقومات الدولة للتفاعل والتوافق مع المجتمع الدولي.

ووفقا لمقومات القوة الكامنة أو الفعلية التي تملكها الوحدات السياسية، وبحسب الوضع الذي ربما تسعي إليه لاكتساب القوة، فإنها تصنف إلى وحدات أو دول قوية فاعلة، ودول ضعيفة.

الدول الضعيفة (فيما هو متصور) تسعي لاكتساب القوة ضد دول أخرى من الممكن أن تمثل تهديدا مباشرا لها أو غير مباشر، سواء كان تهديدا سياسيا أو أيدلوجيا عقائديا، أو اقتصاديا أو عسكريا أو إي نوع أخر من أنواع التهديد، عن طريق الارتباط

بالتحالف أو التكامل، أو الشراكة أو التعاون أو التكتل بين دولتين أو أكثر، وما يجمع بين هذه المصطلحات على تعددها وكثرتها، هو التعاون الذي يتم بينهم لتحقيق أهداف ومصالح مشتركة.

إن ارتباط إسرائيل بالولايات المتحدة مثلا، يعتبر حلفا وارتباطا؛ تستخدمه إسرائيل لتضمن البقاء، ولتدرءا عن نفسها الذعر من التهديد الأيدلوجي العقائدي الذي يمثله المسلمون في أنحاء العالم، هذا التهديد الذي يمثله المسلمون يكمن في القوة التي تمتلكها الدولة الإسلامية.

في عام 1999 قال "جون ماكين" بكلمات لا تقبل التأويل: لقد اخترنا كأمة أن نتدخل عسكريا في الخارج، للدفاع عن القيم الأخلاقية التي تقع في مركز ضميرنا الوطني، حتى وان لم يكن لهذا التدخل أية أهمية في المصالح القومية الأمريكية، إنني أشير إلى هذه النقطة لأنها تقع في صميم موقف الولايات المتحدة من إسرائيل، إن بقاء إسرائيل هو أحد اهم الالتزامات الأخلاقية المهمة التي تقع على عاتق الولايات المتحدة.14

وأفصح "ماكين" بذلك عن الارتباط الذي يجمع بين الاثنين.

التحالفات الدولية باعتبارها نوع من أنواع التعاون بين الدول تختلف عن التكامل، فالأحلاف هي علاقات تعاقدية تقوم بين دولتين أو أكثر، بموجب اتفاقية تحدد واجبات وحقوق الطرفين (أو الأطراف) المتعاقدين إزاء بعضهما فيما يتعلق بالأمن القومي للأطراف المتعاقدة، وبموجبها تتعهد تلك الأطراف بمساعدة بعضها واتخاذ ما يلزم من التدابير المعينة لحماية أعضائها من قوة أخرى معينة، تبدو مهددة لأمن كل من هؤلاء الأعضاء في المستقبل.

التحالف يكون مؤقتا وينشأ دائما في أوقات الحرب حيث تتولد مصلحة مشتركة بين دولتين أو مجموعة من الدول تدفعها إلى التحالف، تحديدا في حالة حصول تغيير مفاجئ في الوضع العسكري ، أما التكامل فهو في الاتجاه العام الحالة التي يتوافق فيها طرفان أو أكثر علي أهداف معينة ومشتركة، أو شكل من أشكال التعاون أو التنسيق وما كان للطرفين أو الأطراف اكتساب هذه الأهداف ونيلها، ما لم تقدم الأطراف تنازلات كبيرة في بعض الجوانب دون الانتقاص من سيادتها، وهو تعريف متسع ربما يجعل من كل العلاقات ذات الطابع التعاوني أشبه بعلاقات تكاملية

مما يجعل من التكامل مفهوما فارغا لا معنى له.

وضع بعض الباحثين مثل "ارنست هاس" و"اميتاي اتزيوني" و"ليون ليند برغ" و"كارل دويتش" تعريفات للتكامل في الاتجاه الثاني لتعريف معنى التكامل بعبارات مختلفة، إلا أنها متقاربة في المعني، سأتعرض لأجزاء منها وأطيل الحديث قليلا عن التكامل والاندماج لأنه من مظان القوة.

تعريف التكامل: "ارنست هاس"

الباحث الأمريكي "أرنست هاس" عرف التكامل بأنه: العملية التي بمقتضاها يقوم عدد من الفاعلين السياسيين في عدد من الدول، بتغيير ولائهم وأنشطتهم السياسية نحو مركز جديد تكون لمؤسساته صلاحيات الدول القومية القائمة.

ويستقر "جيمس دورتي" و "روبرت بالتسغراف" على أن "هاس" يذهب إلى حد جعل عملية التكامل مرتبطة بربط النظام الدولي المقترح بالمستقبل، لأن "هاس" يقول: إذا فهمنا الوضع الحالي على انه سلسلة من التفاعلات والتمازجات بين عدد من البيئات الوطنية من خلال المشاركة في المنظمات الدولية، فان على التكامل أن يحدد العملية

التي يتم من خلالها زيادة هذا التفاعل، بهدف المساعدة على تلاشي الحدود بين المنظمات الدولية والبيئات الوطنية.15

تعريف التكامل: "اميتاي اتزيوني"

أما "اميتاي اتزيوني" فقد عرف التكامل بأنه: قدرة الوحدة أو النظام لتحقيق ذاته، ويعتبر المجتمع مجتمعا متكاملا إذا كان هذا المجتمع يمتلك سيطرة فعالة في استخدام أدوات العنف أو الإكراه، بحيث يكون داخل هذا المجتمع المتكامل مركز لصنع واتخاذ القرار.

تعريف التكامل: "ليون ليندبرغ"

واستنادا إلى تعريف "هاس "للتكامل عرف "ليون ليندبرغ" في دراسة له عن السوق الأوروبية المشتركة التكامل بأنه: العملية التي تجد الدول نفسها راغبة أو عاجزة عن إدارة شؤونها الخارجية أو الداخلية الرئيسية باستقلالية عن بعضها البعض، وتسعي بدلا من ذلك لاتخاذ قرارات مشتركة في هذه الشؤون، أو تفوض أمرها فيها لمؤسسة جديدة، أو هي العملية التي تقتنع من خلالها مجموعة من المجتمعات السياسية بتحويل نشاطاتها السياسية إلى مركز جديد.16

تعريف التكامل: "كارل دويتش"

يعتبر "كارل دويتش" في كتاب (تحليل العلاقات الدولية) أن التكامل هو: علاقة بين وحدات بينها اعتماد متبادل وتنتج معا خواص للنظام تفتقر إليها في حالة وجودها منفصلة، والتكامل السياسي يقصد به تكامل بين الأطراف السياسية أو الوحدات السياسية كالأفراد أو الجماعات أو البلديات أو الأقاليم أو الدول، فيما يتعلق بسلوكها السياسي؛ ففي مجال السياسة حقيقة التكامل هي العلاقة التي يتعدل في إطارها سلوك هذه الأطراف أو الوحدات أو المكونات السياسية، عما كان سيؤول إليه في حالة عدم تكامل هذه المكونات.

ويعتقد "دويتش": أن التكامل أو أن يتكامل الشيء يعني بوجه عام أن يجعل الأجزاء كلا واحدا، أي أن يحول وحدات كانت سابقا منفصلة إلى مكونات لنظام أو جهاز متناسق، والخاصية الأساسية لأي نظام تتمثل في وجود درجة معينة من الاعتماد المتبادل بين مكوناته، والاعتماد المتبادل بين أي مركبين أو وحدتين يكمن في احتمال انه إذا حدث تغير في أحدهما (أو اجري تعديل جوهري

في جهاز أحدهما) فانه يحدث تغييرا يمكن التنبؤ به في الأخر.17

الفرق في معنى التكامل عند "دويتش" ومعناه عند " هاس"، هو أن الأول كما يجادل "جيمس دورتي" و"روبرت بالتسغراف"؛ يعتقد بسلمية التسويات بين الوحدات، لأنه يعتبر أن التكامل السياسي هو الواقع أو الحالة التي تمتلك فيها جماعة معينة تعيش في منطقة معينة شعورا كافيا بالجماعية، وتماثلا في مؤسساتها الاجتماعية وسلوكها الاجتماعي، إلى درجة تتمكن فيها هذه الجماعة من التطور بشكل سلمي، بمعني أن التكامل عند "دويتش" هو حالة يحل فيها الأفراد داخل المجتمع الواحد خلافاتهم بطرق سلمية بدلا من اللجوء للعنف، في حين أن " هاس" يركز بدلا من سلمية التسويات بين الوحدات علي تحويل الولاءات نحو مركز جديد.18

يمكن القول دون وجل، أن التكامل هو حالة نفسية توافقية بين عدد من الأطراف، وهذه الحالة تستدعي تقديم وتفضيل "الآخر" على "الأنا" وفقا للمتغيرات المادية والمعنوية المتواجدة لدى كل الأطراف، وتستدعي أيضا أن تكمل الأطراف المتكاملة النقائص المتواجدة بها في حالات التكامل، غير أن هذه النقائص

والفجوات لا تعتبر داعيا للتكامل إذا كان في مقدور الطرف الواحد معالجتها معتمدا على إمكانياته وذاته.

إن الصورة المتوقعة والمفترضة في الحالة النفسية التوافقية، أو التكامل بين الدولتين أو مجموعة الدول، هي زيادة النفوذ والحضور والسيادة كجسم واحد أو ليفاثان أكبر (إذا استعرنا تشبيه "هوبس" للدولة بالليفاثان أو التنين) متسق الرؤى والأفكار والآليات، وهو مما يزيد من قوتها ومهابتها، والأصل أن الدولة الفاعلة القوية لها من النفوذ والسلطان أمام الأخر ما ليس للدولة الضعيفة، وأن القوة هي المكون الرئيس لزيادة النفوذ والسيادة، ووفقا لذلك؛ فإن الدول المتكاملة يزداد نفوذها وسلطانها بتراكم القوة المكونة لكل طرف من أطراف التكامل، وبديهي أن تعمل الدول المتكاملة علي الحفاظ علي هذه القوة المكتسبة، وتزيد من مدي التكامل بالعقاب الرادع أو الثواب الماتع لكل أعضائها.

يقارن "دويتش" التكامل السياسي بالقوة فيما يتعلق بمداها، فيعتبر انه بالإمكان اعتبار مدي التكامل هنا على انه يتكون من مدي الثواب والعقاب (الحرمان)للوحدات

السياسية المكونة لها، والذي يمكن علي أساسه المحافظة على علاقة التكامل فيما بينها.19

الباحثون في التكامل يعتقدون أن السلوك التكاملي (الرغبة لدي الأفراد في التكامل) يعود إلى تماثل في التوقعات، سواء الثواب (كالحصول على مكاسب) أو العقاب (رد خطر معين) والملاحظ أن هذه التوقعات تتطور بشكل أساسي بين أفراد النخبة داخل المجتمع سواء في القطاع العام أو القطاع الخاص، ونجاح عملية التكامل يعتمد بشكل أساسي على قدرة النخبة في تذويت (internalize) عملية التكامل (أي تجعلها هما لها) وتحدد الاتجاه الذي سيسير فيه التكامل.20

وإذا كان التكامل على ما قد ذكرنا، فإن حالات التكامل يمكن اعتبارها جزء متقدم من عملية نمو وتطور الدولة، إذا اعتبرنا أن بحث واجتهاد النخب والأفراد عن الوسائل والسبل التي تساعد في بناء الدولة وثباتها وبقاءها وأمنها هو نموا فكريا (النمو الذي يبدأ بالدولة الواحدة القوية، ثم الدولتين المتكاملتين، ثم المجموعة الكبيرة من الدول المتكاملة) بتحديد آخر فإن التكامل

والاندماج يعتبر الحلقة الأخيرة من تطور ونمو الدول.

ويفضل "يفجيني بريماكوف" الذي كتب كتاب (العالم بعد 11 سبتمبر وغزو العراق) في ذلك وصف التكامل بأنه: عملية إقليمية مستقلة لها منطق التطور الخاص بها، علما انه قد لا يتطابق أحيانا مع العولمة بل حتى يتناقض معها موضوعيا.21

إلا أن "كارل دويتش" يرفض وصف التكامل بأنه جزء من عملية النمو (أو منطق التطور الخاص) ويتحدث عن المجتمعات المتكاملة التي تتكون وتتجمع عبر التاريخ كما لو كانت قطعا من الصفيح، وليست مجتمعات بها نخب وبشر، ويفضل وصف التكامل بصفة التجميع، يقول:

إن مجتمعات الأمن المندمجة كالدول القومية أو الاتحادات الفيدرالية ليست كالأجهزة العضوية، فهي لا تخرج إلى حيز الوجود عن طريق عملية نمو خلال تعاقب ثابت للمراحل، كما هو الحال بالنسبة لمراحل تطور أبي ذنيبه إلى ضفدع، أو نمو القط الرضيع إلى قط كبير، وإنما التكامل يشبه على الأصح عملية صف التجميع، فالمجتمعات المتكاملة تتجمع في جميع مظاهرها وعناصرها

الأساسية عبر التاريخ كما تتم عملية تجميع السيارة.22

وفي القضايا السياسية العالمية، يبدو المجتمع المتكامل أقوى تأثيرا وأوسع حضورا وأسمع كلمة، مما لو كان في غير ما عليه من اتحاد في الفكر والرؤى، واتحاد الخبرات المتراكمة والممارسات المتعددة، وتراكم وتوافر القوة الاقتصادية والعسكرية، فهو بذلك التراكم والتوافر والاتحاد يمثل حضورا قويا وفاعلا أكثر من غيره، وهي ميزة أكسبها له الاتحاد والاندماج؛ مع هذا فإن المحافظة على هذا الوضع يعتبر أولوية قصوى للدول المتكاملة، وتفرضها عليها أيضا المتغيرات والاضطرابات السياسية العالمية.

ولاكتساب نتائج جيدة من الاتحاد أو التكامل أو الاندماج الذي يعرف بأنه: العملية التي تقدر الدولة فيها حجم الإيجابيات والمصالح والفوائد المتوقعة، التي ربما تكون أكثر بكثير من السلبيات مما لو لم تتشارك فيه، وهو ما يترتب عليه أن تقدم الدولة مبدا التنازل في كثير من القضايا المشتركة، أو هو العملية التي تنظم فيها الدول سيادتها من خلال التنازل عن بعض السلطات الفردية؛ بغية الحصول علي

مزايا سياسية واقتصادية مجتمعية في المقابل23، لاكتساب نتائج جيدة فانه ينبغي على الدولة أن تلتزم بشروط عدة منها تقديم تنازلات واسعة، خاصة في القضايا الخلافية المشتركة بينها وبين الأعضاء الآخرين في المنظومة بما لا يعني التفريط ، وان لا تتعجل الإيجابيات المتوقعة من التكامل، وقبل ذلك أن تتوفر الرغبة الأكيدة لدي كل الأطراف في تكوينه وإنشائه ، بهذه المفاهيم يتطور الاتحاد وبغيرها يتدهور لا محالة.

إن الاتحاد بين الدولتين أو مجموعة الدول، يفقد معناه إذا لم يتحقق المعنى الكامل لما يعنيه الاتحاد من وفاق والتحام، يقول "هارولد ج.لاسكي" في (الدولة نظريا وعمليا): أن اتحاد الدولة في التاريخ إنما يتدهور دائما عندما يكون بعيدا كل البعد عن مفهوم كلمة الاتحاد، وتفتر حرارة الولاء الذي يفرضه الاتحاد لتحقيق أهدافه على أساس أن هذه الأهداف لم تتحقق بعد، وان وجه الشبه بين الدولة النظرية والدولة العملية يكاد يكون وقتيا، حتى أن أولئك الذين يتأثرون بما تؤديه من أعمال لا يستطيعون الاعتراف بصحتها.24

نظريات التكامل الدولي والإقليمي

1_نظرية الوظيفية

النظرية الوظيفية هي مفهوم يشير إلى نظرية كبرى في علم الاجتماع وتم بعد ذلك تطبيقها في علوم أخرى مثل علوم السياسة وعلوم الاتصال وعلم النفس وغيرها من العلوم الإنسانية، وهي تعنى بدراسة الظواهر الاجتماعية من خلال تحليل وظائفها، أو دراسة المجتمع من خلال تحليل وظائف أنظمته النسقية.

يرى "ديفيد ميتراني" أن التركيز على قضايا ومجالات التعاون في المجالات الاقتصادية المنفعية بين الدول، من شأنه إقامة مجتمع دولي خال من النزاعات والحروب، وانطلق "ميتراني" في نظريته من مسلمات مثالية ومتفائلة حول إمكانية تكوين وتحسين المجتمعات، إذا اعتمدت وسائل عقلانية ومنفعية لذلك، وعارض الاندماج الإقليمي لأنه يؤدي إلى إعطاء مزيد من القوة للبنية التنظيمية الجديدة (الإقليمية) وبالتالي القدرة لاستعمال تلك القوة، وهو ما يقود إلى تحول النزاعات من مستوى الدول إلى مستوى التجمعات الإقليمية.

2_العمل الوطني المتماثل

تعتمد نظرية العمل الوطني المتماثل على توسيع قاعدة العمل التكاملي الاندماجي، في وجود شبكة من المنظمات الإقليمية المتخصصة، تربط بين القطاعات السياسية والوظيفية المختلفة في الدول الأعضاء، مع إبقاء مجالات السياسة العليا من شؤون الأمن القومي والتحالف العسكري والاستراتيجي خارج عملية التكامل، وتعتبر التجربة الإسكندنافية بين النرويج والسويد وفنلندا وأيسلندا والدنمارك، هي تجربة مميزة وفريدة نتيجة التجانس المجتمعي القائم بينها، والتشابه في أنظمتها السياسية.

3_الفدرالية والكونفدرالية

ما يميز المفهوم الفيدرالي عن المفهوم الكونفدرالي أن الأول يهدف إلى تذويب الشخصية الدولية للدولة في الدولة الفيدرالية، أما الكونفدرالية فتهدف إلى الإبقاء على سيادة الدول ولكن ضمن روابط دستورية تختلف باختلاف درجة التنظيم الكونفدرالي.

نظرية الفدرالية تسعى لتطبيق نموذج الدولة الفدرالية على المستوى الدولي، بمفهوم قيام الدول الداخلة في عملية الاندماج بالتخلي عن سيادتها لصالح حكومة

فيدرالية، على أن يتم توزيع السلطات بين الحكومة الفدرالية والحكومة الإقليمية في المجالات المختلفة.

لكن الفدراليين هم براغماتيون في مقاربتهم عند صياغتهم للفكرة، فقد ادركوا أن اختلاف الأوضاع الاجتماعية يطرح مشاكل مختلفة تتطلب حلولا مختلفة، كما أن المقاربة الفدرالية كما طرحها "هاس"، لا تفترض أن هوية المطالب السياسية معنية بالغاية المشتركة والحاجة المشتركة بين الفواعل، بصرف النظر عن مستوى الموقف، وفي هذا السياق يرى "جايهيرود" أن الفدرالية الصحيحة هي تخفيف التطرف وإعادة توزيع للقوى، لإعطاء الفعالية للاختلاف في المصالح الاقتصادية والاجتماعية والثقافية في العديد من المستويات، أنها ترفض تبسيط الفلاسفة الذين يميلون إلى التقليل من واقعية احد الأبعاد.25

ولتحقيق الفدرالية يرى "دويتش" أنه يجب توفر تسعة شروط وهي:

1 _ الانسجام المشترك في القيم الرئيسية.

2_ نمو اقتصادي عالي، على الأقل في بعض الوحدات المشاركة.

3_ توقعات روابط اقتصادية قوية، أو أرباح قوية.

4_ تميز في طريقة الحياة.

5 _ توسيع النخب السياسية.

6_ روابط متواصلة في الاتصالات الاجتماعية في كل من الروابط الجغرافية بين المناطق، وفي الروابط السوسيولوجية بين الطبقات الاجتماعية المختلفة.

7_ زيادة بارزة في القدرات السياسية والإدارية، الممارسة على الأقل في بعض الوحدات المشاركة.

8 _ سلاسل متعددة من الاتصالات والمعاملات التجارية.

9_ حركية بين الأشخاص على الأقل بين الطبقة السياسية المعنية.

أسباب فشل وانهيار التكامل

بالرغم أن التكامل بين الأطراف هو علاقة مرغوبة لما يتضمنه من إيجابيات، إلا أنه مثل أي حالة من العلاقات الدولية يمكن أن يتعرض للانهيار والفشل، ومن الأسباب التي تؤدي إلى انهيار وتفكك التكامل:

1_ المسبب الخارجي، وهو يتمثل في الرغبة المؤكدة للدول التي في حالة نزاع أو صراع بينها وبين طرف من أطراف الدول المتكاملة، لأنه إذا تحقق الانهيار الكامل أو الجزئي للمنظومة المتكاملة، فإن هذا من شأنه أن يختصر الطريق كثيرا أمام الدول المعادية، غير أن هذا المسبب الخارجي لتفكيك التكامل يكون من الصعوبة بمكان لأن التكامل وحده كفيل بأن يحيط الدول بهالة (إذا صح هذا التعبير) من القوة والمتانة والحصانة، مما يجعل تفكيك التكامل أمرا صعب المنال.

2_ إغراء بعض الدول الفاعلة لدول داخل التكامل بعروض مغرية ومجزية للحد الذي يمكن أن تكون بديلا عن التكامل، وهو ما يشبه حالة من التحالف الفردي في مقابل التخلي الكامل، أو الانسحاب من التكامل.

3_ تحول خارطة الأهداف والمصالح للدول المتكاملة، فإذا تغيرت الأهداف أو المصالح التي تسعي الدولة لاكتسابها من التكامل فلا يصبح ثمة مبرر للاستمرار في التكامل، الذي ربما ينتقص الشيء القليل من سيادتها.

4_ استبداد النخبة الفاعلة والمحرك الرئيس لدفة التكامل، واختلاقها سياسات

خاطئة ومجحفة لا تتوافق مع أغلبية أعضاء التكامل.

إن فرضية الهيمنة الممكنة لإحدى الدول السيادية بتزعم الاتحاد أو التكامل هي فرض طبيعي ومتوقع، إلا أن ما يميز هذا الفرض هو إمكانية حدوثه في حالة توافق وقبول من أطراف التكامل، الهيمنة بمعني القيادة هي الفرض الذي يلاقي القبول والتوافق، أما الهيمنة والسيطرة بمعني الاستبداد والطغيان فهي آفة تهد التكامل من أركانه وأساسه.

5 _النزاع والخلاف الذي يمكن أن يدب بين النخب السياسية، أي حدوث الفتنة بين النخب، فإذا تنازعت النخب السياسية التي تقود المجتمع المتكامل والمندمج، فإن هذا الخلاف والنزاع سرعان ما يسري في كافة أوصال المجتمع، ويهدد بفنائه وذهاب ريحه إذا تعسرت طرق الحل، وأنسد الأفق السياسي.

6_الضربات القوية والمتلاحقة (المعنوية والعسكرية) من الدول التي ليس من مصلحتها قيام ونشوء التكامل.

7_إهمال النخب لطرف من أطراف التكامل، من شأنه أن يولد الأحاسيس والمشاعر البغيضة، مثل الاضطهاد والتهميش، الذي يمكن أن يكون

نواة لبوادر التمرد والانشقاق والانسحاب الكامل من التكامل.

الأمن القومي والأمن المطلق

إن الأمن والتفاعل السياسي يمثل هاجسا كبيرا وعاملا هاما في عمليات الاندماج والتكامل، لأن الأمن هو أهم مكون في وجود الدولة وبقاؤها واستقرارها، ولو كانت الأمم في رغد من المعاش وبسطة في الرزق فإن الأمن والاستقرار يظل في كفة ربما توازي إن لم ترجح تلك الكفة، وقد قال الله تعالى في محكم التنزيل: (فليعبدوا رب هذا البيت. الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف) [قريش:4_3].

ولو كانت الأمم المتكاملة أو غير المتكاملة لها من القوة الكاملة التي تبدو ظاهريا كفيلة بتحقيق الأمن وبسطه والوقوف أمام أي قوى معادية فإن هذه القوة الكاملة لا تحقق ما أرادت ما لم يأذن الله بذلك وما لم تعبد الأمم رب البيت جل وعز.

إن الخوف بمفهومه الطبيعي، وهو فقدان وانعدام الثقة للفرد أو الدولة في المقدرة على التصدي للعامل الخارجي الذي يمتلك احتمالات التأثير القوي على الفرد في انتزاع خصائصه الذاتية، أو خلخلة التوازن الطبيعي له، يعتبر معني مضادا شديد التضاد

بمفهوم ومعني الأمن، على كثرة مسميات الأمن، إقليميا أو قوميا أو جماعيا أو دوليا.

تتمثل الأسباب التي تؤدي إلى فقدان التوازن الطبيعي للدولة وعدم استقرارها، في وجود التهديد القوي الذي يكون قادرا بما يكفي لنزع توازن الدولة، مثل التهديدات العسكرية التي ربما تتعرض لها الدولة، سواء كانت مباشرة مثل إعلان الحرب أو تهديدات عسكرية غير مباشرة، مثل إعلان الحظر والمنع من امتلاك الأسلحة المتطورة، أو إخضاع الدولة للتفتيش ونزع وتدمير ترسانتها العسكرية المتقدمة، أو الحصار أو غير ذلك من الوسائل.

التهديدات العسكرية للدولة سواء كانت مباشرة أو غير مباشرة، تعتبر عاملا وسببا رئيسا لفقدان اتزانها واستقرارها الطبيعيين، ومن ثم تهديد أمنها القومي، باعتبار أن الأمن القومي هو حدود الدولة الجغرافية البرية والبحرية والجوية التي يتوجب على الدولة والسلطان حمايتها من أي اعتداء أو سوء.

ومن العوامل الرئيسة لتهديد الأمن وخلخلة اتزان الدولة إيقاظ الفتنة وإشعالها، مثل الفتنة المذهبية الدينية بين طوائف

المجتمع الواحد، أو العنصرية أو العرقية أو السياسية، أو القبلية بين القبائل المكونة للنسيج الاجتماعي، أو الطبقية بين طبقات المجتمع أو غيرها التي ربما تؤثر في نسيج الدولة الواحد، وتتسبب في اعتلاله، وتقود في نهاية الأمر إلي الحرب الداخلية الأهلية واندثار الدولة،؛ وإيقاظ الفتنة ما هو في الحقيقة إلا تخطيط وتدبير كبير تتعرض له الدولة من الدول المعادية أو من كل من له غرض في ذلك، بغرض إفنائها وتدميرها داخليا وذاتيا.

تمثل الموارد الطبيعية للدولة أساسا قويا يخدم استقرارها واتزانها، وتناقص أو استهداف هذه الموارد تحت أي مسمي سواء كان بفعل سوء الاستغلال والاستخدام أو الحرب أو التخريب، فانه يعتبر مهددا قويا للأمن القومي، وفقدان الدولة لحالة الاتزان والاستقرار الطبيعيين المفترضة.

الدولة التي منحها الله موارد طبيعية كبيرة وضخمة، تعتبر أوفر حظا من التي تمتلك النذر اليسير ومن تلك التي لا تمتلك شيئا، وهذه الموارد الطبيعية في حد ذاتها تمثل أمنا قوميا إذا مست بسوء فان الدولة تصبح على شفا هاوية، وكارثة محققة.

يعتبر" علي عباس مراد" في (الأمن والأمن القومي مقاربات نظرية) إن المفهوم العام والشامل للأمن القومي يشير إلى: القيم النظرية والسياسات والأهداف العملية، المتعلقة بضمان وجود الدولة وسلامة أركانها وديمومة مقومات استمرارها، وشروط استقرارها وتلبية احتياجاتها، وتامين مصالحها، وتحقيق أهدافها وحمايتها من الأخطار القائمة والمحتملة داخليا وخارجيا، مع مراعاة المتغيرات الداخلية والإقليمية والدولية.26

إن التصور الحقيقي لمفهوم الأمن بمعناه الشامل المضاد للخوف، يمكن أن يعرف بأنه السياسات التي يتخذها الفرد أو الدولة لتحقيق المقاصد التي تضمن بقاء وسلامة الدولة وأركانها ومقوماتها، وهو بهذا المعني مضاد شديد التضاد لكل معاني الخوف وعدم الاستقرار والطمأنينة للفرد أو الدولة، سواء كان أمنا قوميا ينتزع كل أسباب الخوف المهدد للدولة وحدودها الجغرافية، أو أمنا إقليميا ينتزع كل أسباب الخوف المهدد للإقليم الجغرافي المحدود، أو أمنا دوليا ينتزع كل أسباب الخوف المهدد للدول والوحدات السياسية، أو

أمنا عالميا ينتزع كل أسباب الخوف المهدد للدول والمنظمات العالمية والشركات العالمية متعددة الجنسيات.

مع هذا فإن المفهوم يظل ناقصا مهما أوتي الفرد أو الدولة أو الإقليم من أسباب القوة، وذلك لاحتياجهم إلى مفهوم أكبر وأعظم، وهو القوة المطلقة التي لا تتأثر بالمتغيرات المادية أو الزمانية أو المكانية، ومن غير أن تكون معادلة القوة والأمن معادلة صفرية، فما تنجزه وتحققه دولة أو مجموعة دول في الأمن والاستقرار تفقده دولا أخرى. هذا المفهوم وهذه القوة العظمي المطلقة التي لا تحدها حدود أو تقيدها قيود، هي قوة الله جل وعز.

إن اكتساب القوة وزيادتها، لا تغني الفرد أو الدولة شئيا في منع وتبديد الخوف الذي يشمل المتغيرات العديدة، التي تخالف طبيعة الأمن والاستقرار، فالتهديدات العسكرية تعتبر عاملا أساسيا يهدد طبيعة الأمن والاستقرار الذي ينبغي أن تكون عليه الدولة، سواء كانت تهديدات عسكرية ممثلة في التفوق والنمو العسكري والقتالي من أطراف معادية للدولة، التي ربما ينقصها مثل التفوق والنمو، أو كانت المتغيرات

نتيجة اضطرابات وقلاقل داخلية تهز الدولة وأركانها، المتسبب فيها ضعف القيادة والنخبة، وهو الضعف المتمثل في عدم القدرة علي فرض السلطة بمعناها الحقيقي، أو كانت المتغيرات نتيجة تهالك وتناقص الموارد الطبيعية للدولة، وسوء إدارتها وتنميتها علي النحو الذي يضمن الاستقرار المادي والاكتفاء الذاتي، أو كانت نتيجة أي متغيرات أخرى ،الفرد أو الدولة في حاجة دائمة للقوة العظمى المطلقة. قوة الله.

القوة المفرطة

تستخدم القوة المفرطة وفق تقدير واستراتيجيات أحد طرفي الصراع لأغراض ومصالح لا يمكن تحصيلها في الحالة العادية؛ وهي حالة استخدام القوة في حدها المعقول، ورغم انه لا يمكن التنبؤ بنتيجة الصراع والنزاع؛ إلا انه في الحالة العادية لا يبدو ظاهريا ما يدعو لاستخدام القوة المفرطة، خاصة إذا كانت قراءات طرفي الصراع تعتقد إمكانية تحصيل المصالح والأهداف من دون الحاجة إلى الإفراط في القوة.

وفي حالات أكثر استقرارا وثباتا فان الفواعل ربما تستخدم أذرعا أخرى للمحاربة

والاشتباك بدلا عنها، من غير أن تشعر تلك القوى التي تشترك في القتال بشيء من ذلك.

الصراع والنزاعات في العالم العربي بعد أحداث الربيع العربي هي واحد من الأمثلة على ذلك، طرفي النزاع هنا هما إسرائيل والعالم العربي، واستمرار النزاع والصراع داخل الدول العربية هو صراع تغذيه إسرائيل والولايات المتحدة في ليبيا واليمن وسوريا، وذلك لتمديد بقاء الدولة والحفاظ على قوة الولايات المتحدة وإسرائيل على حد سواء.

في الحالة غير العادية فان أحد طرفي الصراع يلجأ إلى استخدام القوة المفرطة، من أجل الأهداف والمصالح التي ربما لا تكون إلا بها.

ويتضح استخدام القوة المفرطة (ويعنى به استهلاك القوة بصورة أكبر من الصورة العادية) في حروب الإبادة وقمع الفتن الداخلية، وحروب التوسع الإمبراطوري والإمبريالي، وربما في حالة الحرب ضد دولة أخرى نتيجة خطأ في جمع المعلومات التي صورت تلك الدولة بصورة وحش ضار، مع أنها في الحقيقة ليس كذلك.

ففي حروب الإبادة والتطهير العرقي مثلما في ميانمار في الوقت المعاصر مع أقلية

الروهينغا المسلمة، فان الدولة استخدمت القوة المفرطة بهدف إقصاء وإخفاء تلك الفئة من البشر إخفاء تاما وأبديا، وهو مالا يتحقق إلا بالقوة المفرطة واستخدام كافة أنواع القوة، بل إن النظام استخدم القوة العقائدية للبوذيين باعتبار إبادة الروهينغا المسلمين واجب مقدس!

يعتقد "هانس مورجانثو" في (السياسة بين الأمم): أن الدولة إذا أرادت حشد الشعب وراء سياستها الخارجية وتعبئة جميع طاقاته وموارده القومية لدعم تلك السياسة، فإن عليها أن تلجأ إلى إبراز الضرورات الحياتية التي تفرض تلك السياسة، كالوجود القومي مثلا والمبادئ الخلقية التي تدعمها، كالعدل والحق على سبيل المثال، وان يتجنب الإشارة إلى السلطان لا في قليل ولا في كثير.

أما الدول الإمبريالية فإنها تحتاج دائما إلى المذهبية، وذلك لأنها على النقيض من سياسة الوضع القائم فهي تحتاج في كل حين إلى ما يقيم الدليل على صحتها، وعليها أن تبرهن على أن الوضع القائم الذي تعمل على الإطاحة به يستحق هذه الإطاحة، وان الشرعية الخلقية المتصلة في عقول الكثيرين بالأوضاع

القائمة، يجب أن تخضع إلى مبدأ أسمى من مبادي الأخلاق يدعو إلى توزيع جديد للسلطان.

وعندما لا توجه السياسة الإمبريالية ضد وضع قائم معين ناتج عن حرب خاسرة، وإنما تنبع من فراغ في السلطان يغري الآخرين بالفتح، تحل المذاهب الخلقية التي تجعل منها واجبا حتميا في الاحتلال محل الاستعانة بقانون طبيعي عادل، للإطاحة بقانون إيجابي مجحف، وهكذا يظهر احتلال الشعوب الضعيفة بمظهر (رسالة الرجل الأبيض) و(الرسالة القومية) و(القدر العظيم) و(الأمانة المقدسة) و(الواجب المسيحي) وغيرها من التعابير المماثلة، وكثيرا ما تنكرت السياسات الإمبريالية الاستعمارية بوجه خاص وراء الشعارات المذهبية من هذا الطراز، كشعار (نعمة الحضارة الغربية) التي كان على الرجل الأبيض المحتل أن يحملها لشعوب العالم الملونة، ويحمل المذهب الياباني عن منطقة الرخاء المشترك لشرق آسيا نفس المعنى ذي الرسالة الإنسانية، واجتاحت إمبريالية "نابليون" أوروبا كلها، تحت شعارات (الحرية والإخاء والمساواة) وكان مذهب مناهضة الاستعمار القناع الأكثر شيوعا، والمبرر الأكثر استعمالا للسياسات

الإمبريالية في كل حين، وقد أكثر الناس من استخدام هذا المذهب لأنه أكثر مذاهب الإمبريالية فاعلية، وتستمد المذهبية المناهضة للإمبريالية فاعليتها من غموضها، فهي تثير الحيرة لدى المراقب الذي لا يستطيع أن يثق دائما فيما إذا كان يتعامل مع مذهب من مذاهب الإمبريالية، أو مع التعبير الصحيح لسياسة الوضع القائم ويكون الأثر المربك قائما عندما لا يكون المذهب صحيح الوضع؛ كما كان الأمر بالنسبة إلى طراز معين من السياسة، ولكن يستطيع التزيي به المدافعون عن الوضع القائم، وحاملو لواء الإمبريالية، وتكون المذاهب المتعلقة بالحق القومي في تقرير المصير وبالأمم المتحدة من هذا الطراز، وقد انضم مذهب جديد يتعلق بالسلام إلى هذه المذاهب بصورة متزايدة منذ بداية الحرب الباردة.

فساد التصور الحقيقي للقوة المفرطة

إن حالة الغرور التي تنتاب الدولة (باعتبارها كائن وشخصية) أو الشعور بالعلو ودونية الآخرين، هي داء قاتل (إن صح هذا التعبير) يصيبها من حيث لا تدري، فيوردها المهالك وربما الفناء، وهذا الداء في أصله

هو محصلة الأوهام والمفاهيم المغلوطة التي تتجمع وتتركز في ذاكرة الدولة، ومن هذه المفاهيم المغلوطة والتي ربما تأخذ أبعادا اكبر من حجمها الحقيقي والفعلي هو مفهوم القوة، ولسنا نعجب والأمر ما قد عرفت، فإذا كانت الدولة قوية وشديدة القوى فهي أكثر عرضة للإصابة من غيرها، غير أنه دائما ما يترافق مع استخدام القوة المفرطة ويكون سببا رئيسا: فساد المعتقد والديانة، والانحلال بمعناه العام، والانجراف وراء الملذات ومتاع الدنيا.

في الولايات المتحدة يقول "جوزيف.س.ناي" في كتاب (مفارقة القوة الأمريكية) كانت مأساة الحادي عشر من أيلول/ سبتمبر صرخة إيقاظ للأمريكيين، فقد رضوا عن ذواتهم في عقد التسعينات من القرن العشرين، لأنه بعد انهيار الاتحاد السوفيتي لم يعد هناك أي بلد قادر علي مضاهاتهم أو التوازن معهم، لأن بحوزتهم قوة عسكرية واقتصادية وثقافية عالمية لا يفوقها شيء، وكانت حرب الخليج في بداية ذلك العقد نصرا سهلا متاحا، وفي نهاية ذلك العقد تم قصف الصرب دون أن تكون هنالك خسائر أو ضحايا وقتذاك، ونما الاقتصاد وازدهرت سوق الأوراق المالية أكثر

من ذي قبل، حتى أن الولايات المتحدة تشبهت ببريطانيا في ذروة مجدها على عهد فيكتوريا، ولكن بامتداد عالمي أعظم من نفوذها آنذاك، غير أن الأمريكيين كانوا غير مبالين ولا متأكدين إلى حد كبير في كيفية صياغة سياساتهم الخارجية، لقيادة هذه القوة المفرطة، إلى الحد الذي أظهرت فيه استطلاعات الرأي أن الأمريكيين اخذوا ينغلقون علي القضايا المحلية، ولا يبدو أي اهتمام ببقية العالم. فيما بين سنتي 1989_2000 أغلقت شبكات التلفزة مكاتبها الخارجية وخفضت محتويات أخبارها الأجنبية بنسبة الثلثين، فقد اكتشف المسئولون عن التلفزيونات أن البالغين الشباب يهتمون بنظام التغذية المؤدي إلى النحافة، أكثر من اهتمامهم بالخفايا المعقدة لدبلوماسية الشرق الأوسط.27

التاريخ حافل بنماذج الطغيان، وجبروت الدول التي انهارت وتمزقت وفشلت بأسباب داخلية ذاتية؛ كانت نتيجة فساد التصور الحقيقي للقوة المفرطة والكبيرة، التي ربما تملكها الدولة وهو الفساد الذي يترافق مع فساد المعتقد والديانة قال الله تعالي :(وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا

مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) [الإسراء:16]، (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) [الكهف:59].

وهاك جملة من أسباب فساد التصور الحقيقي للقوة المفرطة، وانحراف هذا التصور:

1_فساد المعتقد

وهو من أكبر الأسباب المؤدية إلي الخذلان والهزيمة بل والانهيار، فمن جعل إلهه هواه، واتخذ دينه بغير هدي من الله ولا برهان، تكالبت عليه الدنيا، ونافسوها كما تنافسوها الأمم السابقة، وحقت عليهم كلمة العذاب، قال الله تعالي: (أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله علي علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون) [الجاثية :23].

ومن أشرك بالله وغرته الأماني، فان الله يستدرجه مهما أوتي من قوة، ويخسف به، ويأخذه أخذ عزيز مقتدر، قال الله تعالى: (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم إن كيدي متين) [القلم :45_44].

وأخبر النبي صلى الله عليه و سلم في حديث عمرو بن عوف: "فو الله ما الفقر اخشي عليكم، ولكني اخشي أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم ".28

ومن يشرك بالله فان الله يقصمه، ولا تنفعه قوته ولا عتاده، ولا دعته شيئا، وضرب الله مثلا لرجلين، آتي الأول جنات من أعناب وأموال وأولاد، ولكنه انحرف بهذه النعم إلى الشرك ولم يتقرب إلى الله بالشكر والطاعة، بل انه قال للأخر: أنا خير منك! قال الله تعالى: (واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا. كلتا الجنتين ءاتت أكلها ولم تظلم منه شيئا وفجرنا خلالهما نهرا. وكان له ثمر فقال لصاحبه وهو يحاوره أنا أكثر منك مالا واعز نفرا. ودخل جنته وهو ظالم لنفسه قال ما أظن أن تبيد هذه أبدا. وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا. قال له صاحبه وهو يحاوره أكفرت بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلا. لكنا هو الله ربي ولا أشرك بربي أحدا. ولولا إذ دخلت جنتك قلت ما شاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا اقل منك مالا

وولدا. فعسى ربي أن يؤتين خيرا من جنتك ويرسل عليها حسبانا من السماء فتصبح صعيدا زلقا. أو يصبح ماؤها غورا فلن تستطيع له طلبا. وأحيط بثمره فأصبح يقلب كفيه على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها ويقول يا ليتني لم أشرك بربي أحدا. ولم تكن له فئة ينصرونه من دون الله وما كان منتصرا) [الكهف:32_43].

ونهى الله سبحانه وتعالى عن الشرك (والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما انزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه قل إنما أمرت أن اعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو واليه مآب) [الرعد:36]، (واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا) [النساء:36]، (واتبعت ملة آبائي إبراهيم وإسحاق ويعقوب ما كان لنا أن نشرك بالله من شيء ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس ولكن أكثر الناس لا يشكرون) [يوسف:38]، (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا) [النساء: 116]، (قل

إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلي أنما إلهكم اله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) [الكهف: 110]، (وإذا رأى الذين أشركوا شركاءهم قالوا ربنا هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعو من دونك فألقوا إليهم القول إنكم لكاذبون) [النحل: 86].

والشرك هو أعظم الظلم قال الله تعالى: (وإذ قال لقمان لابنه وهو يعظه يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم) [لقمان: 13]، وقد شق على صحابة رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتناب الظلم، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه عبد الله رضي الله عنه في باب (ما جاء في المتأولين) في صحيح البخاري، قال: لما نزلت هذه الآية: (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم) شق ذلك على أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقالوا: أينا لم يظلم نفسه؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ليس كما تظنون، إنما هو كما قال لقمان لابنه (يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم)" 29.

ومن الشرك الاستغاثة بغير الله سبحانه وتعالى، فإن الاستغاثة التي هي حقيقة اللجوء لله سبحانه وتعالى وطلب العون منه،

هي من ركائز التوحيد وأفراد الله بالعبودية، وهي تتضمن معاني الإيمان بحقيقة القوة المطلقة لله القوي العظيم، والقدرة المطلقة التي لا تشابهها وتماثلها قدرة أو قوة.

ومنه دعاء غير الله، والدعاء هو توجه الفرد إلي الله سبحانه وتعالى، والطلب منه حتى شراك النعل، فالدعاء هو إقرار واعتراف بالضعف والعجز، والمدعو سبحانه وتعالي هو القوي والقادر والعليم والوهاب، والدعاء عبادة، عن النعمان بن بشير: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " إن الدعاء هو العبادة". 30

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " من لم يدع الله، سبحانه، غضب عليه ". 31

ودعاء غير الله هو شرك.

2_كيد الشيطان

من الأسباب التي تقود إلي فساد وخطأ التقدير الحقيقي للقوة أيضا، كيد الشيطان وإرجافه وجلبه، فإن الشيطان يزين للفرد الأمور بغير مقياسها ومعيارها، وأنه (لعنه الله) اقسم علي ذلك، قال الله تعالي: (وإذ قلنا الملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس قال

أأسجد لمن خلقت طينا . قال أرأيتك هذا الذي كرمت علي لئن أخرتن إلي يوم القيامة لاحتنكن ذريته إلا قليلا) [الإسراء:62_61] ، ونهى الله سبحانه وتعالى عن إتباع خطوات الشيطان، قال الله تعالى :(يا أيها الذين امنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فانه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكى منكم من احد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء والله سميع عليم) [النور: 21]، نهى الله سبحانه وتعالى عن إتباع خطوات الشيطان، لان مهمة إبليس وجنوده هي إضلال ذرية البشر، قال الله تعالى :(ولقد أضل منكم جبلا كثيرا أفلم تكونوا تعقلون) [يس:62] .

3_ إتباع الشهوات والظن

إتباع الأهواء والظن والشهوات من شأنه أن يغير من النظرة الحقيقية لتقدير قوة الدولة وحجمها الطبيعي، لأن المعطيات في هذه الحالة إنما تكون وفق نظرة أحادية ضيقة غالبا ما تسودها ويسيطر عليها النظرة النفعية، وتمييز الأهداف والمصالح التي ربما لا تتفق واستراتيجية الفرد أو الدولة، والأدلة والنماذج في هذا أكثر من تحصي في تاريخ الدول والأمم .

وإذا اتبعت الأهواء والظنون وفشا الظلم فإن الله يهلك الظالمين، قال الله تعالى: (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) [الكهف: 59]، وقال تعالي: (قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة أو جهرة هل يهلك إلا القوم الظالمون) [الأنعام: 47].

والظلم في حقيقته هو استعمال القوة في غير مكانها ضد ضعفاء مهضومي الحق، وتوعد الله هؤلاء بالعقوبة القوية آجلا أم عاجلا، عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاثة لا ترد دعوتهم: الصائم حتى يفطر، والإمام العادل، ودعوة المظلوم يرفعها الله فوق الغمام، ويفتح لها أبواب السماء، ويقول الرب وعزتي لانصرنك ولو بعد حين". 32

4 _ الاعتقاد الكبير بأن الطرف الأخر ضعيف، وسيظل إلى الأبد ضعيفا. وهذا الاعتقاد من شأنه أن يعطي صورة غير حقيقة للطرف الأخر، مع أن الواقع ربما يكون غير ذلك.

إن الأخلاق المتسخة والمنتنة، كانت في قتل الفلسطينيين على مدي عمر الاحتلال الغاشم، وتطبيق نظام الابارتايد، واعتقالهم في السجون الإسرائيلية، والاستيلاء على أراضيهم عنوة بتطبيق محاكمهم الباطلة، التي لا

يعترف بها أحد إلا هم أنفسهم، وغير ذلك من الجرائم النكراء!

مع ذلك فان غزة الأبية صمدت في الحرب صمود الأبطال، ليس صمودا وحسب لكنها كشفت عن حقيقة موجعة لإسرائيل ولغيرها، وهي أن ميزان القوى في طريقه للاختلال، وكشفت عن حقيقة موجعة ثانية، وهي أن عرابي الخراب والموت في جمهوريات الموز في المنطقة صاروا كما اليهود، مثلا بمثل وسواء بسواء.

5_المعلومات والمدخلات الخاطئة

وهي التقديرات المغلوطة والخاطئة التي تتم تغذيتها في أجهزة الدولة عن قصد أو عن غير قصد، والتي تعطي قيما غير حقيقية فيما يتعلق بحجم وكمية القوة الحقيقة للدولة أو للطرف الثاني، وتربك بالتالي استراتيجيات الدولة وأهدافها، وتفقدها التقدير السليم.

أن الحصار الذي فرضته الدول الأربعة المملكة السعودية والإمارات والبحرين ومصر على قطر، والذي تم بعد تلفيق البيان المكذوب لأمير قطر، بعد الاختراق السيبراني لوكالة الأنباء القطرية، وبعد تكميم كل الأصوات التي تتوخى الحقائق في إعلام الدول الأربعة، ومن ثم توجيه الإعلام فيها إلى لغة واحدة وهي لغة تجريم قطر وتأثيمها، وتكرار

هذه اللغة مما من شأنه أن تبدو قطر مجرمة وآثمة بالفعل وتدعم كافة أشكال الإرهاب، رغم أن الحصار الذي استمر طويلا لم يؤت نتائجه المرجوة والمطلوبة لديهم في إخضاع وتطويع قطر، لأنها رفضت نزع سيادتها وتركعيها وكل أنواع الوصاية، وهو ما تمثله المطالب الثلاثة عشر التعسفية التي قدمت إليها، ورغم أن الدول الأربع المحاصرة لم تلق تأييدا وانضماما واسعا لحملتها أو فتنتها من باقي الدول العربية، ما عدا جيبوتي وموريتانيا والأردن التي شاركت فقط بتخفيض التمثيل الدبلوماسي، رغم كل ذلك فانه يصعب جدا على المرء أن يصدق أن الرغبات الجامحة في السلطة والعرش من الممكن التضحية في سبيلهما بأي شيء، حتى وان كانت تلك التضحية هي بعلاقات القربى والأخوة والدم، يصعب ذلك جدا.

وعندما نتحدث عن الحصار الذي لا يعلم له هدف واضح ومعقول، فإن أول ما يقفز إلى ذهني هو ذكرى أحداث رابعة العدوية والنهضة، ورغم أنه تمت تصفية الإخوان المسلمين ومن ناصرهم في تلك الموقعة، وهي الموقعة التي وصفتها منظمة هيومن رايتس ووتش بأن ما حدث هو على الأرجح جرائم ضد الإنسانية، إلا أنها

كانت بداية لضرب المد الكاسح لجماعة الإخوان المسلمين، أو الإرهابيين أو المتطرفين! مثلما تطلق عليهم الأوصاف والمسميات، كانت بداية لضرب المد الكاسح للإخوان المسلمين أينما كانوا وكسر شوكتهم، وما أشبه الليلة بالبارحة؛ فإن المطلب الثالث من جملة المطالب الثلاثة عشر، هو قطع العلاقات مع الإخوان المسلمين، وإدراجهم كيانات إرهابية، وطردهم من قطر، وترحيل قياداتهم ورموزهم مثل الداعية الإسلامي " يوسف القرضاوي"، وللأسف الشديد فإن هذا المطلب بطرد الشيخ "القرضاوي" مع قامته وقيمته، يتناقض تماما مع ما وجده في السابق من حفاوة وتكريم من المملكة العربية السعودية ذاتها، في مؤتمر رابطة العالم الإسلامي!

إنه ليس في استطاعتنا أن نلم بكل تلك المعطيات الداخلية أو الخارجية التي جعلت من هذه الدول الأربعة أن تشد وطاءتها وتحكم الحصار على قطر، ليس في استطاعتنا ذلك، ولكن نؤكد على أن تنامي ظاهرة الرعب من الإسلاميين، أو الإسلام السياسي، تسببت فيها التنظيمات المتطرفة والمنحرفة، مثل تنظيم الدولة الإسلامية والقاعدة، التي كانت نتاجا

للأنظمة الاستبدادية والمتسلطة في المنطقة، والتي تم استخدامها وتطويعها في آخر الأمر من أعدائنا لتفتيت الأمة الإسلامية وتقسيمها، والحاق صفات الإرهاب والعدوانية والتطرف بها، ومن ثم فإن حالة الرعب امتدت لتشمل التنظيمات الإسلامية المعتدلة، التي تجنح إلى السلم وتدعو إلى الحوار والدعوة بالتي هي أحسن، لبناء الدولة الإسلامية ذات التوجه العقائدي السليم، وانتهى الأمر لدي بعض الأنظمة الأوتوقراطية المتسلطة التي يهمها استقرار العرش واستدامته وبقاؤه، إلى محاربة كل تيارات الإسلام السياسي دونما تمييز أو تفرقة بينها !

إن الإحساس المتزايد بامتلاك القوة على اختلاف أضرابها، أحيانا يكون سببا رئيسا في نشؤ أحاسيس أخري من نوع العجب والكبرياء والإحساس بالفوقية، وإذا زاد هذا المزيج من الأحاسيس وفشا، فإنه كفيل بأن تفقد النخبة رشدها وان تضل سواء السبيل، وتفقد الكثير من قوتها.

في السابع من ديسمبر 1941 شنت اليابان أكبر عملية هجومية مباغتة علي ميناء بيرل هاربر، في طلعات جوية تتألف من 353 طائرة مقاتلة، وكانت المحصلة تدمير مائة ثمانية

وثمانين طائرة من طائرات السلاح الأمريكي وهي في مرابضها، وإلحاق خسائر فادحة في الأرواح والمعدات في صفوف الأمريكيين (نحو ألفين وأربعمائة) كانت تلك الضربة الوقائية لتقليم أظافر الأسطول الأمريكي وشل القوة الأمريكية الضاربة في المحيط الهادي، والدرس المستفاد من ذلك هو مقدرة الإمبراطورية اليابانية على إلحاق الهزيمة بالقوة الأمريكية، مع الفارق الكبير بينها وبينها، وإذا كانت القوة والاستراتيجية اليابانية قد أفادت كثيرا من الهجوم الذي نفذته بريطانيا وإيقاعها الهزيمة بالأسطول الإيطالي في ذلك الوقت، فإنه يمكن أن يعزي ذلك الانتصار الكاسح على الولايات المتحدة أيضا لقوة الإرادة في نفوسهم، وهو الشي الذي يتطلب تصديقا اكبر بحجم النزاع والصراع والذاتية، الذي يكون هو من ثم أكبر معين لتحقيق الأهداف.

إن القوة العقائدية تتضمن الالتزام بأصول الدين، والابتعاد عن المحرمات، لا تعني المساواة بين الرجل والمرأة والانفتاح الجنسي، وعب الملذات وإشباع الرغبات المحرمة، وإتباع المادة وتأليه المادة، ذلك مما يعجل بالنهاية، أما في الغرب فان

الصورة معكوسة، فما نراه التزاما يعتبرونه تشددا، وما نعتبره طاعة يرونه إرهابا، فهم يعبدون المادة ونحن نعبد رب المادة.

وإذا أسقطت ذلك المفهوم (أي القوة العقائدية) في كافة مناحي الحياة وجدت أن الدين كامل وشامل، قال الله تعالى :(وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون) [الأنعام :38]، وأننا أمة قوية، وتفكر في قوله تعالي: (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمي وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم) [الأنفال: 17]، وتفكر في قول رسول الله صلي الله عليه وسلم في الحديث القدسي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"إن الله قال :من عادي لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلي عبدي بشيء أحب إلي مما افترضته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشى بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لأعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي

عن نفس المؤمن يكره الموت وأنا أكره مساءته". 33

القوة الإلهية: المجال الخامس

في كتاب(رقعة الشطرنج الكبرى) يقول "زبغنيو بريجنسكي": أن الولايات المتحدة الأميركية تحتل مرتبة عليا في المجالات الحاسمة الأربعة للقوة العالمية، وهي المجال العسكري الذي تملك فيه قدرة وصول عالمية لا مثيل لها، والمجال الاقتصادي الذي تبقي فيه ذات قدرة تحرك رئيسية في النمو العالمي، حتى ولو واجهت تحديات في بعض المظاهر من قبل المانيا واليابان، ويوضح :أن أي منهما (أي ألمانيا واليابان) لا تملك المزايا الأخرى للقوة العالمية، والمجال الثالث وهو المجال التكنولوجي حيث تحافظ فيه علي المجالات الحادة والحساسة في الابتكار، والمجال الرابع وهو المجال الثقافي الذي تتمتع فيه بالرغم من بعض السلبيات بإغراء لا يمكن منافسته، وخاصة بين شبان العالم الذين يرون في الولايات المتحدة دولة تملك نفوذا سياسيا، لا تقترب أي دولة أخرى من مجال القدرة علي منافسته، وهكذا فان الجمع بين هذه المجالات الأربعة

هو الذي يجعل من الولايات المتحدة تلك القوة العظمي العالمية الوحيدة حصرا. 34

الحقيقة أنه لا المجال العسكري الذي تزعمت الولايات المتحدة فيه العالم، وبلغت فيه مكانا متميزا لا تزاحمها فيه دولة، ولا أن المجال الاقتصادي والتكنولوجي والثقافي الذين لا تضاهيها أو تقربها فيهم دولة في المجتمع الدولي، كافية لجعلها القوة العظمي في العالم، لأنها ببساطة تفتقد المجال الخامس الذي أغفله "بريجنسكي" وهو القوة الإلهية ومعرفة الدولة ربها، والتوكل عليه!

فالمجال العسكري للولايات المتحدة، وان كانت التقنية العسكرية والعدة والسلاح والآليات متوفرة ومتقدمة على غيرها من الدول، إلا أن قوة الضرب والدحر والرمي، اشد وأنجع عند الدولة التي لا تملك ما تملك هي، ويكفيها أن تمتلك محركا قويا، هو محرك العقيدة والإيمان، والله تعالي يقول: (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمي وليبلي المؤمنين منه بلاء حسنا إن الله سميع عليم) [الأنفال:17].

إن مضمون القوة الإسلامية ليس في حجم العتاد العسكري والآليات، أو العدد الكبير

من الجيوش، أو الموارد الاقتصادية أو النفط؛ صحيح أن مجموع ذلك مرغوب ومطلوب للدولة، إلا أن كفة العقيدة الإسلامية السليمة راجحة عليه، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة، ولكن وهذا هو الأهم (بإذن الله).

القوة الإلهية هي قوة الله سبحانه وتعالى التي ينصر بها الدولة المسلمة بمعونته ومدده، قال الله تعالي:(يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم. والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم) [محمد :8_7]، وقال تعالي :(فاذكروني أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون) [البقرة: 152].

القوة الإلهية هي قوة الله سبحانه وتعالى، و(القوي) من أسمائه الحسني وصفاته العليا، فهو سبحانه وتعالى متصف بصفات القوة الكاملة والمطلقة، لا تشابهها في ذلك قوة أو تماثلها، جل وعز في أسمائه وصفاته، وإثبات صفة القوة هي من ركائز التوحيد وأصول الإيمان، قال تعالي:(فلما جاء أمرنا نجينا صالحا والذين آمنوا معه برحمة منا ومن خزي يومئذ إن ربك هو القوي العزيز) [هود:66]، وقال تعالي:(كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم إن الله قوي شديد العقاب) [الأنفال:

52]، وقال تعالي :(ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز) [الحج:40] .

والمخلوق ضعيف متصف بصفات الضعف مهما بلغت قوته، قال تعالى: (الله الذي خلقكم من ضعف ثم جعل من بعد ضعف قوة ثم جعل من بعد قوة ضعفا وشيبة يخلق ما يشاء وهو العليم القدير) [الروم:54]، ونسبة القوة إلى الله (الإلهية)، تعني قدرة الله وقوته التي ينصر بها عباده.

بقي أن تعرف قبل أن تنتقل من هذا الفصل، أن حقيقة الفرد هي الضعف؛ الضعف منذ خروجه إلي الدنيا وليدا صغيرا لا يقوي علي شيء، فأبواه يحنوان عليه بكل أنواع الحنان، فأمه ترضعه إذا جاع، وتدثره الثياب إذا اشتد عليه قر البرد، ويداويه أبويه إذا ألمت به الأسقام والأوجاع، ويلاطفانه ويوفرا له كل أسباب سعادته لأنه ضعيف في ناظريهما، وإذا ما اشتد عوده واقتوي، فإن مظاهر الضعف تتبدل، فهو ضعيف إذا فشل في شيء لم يستطع إنجازه وتنفيذه، وهو ضعيف إذا واجه قوة اكبر من قوته ولم يستطع ردها ودفعها، وإذا تابعنا سيرة حياته من المهد إلي اللحد، فإننا أمام حقيقة لا نستطيع إنكارها وهي حقيقة الضعف الملازم للطبيعة البشرية، يظل

الفرد ضعيفا إلا من قواه الله سبحانه وتعالى. والقوة نقيض الضعف. هذا ما جمعه "ابن منظور" في تعريف القوة الذي بدأت به هذا الفصل من الكتاب.

هوامش المقدمة والفصل الأول

1_ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله وسننه وأيامه، الجزء الثاني، (القاهرة: المكتبة السلفية، ط.1، 1403هـ)، ص493.

2_ أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب، المجلد الخامس عشر، (بيروت: دار صادر)، ص206_207.

3_ أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، تحقيق هاشم الطعان، البارع في اللغة، (بيروت: دار الحضارة العربية، ط.1، 1975)، ص521.

4_ مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط.4، 2004)، ص 768_769.

5_ السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق عبد المجيد قطامش، تاج العروس من جواهر القاموس، الجزء 39، (الكويت: مطبعة حكومة الكويت، ط. 1، 2001)، ص360_362.

6_ احمد مختار عمر، المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته، (الرياض: مؤسسة التراث، ط. 1، 2002)، ص 383.

7_محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح، (بيروت: مكتبة لبنان، ط. 1 ،1986)، ص 233.

8_ كارل دويتش ترجمة شعبان محمد محمود شعبان، تحليل العلاقات الدولية، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط.1 ،1983)، ص38.

9_جوزيف. س. ناي، ترجمة محمد إبراهيم العبد الله، هل انتهي القرن الأمريكي، (الرياض: العبيكان للنشر، ط.1،2016)، ص 9.

10_علي جلال معوض، مفهوم القوة الناعمة وتحليل السياسة الخارجية، (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ط.1،2019) ، ص27.

11_ حسان محمد شفيق العاني، الأنظمة السياسية والدستورية المقارنة، (بغداد: مطبعة جامعة بغداد، ط.1،1986)، ص285.

12_جيمس دورتي، روبرت بالتسغراف، ترجمة د. وليد عبد الحي، النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية، (الكويت: كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، ط.1،1985) ، ص15.

13_محمد السيد سليم، تطور السياسة الدولية في القرنين التاسع عشر والعشرين،

(القاهرة: دار الفجر للنشر والتوزيع، ط.1، 2002)، ص4.

14_ مايكل كولينز بايبر، ترجمة عبد اللطيف أبو البصل، كهنة الحرب الكبار، (الرياض: مكتبة العبيكان، ط.1، 2006)، ص165.

15_ جيمس دورتي، روبرت بالتسغراف، المصدر السابق، ص 271.

16_ المصدر السابق، ص 272.

17_ كارل دويتش، المصدر السابق، ص217.

18 _جيمس دورتي، روبرت بالتسغراف، المصدر السابق، ص 272.

19_ كارل دويتش، المصدر السابق، ص218.

20_جيمس دورتي، روبرت بالتسغراف، المصدر السابق، ص 274.

21_يفجيني بريماكوف، تعريب عبد الله حسن، العالم بعد 11 سبتمبر وغزو العراق، (الرياض: العبيكان، ط. 1 ،1424هـ)، ص181.

22_كارل دويتش، المصدر السابق، ص267.

23_ باتريك. هـ. أونيل، ترجمة باسل الجبيلي، مبادئ علم السياسة المقارن، (دمشق: دار الفرقد، ط.1، 2012)، ص267.

24_ هارولد. ج.لاسكي، الدولة نظريا وعمليا، (القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ط.2، 2012)، ص76.

25 _عامر مصباح، نظريات تحليل التكامل الدولي، (الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية، ط.1، 2008)، ص42.

26_علي عباس مراد، الأمن والأمن القومي مقاربات نظرية، (الجزائر: ابن النديم للنشر والتوزيع، ط.1، 2017)، ص39.

27_ جوزيف. س. ناي، تعريب محمد توفيق البجيرمي، مفارقة القوة الأمريكية، (الرياض: العبيكان، ط.1، 2003)، ص9.

28_أبو عيسى محمد بن عيسى، تحقيق وتعليق إبراهيم عطوة عوض، الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، الجزء الرابع، (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي، ط.1، 1962)، ص641.

29_ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، الجزء الرابع، (القاهرة: المكتبة السلفية، ط.1، 1403هـ)، ص282.

30_أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، سنن ابن ماجة، الجزء الثاني، (القاهرة: مطبعة دار إحياء الكتب العربية، ط.1، 1954)، ص1258.

31_أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجة، المصدر السابق، ص 1258.

32_أبو عيسى محمد بن عيسى، تحقيق وتعليق إبراهيم عطوه عوض، الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، الجزء الخامس، (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي، ط.2، 1975)، ص578.

33_أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المصدر السابق، ص 192.

34_زبغنيو بريجنسكي، رقعة الشطرنج الكبرى، (بيروت: مركز الدراسات العسكرية، ط.2، 1999) ، ص25.

الفصل الثاني
نظريات القوة

القوة ونظريات العلاقات الدولية

يعتبر مفهوم القوة والدراسات المتعلقة به والنظريات المرتبطة به، من أهم المفاهيم المحورية في دراسة العلاقات بين الوحدات السياسية في المجتمع الدولي (إن لم يكن أهمها على الإطلاق) فعلى أساس هذا المفهوم كما قد بينا في الفصل السابق، تصنف الوحدات السياسية أو الدول إلى دول قوية قادرة على حماية نفسها وأمنها، أو دول ضعيفة أو فاشلة أو مارقة، وإلى غير ذلك من التصنيفات.

الدراسات تهتم ببحث مفهوم القوة أكثر من مفهوم الضعف، لان الدولة إذا عرفت أسباب القوة فقد تجاوزت أسباب الضعف.

القوة في إحدى تعريفاتها أنها عنصر فاعل قادر على فرض إرادته على الرغم من المقاومة، ووفقا لذلك فإن اتجاه الدول لتعظيم القوة أو على الأقل المحافظة عليها يعني ذلك كله أن اتجاهها للقوة يمثل ابتعادا كبيرا عن الضعف، في هذا المعنى يقول "ايمانويل كانط": الدولة تسعى إلى القوة، ولو استطاعت أن تغزو كل العالم لفعلت. ساعتها فقط يكون البقاء مضمونا تماما.

ومفهوم القوة أو مفهوم قوة الدولة، يعتبر من مفاهيم النظام الدولي الذي كثرت فيه الجدالات والنقاشات منذ أربعينات القرن التاسع عشر، وتبرز النظرية الليبرالية "المثالية" والنظرية الواقعية على رأس هذه الجدالات، وقبل التعرض إلى هذه النظريات وجدالاتها، فإنه ينبغي التوقف عند معنى النظام الدولي باعتباره الأرضية التي تتحرك عليها كل نظريات القوة، ومعني النزاع أو الصراع، والمداخل التي تفسر ظاهرة الصراع في العلاقات الدولية.

النظام الدولي يصف الأسس والقواعد التي ينبغي أن يتعامل بها مجموع الدول الفاعلة وغير الفاعلة، والمنظمات والشركات العابرة

للقارات، سواء كانت الأسس والقواعد هي مواثيق متفق عليها بينهم، أو أعراف وتقاليد أو قوانين دولية، غير أن الواقع غالبا إن لم يكن دائما، لا يعطي نموذجا مثاليا فاضلا لما يفترض أن تكون عليه العلاقات بين أفراد المجتمع الدولي، بل إن الواقع يعكس صورة مختلفة تماما لمجتمع دولي تكثر فيه الحروب والاقتتال، والمؤامرات ولغات التهديد.

يحدد "جيمس دورتي" و "روبرت بالتسغراف" في (النظريات المتضاربة) النظام الدولي بصورة أكثر دقة بأنه: ليس إلا مجموعة من الوحدات السياسية القومية المواجهة لبعضها البعض والمؤثرة في بعضها البعض، وان ليس ثمة من قيم مشتركة كافية على صعيد هذا النظام تسهل التعاون والتنظيم بين وحداته، وتحول دون اللجوء للعنف.1

النزاع أو الصراع باعتباره حالة عارضة أو طارئة للأفراد أو الدول، يحاول فيها كلا الطرفين المتصارعين اكتساب السبق علي الآخر، أو باعتباره حالة تنازع بين الطرفين، وهذا التنازع ناشئ من الاختلاف القائم بينهما في الدوافع والتصورات، أو التطلعات أو الأهداف أو غير ذلك، يمثل جزءا رئيسا ومحور أساس في دراسة وفهم العلاقات الدولية،

وفي التنبؤ بتطوراتها ومآلاتها، لان امتلاك القوة وزيادتها وإظهارها، هو الضامن الأقوى لحماية الأفراد والدولة وبقاء أركانها، ولا قيمة للنشاطات الاجتماعية الأخرى في التنبؤ بعلاقات الدول بعضها ببعض، أو علي الأقل بمستوي دراسة الصراع والقوة.

ورغم أنه ليس للصراع صفات الثبات والدوام، إلا انه تتفاوت درجات الصراع بين الأطراف بحسب حيثيات الهدف المتصارع عليه ونوع الصراع، سواء كان سياسيا، أو اقتصاديا أو حضاريا.

الصراع في فلسطين بين اليهود والمسلمين، يمكن أن يصنف من أطول أنواع الصراع في الوقت الراهن كمثال، بل أنه يخرج من اعتباره صراعا إلى اعتباره قضية إسلامية يهتم بها كل مسلم.

يعرف "يوهان جالتونج" الصراع بأنه: حالة تناقض بين أهداف الدول، أو بين قيم الفاعلين في النظام الاجتماعي، ويتم ذلك ضمن إطار مفاهيم ومعتقدات كل طرف. ويعتقد "كوينسي رايت": أن الصراع يستخدم في بعض الأحيان للإشارة إلى التضارب أو التناقض في المبادئ أو المفاهيم، أو العواطف أو الأهداف، أو المطالبة بالكيانات أو الهوية.

علماء الاجتماع ينقسمون فيما بينهم، حول مسألة ما إذا كان الصراع الاجتماعي يعتبر مسألة عقلانية ويؤدي وظيفة اجتماعية، أو انه ظاهرة مرضية غير عقلانية وليس له وظيفة اجتماعية، اغلب علماء النفس وعلماء النفس الاجتماعي كما يجادل "جيمس دورتي" و"روبرت بالتسغراف"، يميلون لاعتبار كل أشكال العنف العدواني في النطاق السياسي كظاهرة غير عقلانية وغير مرغوب فيها، وهو ما يؤيدهم فيه كل ذوي التوجهات القانونية وفلاسفة الأخلاق، ولكن بالمقابل فان اغلب علماء الاجتماع والأنثروبولوجي في أوروبا وأمريكا باستثناء مدرسة "بارسونز"، يميلون لإعطاء الصراع وظيفة بناءة طالما انه يبين حدود الجماعات، ويدعم وعي الجماعة والشعور بالذاتية، ويساهم في التكامل الاجتماعي، وبناء وتطور المجتمعات واقتصادياتها، وكثير من الاقتصاديين وعلماء السياسة سيعتبرون دون شك الصراع كظاهرة غير عقلانية، بينما يقرر آخرون ما إذا كان الصراع مقبولا أو مرفوضا، علي أساس الإطار الذي ينبثق منه، مثل المسائل الاقتصادية، أو تعريض القيم السياسية للخطر، أو أثار ونتائج الصراع علي الجماعات من النواحي السياسية والاقتصادية، أو علي الدولة

والنظام الدولي، بينما يميل أصحاب نظرية اللعب والاستراتيجيون ومحللو صناعة القرار، إلي تأكيد عقلانية العناصر المكونة للصراع، والمتمثلة في الرغبة والتخطيط لكسب أو تحقيق هدف معين، ولكنهم يوافقون علي التأثير الهام الذي تلعبه العوامل غير العقلانية، والتصورات الخاطئة في حسابات الأطراف، الذين يستخدمون الحرب أو الثورة.

يؤيد "كينيث والتز" الاتجاه الذي يربط بين جنوح الدول إلى العدوان وبين الطبيعة البشرية، ويزعم أن الصراعات والحروب إنما تنتج من مشاعر الأنانية والغباء الإنساني، وأيضا عن سوء توجيه النزعات العدوانية، وان ما عدا ذلك من العوامل التي تسبب الصراع يعد ثانويا ولا ينبغي أن ينظر إليه إلا في ضوء هذه الحقيقة السيكولوجية الأساسية، وهو في هذا يستند إلى تحليل "سيجموند فرويد" الذي فسر الدوافع المحركة لعملية النزاع والصراع إلى نزعة الإنسان إلى التدمير والسيطرة، وفي رأيه أن الصراعات والحروب توفر هذه الفرصة، لإرضاء وإشباع تلك النزعات والرغبات الكامنة في أعماق الطبيعة البشرية.

وبنفس المنظور السيكولوجي، يفترض "فلوجل" في نظريته (الإخفاق أو الإحباط) أن الدول التي تتحقق فيها الحاجات الأساسية لشعوبها بصورة معقولة، تكون اقل استعدادا من الناحية السيكولوجية للصراع والحرب، من تلك الدول التي يسيطر على شعوبها الشعور بعدم الرضا أو الضيق.

ومن مدخل سباق التسلح فإنه توجد عدة فرضيات لتفسير ظاهرة الصراع:

1_ يؤدي سباق التسلح بين الدول إلى ازدياد الشعور بالخوف وانعدام الثقة بين الطرفين، بالغا ما بلغ حجم القوة ، ودرجة التسلح المتطورة التي وصلت إليها الدولة.

2_اهتمام الدولة بالتسلح وتطويره اكثر من غيرها ، يقود إلى ميلها التلقائي لاستعراض هذه القوة العسكرية، وهو ما يؤدي تلقائيا إلى إحماء الصراع.

3_تهتم جماعات المصالح التي تتصل بصناعة وتطوير السلاح، بالضغط على صناع القرار لإطالة أمد الصراع لفترات طويلة، لأن ذلك من شأنه أن يعود عليهم بمردود مالي عال.

وتهتم بعض الدراسات التي تحاول تفسير ظاهرة الصراع والنزاع بين الدول، بإرجاع

أصول الصراع إلى النواحي الأيدلوجية، فهي تفترض أن التناقضات أو الاختلافات الأيدلوجية هي الأصل الذي ينبغي أن يرجع إليه في فهم أي صراع، ويستندون على وجه التحديد على الأيدلوجية الماركسية، التي من وجهة نظرهم تعتبر أن الصراع أصوله طبقية، وإذا أمكن تحديد العلاقات الطبقية بين مختلف القوى فهو الأداة الوحيدة لتفسير الصراع.

الواقعيون يعتبرون أن مصالح الدولة القومية، هي الدافع الرئيس لنشوب الصراع، وفي محاولة الدولة الحفاظ على مصالحها القوية؛ ومن اجل بقائها والمحافظة على مصالحها وذاتها، فإنها تنزع إلى العدوانية وإظهارها القوة العسكرية، بل وأضراب القوة الأخرى: السياسية والاقتصادية والدعائية وغيرها، وقد عبر "كينيث تومبسون" عن هذه المعاني بقوله: أن الصراع على القوة باعتباره الركيزة التي تستند عليها المصلحة القومية، هي حقيقة ثابتة تتجاوز المعتقدات الفردية والمذهبيات والأحزاب السياسية، وأشخاص الحكام في الدول الرأسمالية والشيوعية على السواء.

ومن مدخل طبيعة وبنية النظام الدولي، يعتنق دعاة هذا التأويل، أن الفوضى

العالمية واحتفاظ كل وحدة سياسية بسيادتها هو الأصل الذي ينبغي أن يكون لفهم طبيعة الصراع، وانه لأجل حلحلة جميع أنواع الصراع فإن الأوجب هو نزع السيادة من أي دولة، وتكوين حكومة عالمية واحدة تذوب فيها كل تلك السيادات، وفي دفاعه عن هذا المفهوم يقول المفكر الأمريكي "ويكوم": أن الصراعات والحروب لن تنتهي طالما بقي النظام الدولي القائم على تعدد الدول، وان السلام لن يتحقق ما بقيت هذه التعددية، وشكك في مقدرة الأمم المتحدة على الاضطلاع بهذه المهمة، كونها الضامن والحامي لتعدد السيادات الوطنية في المجتمع الدولي.

وغير هذه من المداخل أو الأفهام التي تسعى لتعليل وتفسير ظاهرة الصراع، يوجد المدخل الجيوبولتيكي الذي يعتبر أن الدولة كائن حي، وينمو ويتمدد، والحدود المرسومة للدولة إنما هي عائق مصطنع أمام تمددها ورغبتها في التوسع.

ويوجد المدخل السياسي الذي يستخدم منطق التحالفات والتكتلات، والمدخل الاقتصادي وغيرها من المداخل، والتي إن تتبعانها وانشغلنا بها، لطال بنا الكتاب فيما لا فائدة في إطالته، ولأنصرف منا موضوع

الكتاب وأغراضه إلى مناحي أخرى، وحسبنا في ذلك بما أشرنا إليه في تفسير النزاع أو الصراع.

المثالية والواقعية

يعتقد "هانس مورجانثو " و"كينيث تومبسون" أن جوهر العلاقات الدولية هو السياسة الدولية، التي مادتها الأساسية الصراع من اجل القوة بين الدول ذات السيادة.

توجد للعلاقات الدولية عدة تعريفات ومعاني، عرف " جيمس برايس" العلاقات الدولية عام 1922 بأنها تلك التي تعني بالعلاقات بين الدول والشعوب المختلفة، وكتب " غريسون كيرك" و "والتر شارب" في العام 1940 أن العلاقات الدولية تعني بتلك القوي الأساسية الأكثر تأثيرا في السياسة الخارجية، وقدم " ريمون ارون" تعريفا آخرا للعلاقات الدولية معتبرا أنها تمثل العلاقات بين الوحدات السياسية الموجودة في العالم، منذ عصر الدولة_المدينة الإغريقية وحتي الدولة القومية المعاصرة، وتعني العلاقات الدولية حسب "ستانلي هوفمان" بالعوامل والنشاطات التي تؤثر في السياسات

الخارجية، وفي قوة الوحدات (مختلف أشكال الدول) في العالم، واعتبر "جون بورتون" أن العلاقات الدولية تعني بالدراسة والتحليل والتنظير بغية شرح وفهم العلاقات بين الدول، وتلك العلاقات الموجودة في النظام العالمي ككل، والتنبؤ بتطورها. 2 ،وعرفها "روبرت غيلبن " بأنها :صراع متكرر من أجل الثروة والسلطة بين الجهات المستقلة في الفوضى الدولية.

وعلى تعدد تعريف معنى العلاقات الدولية تعتقد المدرسة المثالية أن علاقة الدول بعضها البعض إنما ينبغي أن تكون من منظور الأخلاق، وهذه الأخلاق التي يخضع فيها الجميع للقواعد والقوانين التي وضعت لخدمة الجماعة، هي وحدها الضامن لتحقيق مصالح الدولة وأهدافها المطلوبة، وتعتبر أن مصلحة الفرد الذاتية هي مصلحة الدولة إذا كانت مصالحه مضبوطة ومقيدة بالأخلاق، كما أن الدولة مصلحتها هي مصلحة الأفراد، إذن فالأخلاق هي التي تحكم الجميع حكاما ومحكومين.

المدرسة الواقعية من ناحية ثانية، والتي تمثل كتابات "هانس مورجانثو" (السياسة بين الأمم) 1948و "كار"(أزمة الأعوام العشرين)

و"كينيث والتز" (نظرية السياسة الدولية) 1939 1979 من أكثر الكتابات تأثيرا على مدار القرن العشرين، تعتبر أن القوة في معناها المادي والمحسوس تؤسس إلي فهم وتحليل العلاقات الدولية، وترفض وتنكر الأخلاق كمبدأ لتفسير العلاقات الدولية، مثلما يقرر "مكيافيللي": أن الأخلاق هي نتاج القوة، وهو معني يتفق مع معني الذئبية التي يصف بها "هوبس" النفس البشرية، وهي نظرة تشطح بعيدا عن المألوف والمتصور والواقع والدين.

وتفترض الواقعية السياسية انه برغم تداخل المجالات غير السياسية في العمل السياسي وأهميتها المتناهية، إلا أنها ترغم تلك المجالات علي الخضوع والإذعان للسيطرة السياسية، عليه فإن النظرة الطبيعية للقوة في مفهوم المدرسة الواقعية، هي نظرتين ورؤيتين: الأولي تفترض أن القوة محكومة بفعل الطبيعة البشرية، والطبيعة البشرية مجبولة علي السيطرة وفرض الذات والهيمنة، وفيما يختص بالدولة فإنها تنطلق من ذات الفهم الذي يجعل من الدولة باحثة عن السيطرة والزعامة والتوسع والتمدد

الإمبريالي، وهذا المنظور موجود وقائم منذ بداية البشرية إلي يومنا هذا.

الرؤية الثانية تفترض أن علاقات الدول بعضها البعض لا يحكمها مفهوم القوة الناشئ من الطبيعة البشرية التواقة للسيطرة والزعامة، ولكن يحكمها التوق إلى الأمن والرغبة في الاستقرار، في مجتمع دولي يتسم بالفوضى والفلتان، والذي من أجله تعمل الدولة والأفراد لزيادة القوة، غير أنه في سعيها وتوقها ذاك، فإنها تزداد افتقادا للأمن وتكثر نزاعاتها، لان المجتمع الدولي بوحداته السياسية كله يعمل لذات الهدف.

وتتلاقى الرؤيتين في أن المصلحة وتحصيلها وتعظيمها، هي المعيار الذي يحكم توجيه القوة في العلاقات الدولية، سواء كانت مصالح أولية أو ثانوية، أو دائمة أو مؤقتة أو متغيرة.

في ذات السياق يقول (ناصيف يوسف حتى) في (النظرية في العلاقات الدولية): إن "مورجانثو " يعتبر المصلحة هي المقياس الدائم الذي يمكن على أساسه تقويم وتوجيه العمل السياسي.3

يمكن القول إنه في منظور الواقعية السياسية تمثل القوة الوسيلة والمحرك

الفاعل لتحصيل المصالح والأهداف، التي يتم تصنيفها وتحديدها باعتبارها مسلمات واجبة الإنفاذ في الدولة، غير أنها تهمل عن عمد النواحي الأخلاقية والمثالية التي ينبغي على الأقل مواكبتها في مجال القوة.

وفي ذات المنظور تهمل المدرسة الواقعية مجمل العوامل التي تؤثر أو تحدد الأهداف، فلا توضح مثلا لماذا يختار صانع القرار في وقت معين التصرف بشكل معين وليس بشكل أخر، كذلك لا تهتم الواقعية بدراسة البنى المجتمعية للدولة، والاعتبارات الداخلية التي تحدد وتؤثر في قوة الدولة وفي سلوكية صناع القرار واختياراتهم.4

في حين أن الرؤية المثالية تعتبر أن الإرادة وحرية الاختيار، هي موجهات أساسية للأفراد لفهم العلاقات الدولية ومن منظور أخلاقي، وان الصراع في حقيقته هو اختلاف في المبادئ والمثل، وانه ينبغي أن تكون مرجعيته وحل إشكاله في إطار ديمقراطي أكثر من اعتباره تنازعا وتنافرا، في مجتمع فوضوي تغيب فيه الأخلاق ونوازعها، وان الصراع ملازم طبيعي رغم بشاعته لمراحل التاريخ التي يمر بها البشر، ومن أظهر صور

ذلك الصراع الأخلاقي هو اعتداء الفاشيون على الديمقراطية إبان الحرب العالمية الأولى.

يعطي المثاليون أولوية للأخلاق في العلاقات بين الأفراد، ويعتقدون أن واجب الفرد الخضوع للقوانين والقواعد التي وضعت لخدمة الجماعة، وان مصلحة الفرد هي مصلحة الجماعة، ومصلحة الجماعة هي نفسها مصلحة الفرد.

الرؤية الواقعية السياسية ذات نظرة أحادية في فهم العلاقات الدولية من منطق القوة، وفي فهم مختلف ومتضاد مع المعني المثالي الأخلاقي، وتعتبر المدرسة الواقعية السياسية أن السببية الثابتة التي تصل أحيانا إلى درجات الجزم والحتمية، هي المرتكز الأساسي الذي ينبغي أن تصنع القرارات وتوضع الخطط والمناهج والاستراتيجيات من خلاله، وان الصراع في المجتمع الدولي إنما حقيقته القوة وزيادتها، لا الأخلاق والمثاليات، وعليه فان النزاعات والاقتتال والخلافات بين الدول هي سمة دائمة وتوصف بالمعقولية.

"كينيث والتز" جمع في تصوره الأول في كتابه (الإنسان والدولة والحرب)دعوات علماء النفس والاجتماع لتقليل الحروب ومنع

أسبابها، فقد ذكر أن بعض علماء النفس والاجتماع، دعوا إلى تصميم مداخل الجمعية العامة للأمم المتحدة ومجلس الأمن واليونسكو، بحيث يضطر ممثلو الدول إلى المرور عبر ملعب حضانة أطفال في طريقهم لقاعات الاجتماع، ويعتقد آخرون بإمكانية دعم قضية السلام من خلال استبدال الرجال بالنساء في حكم الشعوب، وذكر أن هناك مقولة رائجة مفادها أن زيادة التفاهم بين الشعوب تفضي إلى رفع وتيرة السلام، وهناك قول آخر على نفس القدر من الرواج، مفاده أن تحسن تكيف الأفراد الاجتماعي يتم عبر الحد من مشاعر الإحباط وانعدام الأمن لديهم، وان من شأنه أن يحد من احتمال وقوع الحرب، ويجادل آخرون أن سبب وقوع الحرب يكمن في توقع الناس، وللتخلص من الحرب ينبغي تغيير توقعاتهم، ويرى "جيمس ميللر" أن الجهل برغبات الشعوب الأخرى وغاياتها وصفاتها المميزة، يفضي إلى بروز مشاعر الخوف، فالخوف بالتالي احد اهم أسباب العدوان، ويرجح آخرون وسيلة تمكن من القضاء على الحرب، وهي انه ينبغي علينا في سبيل السلام أن نسعى إلى "فهم الذهنيات" التي يتمتع بها البشر، وانه لا يمكن أن نقترب من "المستويات الأساسية للمشكلة" إلا من خلال التعامل مع "الدوافع الداخلية

للبشر". إذا أردنا أن نحقق السلام في العالم فعلينا أن نرتب بيوتنا وأذهاننا. ويدعي بعض علماء السلوك أيضا، أن تعزيز قضية السلام العالمي ممكنة بعد اقتراحهم حلولا تعتمد في فاعليتها على الوجود المسبق للحكومة العالمية، أما " غوردون البورت" فينتهج هذا المنطق نفسه حيث يقول: الوسيلة الوحيدة للتخلص من الحرب تتمثل في القضاء على توقع حدوثها، أو تغيير توقعات حدوثها لدى القادة والاتباع ولدى الآباء والأبناء.

إلا أن" والتز" يخلص إلى أن كل ما تقدم ذكره من إسهامات لتفسير قيام ونشوب الحروب قد حكم عليها بعدم الفاعلية، بسبب قصورهم عن ادراك أهمية الإطار السياسي للعمل الدولي، فلو اتصف كل البشر بكمال الحكمة وضبط النفس لما نشبت الحروب، لو تهيأت الإمكانية في العالم لبناء الجماعات على نحو يشبع كل الرغبات، ويوفر متنفسات لكل الدوافع الكامنة في البشر، التي من شأنها أن تدمر ذلك البناء لما نشبت الحروب بعد ذلك، لقد اثبت علماء السلوك انه عند مواجهتهم مشكله حقيقية _مثل كيفية التعامل بانسجام مع الحلفاء _تقل احتمالية وقوعهم في الأخطاء التي تناولناها بالدراسة، وهذا

ببساطة هو إيضاح أخر للغرض هنا والمتمثل في انه كلما ادخل علماء السلوك في حساباتهم عنصر السياسة على نحو اكمل، أصبحت جهودهم للإسهام في تعزيز السلام أقرب للاعتدال والأقناع.

تعريف القوة: طرح "الليبراليين" أو "المثاليين"

سيطرت المثالية على دراسة العلاقات الدولية منذ نهاية الحرب العالمية الأولى وحتى أواخر الثلاثينات من القرن العشرين، ومن أبرز رموز الليبراليين "ايمانويل كانط"، و "ريتشارد كوبدن"، و" نورمان آنجل"، و" جون هوبسون".

من وجهة نظر "الليبراليين" أو "المثاليين" فان مفهوم القوة لا يمثل مفهوما أساسيا في العلاقات الدولية، إذ أنهم ينظرون إلى العالم وعلاقاته من زاوية" مثالية "أو "طوباوية"، من ناحية أن العالم ينبغي أن يسوده السلام، وأن تتواجد فيه الدول الطيبة، وبهذه الحالة فلا يوجد مبرر للحروب ولا حاجة للقوة ذاتها، وحتى لا تجنح الدول" الشريرة" لإشعال الحروب، فان أوجب

ما يكون هو أن تسود الدول "الطيبة" أو "الديمقراطية" في العالم.

مفهوم القوة والحرب في المدرسة الليبرالية، يستبدل بمفهوم القوة الاقتصادية والرخاء، وزيادة الثروة والمؤسسات الاقتصادية المتعاونة بين الدول، لان الدولة إذا وصلت إلى مراحل الاكتفاء والاستقرار الاقتصادي، فان ذلك من شأنه أن يجعل المسافة بينها وبين التفكير في استخدام القوة والحروب ابعد كثيرا.

المدرسة الليبرالية الجديدة تؤكد تلاقي المصالح بين الدول ، يقول "علي جلال معوض" في (مفهوم القوة الناعمة وتحليل السياسة الخارجية): أن هذا التلاقي يكون علي نحو يؤدي لإنشاء مؤسسات وترتيبات، يكون من شأنها ترويض قوة الدولة، وهو ما يعطي تبعا لذلك انطباعا ضمنيا بأن المؤسسات مناقضة لقوة الدولة، وتبرز المدرسة الليبرالية كذلك أن العديد من الظواهر والنواتج المهمة في العلاقات الدولية لا تجد تفسيرها في القوة فقط، وإنما يمكن فهمها علي نحو أفضل بالرجوع إلى تأثير الديمقراطية والترتيبات المؤسسية الداخلية، وطبيعة شبكة المصالح المحلية

داخل الدول، والقيم الليبرالية، والاعتماد الاقتصادي المتبادل، والمؤسسات الدولية.5

النظريات الليبرالية الرئيسية الثلاثة تعتمد القوة الاقتصادية مصطلحا رئيسا وأساسيا للعلاقات الدولية، دون اعتماد مفهوم القوة بمعناه العسكري لتفسير العلاقات بين الدول، فالنظرية الأولى تعتبر الدول هي الفاعل الرئيس في العلاقات الدولية، عليه فان الدولة ينبغي أن توجه كل اهتمامها لزيادة مقدرتها الاقتصادية ورفع مستواها الاقتصادي، لأنه إذا وصلت إلى هذه المستويات فإنها ستفقد أو تنتفي لديها الرغبة في الحروب ومنازلة الآخرين، وفي الوقت نفسه فإنها ربما تفقد كل ما جلبته واكتنزته من الثروة، أو ما سوف تجلبه من ثروات، إذا حاربت دولا غنية كانت ترتبط معها بعلاقات اقتصادية، بناء عليه فإن استعمال القوة بمعناه العسكري يبدد الثروات، واستعمال القوة بمعناه الاقتصادي يحافظ على الثروات ويزيد في نمائها.

وتدفع النظرية الرئيسية الثانية للمفهوم النظري الليبرالي، باعتماد الدولة ذات السلوك الديمقراطي، أو "الدولة الطيبة" في مقابل نبذ وترك الدولة الدكتاتورية أو

المستبدة، أو "الدولة الشريرة"، وتؤكد أن الدول الديمقراطية لا يمكن أن تستعمل القوة العسكرية وتتحارب فيما بينها، عليه فالحاجة إلى عالم ديمقراطي أمس وأوجب، لأنه سيكون عالما خاليا من الحروب بحسب نظرية السلام الديمقراطي.

وأخيرا فان الاهتمام الكبير بالمؤسسات الاقتصادية الدولية في المفهوم الليبرالي، سيضيق من نشوب الحروب واستعمال القوة بمعناها العسكري، بل إنها على العكس من ذلك ستوسع من نطاقات التعاون الاقتصادي بين الدول.

المؤسسات لا تعتبر جهات سياسية مستقلة تقف فوق الدول وتفرض عليها التصرف بطرق مقبولة، ولكنها تحدد القواعد للتعاون والتنافس المقبول بين الدول، والدول وحدها هي المسئولة عن الالتزام بهذه القواعد، هذه المؤسسات يمكن أن تغير سلوك الدول تغييرا كبيرا، بل إنها بحسب المفهوم الليبرالي يمكن أن تثني الدول عن حساب مصلحتها، والمحصلة هي إبعاد شبح الحرب والصراع وتقريب السلام.

في كتابه (أزمة الأعوام العشرين) انتقد "كار" المثاليين، وقال المثالية: هي تعبير

عن الفلسفة السياسية الخاصة بالقوى العظمى الراضية، وكانت ببساطة نتاج مجموعة معينة من الظروف الاجتماعية والسياسية والتاريخية، وليست مجموعة قواعد أخلاقية خارجة عن الزمن ومكرسة من أجل أهداف كونية، وحينما واجهت مشكلة سياسية ملموسة، لم تتمكن من إيجاد معيار مطلق ومجرد من كل مصلحة لإدارة السياسات الدولية.

وينبه " كار" إلى التأكيد على القوة القاهرة للقوى الحالية، والطابع الحتمي للميول الحالية، والإصرار على أن الحكمة تكمن في تقبل الذات وتوطينها على تلك القوى والميول.

وعندما كتب "كار" كتابه ذاك في أواخر العقد الرابع من القرن العشرين، فانه كان يحذر مواطنيه من مثاليتهم المفرطة في أمور السياسة الخارجية، ويذكرهم بأن التنافس على القوة بين الدول هو جوهر السياسة الدولية.

ولم يذهب "رينولد نيبور" بعيدا عن أفهام وأفكار " كار" و"ميكافيللي" و"هوبس"، فهو يعتقد أن مأساة الطبيعة البشرية تتجذر في غريزة الأنانية في الإنسان ورغبته في القوة، حيث أن انقياد العقل للتعصب والعاطفة

والأنانية غير العقلانية لا سيما في سلوك الجماعات، كلها أمور تجعل من الصراع الاجتماعي حتميا في التاريخ الإنساني، ربما إلى نهايته البعيدة.

وفي ذات النظرة التشاؤمية بخصوص الطبيعة البشرية، كان "جورج كينان" يعتبر أن الإنسان لا يزال حيوانا! يعتمد بحكم طبيعته الفطرية على القتال، ويعتقد "باترفيلد" انه: في داخل الدولة يتم ترويض الطبيعة البشرية من قبل السلطة السياسية القائمة، أما في البيئة الدولية فإن الفوضى لا تسمح فحسب بظهور آثار طبيعة البشر، بل إنها تحفز أسوأ جوانب الطبيعة البشرية لكي تعبر عن نفسها.

وينتقد "ميرشايمر" في كتابه (الوهم العظيم) النظام الليبرالي، فهو يعتقد أن الهيمنة الليبرالية استراتيجية طموحة، تهدف من خلالها دولة ما إلى تحويل اكبر عدد ممكن من البلدان إلى ديمقراطيات ليبرالية على صورتها، في الوقت الذي تسعى فيه إلى تعزيز الاقتصاد الدولي وبناء المؤسسات الدولية، والكثيرون في الغرب(خاصة في أوساط نخب السياسة الخارجية) ينظرون إلى الهيمنة الليبرالية باعتبارها سياسة

حكيمة، ينبغي للدول أن تتبناها بلا ارتياب، فيقال أن نشر الديمقراطية الليبرالية من شأنه أن يخلق شعورا جيدا من المنظورين الاستراتيجي والأخلاقي على السواء، بداية يسود الظن أن الليبرالية طريقة مثلى لحماية حقوق الإنسان، التي تتعرض أحيانا لانتهاكات شديدة من قبل البلدان السلطوية، ولأن تلك السياسة تفترض أن الديمقراطيات الليبرالية لا ترغب في خوض الحرب ضد بعضها البعض، عليه فان الليبرالية تقدم صيغ يمكن من خلالها تجاوز الواقعية وتعزيز السلام الدولي، وختاما يزعم مؤيدو الهيمنة الليبرالية أنها تساعد على حماية الليبرالية داخل الوطن، من خلال إزاحة الدول السلطوية، التي قد تساعد القوي غير الليبرالية دائمة الحضور داخل الدولة الليبرالية.

يقول "ميرشايمر" إن هذه الحكمة السائدة خاطئة، نادرا ما تكون القوي العظمى في وضع يسمح لها بممارسة سياسة خارجية ليبرالية على نطاق واسع، فطالما وجدت قوة أو قوتان عظيمتان على الأرض، فلن يكون لديهما خيارات سوى العناية الشديدة بموقعها في توازن القوي العالمي، وان تتصرف وفقا لمقتضيات

الواقعية، إن القوي العظمي من كل الخلفيات الفكرية تهتم بشدة ببقائها، حيث يلوح دائما في ظل النظام ثنائي أو متعدد القطبية خطر أن تتعرض لهجوم من قبل قوي عظمي أخرى في تلك الظروف، دائما ما تتبنى القوي العظمي سلوكا متصلبا بخطاب ليبرالي، إنها تتحدث مثل الليبراليين وتتصرف مثل الواقعيين، أما اذا تبنت السياسات الليبرالية التي تتضارب مع المنطق الواقعي فمن المحتم أن تندم على هذا الاختيار.

الجذور التاريخية للفكر الواقعي

بالرجوع إلى تاريخ العلوم السياسية والعلاقات الدولية، ربما تعتبر واقعية "ثيوسيديدس" المعقدة أو المركبة، وواقعية "مكيافيللي" الأصولية، وواقعية "هوبس" الهيكلية، من الأصول التاريخية التي ترجع إليها كل نظريات الواقعية المعاصرة.

"مورجانثو" يشير إلى تلك الأصول صراحة في كتابه (السياسة بين الأمم) ويقول: إن القوة طريقة فجة وغير موثوق بها، من طرائق تحديد التطلعات إلى السلطان على المسرح الدولي، ولو كانت الحوافز على الصراع من اجل السلطان والأدوات التي يستخدمها هذا الصراع هي كل ما يطلب من دارسي السياسات

الدولية أن يعرفه، فان المسرح الدولي سيغدو والحالة هذه مماثلا للحالة الطبيعية الفطرية، التي وصفها "هوبس" بأنها "حرب كل إنسان ضد الآخرين". وتكون السياسات الدولية في مثل هذه الحالة خاضعة لتحكم تقديرات المصلحة السياسية وحدها، وهي التقديرات التي أجاد "مكيافيللي" وصفها وتحدث عنها بمنتهى الصراحة والوضوح، فالضعيف في مثل هذا العالم فريسة للقوي وتحت رحمته، والقوة هاهنا هي التي تخلق الحق والحالة هذه.

توجد عدة اختلافات بين واقعية "ثيوسيديدس" و"مكيافيللي" و"هوبس"، ففي الوقت الذي اهتمت فيه الواقعية المكيافيللية على الطبائع الأنانية للبشر، وإقصاء الأخلاق من السياق السياسي، ركزت الواقعية الهوبسية على ذئبية البشر والإنسان، وتقديم السياسة على الأخلاق، بينما أكدت واقعية "ثيوسيديدس" سعي الفواعل لاكتساب القوة والثروة في وجود الفوضى خلال السياق التاريخي، الوقوف على هذه الأصول التاريخية على اختلاف مشاربها، ربما تسهل من دراسة مفهوم القوة في الواقعية المعاصرة على كثرة مدارسها ومنظريها.

ثيوسيديدس" (460ق.م _395ق.م)

يعتبر المؤرخ الإغريقي "ثيوسيديدس" في كتابه (تاريخ الحروب البيلو بونيزية) أن النفس البشرية وقت الحرب هي نفس شريرة لا تتردد عن الأعمال القبيحة، ولا تراعي أي قيم للعدالة والإنسانية، ولا كابح للعواطف لديها.

وفي أثناء دراسته لأسباب الحرب بين أثينا وإسبارطة، ظهرت تحليلات "ثيوسيديدس" عن مفهوم القوة وتوازن القوى، ومفهوم الأمن القومي.

يذهب "ثيوسيديدس" إلى أن العلاقات بين الدول هي علاقات نزاع في الأصل بين الدول الإغريقية التي تشكل مجتمعة حضارة "هيلاس" وبين الإمبراطوريات غير اليونانية المجاورة ل "هيلاس"، لأن التكافؤ في القوة منعدم فيما بينهم، وفي ظل انعدام التكافؤ في القوة بين الدول، فان المصلحة تقتضي تكيف الدول مع الواقع الخارجي لضمان حفظ القوة وبقاء الدولة، أو تواجه الدمار والاندثار، مثل اندثار الإمبراطوريات والدول عبر التاريخ.

ويرجع أسباب نشوب الحرب بين أثينا وإسبارطة إلى التحول في توازن القوى، ففي الوقت الذي كانت فيه أثينا قوة صاعدة

ومتزايدة، كانت مخاوف الإسبارطيين تتزايد تبعا لذلك، مما جعلهم يقومون بحرب وقائية ضد أثينا.

مفهوم القوة والقوة المفرطة والتوسع الإمبريالي لدى الاثينين، يرجعه "ثيو سيديدس" إلى الدوافع الذاتية ودوافع المصلحة لديهم، ووفقا لمفهوم الاثينين: فان الأقوياء تدفعهم القوة لان يحكموا غيرهم، وان الضعفاء لا يبقى لهم إلا الإذعان والاستسلام.

" نيقولا مكيافيللي" (1469م _1527م)

دعا "مكيافيللي" في كتابه (الأمير) _الذي يعتبر أسواء كتاب عرفه البشر _الحاكم إلى استخدام الوسائل وان كانت مذمومة لتحقيق الغايات، لأن الغاية تبرر الوسيلة من وجهة نظره، ويعتبر "مكيافيللي "البشر أنانيون لا هم لهم إلا ذواتهم، ويتصفون بالتقلب المستمر والقدرة على الروغان، واعتبر أن المسئول عن توجه الدولة ليست الأخلاق والصفات الفاضلة إنما هي السياسة، فأقصى الأخلاق عنها، كما دعا إلى فصل الكنيسة ورجال الدين عن السياسة رغم ضرورة الكنيسة والدين، ودعا الأمير إلى الاتصاف بصفات الخير والعمل بها، والاتصاف بالشر والعمل

به، والمرجوح والمرغوب دائما هو الاتصاف بالشر بدلا من الخير.

وفي كتابه استعان "مكيافيللي" بالتاريخ، واستقصى الأحداث وسبر أغوارها لمعرفة ارتباطاتها وإمكانية تكرارها، كما حاول وضع تعميمات في حالة تكرار الحوادث، للوصول إلى قواعد عامة توضع أمام الحكام لتساعدهم في تبني المواقف.

والمكيافيلية باعتبارها منهجا عمليا للحكم تقوم كما رسمها واضعها في (الأمير) على ثلاثة أسس متلازمة، مستمدة من تصور لا ديني صرف هي:

1_الاعتقاد بان الإنسان شرير بطبعه، وان رغبته في الخير مصطنعة يفتعلها لتحقيق غرض نفعي بحت، ومادامت تلك هي طبيعته المتأصلة فلا حرج عليه ولا لوم إذا انساق وراءها.

2_الفصل التام بين السياسة وبين الدين والأخلاق، فقد رسم "مكيافيللي" للسياسة دائرة خاصة مستقلة بمعاييرها وأحكامها وسلوكها عن دائرة الدين والأخلاق، وفرق "مكيافيللي" تمام التفريق بين دراسة السياسة ودراسة الشؤون الأخلاقية، وأكد عدم وجود أي رابط بينهما.

3_إن الغاية تبرر الوسيلة: وهذه هي القاعدة العملية التي وضعها "مكيافيللي" بديلا عن القواعد الدينية والأخلاقية، ولذلك فان لها عنده تفسيرا خاصا.6

وفي كتابه يدعو إلى ضرورة تعلم فن الحرب، ويعتقد "مكيافيللي" أن عدم فهمه فهما عميقا هو السبب في ضياع الإمارة. إن القتال له طريقتين: طريقة القانون وهي التي يحارب بها البشر، وطريقة الحيوانات، وعلى الأمير _يقول "مكيافيللي" _تعلم القتال والحرب بكلتيهما.

ورغم أن "مكيافيللي" قدم في كتابه (الأمير) :إنني اعتبر أن هذا الكتاب المتواضع قد لا يرقى لقبول سموكم، إلا إنني واثق من عطف سموكم وقبولكم له، فسموكم تعلمون أنني غير قادر على إهدائكم ما هو أعظم أو اكثر قيمة من هذا الكتاب، فهو يمكن سموكم من التعرف في وقت قصير على كل ما اكتسبته طوال حياتي، وما تحملت من أجله الكثير من الأخطار والفقر طوال سنوات عمري الطويل، وانا لم أتعمد بأي حال أن أجمل كتابي هذا بالمحسنات والكلمات المؤثرة المفتعلة؛ وهو أمر يتبعه كثير من الكتاب، كما إنني لا أعتقد أنه من غير اللائق أن

يتجرأ رجل بسيط من عامة الشعب مثلي، على مناقشة الأمراء وتوجيه الحكومات، فمصوري المناظر الطبيعية ينزلون إلى الوديان ليتمكنوا من رسم الجبال، ثم انهم يصعدون إلى أماكن مرتفعة حتى يتمكنوا من رؤية السهول والوديان، ولذلك فمن الضروري أن تكون أميرا حتى تعرف طبيعة شعبك، كما أنه يجب أن تكون احد الرعية كي تعرف الحقائق المتعلقة بالأمراء، وانا استأذن سموكم أن تقبل هديتي المتواضعة، فاذا نظرتم إليها مليا يا صاحب السمو، فستجدون إنها تعبر عن رغبتي الصادقة المخلصة، في أن يبلغ سموكم شأنا رفيعا انتم أهل له، لمنبتكم الشريف وصفاتكم الشخصية الفذة.

رغم كل ما كتبه أو حاول أن يروغ به أو يحسن من وضعه، فقد اعتبر علماء الأخلاق في فرنسا وبريطانيا أن محتوى الكتاب يبدو مناسبا فقط للطغاة والأشرار.

" توماس هوبس" (1588م _1679م)

يتمثل فكر "هوبس" السياسي في النظرة التشاؤمية للإنسان، وهو يشابه في ذلك سلفه "ثيوسيديدس" الذي ترجم له "هوبس" (الحروب البيلوبونيزية).

يرى "هوبس" في كتابه (اللفياثان) أن الإنسان أناني محب لذاته ورغبته، وتحركه الرغبات والشهوات، وأخلاقه ذئبيه، ويعتقد أن مشكلة السياسة تتمثل في النزاع والصراع، وغياب الاستقرار وانتشار الفوضى، بسبب الطبيعة البشرية المتمثلة في اندفاع الجميع لتحقيق وإرضاء رغباتهم وشهواتهم، وفي "الحالة الطبيعية" فانه يعيش بفكرة الخوف وافتقاد الأمن، في ظل عدم وجود سلطة حاكمة منظمة لحياته وسلوكه ، مما يجعل الكل يخوض الحرب ضد الكل؛ أما في "الحالة المتحضرة" فان اتفاق المجموعات على الدولة والسلطة الحاكمة، وفي وجود مواثيق وعهود، يمكن العيش في أمن وتغيب الفوضى، والعهود التي لا تظللها السيوف ليست إلا كلمات لا طاقة لها بحماية الإنسان، إلا انه نفى أن تكون "الحالة الطبيعية" قد حدثت في أي زمن من الأزمان.

كل مولود أول ما يولد فإنه يولد علي الفطرة وهي الإسلام، قال النبي صلى الله عليه وسلم :"كل مولود يولد على الفطرة، حتى يعرب عنه لسانه، فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه "7،لا يولد الإنسان علي نزعة الشر والاقتتال والحرب، لان الإسلام ليس

دين شر وبغضاء، بل دين محبة وتسامح وسلام، لكن "هوبس "يصف الإنسان الذي كرمه الله علي سائر من خلق بأخلاق الشر وأخلاق الذئاب، لاهم له إلا الحروب والدماء، ولابد من سلطة تردعه وتزجره، وفي هذه الأخلاق الذئيبية يقول "مونتسكيو" في (روح الشرائع) :ويسأل "هوبس" "إذا كان الإنسان في غير حال حرب، فلماذا يسيرون مسلحين دائما؟ ولم يكون لديهم من المفاتيح ما يغلقون به منازلهم؟ "ولكن لا يشعر بأنه يعزي إلى الناس قبل تأسيس المجتمعات ما لا يمكن أن يحدث لهم إلا بعد هذا التأسيس الذي يجعلهم يجدون فيه من العوامل ما يتقاتلون معه، وما يدافعون به عن أنفسهم.8

يقول" والتز ":عند اطلاع" مونتسكيو "، و" روسو "على محاولات الفلاسفة الآخرين لفهم حالة الطبيعة الحقيقية أو الافتراضية كانت تعليقاتهم متشابهة، إذ يقول "مونتسكيو" عن "هوبس"، أنه" يعزو للجنس البشري _في حالة ما قبل إنشاء المجتمع _ما يمكن أن يحدث بعد إنشاء المجتمع، يؤكد" مونتسكيو" و" روسو "كلاهما على أن حالة الطبيعة في فكر" هوبس"_ وينطبق نفس الشي على" سبينوزا "_ما هي إلا خيال نشأ من افتراض أن الناس في

الطبيعة، يتمتعون بكل الخصائص والعادات التي يكتسبونها في المجتمع، ولكن بدون القيود التي يفرضها المجتمع.

إن رؤية " هوبس" المتشائمة والتي تنعت الإنسان بأقبح الصفات وهي صفة الأخلاق الذئبية، تتشابه مع كثير من المنظرين الذين يرجعون اصل الحروب وأسبابها إلى طبائع الإنسان، ومنهم "كونفوشيوس" الذي زعم أن أسباب الحروب ومنشأها، هو الإنسان وطبائعه بشكل أساسي، أما الأسباب الأخرى فتعتبر أسبابا ثانوية، ودعا إلي الاهتمام بالارتقاء بالنفس الإنسانية وتهذيبها، بدلا من معالجة الأسباب الأخرى في فهم كيفية أبطال الحروب بين البشر و صنع السلام، وقد ابطل حديث النبي محمد صلى الله عليه وسلم كل تلك الدعاوي والهرطقات التي تجتهد فيما لا تعلم وما تعلم، بقوله صلى الله عليه وسلم :"كل مولود يولد على الفطرة" والفطرة هي الإسلام، والإسلام دين محبة وسلام وخير، وليس شر أو حروب أو بغضاء بين البشر.

ويعتقد " هوبس" في كتابه (اللفياثان) بان الطبيعة (أي الفن الذي صنع به الله العالم ويحكمه)يقلدها فن الإنسان كما يقلد أشياء كثيرة أخرى، إلى حد إمكانية صنع

حيوان اصطناعي، وبما أن الحياة ليست إلا حركة للأطراف تكمن في بدايتها في قسم رئيسي ما في داخلها ، فلماذا لا يمكن القول أن لكل الآلات (التي تتحرك ذاتيا بواسطة زنبركات وعجلات كما تفعل الساعة) حياة اصطناعية ؟إذن ما هو القلب إن لم يكن زنبركا ، وما هي الأعصاب إن لم تكن أوتارا متعددة، وما هي المفاصل إن لم تكن عجلات كثيرة تحرك الجسم كله تماما كما أرادها الصانع؟ من جهته يذهب الفن إلى ابعد من ذلك، فيقلد الإنسان ذلك العمل العقلاني والفائق الامتياز للطبيعة ، ذلك انه بواسطة الفن يخلق ذلك اللفياثان الضخم المدعو جمهورية أو دولة ، والذي ليس سوى إنسان اصطناعي، وان كان يتمتع بقامة وقوة أضخم من تلك التي يتمتع بها الإنسان الطبيعي، الذي من اجل حمايته والدفاع عنه تم خلقه ، وفيه تشكل السيادة روحا اصطناعية للدولة ، والمفاصل الاصطناعية هو القضاء، والأعصاب هي الثواب والعقاب، والقوة هي ثراء كل الأعضاء وغناهم ، والذاكرة هم المستشارون الذين يشيرون إليه بكل الأشياء التي يحتاجها ، والعقل والإرادة تمثلها المساواة والقوانين، والعصيان هو المرض، والحرب الأهلية هي الموت.

ويعتقد "هوبس" أن تفويض أي إنسان لحقه أو يتخلى عنه، يكون الأمر إما: من اجل حق قد فوض إليه بالمقابل، أو من اجل خير آخر يأمله من وراء ذلك، وهو فعل إرادي، وغرض الأفعال الإرادية عند كل إنسان هو خير ما لنفسه، إن الدافع والغاية من وراء هذا التخلي عن الحق أو تفويضه، ما هو إلا أمن شخص الإنسان في حياته وفي وسائل حفظ الحياة بحيث لا تتعب المرء، إن التفويض المتبادل للحقوق هو ما يسميه الناس عقدا، ويمكن لأحد المتعاقدين أن يسلم الشيء المتعاقد عليه من جانبه، ويترك للأخر أن يؤدي دوره في وقت محدد لاحق، وان يثق به في هذه الأثناء. في هذه الحالة يدعى العقد من جانبه ميثاقا أو عهدا، وقد يتعاقد الطرفان الآن على أن يكون التنفيذ في وقت لاحق، وفي هذه الحالة يسمى إنجاز الطرف للأمر في المستقبل وفاء للوعد، وان الإخفاق إن كان إراديا يسمى والحالة هذه خيانة للعهد، وحين لا يكون تفويض الحق متبادلا بحيث يفوض أحد الطرفين الطرف الأخر، آملا أن يربح من جزاء ذلك صداقته أو خدمة منه أو آملا بالمكافأة في الجنة، فان هذا لا يكون عقدا بل عطاء أو نعمة.

مفهوم القوة والنظرية الواقعية

تعتقد النظرية الواقعية ومن أبرز دعاتها "مورجانثو"، أن المجتمع الدولي هو مجتمع تتغلب فيه لغة المصالح والأهداف، وهي اللغة السائدة فيه أكثر من غيرها، وأنه لا سبيل لتحقيق المصالح وإنجاز الأهداف إلا باكتساب القوة وزيادة القوة، ومن ثم فإن تفاعل المتغيرات المادية وغير المادية داخل الدولة، من شأنه تحديد حجم قوة الدولة، والتحكم تبعا لذلك في مدي التأثير النسبي للهيمنة والسيطرة على الآخرين، وبناء على ذلك فان مفهوم القوة هو الطريق الوحيد لإنجاز الأهداف.

إن القوة السياسية التي تعنيها هذه النظرية الواقعية، يقول "إسماعيل صبري مقلد" في (العلاقات السياسية الدولية دراسة في الأصول والنظريات) هي مدي التأثير النسبي الذي تمارسه الدول في علاقاتها المتبادلة مع بعضها البعض، وهي بذلك لا يمكن أن تكون مرادفا للعنف بأشكاله المادية والعسكرية، وإنما هي أكبر نطاقا من ذلك بكثير، إن القوة السياسية هي الناتج النهائي (في لحظة ما) لعدد كبير من المتغيرات المادية وغير المادية، وان التفاعل الذي يتم بين

هذه العناصر والمكونات، هو الذي يحدد في نهاية الأمر حجم قوة الدولة، وبحسب هذا الحجم تتحدد إمكانياتها في التأثير السياسي في مواجهة غيرها من الوحدات السياسية، ومن هنا تنظر النظرية الواقعية إلي المجتمع الدولي والعلاقات الدولية فيه، علي أنها صراع مستمر نحو زيادة قوة الدولة، واستغلال هذه القوة بالكيفية التي تمليها عليها مصالحها أو استراتيجيتها، بغض النظر عن التأثيرات التي تتركها في مصالح الوحدات السياسية الأخرى.9

تمثل النظرية الواقعية مجموعة من المدارس الفكرية، تتلاقى أحيانا في بعض المفاهيم والافتراضات وتختلف أحيانا أخرى، وتنقسم إلى:

1_الواقعية التقليدية أو "الكلاسيكية".

2_الواقعية الجديدة أو "البنيوية" أو "الهيكلية" أو "العصرية"، التي تنقسم بدورها إلى:

أ_ الواقعية الدفاعية.

ب_ الواقعية الهجومية.

3_الواقعية النيو كلاسيكية.

القوة في المدرسة الواقعية

يعد "مورجانثو " و"سبيكمن" و "اورغنسكي" من منظري المدرسة الواقعية، التي تعتبر القوة هي المقياس الوحيد والأنسب لتحليل وتفسير العلاقات بين الوحدات السياسية، وبقدر ما هي رؤية واجتهاد اتبعه هؤلاء المنظرون، إلا أنها تبقي فرضية واجتهاد بشري يحتمل الخطاء والصواب، أو الإضافة أو الحذف، في عالم السياسة الدولية والمتغيرات والعوامل التي تطرأ على وحدات المجتمع الدولي.

ربما تختلف العبارات والألفاظ التي يعبر بها أي منظر منهم عن القوة بحسب المقياس الذي ينطلقون منه، إلا أنهم يتفقون في النظرة الأحادية للقوة؛ باعتبارها غريزة بشرية متأصلة في النفس البشرية، ففي حين يعرف "نيقولا سبيكمن" القوة باعتبارها القدرة القصوى للدولة علي شن حرب، لان المجتمع الدولي تغيب فيه القوانين الفعالة المنظمة للوحدات السياسية، ويفتقد فيه القوة القادرة علي فرض القانون واحترامه والسير بقضائه وحكمه، لذا فان الدولة تستخدم قوتها وطاقاتها ومقدرتها حتى تدافع عن ذاتها، وتفرض وجودها وكيانها

وبقاءها، في حين يعرفها "سبيكمن" بذلك فان "اورغنسكي" يعتبر الوضع الاقتصادي هو البداية الحقيقية للقوة التي ربما تمر بثلاث مراحل :

1_المرحلة الأولي: مرحلة القوة الكامنة.

2_المرحلة الثانية: مرحلة إنماء القوة.

3_المرحلة الثالثة: مرحلة إظهار القوة.

وعندما يقسم "اورغنسكي" تقسيمه ذاك معتمدا على المستوي الاقتصادي للدولة، فان القوة تأخذ منحي أخر عندما تصنف الدول اعتمادا على مبدأ ومفهوم القوة، فان "مورجانثو" يصنفها على ثلاثة أصناف اعتمادا على سياسة القوة لديها، وتتفاوت وتتباين فيما بينها، أو ربما تتدرج أحيانا من تصنيف لآخر، بحسب معطيات وتفاصيل القوة التي تنطوي عليها الوحدات السياسية :

1_سياسة المحافظة على القوة.

2_سياسة زيادة واكتساب القوة.

3_سياسة إظهار القوة.

القوة وواقعية الطبيعة البشرية: طرح "هانس مورجانثو"

ظلت نظرية واقعية الطبيعة البشرية أو "الواقعية الكلاسيكية "تسيطر على معظم دراسات العلاقات الدولية، حين بدأت كتابات "مورجانثو" في أواخر الأربعينات من القرن التاسع عشر تلفت نظر الكثيرين، وبقيت في ذلك حتى أوائل السبعينات من القرن نفسه.

الافتراضات الأساسية الستة ل "هانس مورجانثو":

يري "هانس مورجانثو" أن السياسة الدولية هي صراع من اجل القوة، وبالتالي فان سلوكيات الدول تحركها وتدفعها الرغبة المتأصلة في اكتساب المزيد من القوة، والمحافظة عليها ولا تألوا جهدا في إنفاذ ذلك باستخدام كل الوسائل المتاحة.

وضع "مورجانثو" ستة افتراضات ومبادئ أساسية منها تتكون النظرية الواقعية، باعتبار أن قصة الفكر السياسي الحديث، هي قصة صراع بين مدرستين تختلفان اختلافا كبيرا في طبيعة مفاهيمهما عن الإنسان والمجتمع والسياسة، كما يقول في (السياسية بين الأمم) ويضيف: إن إيمان المدرسة الواقعية بان العالم وهو يفتقر إلى الكمال

من وجهة النظر العقلانية، هو الثمرة الطبيعية للقوى الكامنة في الطبيعة الإنسانية، وعلى الإنسان إذا أراد إصلاح العالم، أن يتعاون مع هذه القوى لا أن يحاربها، ولما كان هذا العالم تجسيدا لمصالح فطرية متعارضة وتناقضات بين هذه المصالح، فان من العسير إدراك المبادئ الأخلاقية إدراكا كاملا، وان كان في الإمكان تفهمها بصورة تقريبية عن طريق التوازن المؤقت في المصالح، والتسوية المؤدية لعناصر المنازعات، وهكذا ترى هذه المدرسة في نظام الكوابح والموازنات مبدأ عالمي الشمول يجوز تطبيقه على كافة المجتمعات، وهي ترجع إلى السوابق التاريخية، لا إلى المبادئ الاطلاقية في سعيها لتحقيق الحد الأدنى من الشر، إذا عجزت عن تحقيق الخير المطلق .

والمبادئ الستة التي تتكون منها النظرية الواقعية هي:

1_تعتقد الواقعية السياسية، أن السياسة (شأنها في ذلك شأن المجتمع عامة) خاضعة لتحكم عدد من القوانين الموضوعية التي تمتد جذورها في الطبيعة الإنسانية، ومن الضروري لتحسين المجتمع، تفهم القوانين

التي يعيش المجتمع في ظلها أولا، ولما كان عمل هذه القوانين لا يخضع لإيثاراتنا ورغباتنا، فان الناس لا يتخذونها عادة إلا وهم يدركون أن احتمال الفشل في تحديهم أكبر من احتمال النجاح.

2_تتمثل اللافتة الرئيسية التي تساعد الواقعية السياسية في العثور على طريقها، عبر الصورة الأمامية للسياسة الدولية في مفهوم المصلحة، الذي تعرفه تعابير السلطان، ويؤمن هذا المفهوم الصلة بين العقل الذي يحاول فهم السياسات الدولية، وبين الحقائق التي يجب فهمها.

يفرض مفهوم المصلحة كسلطان نوعا من الانضباط الفكري على المراقب، كما يدخل شيئا من النسق العقلاني في مادة السياسة، ويمكن الناس من تفهم السياسة على أسسها النظرية، وهي تؤمن من ناحية العامل في الميدان السياسي طرازا من الانضباط العقلاني في العمل، وتخلق الاستمرار المدهش في السياسة الخارجية، الذي يجعل السياسة الخارجية للدولة تظهر كحلقة متصلة عقلانية ومفهومة تتفق إلي حد كبير مع نفسها، دون أي اعتبار للدوافع والايثارات والمزايا الفكرية والخلقية للساسة المتعاقبين،

وتقوم النظرية الواقعية للسياسة الدولية آنذاك بالحذر والحيطة، من الوقوع في خطأين شائعين: العناية بالحوافز، والعناية بالايثارات العقائدية.

3_لا تضفي الواقعية على مفهومها الأساسي عن المصلحة المسماة بالسلطان معنى محددا في جميع الحالات، ففكرة المصلحة هي في الواقع جوهر السياسة ولبابها، وهي لا تتأثر بظروف الزمان والمكان.

شكل المصلحة التي تقرر العمل السياسي في أية فترة معينة من فترات التاريخ، يعتمد على المحتوى السياسي والثقافي الذي تصاغ فيه السياسة الخارجية، وفي وسع الأهداف التي تتبعها الأمم في سياستها الخارجية، أن تصعد السلم الموسيقي للغايات التي نشدتها في الماضي، أو تنشدها في المستقبل.

4_تعي الواقعية السياسية الأهمية المعنوية للعمل السياسي وعيا كاملا، وتعي أيضا التوتر العنيف الذي لا يقهر بين الفروض الأخلاقية وبين متطلبات العمل السياسي الناجح، وهي لا ترغب في التسامح مع ذلك التوتر وتجاهله، مخافة أن تعقد الناحية السياسية والخلقية عن طريق إظهارها، وكأن

الحقائق الصارخة للسياسة أكثر إرضاء من واقعها، وكأن الواقع الأخلاقي اقل تزمتا من حقيقته، وترى الواقعية أن المبادئ الخلقية العامة والشاملة لا يمكن أن تطبق على أعمال الدول في أشكالها العامة المطلقة، وأنها لابد من تنقيتها وترشيحها، لتكون صالحة لظروف الزمان والمكان المحددة.

5_ترفض الواقعية السياسية الربط بين التطلعات الخلقية لأي شعب وبين القوانين الخلقية التي تسود الكون، وهي كما تميز بين الحقيقة والرأي تميز أيضا بين الحقيقة والعبادة، وتميل بعض الأمم وهي لا تستطيع مقاومة فعلها هذا طويلا، إلى إلباس تطلعاتها الخاصة وأعمالها لبوس الأهداف الخلقية للكون.

6_ تحرص الواقعية على استقلال المجال السياسي، مثلما يحرص القانونيون والاقتصاديون والأخلاقيون على مجالاتهم.

بعكس الرؤية الليبرالية أو المنظور الليبرالي، فان للقوة تعريف آخر عند الواقعيين مثل "كار" و"هانس مورجانثو "و" كينيث والتز ".

ترى نظرية واقعية الطبيعة البشرية أو المدرسة الواقعية، أن القوة ودورها في

سلوكيات الدول والعلاقات الدولية، هي الأصل الذي ترتكز عليه طبيعة هذه العلاقات وان قوة الدولة وزيادتها وتنميتها بكل السبل المتاحة العسكرية والاقتصادية وغيرها، هو صمام الأمان في مجتمع دولي تغلب فيه الفوضى والفلتان.

وتدفع واقعية الطبيعة البشرية أو "الواقعية الكلاسيكية" بأن الدول هي الفاعل الرئيس في العلاقات السياسية، إلا أنها تقصر هذا الدور على الدول العظمى فقط. وفي ذلك يعتقد " هانس مورجانثو " أن الدول مجبولة على الرغبة والشهوة للقوة بل والشهوة الجامحة، وهذه الشهوة تدعوها إلى التقاط أي بادرة للظهور والهجوم والسيطرة، ومن ثم فان هذه الرغبة الغير إرادية للقوة والسيطرة هي التي تقود الدول العظمى للنزاعات والحروب.

وإضافة لهذه الرغبة المجبولة المتأصلة لدى كل الدول في العدوانية للهيمنة والسيطرة، فان النظام الدولي نفسه يعتبر عاملا من الدرجة الثانية لتأجيج النزاعات، ومحاولات جنوح الوحدات السياسية للهيمنة والتفوق والسيطرة، لما في النظام الدولي

من فوضى وفلتان، بمعنى عدم وجود سلطة حاكمة فوق الدول العظمى.

" هانس مورجانثو" يعتبر بذلك أن قوة الدولة هي الرغبة الفطرية للبشر في امتلاك القوة، لكن السؤال هو هل توجه وتضبط رغبات البشر في امتلاك وزيادة وتوجيه القوة أو غيرها، بضوابط وأوامر وتوجيهات عقائدية ربانية، أم تترك النفس ورغباتها؟

القوة والواقعية الهجومية: طرح " جون ميرشايمر "

تعتبر نظرية الواقعية الهجومية أن القوة هي الأساس لبقاء الدولة، وهي بذلك الاعتبار تتفق مع الواقعية الدفاعية؛ إلا أن الجديد الذي أتي به منظر النظرية "جون ميرشايمر"، هو السؤال عن المقدار الذي تحتاجه الدولة.

إن العدوانية والسلوك العدواني هو الأساس لبقاء الدولة في مفاد الواقعية الهجومية، وتتفق الواقعية الهجومية والدفاعية في أن كليهما يصوران سعي الدول بلا كلل إلى القوة، إلا أن الفارق بين الواقعية الهجومية وواقعية الطبيعة البشرية، هو رفض الواقعيين

الهجوميين لادعاء "مورجانثو" بأن الطبيعة وهبت الدولة بشخصيات من النوع الممتاز.

العدوانية التي تتصرف بها الدول العظمى ليست نوازع داخلية أو ذاتية في الهيمنة والسيطرة في اعتقاد "ميرشايمر"، ولكن لأن الواقع يدعوها لان تكتسب المزيد من القوة إذا أرادت أن تعظم من حالات بقائها.

إن النظام الدولي (في طرح الواقعية الهجومية) يجبر القوى العظمى على تعظيم قوتها النسبية، لان تلك هي الطريقة المثلى لتعظيم أمنها، بما يعني أن البقاء يستلزم السلوك العدواني، والقوى العظمى تتصرف بعدوانية ليس لأنها تريد ذلك أو لأنها تتميز بدافع داخلي للهيمنة، بل لأنها مضطرة لان تكسب مزيدا من القوة، إذا أرادت أن تعظم حالات بقائها.

يرى "ميرشايمر" أن أفضل تلخيص للواقعية الهجومية هو ما سبق إليه "ج. لويس ديكنسون" في كتابه الذي لم يجد حظا من الشهرة (الفوضى الأوروبية) الذي يقرر فيه أن السبب الرئيس للحرب العالمية الأولى ليس ألمانيا أو أي قوة أخرى، السبب الرئيس هو حالة الفوضى الأوروبية.

يمكن القول إن الواقعية الهجومية تتخذها بشكل واضح الولايات المتحدة وإسرائيل، إسرائيل مثلا تستخدم الضربات الهجومية والاستباقية فيما هو منظور ومتوقع أكثر من الضربات الدفاعية، بل إن الاستراتيجية التي يقوم عليها جيش الدفاع الإسرائيلي هي الضربات الهجومية والاستباقية لتعظيم حالات بقاء دولة الاحتلال، إن مثال إسرائيل الغاصبة يمثل حالة السعي لفرض الهيمنة من أجل البقاء في أوضح صورها.

يقول "جون ميرشايمر" في كتابه (مأساة سياسة القوى العظمى) : إن سعى الدول العظمى الدؤوب وراء القوة، يعني النزوع إلى البحث عن فرص لتغيير توزيع القوة العالمي لصالحها ، بل أنها تغتنم هذه الفرص إذا توفرت لها القدرات اللازمة، معنى ذلك ببساطة أن القوى العظمى مجبولة على العدوان، بل إن القوى العظمى لا تسعى إلى اكتساب القوة على حساب الدول الأخرى وحسب، وإنما تحاول أيضا أن تحبط المنافسين العازمين على اكتساب القوة على حسابها، ولذلك تدافع القوى العظمى عن توازن القوى عندما يلوح في الأفق تغيير لصالح دولة أخرى، وتحاول أن تقوض ذلك التوازن عندما يكون اتجاه التغيير في

صالحها.. إن القوى العظمى التي تهتم ببقائها وحسب لا تجد مبررا لان تحارب إحداها الأخرى، فلا مفر لها من السعي وراء القوة ومحاولة السيطرة على الدول الأخرى في النظام، وقد عبر رجل الدولة البروسي "اوتو فون بسمارك" عن هذه المعضلة في تعليق صريح إلى درجة موجعة، في أوائل العقد السابع من القرن التاسع عشر، حين بدأ أن بولندا التي لم تكن دولة مستقلة في ذلك الحين قد تستعيد سيادتها حيث قال: أن عودة مملكة بولندا بأي شكل يعني ظهور حليف لأي عدو يقرر أن يهاجمنا.

ولذلك دعا أن تقوم بروسيا بسحق أولئك البولنديين حتى يفقدوا الأمل ويموتوا، وقال: ورغم أنني متعاطف مع موقفهم فلا مفر لنا من إبادتهم إذا أردنا البقاء.

فما أشبه الاحتلال الإسرائيلي اليوم ببروسيا في السابق!

اعتمد "جون ميرشايمر" في نظرية الواقعية الهجومية على خمسة فرضيات تفسر التنافس على القوة بين الدول العظمى، وسعيها لتعظيم القوة:

الفرضية الأولى

يفترض جون ميرشايمر "أن النظام الدولي هو نظام فوضوي بالأساس، لكن ذلك لا يعني انه مشوش أو يمزقه الاضطراب.

الفرضية الثانية

تعتقد هذه الفرضية أن الدول العظمى بما لها من قوة عسكرية ومادية، قادرة على أحداث الأذى والضرر وربما التدمير التام فيما بينها، وحتى إن لم تكن للدولة قوة عسكرية بالضخامة التي تمكنها الانتصار، فان السكان بأنفسهم قوة بشرية للدفاع والهجوم، إذ أن لكل رقبة يدان تخنقاها.

الفرضية الثالثة

لا تستطيع الدول مهما بلغت قوتها والقوة المعلوماتية بها، من التيقن الكامل بأي هجوم ربما يقع عليها من غيرها، بل استحالة التكهن بما يضمره أصدقاء اليوم.

الفرضية الرابعة

يعتبر الأمن وسلامة الدولة وبقاءها، هو أسمى الأهداف والأولويات، وقد عبر "ستالين" عن ذلك بقوله: أننا نستطيع أن نبني الاشتراكية في الاتحاد السوفيتي، بل يجب أن نبنيها، لكن علينا أولا أن نضمن وجودنا.

الفرضية الخامسة

وهي الفرضية التي تدفع بأن القوى العظمى فاعل يتسم بالعقلانية، ويدرك مكونات البيئة الخارجية المحيطة به، ويضع من الاستراتيجيات ما من شأنه أن يمكنه من البقاء فيها، وعلى وجه الدقة فإنها تتفاعل مع الدول الأخرى وتراقب أنماطها، وكيف يمكن أن يؤثر سلوكها على سلوك الدول الأخرى، وكيف يمكن لسلوك الدول الأخرى أن يؤثر على استراتيجيتها للبقاء، كما تأخذ الدول في حسبانها النتائج بعيدة المدى والآنية لأفعالها.

مع هذا فإن هذه الفرضيات لا تكون في رأي" جون ميرشايمر" مبررا قويا يتوجب معه أن تتصرف الدول بالسلوك العدائي فيما بينها إذا تم إسقاطها بصورة منفردة، ولكن تكون موجبة لذلك إذا اجتمعت كلها في دولة واحدة، وينشأ نتيجة لذلك ثلاثة أنماط من السلوك وهي:

1_ الخوف

بمعنى عدم وضع الثقة الكاملة في أي دولة مهما كانت درجة الصداقة والتعامل معها، لأنه من الممكن أن يكون أصدقاء اليوم هم أعداء الغد، الخوف هو الذي جعل كل من المملكة المتحدة وفرنسا، تنظران بالريبة والشك لألمانيا بعد أن توحدت، رغم أن الدول

الثلاثة كانوا حلفاء مقربين لمدة خمسة وأربعين عاما.

2_الإعتماد على الذات

في مجال السياسة الدولية، يساعد الله من يساعدون أنفسهم فقط، وهذا التأكيد بالاعتماد على الذات لا يمنع الدول من تكوين تحالفات، لكن التحالفات أيضا عبارة عن زيجات مصالح مؤقتة، فقد يتحول حليف اليوم إلى عدو الغد، وعدو اليوم إلى حليف الغد.

والدول تعيش في عالم يقوم على الاعتماد على الذات، لذلك تتصرف دائما وفقا لمصلحتها الذاتية ولا تضع مصالحها بعد مصالح الدول الأخرى، أو مصالح ما يسمى بالمجتمع الدولي، والسبب في ذلك هو أنها يجب أن تكون أنانية في عالم يقوم على الاعتماد على الذات، ينطبق ذلك على المديين القريب والبعيد، لأن الدولة لو خسرت في المدى القريب فربما لا تكون موجودة على المدى البعيد، والدول نظرا لخوفها من النوايا الحقيقية للدول الأخرى وإدراكها أن هذه الدول تعيش في نظام قائم على الاعتماد على الذات، تفهم سريعا أن الطريقة المثلى لضمان بقائها تتمثل في أن تكون أقوى دولة في النظام، وكلما قويت الدولة نسبة إلى منافسيها المحتملين،

تراجع احتمال أن يهاجمها هؤلاء المنافسون ويهددون بقاءها، والحالة المثالية التي تطمح إليها أية دولة هي أن تصبح دولة مهيمنة في النظام، وقد عبر عن ذلك "ايمانويل كانط": إن رغبة أية دولة أو حاكمها هو أن تبلغ حالة السلام الدائم بغزو العالم بأكمله لو استطاعت، ساعتها فقط يكون البقاء مضمونا تماما.

3_تعظيم القوة

القوى العظمى تناضل من اجل زيادة قوتها على منافسيها على أمل أن تكون دولة مهيمنة، وحين تبلغ تلك المكانة الرفيعة تصبح الدولة من قوى الوضع الراهن، والدولة المهيمنة هي دولة بلغت من القوة ما يمكنها من السيطرة على كل الدول الأخرى في النظام، ولا تمتلك دولة أخرى الموارد العسكرية اللازمة لخوض حرب كبرى ضدها، عليه فإن الدولة المهيمنة تكون فعليا القوة العظمى الوحيدة في النظام.

مع ذلك فإن الدول التي تبدأ الضربات الاستباقية سواء ضد دولة أخرى، أو ضد أعداء حقيقيين أو مفترضين داخل حدود الدولة، مع ملاحظة أن دائرة الافتراض دائما تكون أكبر من المعتاد أو الحقيقي (وهذا هو المؤلم

والمحبط في آن واحد، إذ أن معظم الدول في العالم وخوفا على العرش، لا تنظر إلا بمنظار واحد هو الريبة وظن السوء، ونظرة واحدة على أعداد المعتقلين والفارين من بطش الأنظمة البوليسية وأنظمة الجنرالات والدكتاتوريات، تؤكد تلك الحقيقة الموجعة)لا تعدم أن تعاني من معضلة تجعلها تقوم ببداية هذا السلوك العدائي، هذه المعضلة على الأرجح هي ضعف النظام الحاكم، أو انعدام الثقة لديه بمن حوله، وبما يضمرون من نوايا أو بالاثنين معا، ورغم أن الضربات الاستباقية في الحرب هي من أنجع الوسائل للدول في تحقيق النصر، إلا أن ذلك لا يمنع من حقيقة الضعف لديها بما تنطوي عليه تلك الوسيلة نفسها من عناصر المفاجأة والمباغتة.

غير نظريته وفرضياته الخمس عن أسباب التنافس على القوة بين الدول وأسباب سعيها إلي الهيمنة، يقدم "ميرشايمر" أيضا نظرية بسيطة تفسر متى تلجأ القوى العظمى إلى فرض التوازن، ومتى تلجأ إلى تمرير المسئولية إلى الآخرين، وهما إستراتيجيتان رئيستان تستخدمها الدول للدفاع عن توازن القوى ضد المعتدين، ويعتقد "ميرشايمر" أن

الدولة التي تنجح في تمرير المسؤولية إلي الآخرين لا تضطر إلى حرب المعتدي إذا فشل الردع، بل إن الدولة التي تنجح في ذلك تكتسب قوة، إذا تورطت الدولة التي مررت إليها المسؤولية والدولة المعتدية في حروب طويلة ومكلفة، غير أن هذه السمة الهجومية لتمرير المسؤولية إلى الآخرين يظل هناك دائما احتمال أن يربح المعتدي انتصارا سريعا وحاسما ويغير توازن القوى لصالحه، وضد الدولة التي مررت المسؤولية إلى غيرها .

القوة والواقعية الدفاعية: طرح "كينيث والتز"

لا تعتقد النظرية الواقعية الدفاعية أو "الواقعية البنيوية "وأحيانا "الواقعية النسقية " أو "الواقعية الجديدة"، أن الدول مجبولة على العدوان مثل نظرية واقعية الطبيعة البشرية، ولكن تعتبر أن الدول تسعى إلى البقاء وحسب، إلا أن "كينيث والتز" الذي ارتبطت النظرية باسمه، يعتبر أن فوضى النظام الدولي هو ما يكره الدول إلى النزوع إلى التنافس بين الدول على القوة لان القوة هي أساس البقاء، لا إلى التوسع والسيطرة والعدوانية، لكن على أن

تتصرف بطريقة دفاعية تحافظ على توازن القوي وتؤمن بقاءها.

ويدعو "والتز" في نظريته الدول العظمى لان تبتعد عن اكتساب القوة المفرطة، لأن من شأنها أن تفرض على الوحدات الأخرى الاتحاد بصورة أكثر فاعلية لمنازلتها، ومحصلة ذلك أن يتركها في أسواء حال مما لو امتنعت عنها.

تعريف القوة عند "كينيث والتز" يتشابه مع تعريف "روبرت غيلبن"، فالأول يعرف القوة بالتركيز على القدرات الممثلة في حجم السكان والإقليم وتوافر الموارد الطبيعية، والقدرة الاقتصادية والقوة العسكرية، واستقرار النظام السياسي وكفاءته، ويعرفها الثاني باعتبارها القدرات العسكرية والاقتصادية والتكنولوجية للدولة.

ربما كانت أفكار "جان جاك روسو" التي تشبه في بعضها أفكار "أفلاطون" القائلة إن الإنسان لا يولد صالحا أو طالحا، والمسئول عن هذا التشكيل فقط هو البيئة التي ينشأ فيها الإنسان، الكيان السياسي الفاسد هو المسئول عن صبغ البشر بالفساد، والكيان السياسي الصالح هو من له فضل صلاح البشر؛ ربما كانت (خاصة تلك الأفكار المبثوثة في

مقال "روسو" (حالة الحرب)) هي المعين ل "والتز" في ابتداع نظرية الواقعية الدفاعية.

المقاربة التي تنطوي على أن الدولة ينبغي أن يكون لديها المقدرة الدفاعية ضد أي خصوم متوقعين، لأنها إذا لم تغتنم الفرصة وتبدا بالضربة الدفاعية الوقائية فإنها ربما تفوت الفرصة، وتكون هدفا سهلا من الخصم؛ هذه المقاربة كما يقول "والتز" في كتابه (الإنسان والدولة والحرب) هي الأساس التحليلي لكثير من مقاربات توازن القوى في العلاقات الدولية، وهي في الوقت نفسه تفسير عام لسلوك الدول، وهي أيضا نقطة ارتكاز حرجة ضد الذين يفسرون السلوك الخارجي للدول من خلال بناها الداخلية، وقد أشار إلى ذلك المعنى "الكسندر هاملتون" و "ثيو سيديدس"، وصرح بها كل من "مكيافيللي" و "هوبس "و"روسو".

يدافع "والتز" عن نظريته ويقدم تساؤلات عديدة للتشاؤميين (كما يصفهم) المتيقنين والمعتقدين بصحة فروض واقعية الطبيعة البشرية: ما الذي يفسر تقلب فترات الحرب والسلام؟ فلو أن الطبيعة البشرية كانت هي سبب الحرب، لما استطاع العالم أن ينعم

بالسلام، ويتحدث عن أن الاهتمام المتعاظم بالسبب "الجوهري "للصراع، يؤدي في نهاية الأمر إلى ابتعاد المرء عن التحليل الواقعي للسياسة الدولية، لأن السبب الأساسي هو ابعد الأسباب عن القابلية للعلاج، أما الأسباب التي تفسر السلوك واختلافاته، فانه ينبغي أن يبحث عنها في مكان غير الطبيعة البشرية. ويقدم في الوقت نفسه تساؤلات عديدة للتفاؤليين (كما يصفهم) القائلين والداعين إلى الأفهام الليبرالية: هل الجملة التالية صحيحة: إن البشر صالحون وبالتالي ليس هنالك مشاكل اجتماعية أو سياسية؟

هل من شأن إصلاح الأفراد (إذا تم تحقيقه) أن يشفي من الشرور الاجتماعية والسياسية؟

الواقعية الكلاسيكية الجديدة

وامتلأ الفكر الواقعي في تحليل السياسة الخارجية وموقع القوة في العلاقات الدولية، بمختلف النظريات والأفهام، فأنشاء "جيدون روز" نظرية الواقعية الكلاسيكية الجديدة" التي يدعي فيها التفوق على باقي النظريات الواقعية، لأنه يضمن تحليل المتغيرات المتعلقة ببنية النسق، مع تلك المتأصلة في البيئة السياسة الداخلية للدولة، باعتبار

أن سلوك الدولة الخارجي هو محصلة تضافر كل هذه المتغيرات.

مع هذا فان الكلاسيكيون الجدد يتوجهون في تحليلهم، إلى دراسة كيفية تأثير ضغوط النسق العالمي والمتغيرات المتعلقة بمستوى الوحدة على السياسة الخارجية للدولة، والفرضية المتوقعة من تلك التحليلات والتي يؤكدون عليها هي: أن سلوك الدولة الخارجي ما هو في حقيقته إلا نتيجة اجتماع ضغوط النسق العالمي، مضافا إليه المتغيرات الداخلية المتعلقة بمستوى الدولة، يتشابه في هذا "جيدون روز"، و"ويليام ولفورث"، و"جاك سنايدر"، و"راندال شويللر" وغيرهم.

يعتقد منظرو المدرسة الواقعية الكلاسيكية الجديدة أن السلوك الخارجي للوحدات السياسية، ناجم عن العوامل الداخلية للدول مثلما هو ناجم عن الضغوط البنيوية في النظام الدولي مثلا بمثل، وان مدى السياسة الخارجية للدول وطموحها، محكوم بمكانة تلك الدول في النظام الدولي، وعلى وجه التحديد قوتها المادية النسبية، إلا إنهم ادعوا أن تأثير القوة على السياسة الخارجية هو تأثير غير مباشر، لأن الضغوط النظامية يجب أن يتم ترجمتها من خلال

المتغيرات على مستوى الوحدة، ودعت الواقعية الكلاسيكية الجديدة لضرورة دمج الدول الفردية في نظريات السياسة الخارجية، حيث عمل منظروها على تأسيس اتصال بين مستوى الدولة ومستوى النظام في التحليل.

تصف الواقعية الكلاسيكية الجديدة النظام الدولي بصفات الفوضى والصراع المستمر بين الدول، وان حقيقة السياسة الدولية على ذلك هي الحصول على القوة وتحقيق الأمن، وجادلت النظرية بأن الضغوط النظامية هي المقيد لخيارات الدول في السياسة الخارجية، إلا أن خصائص الدول والمتغيرات على مستوى الوحدة تعتبر مهمة كذلك.

الواقعية الغيلبينية

دعا "غيلبن" في نظريته إلى معالجة مجموعة من القضايا منها تفسير التغيير على المستوى الدولي، وأثر التطورات السياسية والاقتصادية والتكنولوجية على تغيير الأنظمة الدولية، ومدى قابلية النتائج المتحصلة عن دراسة الماضي على التطبيق في الحاضر.

يرى "غيلبن" أن الفاعلين الدوليين يتوجهون بقوة لتغيير النظام الدولي بهدف تحصيل وتحقيق مصالحهم الخاصة، مما يعني تغير النظام الدولي تبعا لتغير الزمن، بما

يضمن تحول التغير في قوة ومصالح الفواعل نسبة لتغيرها مع مرور الوقت.

افتراضات "غيلبن" في دراسة التغيير السياسي الدولي

يؤكد "غيلبن" أن الطبيعة الأساسية للعلاقات الدولية لم تتغير منذ آلاف السنين، لقد كانت دوما تمثل صراعا متواصل من أجل الثروة والقوة، بين وحدات سياسية مستقلة تتفاعل في حالة فوضى، ويعد "غيلبن" أحد الواقعيين الجدد الذين حاولوا معالجة الانتقادات التي واجهت نظرية "والتز"، وذلك من خلال دراسته (الحرب والتغيير في السياسة العالمية) والتي ركز فيها على تحليل عمليات التغيير في النسق الدولي، محاولا بذلك التخلص من الانتقادات التي لحقت بنظرية "والتز".

يفترض "غيلبن" خمسة افتراضات في رؤيته لدراسة التغيير السياسي الدولي وهي:

1_ ما لم توجد دولة ترغب في تغيير النظام الدولي، فإنه يمكن اعتبار النظام الدولي نظاما مستقرا ومتوازنا.

2_ افترض توجه أي دولة نحو تغيير النظام القائم إذا كانت تعتقد بان مكاسب تغيير النظام تفوق التكاليف.

3_توجه الدولة نحو تغيير النظام القائم، باتباع وسيلة "التوسع الإقليمي والسياسي والاقتصادي"، حتى تتساوى "التكاليف الحدية لأي تغيير إضافي، مع المنافع الحدية أو تزيد عليها".

4_اتجاه التكاليف الاقتصادية اللازمة للحفاظ على الوضع القائم للارتفاع، بشكل يفوق القدرة الاقتصادية اللازمة للحفاظ على الوضع القائم في حال التوازن، ما بين التغيير والتوسع الإضافي والمكاسب الناجمة عن ذلك.

5_عدم القدرة على معالجة غياب التوازن في النظام الدولي، سيؤدي إلى تغيير النظام، وظهور توازن جديد يعكس توزيع القوة الجديد.

مهما يكن من الأمر فإن ثمة اعتبارات ارتكزت إليها الواقعية الجديدة في تحليل السياسة الدولية أبرزها:

1_أن النسق الدولي يتسم دائما بصفات الفوضى.

2_نسبة لاعتبار فوضوية النسق الدولي، فإن الأوجب هو التركيز في التحليل على معضلة الأمن، ففي غياب السلطة الحاكمة العليا لسلوكها، تدرك الدول ولا سيما القوى العظمى، أنها تتفاعل في ظل نسق دولي يقوم على مبدأ مساعدة الذات، بمعنى أن كل دولة تعتمد على نفسها لتأمين بقائها نظرا لان الدول الأخرى تمثل مصدر تهديد محتمل.

3_اعتبار أن سلوك الدول يتسم بالعقلانية، وهو ما كان يسميه "مورجانثو" افتراض العقلانية، بما يعني أن الدول تعمل دائما وفق مصلحتها القومية.

4_اعتبار أن الفاعلين الأساسيين في النسق الدولي هم جماعات متباينة بتباين وحداتهم الإقليمية.

5_ اعتبار أن الدولة وحدة واحدة كفاعل دولي، لأنه اذا كانت المشاكل المحورية للدولة ترتبط ارتباطا وثيقا بطبيعة النسق الدولي، فإن تصرفاتها ستأتي بطبيعة الحال استجابة لسلوكيات القوى السياسية الدولية لا الداخلية.

وبعد أن فرغنا من نظريات القوة وجدالاتها، فإنه يلزم علينا الآن النظر والبحث في أنواع القوة الثلاثة، وهو ما

سنعالجه إن شاء الله تعالى في الفصل الثالث من هذا الكتاب.

هوامش الفصل الثاني

1_ جيمس دورتي، روبرت بالتسغراف، ترجمة د. وليد عبد الحي، النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية، (الكويت: كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، ط.1، 1985)، ص16.

2_ ناصيف يوسف حتى، النظرية في العلاقات الدولية، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط.1، 1985)، ص8.

3_ المصدر السابق، ص28_29.

4_ المصدر السابق، ص38.

5_ علي جلال معوض، مفهوم القوة الناعمة وتحليل السياسة الخارجية، (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ط.1، 2019)، ص28_29.

6_سفر بن عبد الرحمن الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وأثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، (دار الهجرة) ، ص226_227.

7_ محمد ناصر الدين الألباني، صحيح "الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير) (بيروت: المكتب الإسلامي ،ط.3، 1988) ، ص837.

8_مونتسكيو، ترجمة عادل زعيتر، روح الشرائع، (وندسور: مؤسسة هنداوي سي آي سي، ط. 1، 2018)، ص52.

9_ إسماعيل صبري مقلد، العلاقات السياسية الدولية دراسة في الأصول والنظريات، (القاهرة: المكتبة الأكاديمية، ط.خاصة، 1991)، ص 18_19.

الفصل الثالث
أنواع القوة

تنقسم القوة إلى ثلاثة مسميات كبيرة، تدخل فيها كل أنواع وتصنيفات القوة المختلفة وهي:

1_القوة الصلبة (العسكرية).

2_القوة الناعمة.

3_ القوة الذكية أو التحويلية.

أولا: القوة الصلبة (العسكرية)

وهي كل أشكال القوة المحسوسة التي تعتمد عليها الدولة للدفاع عن حدودها وذاتها.

ثانيا : القوة الناعمة

يعرف مصطلح القوة الناعمة بأنه القوة الفارضة علي الدولة (ب) بالإذعان والانقياد للدولة (أ)، من غير أن تمارس الدولة (أ) عليها أي ضغوطات عسكرية أو قوة صلبة، وهو

المصطلح الذي أتي به "جوزيف س ناي" عام 1990 في مقال يحمل اسم (القوة الناعمة).

بشكل عام يمكن تسكين التعريفات المختلفة السائدة للقوة الناعمة بين طرفي متصل، يتراوح بين جاذبية مظاهر الثقافة الشعبية، وصولا إلي جميع أشكال القوة عدا الاستخدام الفعلي للقوة العسكرية، فأضيق تعريفات القوة الناعمة، تقصرها علي قوة الدولة الناجمة عن جاذبية مسلسلاتها وأفلامها وموسيقاها، وروواياتها وأدبها ورياضاتها ومطبخها وأكلاتها وسلاسل مطاعمها، وأزيائها وصيحات ملابسها وغيرها من الأعمال الفنية، وعناصر ثقافتها الشعبية أو الجماهيرية التي تذيع وتنتشر عبر الحدود، بين الجماهير العادية أو النخب علي السواء.1

وبتعريف أشمل هي: قدرة الفاعل على التأثير في إدراكات وتفضيلات وحسابات وسلوكيات الآخرين، اعتمادا بصورة أكبر علي الموارد غير المادية، ذات الصلة بآليات التأطير والإقناع والجاذبية، سواء بشكل تعاوني جاذب للآخرين، أو استغلالي يتلاعب بمصالحهم، أو يهددهم بالتأطير السلبي، مع مناعة الفاعل في مواجهة الخضوع لمثل هذه الآليات (خاصة الاستغلالية منها) .2

وضع "جوزيف س ناي" (مبتكر مصطلح القوة الناعمة) ثلاثة موارد تعتبر أصولا للقوة الناعمة وهي:

1_ثقافة الدولة بما تنطوي عليه من عوامل جذب للآخر.

2_قيم الدولة السياسية.

3_سياسة الدولة الخارجية التي يفترض أن تكون متجانسة، بمعني ألا تحمل الشيء ونقيضه في وقت واحد.

ويرى" ناي" في ذلك: أن تجمع موارد القوة الناعمة مع القوة الصلبة في استراتيجية ذكية ليس دائما عملا سهلا، فعلي سبيل المثال قد يساعد تأسيس معهد كونفو شيوس في مانيلا لتعليم الثقافة الصينية على إنتاج القوة الناعمة، لكن من غير المرجح أن ينجح في بيئة تمارس فيها الصين نفسها التعدي على الفلبين، من جراء امتلاكها لجزيرة متنازع عليها في بحر الصين الجنوبي، وما دامت الصين أكثر حزما في مطالبها الإقليمية مع جيرانها، فهذا يصعب عليها إمكانية تحقيق أهدافها في القوة الناعمة.3

ثالثا : القوة الذكية (التحويلية)

تعرف القوة الذكية أو التحويلية بأنها: القوة الناتجة عن دمج القوتين الصلبة والناعمة، ومن ثم مقدرة الدولة علي التعامل بهذه القوة المزدوجة مع كل الفواعل والوحدات الدولية.

الولايات المتحدة كمثال تمتلك وسائل القوة الصلبة والقوة الناعمة والقوة التحويلية، وهي تستخدم كل تلك الأنواع مجتمعة أو متفرقة في علاقاتها مع المجتمع الدولي، فقد استخدمت القوة الصلبة بل والمفرطة في اجتياح الدول، كما في المثال العراقي والأفغاني واليمني والياباني، وتستخدم القوة الذكية مع بعض الدول بالتهديد والابتزاز، بأن تدفع الدول أموالا طائلة نظير حمايتها ورد العدوان عنها، والأمثلة واضحة وأكثر من أن تحصى في عالمنا المعاصر.

أما الوسائل التي استخدمتها الولايات المتحدة لبسط نفوذها وسلطانها فقد كانت تتراوح ما بين الوعود السياسية، والتهديد باستخدام القوة العسكرية أو الحصار الاقتصادي وأساليب العمل المخابراتية، أما أكثر أساليب العمل المتبعة في فرض الهيمنة

والنفوذ وتكريس حالة التبعية فقد كانت متمثلة بالأساليب والأدوات الاقتصادية.4

الأوربيون يتميزون بالمقدرة على التأثير في الآخرين، ويقدمون وسائل المفاوضات وسبل الإقناع على الإكراه والقسر.

إن مشاركة أوروبا في الحرب على أفغانستان لسحق تنظيم القاعدة وحرمان حركة طالبان من استعادة قوتها ؛ يقول "مارتن غريفثس" في (المفاهيم الأساسية للعلاقات الدولية) كانت موضع خلاف، أما الأكثر إثارة فهو أن الفكر الأوروبي كان منقسما حول ضرورة تلك الحرب، وفي تعليق شهير كان احد الخبراء قد المح في 2003 إلى الخلفية السيكولوجية لتوجه أوروبا نحو استخدام القوة العسكرية بقوله: الأوربيون مصرون علي تناول المشكلات بكثير من التدقيق وقدر أعظم من الحنكة، يحاولون التأثير في الآخرين بالمكر والمخادعة، إنهم أكثر قدرة علي تحمل الفشل وأكثر صبرا عندما لا تأتي الحلول سريعا، أنهم بشكل عام يفضلون الردود السلمية علي المشكلات، يفضلون المفاوضات والدبلوماسية والإقناع علي القسر والإكراه، وهم أسرع في اللجوء إلي القانون الدولي والاتفاقيات الدولية والرأي الدولي،

والتقاضي في النزاعات ..إنهم غالبا ما يهتمون بالإجراءات أكثر من اهتمامهم بالنتيجة، معتقدين إن الإجراءات في نهاية المطاف ستصبح هي الموضوع.5

وبالنظر إلى استخدام الاتحاد الأوروبي للقوة التحويلية فانه يمكن ملاحظة الاتي:

1_ان الاتحاد الأوروبي لا يميل إلى استخدام القوة الصلبة باعتبارها الخيار الأول، أو يجنح إلى وسائل التهديد العسكري للدول كما هو الحال عند الولايات المتحدة، إلا أنه يميل إلي قطع الاتصال بالدول التي بينه وبينها عداء، ويستخدم القوة التحويلية التي هي مجموع القوة الصلبة مع أصناف أخرى من القوة الناعمة.

2_ان قوة التمدد والاتساع التي يتبعها الاتحاد الأوروبي لضم دولا جديدة في مظلته، تفرض عليه أن يضع لها معايير وشروط تؤهلها لعضوية الاتحاد الأوروبي تتمثل في:

أ_ وجود مؤسسات مستقرة، ضامنة للديمقراطية وسيادة القانون وحقوق الإنسان.

ب_ وجود اقتصاد سوق فعال قادر علي مواجهة التنافسية، ومعايير سوق الاتحاد الأوروبي.

ج_ القدرة الإدارية على تنفيذ قوانين وقواعد الاتحاد الأوروبي الإدارية المعمول بها .

القوة الناعمة والقوة الصلبة

بالرغم من ظهور مفهوم القوة الناعمة في تسعينيات القرن الماضي علي يد المنظر الأمريكي "جوزيف س ناي"، إلا أن المفهوم اتخذ صورا وأشكالا عديدة تتسع وتضيق وفق كل منظور ينظر به المنظرون من علماء الاجتماع والسياسة والاقتصاد وعلماء النفس، وذلك لقابلية المفهوم وميوعته لان يستوعب كل المفاهيم والتعريفات التي أتوا بها أو أضافوها، إلي الحد الذي ربما لم يبقي معه ل" ناي" إلا فضل اكتشاف ذلك المفهوم الجديد، وحوجة المجتمع الدولي له في صراعاته وحروبه المتعددة، التي ربما لا تكون الآلة العسكرية هي وحدها من تضع الحد الفاصل والحاسم لكل نزاعاته.

وعلى الرغم من ذيوع وانتشار استخدام مفهوم القوة الناعمة علي جميع المستويات الأكاديمية والرسمية وغير الرسمية، فإن تعريف المفهوم وأبعاده الأساسية يظل موضع اجتهادات متعددة ، تضيق من نطاقه تارة بحيث يكاد يقتصر على بعض الموارد الثقافية

ذات الطابع الإمتاعي أو الترفيهي، وتوسع من نطاقه تارة أخرى بحيث يشتمل على جميع الأدوات والتفاعلات ذات الطبيعة التعاونية، بما في ذلك استخدام الأدوات والآليات الاقتصادية وأحيانا العسكرية في صورها غير الصراعية، مثل المعونات العسكرية وبرامج التدريب والمناورات المشتركة وغيرها. 6

يسأل البعض هل تقدم القوة الصلبة بمعناها العسكري والمادي المحسوس على القوة الناعمة، أم القوة الناعمة باعتبارها قوة موجهة وآمرة من غير استخدام قليل أو كثير للقوة الصلبة المحسوسة، وللإجابة على هذا التساؤل، فان البعض يعتقد بان القوة الصلبة تسبق القوة الناعمة في الظهور، بمعني أن القوة الصلبة المحسوسة هي الواقع الجديد الذي يغير أوضاع الدولة، بما يمكن الدولة الفاعلة من استخدام موروثها الثقافي، وتوظيف ارثها الحضاري والعقائدي بالدرجة التي تفرض على الآخرين الإذعان والقبول.

غير أن القوة الناعمة من ناحية ثانية يؤكد الواقع أنها أهم واسبق وأولي، الأهمية والأولوية التي تصنع منها منبعا للقوة الصلبة المحسوسة، خاصة إذا استخدمت أو

اعتقدت الدولة الإرث والمكون العقائدي للأفراد، إن مكون العقيدة الذي يستقر في القلب، وحده كفيل بأن يوجد مكونات القوة الصلبة والقوة المادية المحسوسة.

في عام 2007 أمر الرئيس الصيني "هوجيناتيو" الحزب الشيوعي الصيني بزيادة الصين لقوتها الناعمة، ورغم أنها قوة ضاربة وتهدد جوارها الجغرافي بتلك القوة الاقتصادية والعسكرية، مما دفع الجوار إلى الدخول في تحالفات موازية لسد النقص والانقطاع في عوامل القوة الصلبة لديها، إلا أن مكونات القوة الصينية كانت بحاجة إلى قوة أكبر وهي القوة الناعمة.

الصين والهند بما يمتلكا من قوة صلبة وناعمة، تمثلا قوى صاعدة قد ينافسا إن لم يستحوذا على حراك القوة الموجود في المجتمع الدولي، ومما قدمته الاستراتيجية الأمريكية في سبيل منع هذه القوى الصاعدة أو تقليل وجودها وتأثيرها، هو انتظامها في تحالفات سرية مع جوار الصين الجغرافي مثل اليابان.

عندما تم الترحيب بالصين داخل منظمة التجارة الدولية، كانت الولايات المتحدة الأمريكية تعقد اتفاقات سرية مع اليابان تعرقل وتمنع بها ظهور هذه القوة الصاعدة،

وهذا في حد ذاته نوع من الهيمنة والغطرسة التي ربما ترتد عليها بأوخم النتائج عاجلا أم آجلا.

ورغم أن المادة (2فقرة 4) من ميثاق الأمم المتحدة تنص بأن "يمتنع على أعضاء الهيئة جميعا في علاقاتهم الدولية، عن التهديد باستعمال القوة أو استخدامها ضد سلامة الأراضي، أو الاستقلال السياسي لأية دولة، أو على أي وجه آخر لا يتفق ومقاصد الأمم المتحدة"، إلا أن بعض الوحدات السياسية تستخدم القوة، حتى وان كان هذا الاستخدام متنافيا مع روح القوانين والمعاهدات الدولية.

توجد ازدواجية واضحة في التعامل مع نصوص مواد ميثاق الأمم المتحدة من جانب الدول العظمى، وحيث أن المادة الأولى من تعريف العدوان تنص على: "العدوان هو استخدام القوة المسلحة من قبل دولة ما ضد سيادة دولة أخرى، أو ضد سلامتها الإقليمية أو استقلالها السياسي، أو بأية صورة أخرى تتنافى مع ميثاق الأمم المتحدة وفقا لنص هذا التعريف". فإن إسرائيل كمثال، تنفي صفة العدوانية في احتلالها الغاشم لفلسطين،

وتدعي أنها كانت في حالة دفاع شرعي عن النفس!

وقد يأخذ العدوان أشكالا أخرى مثل الاغتيالات السياسية، أو تقديم العون لمجموعات مخالفة للنظام، أو غير ذلك بما يكون عدوانا غير مباشر؛ وقد أشارت الأمم المتحدة ألي ذلك العدوان ضمنا في ميثاقها في المادة 2 فقرة 4، عليه فقد اعتبرت الولايات المتحدة أن الحصار البحري على كوبا 1962 هو عملا مشروعا لحمايتها، لأن كوبا سمحت لروسيا نصب الصواريخ حاملة الرؤوس النووية. وزعمت إسرائيل نفس المنطق في قصفها لمفاعل تموز النووي العراقي!

من الناحية العملية فإن بعض الوحدات السياسية (غالبا الدول القوية)لا تأبه بقليل أو كثير في الالتزام بمخرجات ونصوص القانون الدولي ومواثيق الأمم المتحدة، وتستند الدول التي تستخدم القوة ضد دولة أخرى بحجة حالة الضرورة، وهي حجة وان كانت مقبولة في ظاهرها، إلا أن مواد الميثاق لم تنص عليها وتقتصر استخدامها فقط وفق المادة 51 ، التي تنص صراحة على حق الدول فرادى أو جماعات في الدفاع عن نفسها إذا اعتدت قوة مسلحة على احد أعضاء الأمم

المتحدة، وربما تسمي بعض الدول استخدام القوة الصلبة ضد دولة أخرى بمسميات أخرى، مثل التدخل لاعتبارات إنسانية ، وهي في مجملها لا تعدو كونها صورا من صور الالتفاف والمراوغة على القوانين والمواثيق الدولية.

القوة الناعمة والقوة الاستعمارية والإمبراطورية

يعتبر "نيل فيرجسون" القوة الناعمة هي القدرة على أحداث الأثر في السياسة العالمية عن طريق قوي غير تقليدية، ويعتبر بذلك المعروض الثقافي والتجاري قوى غير تقليدية، إلا أنها تظل قوي محدودة بحسب قبولها والإعجاب بها ، أو رفضها ومقاومتها من الطرف الآخر.

غير أن تعريف " فيرجسون" (وهو أستاذ للتاريخ المالي والقضايا الاستعمارية في جامعات هارفارد وأكسفورد وكامبريدج ونيويورك) ربما يعتبر عتبة من عتبات الفكر الاستعماري (الذي هو من كبار منظريه وداعميه) والذي ينبغي كما يرى أن تحذوه بريطانيا وما شاكلها.

في غزو العراق من قبل الولايات المتحدة وقوات التحالف، كان فكر "فيرجسون"

الاستعماري لا يدعو إلي استعمال القوة الناعمة باستخدام الموروث الثقافي والتجاري وحسب، ولكنه كان ينتقد تحكيم "بريمر" لفترة سنة واحدة هي في نظره قصيرة بكل المقاييس، وكان الأحرى أن يستمر حاكما لسنوات طويلة يشبع فيها الأمريكيون العراقيين بقصر المدة التي ينتوون البقاء فيها ، بل انه من جهة أخرى وفي نفس الخط الاستعماري ينتقد دراسة الطلاب للطب والهندسة ، ويرى بدلا منهما (على حوجتهما) دراسة سياسات الاستعمار ، وأهمية البقاء في المستعمرات لفترات طويلة !

وهو لا يكتفي بتقديم وطرح الأدلة والحجج لإثبات أن الولايات المتحدة الأمريكية هي الآن إمبراطورية ، ولكن يؤكد أنها كانت إمبراطورية على الدوام في كتابه (الصنم صعود وسقوط الإمبراطورية الأمريكية) الذي ترجمه إلى العربية "معين محمد الإمام" ، ويقول فيه صراحة إن جزءا من أدلته يشير إلى أن العديد من أصقاع العالم سوف تستفيد من حقبة الحكم الأمريكي، وان ما يحتاجه العالم اليوم ليس أي نوع من الإمبراطورية ؛ إن ما يحتاجه هو الإمبراطورية الليبرالية !

وتجاوز في (الصنم) مسألة القوة الناعمة وما يناط بها، إلي تخصيص فكره عن القوة الاستعمارية الإمبراطورية أو الإمبراطورية الاستعمارية، فهو ينقل عن " ريتشارد هاس "مدير تخطيط السياسة الخارجية في إدارة "بوش" قوله :إن الأمريكيين بحاجة لإعادة إدراك دورهم وتغييره من منظور الدولة_الامة التقليدية إلى القوة الإمبراطورية، والصحفي "سيباستيان مالابي" :إن الإمبراطورية الأمريكية الجديدة هي أفضل علاج لحالة الفوضى والتشوش التي سببتها الدول الفاشلة في مختلف أنحاء العالم، وينقل عن "جيمس كيرث" من عدد "الإمبراطورية" الخاص من" ناشيونال انتريست" :هنالك اليوم إمبراطورية واحدة :الإمبراطورية العالمية للولايات المتحدة، الجنود الأمريكيون هم الورثة الحقيقيون لمسئولي الإدارة المدنية الأسطوريين في الإمبراطورية البريطانية، وليسوا مجرد ضباط عسكريين متفانين ومخلصين.

إن الهوس بأفكار معينة ومحددة والإغراق المفرط فيها، يجعل من الصعب والعسير جدا مناقشتها أو دحضها، مهما أوتي المرء من

الحصافة والبلاغة، وتظل المسألة أشبه بمحاورة الملتاثين والمجانين. لا نفع يرجى من كليهما. وهو في (الصنم) يتساءل: إذا لم تكن الولايات المتحدة إمبراطورية فما هي إذن؟ وما هو الذي سعت الإمبراطورية ل "احتوائه" ولم يعد موجودا الآن؟ يمكن وصف الولايات المتحدة بأنها (القوة العظمى الوحيدة) المتواجدة في (عالم أحادي القطب) أو (الدولة المفرطة القوة).

أن الفارق بين الهيمنة الأميركية والإمبراطورية البريطانية، هو فارق نوعي في تقدير صاحب (الصنم)، فالقوة الأمريكية لا تتألف من القوة العسكرية والاقتصادية وحسب، ولكنها تشمل القوة الناعمة أيضا، أو (قوة البرمجيات)، وتعني القوة الناعمة المقدرة علي تحقيق النتائج دون اللجوء إلى القوة تبعا ل"جوزيف ناي"، أو الإقناع والحث، وفي حالة أميركا :تأتي من كونها مدينة متلألئة على قمة التل، اورشليم جديدة من الحرية الاقتصادية والسياسية، وتتشابه بذلك الولايات المتحدة الأمريكية مع الإمبراطورية البريطانية التي سعت في هذا المسعى من قبل، إذ جعلت من قيمها قيما جاذبة تغري الآخرين ومما سهل ذلك ويسره هو: أن

الإمبراطورية البريطانية وضعت (رجال في موقع الحدث) في وقت كانت ثورة الاتصالات والتكنولوجيا لم تبدأ بعد، رجال الدين بدأوا بمهام التبشير والتنصير والتعريف بمختلف المذاهب المسيحية، رجال الأعمال قدموا أساليبهم المميزة في المحاسبة والإدارة، مسؤولو الإدارة البريطانية طبقوا أفكارهم عن القانون والإدارة، بينما اجبر مدراء المدارس البريطانية، أفراد النخب الاستعمارية على لعب (الكريكت) واحتساء شاي الأصيل، وجهدوا جميعا لنشر الهوايات والعادات البريطانية التي تملأ أوقات الفراغ!

إن ما تحتاجه الولايات المتحدة هو التصرف كإمبراطورية، والتصرف كشرطي قائد للمجتمع بما تمتلكه الإمبراطورية من قوة لمنع أي قوى ظلامية من تحدي هذا النظام العالمي الصالح والحميد، هذا هو جوهر الفكر الاستعماري الإمبراطوري الذي يحسب "فيرجسون " إن الولايات المتحدة بحاجة شديدة إليه في القرن الحادي والعشرين اكثر من أي وقت مضى، لأن المهددات الأمنية على اختلاف أشكالها وأضرابها باتت أسهل وصولا من ذي قبل، فالأوبئة يمكن أن تصل في وقت وجيز لتفتك

بالآلاف، التقنية العسكرية يمكن أن تساعد في الوصول للمدن الأمريكية ودكها في وقت قصير، ولن تهزم هذه الإمبراطورية الأمريكية من أي قوي أخرى أو إمبراطوريات أخرى مهما بلغت، إنما ما يهزمها هو فراغ القوة من الداخل، أو غياب إرادة القوة الذاتية للإمبراطورية الأمريكية كما يحسب.

غير أن هذه القوة الإمبريالية الطاغية والتي يتمنى لها "فيرجسون" وغيره أن تكون شرطيا أوحد للعالم برمته، هذه القوة في حقيقتها يراد منها أن تحكم وتدير الولايات المتحدة الأمريكية العالم العربي أو الشرق الأوسط، بما يحقق ذلك أولا سلاما مستداما لإسرائيل وتحقيق بقاءها، والأمر الثاني أن تبسط الولايات المتحدة أيضا نفوذها وهيمنتها ليس على الشرق الأوسط فحسب، بل على أفريقيا أيضا إلا أن الحكم والسيطرة والهيمنة على أجزاء كبيرة من العالم اذا تم، فانه لا يرجع إلى قوة الولايات المتحدة وقدرتها كما هو في ظاهر الأمر؛ إن ذلك كله سيرجع إلى اليهود وهم متنفذين في مفاصل الإدارة الأمريكية، بل إن رائحتهم توجد في كل مكان.

يقول "ألكسندر جوفي" وهو اكاديمي مؤيد لإسرائيل، في ورقة سياسية نشرتها مجلة شؤون الأمن الدولي وهي مجلة تصدر عن المعهد اليهودي لسياسة الأمن القومي: إن الإمبراطورية الأمريكية لا يوجد لها من الناحية العملية أي منافسين، و هدف الإمبراطورية الأمريكية في القرن الحادي والعشرين ليس هو السيطرة الإقليمية أو استغلال الثروات الطبيعية، بل هو القيادة السياسية والاقتصادية التي تعزز وتحمي المصالح الأمريكية، والتي تكرس تقدم ورفاهية كل الأمم، وبالنظر إلى تاريخنا ومبادئنا وقيمنا فإن هذا المستقبل يكمن في الإمبراطورية الأمريكية، بطريقة تجعل منها مركز نظام ديمقراطي ودولي، وفي المحصلة النهائية سيكون الحل الوحيد لتحقيق الاستقرار والازدهار في العالم، هو إيجاد نظام عالمي مؤسس من الناحيتين الهيكلية والأخلاقية على نمط الاتحاد الأمريكي، ولايات (دول) شبه مستقلة تتمتع بحكم ذاتي غير كامل، محكومة ومرتبطة بنظام علماني (لا ديني) ليبرالي ديمقراطي، بحيث يكون للدول الخاضعة له حقوقا، ويترتب عليها مسؤوليات والتزامات، في إطار شبكة ليبرالية ديمقراطية علمانية (لا دينية)، بحيث تتمتع

هذه المنظومة بمؤسسات للمراقبة والمساءلة وحفظ التوازن، على أن يكون هذا النظام مؤسسا على حكم القانون ومتسامحا مع القيم التعددية.. إن الشروط التي يمكن بموجبها للولايات المتحدة وحلفائها التدخل في الدول الأفريقية، لإعادة النظام والاستقرار هي شروط ليست واضحة تماما، ما هو الحد الأدنى لشرط التدخل العسكري؟ ما هي الإجراءات والنتائج؟ من سيقاتل ومن سيدفع الفاتورة؟ أن إعادة تعمير إفريقيا يتطلب التزامات طويلة الأمد وتكاليف باهظة، هي من النوع الذي لا يمكن لأحد أن يتكفل به سوى إفريقيا نفسها، وهذا يعني أن الأمر ربما يتطلب سيطرة اقتصادية أمريكية، إلى جانب السيطرة السياسية والثقافية، إن الاستعمار دائما يتطلب أن تدفع مصاريفه بما يوازي كل مرحله من مراحله، وهذا غير جيد. والسؤال هل تستطيع أفريقيا أن تدفع الثمن (أم أنها لا تتحمل أن لا تدفع الثمن)، وهل تملك الولايات المتحدة العزيمة للقيام بتلك المهمة.7

يقول "كولين باير": إن الولايات المتحدة _على قوتها_هي في حقيقة الأمر مجرد "جندي" في اللعبة، يتم تحريكها بطريقة همجية هنا

وهناك، ضمن خطة للسيطرة على العالم على يد نخبة قليلة تعمل خلف الكواليس.8

إن الاستعمار أو الإمبريالية هو نوع من أنواع التسلط السياسي أو الاقتصادي، أو الثقافي أو الحضاري الذي تمارسه الدولة على غيرها من الدول الضعيفة في الغالب الأعم، وتمارس في ذلك التسلط كل أنواع القوة الثلاثة: الصلبة والناعمة والذكية، لأن القوة هي الأساس الذي يقوم عليه الاستعمار، من اجل تحصيل المصالح المتمثلة في الاستغلال الاقتصادي لموارد الدولة الطبيعية والبشرية الخاضعة تحت سيطرتها.

تحفظ "هانس مورجانثو" على التلازم الذي يكون بين الاستعمار والقوة، فهو يعتقد انه لا يمكن النظر إلى أي سياسة خارجية ترمي إلى زيادة قوة الدولة على أنها أبدا وبالضرورة التعبير عن نزعات إمبريالية، لأن الإمبريالية في حقيقتها الأساسية هي محاولة لهدم الوضع القائم، وتبديل تراكيب القوة القائمة في اطار معادلات جديدة، تكون اقدر على الاستجابة لهذه التطلعات الإمبريالية وإرضائها، أما السياسات التي تبحث عن أي شكل من أشكال المواءمة بين قوة الدولة ومصالحها دون أن تمس على أي نحو جذري جوهر

علاقات القوة القائمة، فإنها تعتبر سياسات تحدث في نطاق الوضع القائم، وعليه لا يمكن اعتبارها سياسة إمبريالية؛ ويضيف "مورجانثو" إن أية سياسة تستهدف الإبقاء على إمبراطورية قائمة بالفعل يجب أن لا ينظر اليها بالضرورة على أنها استعمار، لأن من شأن ذلك أن يجعل من سياسات الدفاع عن الوضع القائم والمحافظة عليه مرادفا للسياسات التي تحاول تغييره واستبداله بمعادلات وتراكيب قوة جد مختلفة، وهذا في ذاته خطأ لان اختلاف هاتين السياستين من حيث الدافع والمضمون، لابد وان يترتب عليه اختلاف في المدلولات وبالتالي في التأثيرات والنتائج التي تترتب على تطبيقهما.

يمكن القول _إلى حد ما _ أن معظم أسس النظرية الشيوعية حول الإمبريالية في هذا القرن، كان قد طرحها الاقتصادي الإنجليزي "هوبسون" الذي فسر الإمبريالية بأنها نتيجة عدم التوافق في داخل النظام الرأسمالي، والمتمثل في أقلية ثرية متخمة الاكتناز، يقابلها أغلبية معوزة لا تستطيع بقوتها الشرائية أن تستهلك كل إنتاج الصناعة الحديثة، وهنا فان المجتمعات الرأسمالية تواجه المأزق الصعب المتمثل في فيض الإنتاج

وغيض الاستهلاك، ولو أن الرأسماليين يرغبون في إعادة توزيع فائض ثروتهم على شكل إجراءات ترفع من الوضع الاقتصادي والاجتماعي لأغلبية سكان مجتمعاتهم، فان ذلك يعني انه لن يكون هناك مشكلة هيكلية حادة، ولكن الرأسماليين يسعون بدلا من ذلك لإعادة استثمار فائض رأس المال في مشروعات مربحة في الخارج، وتكون النتيجة قيام الظاهرة الإمبريالية التي عرفها بأنها :سعي كبار المشرفين على الصناعة لتوسيع قنوات تدفق فائض ثروتهم، بالبحث عن أسواق واستثمارات خارجية لتستوعب السلع ورأس المال الذي لا يستطيع المجتمع الذي يعيشون فيه أن يبتاعها أو يستخدمه على التوالي.9

في كلمات يائسة، يقول " تشالمرز جونسون " في (أحزان الإمبراطورية) : اخشى أن نفقد بلدنا، حيث أصبح جليا أن النزعة العسكرية وعجرفة السلطة والتعبيرات الملطفة المستخدمة لتبرير الإمبريالية، تتعارض حتما مع البنية الديمقراطية الأمريكية للحكومة وتشوه ثقافتها وقيمها الأساسية، وإذا كنت أبالغ في الحديث عن الخطر فإنني متأكد من الصفح عني لأن حكومات المستقبل سوف يسعدها كثيرا أن أكون مخطئا، ولكن الخطر الذي

أتوقعه هو أن الولايات المتحدة وضعت على مسار لا يختلف عن مسار الاتحاد السوفيتي السابق في ثمانينات القرن العشرين، فقد انهار الاتحاد السوفيتي لثلاثة أسباب رئيسية هي: التناقضات الاقتصادية الداخلية بدفع من الجمود الايدلوجي والتمدد الإمبراطوري والعجز عن الإصلاح، ولما كانت الولايات المتحدة اكثر ثراء فقد تستغرق وقتا أطول حتى تفعل الأمراض الماثلة فعلها، ولكن أوجه التشابه واضحة ولم يسجل في أي مكان أن الولايات المتحدة المتنكرة كإمبراطورية تحكم العالم سوف تستمر إلى الأبد.10

لعلك الآن تقبل أن نشبه الإمبريالية بالورم الخبيث المتكون في الدماغ؛ إن نهاية المريض والحالة هذه هي الموت.

نريد بعد ذلك أن نلفتك إلى شيء أخر قبل أن يضيع من ذاكرتنا، وهو إن النزعة الإمبراطورية الليبرالية التي تستحوذ على كيان الدول الإمبريالية، تتستر في الغالب الأعم تحت مصطلحات فضفاضة تتحمل أكثر من معنى مثل مصطلح" التدخل الإنساني "، وبهذا المعنى المتسع والعريض وغيره من المعاني المشابهة، فإن الدول الإمبريالية تتمكن من اجتياح الدول الأخرى وتدنيس سيادتها .

الهيمنة الثقافية والقوة الناعمة الأميركية

إن الهيمنة والسيطرة الثقافية لدى الولايات المتحدة يصفها "زبغنيو بريجنسكي" في كتابه (رقعة الشطرنج الكبرى) تمثل احدي سمات القوة العالمية الأمريكية، وأنه مهما فكر المرء في القيم الجمالية، فان الثقافة الشاملة في أميركا تمارس إغراء مغناطيسيا جاذبا خاصة بالنسبة إلى شباب العالم، ويضيف: أن إغراؤها إنما يكمن في نوعية مذهب المتعة الذي تحفل به أسلوب الحياة الأمريكية، ولكن إغراءها العالمي لا يمكن إنكاره فبرامج التلفزيون والأفلام الأميركية تحتل نحو ثلاثة أرباع السوق العالمية، والموسيقي الشعبية الأمريكية تسيطر هي الأخرى علي نحو مماثل، بينما نجد أيضا أن العالم كله يقلد وعلي نحو متزايد الهوايات والموديلات وعادات الطعام، وحتى طريقة ارتداء الملابس والملابس ذاتها، ثم أن لغة الأنترنيت هي إنكليزية، كما أن النسبة الأكبر من الأحاديث العالمية في الحواسب تأتي أيضا من أميركا، مما يؤثر في محتوي المحادثات العالمية، وأخيرا فقد أصبحت الولايات المتحدة المكان الذي يحج إليه

الساعون إلي الثقافة المتقدمة، علما أن ثمة نصف مليون طالب أجنبي تقريبا يتدفقون إلى الولايات المتحدة ولا يعود الكثيرون منهم إلى أوطانهم، ويمكن أن نجد خريجي الجامعات الأمريكية في كل مكتب تقريبا في كل القارات.11

الغاية من الهيمنة الثقافية هي بسط نفوذ سلطة الدولة خارج الحدود، لذلك فهي تخضع لرقابة صارمة ومتابعة دائمة، لأنها تحمل وصف الدولة وكيانها بل وروحها الذي يفترض في خاتمة المطاف أن يؤدي إلى غاية الهيمنة، وإن شئت الغزو والاجتياح والاستعمار من غير إراقة قطرة واحدة من الدماء.

إن إعلان "مارشال" في منتصف عام 1947 كان في حقيقة الأمر يجسد الهيمنة وسياسة فرض الأمر الواقع، كان الإعلان عن مشروع "مارشال" يمثل طوق النجاة للقارة الأوروبية العجوز لتجديد اقتصادها وضخ الحياة فيه، بعد أن تعاظمت آثار الحرب العالمية الثانية في الدول الأوربية، التي كان من أميز مظاهرها تفشي البطالة وانعدام مصادر الطاقة، ونفاذ احتياطي العملات الصعبة والذهب، غير أن المساعدة الأمريكية تجاه الدول الأوروبية ليست لتفريغ المنتوج

الصناعي الفائض من السلع الأمريكية وإيجاد أسواق أوربية فحسب، ولكن كانت من جهة ثانية سياسة فرض الأمر الواقع أمام الهيمنة والسيطرة الأمريكية، والتي لا تملك الدول الأوربية مجتمعة أو متفرقة إلا الإذعان والرضوخ لها، في مسميات عديدة مستترة أحيانا وظاهرة أحيانا أخرى، مثل الشراكة أو التفاهم أو التنسيق أو غيرها.

ورغم أن الجنرال "مارشال" فشل فشلا ذريعا في مهمته إلى الصين عام 1946 في محاولة التوسط بين الشيوعيين والقوميين في الحرب الأهلية الصينية، إلا أن إعلانه عام 1947 من جانب آخر كان نجاحا للاستراتيجية الأمريكية، التي كانت تتخذ مسارين: الأول هو خلق سوق لتصريف المنتوج الصناعي الأمريكي، والمسار الثاني يتمثل في إيجاد وخلق صورة الولايات المتحدة الأمريكية الرحيمة والنزيهة، والأخ الأكبر للدول الأوروبية مجتمعة.

إن القناعة الأمريكية في ذلك الوقت كانت تذهب إلى أن الاقتصاد الأوروبي القابل للحياة والواجب بعثه، سوف لا يكون إلا امتدادا جديدا للاقتصاد الأمريكي، ذلك أن الأفق الذي تنشده الولايات المتحدة كان مزدوجا ففي المرحلة الأولي كان ينبغي إرجاع الحياة

إلي الاقتصاد الأوروبي ، واستعماله كميدان لتصريف المنتجات الأمريكية أي إيجاد سوق لامتصاص الناتج الصناعي، ومن ثم في المرحلة الثانية ينبغي نسج روابط اقتصادية قوية أسهمت في تعزيزها صورة أمريكا الكريمة والنزيهة، وهي الفكرة التي تم تسويقها للرأي العام، بحيث لا يمكن تصور أن تقف أوروبا لوحدها دون المساعدة الاقتصادية الأمريكية والدعم الأمريكي.12

اعتمدت الاستراتيجية الأمريكية وربما العديد من الفواعل علي زيادة حجم القوة الناعمة، وتفعيل المكون الثقافي والفكري والأيدلوجي في خطوات ثابتة لتدعيم القوة الصلبة، ليس إرساء لقيم الحق والعدالة ونشر السلام والأمن الدوليين، ولكن لزيادة بسطتها وسيادتها وتحقيق أهدافها ومصالحها الآنية وبعيدة المدى.

إن تشويه الهوية الثقافية والحضارية لأي بلد مستهدف، يعتبر أساسا وخطوة اعتبارية للفواعل في نشر الهيمنة والسيطرة، وهو ما يصفه " عبد القادر محمد فهمي" في (الفكر السياسي والاستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية) بالإحلال والتهميش.

عملية الإحلال الثقافي وتهميش ثقافة ما على حساب ثقافة أخرى مدعمة بكل المكونات الاتصالية، جرت بوعي أو بدون وعي (بسبب من فاعليتها الفائقة) منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، عن طريق احتكار أيديولوجيا معينة مع وسائل نشرها، وليس ثمة شك في ضوء الخطاب الأمريكي المعلن والذي يدعو إلى أمركة العالم، أن الولايات المتحدة الأمريكية أدركت وبفعل رسالتها المكلفة بها من قبل الرب لنشرها على الصعيد العالمي، أدركت أن غزو العقول لتقبل هذه الرسالة أو هذه الأمريكية لا يمر إلا بطمس الهوية الثقافية للآخرين.13

وحين يجري تشويه إدراك شعب ما لإرثه والتلاعب بعناصره، مع إجلائه بالتدريج واستبداله بإرث أخر مختلف، واصطناع أداة محل أداة فكرية ووجدانية قائمة، يرافقه تدمير الرمز والنخب القادرة على قيادة الشعب سياسيا وتنويره ثقافيا، فإن القيم والعادات وبني التأويل المتحدرة من أيديولوجيا اجنبيه، تؤدي إلى سلب روح شعب ما وتعطيل إرادته في بناء شخصيته الفكرية والثقافية المستقلة، ليتحول بعدها إلى

مجرد كتلة بشرية تابعة مقلدة مفتقرة لمقومات التمايز والبقاء.14

رغم هذا فإن محاولات تشويه الهوية الثقافية التي تمارسها الاستراتيجية الأمريكية، وربما العديد من الفواعل يقابلها من ناحية ثانية قوة ورسوخ تلك الهويات أو ضعفها، فإما أن تكون راسخة ومتجذرة وصلبة لا يؤثر فيها أي متغير أو أي محاولات لتغييرها، وأما أن تكون ضعيفة هشة تذروها الرياح.

الهوية الإسلامية راسخة صلبة مهما بذلت الفواعل البذل والجهد، ناعما أم صلبا أم ذكيا في إطفائه أو تغييره، إن أي محاولة تبوء بالخسران؛ لقول الله تعالي :(يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبي الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) [التوبة:33_32] وما تلك المحاولات والاستراتيجيات التي تبذلها العديد من الفواعل في حقيقتها، ما هي إلا موجة كبيرة مملوءة بالزبد. وأما الزبد فيذهب جفاء.

ومما يزيدك انشراحا في هذا المقام هو ما قاله "محمد قطب" في كتابه (هل نحن مسلمون) :

حين واجه المسلمون الفرس والروم لم يستعلوا بعددهم _فقد كانوا قلة بالنسبة لهؤلاء _ولا بالمال، فقد كانوا _بعد_ امة فقيرة تعيش على الكفاف، ولا بالسلاح فقد كان أعداؤهم يفوقونهم لا بنوع السلاح وحده، ولكن كذلك بالتنظيم الحربي والتمرس بفنون القتال المنظم على نطاق واسع، غير ما عهده العرب في غاراتهم الصغيرة قبل الإسلام ، ولا بعربيتهم _فقد كانوا فخورين بها حقا ولكنها لم تدفعهم من قبل أبدا إلى مواجهة تلكما الإمبراطوريتين العتيدتين، بل كانت بعض القبائل العربية تخدم نفوذهما وتعمل أجيرة لهما لتصد عنهما هجمات الأعراب، ولا بحضاراتهم فقد كانت الإمبراطوريتان دون شك، أعلى حضارة بما لا يقاس من سكان شبه الجزيرة في جميع العصور، وإنما استعلوا بشيء واحد : هو الإيمان، استعلوا بإحساسهم انهم _وهم مؤمنون_ افضل من كل هذه الخلق، مهما كان عددها وقوتها وعتادها وحضارتها ، ونظمها وقوانينها وتشريعاتها .. فكلها انحرافات جاهلية ما دامت لا تهتدي بهدى الله، ولا تتبع

شريعة الله، ثم كانت العجيبة التي علم الله أنها لا بد أن تحدث حين يستعلي الناس بالإيمان على طريقة الإسلام، فقد سعت هذه القوة المستعلية بالإيمان إلى تحقيق ذاتها في عالم الواقع _في كل ميدان من ميادين القوة فتعلمت العلم وتعلمت فنون الحرب، وتزودت بأنواع السلاح، وتعلمت الحضارة، وتحقق لها في عالم الواقع أن كانت أكبر قوة في تاريخ الأرض، فاندفعت شرقا وغربا بسرعة مذهلة لا مثيل لها في التاريخ، واندفعت _مستعلية تنشر الهدى وتدك الباطل دكا .15

إن منهاج الإسلام يمثل قوة عقائدية تحمل كل معاني القوة، ليس لتغيير مفاهيم الجاهلية وعبادة الآراء والأفراد وحسب، وإنما طريق للسعادة الدنيوية والأخروية، سعادة الدنيا والدين، وهي القوة التي دعا إليها الرسل والأنبياء، واليها يدعو المؤمنون من بعدهم، قال الله تعالى :(ويا قوم ما لي أدعوكم إلى النجاة وتدعونني إلى النار. تدعونني لأكفر بالله وأشرك به ما ليس لي به علم وأنا أدعوكم إلى العزيز الغفار. لا جرم أنما تدعونني إليه ليس له دعوة في

الدنيا ولا في الآخرة وان مردنا إلي الله وان المسرفين هم أصحاب النار) [غافر:43_41].

وإذا كانت الدول الفاعلة تعتمد علي توجيه القوة الناعمة وزيادتها وتوظيفها، لغزو الدول وإخضاعها أو السيطرة الكاملة عليها، فإن هذه القوة لا يمكن مقارنتها أو تشبيهها بقوة الدعوة الإسلامية، قوة الدعوة الإسلامية والتوحيد هي موجهة أساسا وقبل كل شيء، لفتح القلوب قبل الدول، بمعني الإيمان والاعتقاد الصحيح، أن طاعة الله ونصر الله والتوكل عليه والاعتصام به كلها عوامل دينية عقائدية تنشا منها القوة الصلبة ويتحقق معها النصر الوشيك.

إن قوة الإيمان هي القوة الكفيلة بتكوين وصنع القوة الصلبة، قوة الإيمان والقوة الإلهية هي القوة العظمي التي لا تضاهيها أو تقاربها قوة.

المفاهيم المتداخلة مع مفهوم القوة الناعمة

مفهوم "هابرماس" عن القوة الاتصالية

يعطي "هابرماس" مفهوما مختلفا في ممارسة القوة بين الفاعلين، فهو يعتمد على

قوة الحوار والاتصال بين الفواعل المتنازعة، وهذه القوة تعني تنازلا من جميع الأطراف عن استخدام القوة الصلبة أولا، وترفع كل الأطراف عن المصالح الضيقة المتنازع عليها بينهم، وانخراطهم في الاتصال والحوار، بما يمكن معه توجيه النزاع إلى الاستفادة من المصالح المشتركة التي تجمع بينهم.

لفهم نظرية "هابرماس" عن القوة الاتصالية، فانه ينبغي أولا التمييز بين العقل الاداتي والعقل التواصلي.

العقل الأداتي

يرى "ماكس هوركهايمر" في كتابه (أفول العقل) إن العقل الاداتي هو العقل المهيمن في المجتمعات الرأسمالية الحديثة، التي فقد فيها العقل دوره كملكة فكرية، وتم تقليصه من ثم إلى مجرد أداة لتحقيق أهداف معينة، وبالتالي فقد العقل رؤيته للهدف واصبح مجرد أداة لتوفير الوسائل، وأدى ذلك أيضا لفقدان العقل للقدرة على الإدراك للحقائق في ذاتها، حيث اصبح كل شيء مجرد وسيلة ،ويصف "هابرماس " العقل الاداتي بانه ينطوي على محتويين: الأول انه يمثل أسلوب لرؤية العالم، والثاني انه يمثل أسلوب لرؤية المعرفة النظرية، مما يكشف عن صلة

العقل الاداتي بالأغراض العملية ليس هذا وحسب، بل يذهب "هابرماس" إلى أن العقل الاداتي يعبر عن العقلانية الاداتية، التي مثلت دورا هاما في المجتمع الرأسمالي الغربي، وان العقل الاداتي يمثل العقل الغائي، فهو إما أن يكون اداتيا أو اختبارا عقلانيا، أو مركب منهما .

وسمات العقل الاداتي هي انه ينظر إلى الطبيعة والواقع من منظور التماثل، ويحاول تفكيك الواقع إلى أجزاء غير مترابطة، ويمثل الإنسان له شيء ثابت وكمي، وينظر إليه باعتباره أجزاء تشبه الأجزاء الطبيعية المادية، عليه فإنه يعتبر أن العقل التواصلي هو الحل الذي يقوم على تنشيط التواصل وقيمة الإنسان في المجتمع، إضافة فإن العقل التواصلي هو الطريق للخروج من هيمنة العقل الاداتي.

العقل التواصلي

يطرح " هابرماس" هذا المفهوم الجديد للعقل لأنه أكثر حداثة وقوة، ويتخطى عيوب العقل الاداتي ويعتبر بديلا للممارسات العقلية والإجرائية، ولا يريد " هابرماس" الامتثال للعقول التي تدعي تقديم حلول آنية لمشكلات مركبة موجودة في البيئة الاجتماعية

والدينية والثقافية والسياسية، إنما على النقيض تماما يريد أن يكون هذا العقل قادر على التواصل والاتفاق مع غيره بعيدا عن الضغط والتعسف، ويهدف إلى بلورة إجماع يعبر عن المساواة داخل فضاء عام ينتزع فيه الفرد جانبا من ذاتيته، ويدمجها في المجهود الجماعي الذي يقوم على التفاهم والتواصل العقلي، وبمعنى أخر يقول "هابرماس" :عقل تواصلي يتجاوز الذات، ليكون نسيجا من الذوات المتواصلة التي تتجاوز ذاتيتها.

يؤكد "هابرماس" في كتابه (القول الفلسفي للحداثة) على ضرورة الخروج من فلسفة الذات من خلال مخرج مهم، وهو ما يسميه العقل التواصلي، ويؤكد أن العقلانية التواصلية إنما تظهر بوضوح من خلال العلاقة التي يقيمها الناس القادرين على الكلام، وعلى الفاعلية عندما يتفقون على شيء معين.

مفهوم "مايكل مان" عن القوة الاجتماعية (القوة الممتدة والمكثفة والسلطوية والمنتشرة والتوزيعية والقوة الجمعية)

توجد ثلاثة فروض أساسية في تقدير "علي جلال معوض" للتمييز بين القوة، في دراسة "مايكل مان" حول القوة الاجتماعية وهي:

1_ الفرض الأول: هو التمييز بين القوة الممتدة التي يستطيع الفاعل فيها السيطرة على مجموع كبير من الفاعلين في أماكن مختلفة، والقوة المكثفة التي تهتم بتكوين درجة كبيرة من الالتزام لدي الفاعلين الخاضعين لها.

2_الفرض الثاني: هو التمييز بين القوة السلطوية التي تقوم على توجيهات معبرة من إرادة فاعل معين ووعي الآخرين بهذه التوجيهات والتزامهم بها، وبين القوة المنتشرة التي تنتشر لا مركزيا بين الفاعلين دون توجيه مباشر من فاعلين آخرين.

3_الفرض الثالث: هو التمييز بين القوة التوزيعية التي يؤدي زيادة أي طرف من القوة إلي نقصان نصيب الأطراف الأخرى منها، وبين القوة الجمعية وهي القوة المشتركة التي يتعاون فيها فاعلين أو أكثر.16

مفهوم "كينيث بولدنج" عن القوة التدميرية والقوة الإنتاجية والقوة التكاملية

يرى "كينيث بولدنج" :أن الصورة الذهنية للقومية تتشكل غالبا في مرحلة الطفولة وفي

نطاق الأسرة، ومن الخطأ الاعتقاد أن الصورة التي لدى الجماهير هي صورة صنعتها أدوات القوة بل العكس هو الصحيح، إذ أن الصورة هي من صنع الجماهير، أو ما يسمى بالصورة الشعبية، وان كانت أدوات القوة تساهم في دعم الصورة؛ غير أن هذه المسألة اقل صحة في الدول الجديدة التي تسعى لبناء اطار قومي لها، حيث تكون ثقافة الأسرة لا تتضمن عناصر الولاء القومي بمقدار ما تتضمن عناصر الولاء للأسرة ذاتها، أو للمثل الدينية، عليه فإن سلوك المؤسسات السياسية المعقدة يحدد من خلال قرارات تتضمن اختيار الوضع الأنسب من بين البدائل المتاحة، وهذا الاختيار إنما هو نتيجة لما في ذهن صانع القرار، وهذه الصورة التي في ذهن صانع القرار هي في حقيقة الأمر نتيجة لكم من المعلومات تلقاها في فترات سابقة، ومن هنا فإن الأمة تمثل مركبا من الصور الذهنية المتعددة بتعدد الأشخاص الذين يفكرون فيها.

وعلى هذا الاعتبار قدم "كينيث بولدنج" فرضياته عن القوة التدميرية التي من الممكن أن تنتهجها الفواعل، والقوة التكاملية التي تعني بتجميع الآخرين واجتذابهم وتوحيدهم حول الفاعل والانصراف

إلى تحصيل المصالح والفوائد والأهداف المشتركة لديهم، والقوة الإنتاجية التي تهتم بالإنتاج والقدرة على الدفع وتقديم المقابل.

مفهوم "بارنت" و"دوفال " عن القوة التكوينية والقوة الإنتاجية

يجادل "بارنت "و"دوفال" في دراستهما (القوة في السياسة الدولية) أن للقوة أربعة صور وهي:

1_القوة التكوينية أو الهيكلية وهي التي يكونها ويؤسسها النظام نفسه، والناتجة عن علاقات قوة كامنة في الهياكل الاجتماعية بما يقود لتشكيل قدرات الفاعلين وتوجه خياراتهم.

2_القوة الملزمة وهي القوة التي يقوم بها في حدود موقف أو مواقف محددة فواعل محددين، بالتحكم في ظروف وجود وتصرفات فاعل أخر، سواء كان عن طريق مصادر مادية أو فكرية.

3_ القوة المؤسسية وهي القوة التي يقوم بها فاعل محدد برسم ووضع القواعد للمؤسسات، بالصورة التي تحدد توجهات وخيارات الفاعلين الآخرين.

4_القوة الإنتاجية وهي القوة التي تتم من خلال الوجود الاجتماعي، وترتبط بالخطاب واللغة ونظم المعرفة.

مفهوم "بورديو "عن القوة الرمزية

القوة الرمزية في مفهوم "بيير بورديو" هي سيطرة العادات والتقاليد على الفاعلين على اختلاف صورها، دون وعي منهم في المعتاد.

يعتقد "بيير بورديو" أن القوة الرمزية هي قوة منفصلة عن القوة بمعناها العام، غير انه من الممكن أن تساعد القوة الرمزية في ذات المفهوم، ويعتقد أن القوة الرمزية في حقيقتها: هي الاعتياد الذي يجعل من ممارسات معينة وهياكل اجتماعية معينة، بأنها تمثل الوضع الطبيعي والأصلي.

السلطة الرمزية في مفهوم "بيير بورديو" هي سلطة لا مرئية، ولا يمكن أن تمارس إلا بتواطؤ أولئك الذين يأبون الاعتراف بأنهم يخضعون لها بل ويمارسونها، السلطة الرمزية من حيث هي قدرة على تكوين المعطى عن طريق العبارات اللفظية، ومن حيث هي قدرة على الإبانة والإقناع وإفرار رؤية عن العالم أو تحويلها، ومن ثم قدرة على تحويل التأثير في العالم وبالتالي تحويل العالم ذاته، قدرة شبه سحرية تمكن من بلوغ ما يعادل ما

تمكن منه القوة (الطبيعية أو الاقتصادية) بفضل قدرتها على التعبئة.. إن ما يعطي لكلمات وكلمات السر قوتها وما يجعلها قادرة على حفظ النظام أو خرقه، هو الإيمان بمشروعية الكلمات ومن ينطق بها.17

مفهوم "جرامشي "عن قوة الهيمنة

ينطلق فكر قوة الهيمنة والسيطرة عند "جرامشي" من الفرضية التي مفادها أن الدولة مهما كانت من القوة والتنظيم، فإنها لا يمكن أن تدوم معتمدة على العنف والدماء، وانه في سبيل البحث عن طريقة ومنهج أفضل ودائم، فانه ينبغي للنخب توظيف آلياتهم الإعلامية والقانونية والثقافية وغيرها للتلاعب بالوعي الشعبي للأفراد، واستمالتهم بذلك للانقياد وإتباع القيادة النخبة.

يدعي "جرامشي " أن اكتشافه مفهوم الهيمنة يعتبر حدثا ميتافيزيقيا عظيما، وان مجالات الصراع تعين في فهم الهيمنة، لأنها علاقة ذات منطق خاص بين طرفين أحدهما يحاول فرض السيطرة والوصاية على الآخر، وأن أية علاقة تقوم على الهيمنة هي بالضرورة علاقة تربوية توجد داخل الأمة الواحدة، بين مختلف القوى المكونة لها، بل وفي المجال

الدولي والعلمي بين مركبات الحضارات القومية والقارية.

مفهوم الهيمنة يتحدد من متطلبات الطابع القومي وفق تصور "جرامشي"، وفي الوقت الذي تعتبر فيه بعض القيادات الماركسية مثل "تروتسكي" أن أهمية مفهوم الهيمنة تتمثل في الطابع العالمي له، باعتبار أن الدولة تسعى لتكوين (كتلة تاريخية) تهيمن على النظام السياسي العالمي عبر إنشاء مؤسسات تخدم بصورة فعلية مصالح الدول المهيمنة، يعتقد "جرامشي" أهميته إنما تكمن في انطلاقه من القومية، محاولا بذلك أن يصوب من توجه القوى الاشتراكية، ليس ذلك وحسب بل يدعو الطبقة الأممية إلى القومية، وان تنزع إليها، وإذا كانت القوي الاشتراكية العالمية تنقاد لمفاهيم مثل اللاقومية في إطار سعيها لتحقيق وبسط الهيمنة، فان ذلك لا يقود إلا إلى السلبية.

وإذا أسقطنا مفهوم الهيمنة بمعناه عند "جرامشي" وهو أحكام السيطرة الكاملة علي الدولة، بالصورة التي تمارس فيها وسائل وأساليب ربما تكون ميكافيللية، بهدف إطالة عمر النظام بوسائل غير القوة والعنف والقمع، أو مشاركة القوة الصلبة مع القوة

التلاعبية الميكافيللية _ إذا صح هذا التعبير_ إذا أسقطنا ذلك علي الأنظمة المعاصرة، ربما وجدنا أن نظرية "جرامشي" تنطبق علي أكمل وجه ، والمحصلة في ذلك هو وقوع تلك الأنظمة في مسمي المؤامرة علي الأفراد والشعوب ، وهي من ناحية ثانية توفر وقتا كبيرا للدول الفاعلة، التي ربما تتفق معها في جوانب كثيرة، وإذا كانت تلك القوة تمثل نوعا من المؤامرة، فإن لجوء الأنظمة إلي توظيف آلياتها الإعلامية والدينية والقانونية والثقافية لتزييف وتغيير الوعي الشعبي، لضمان الاستمالة والانقياد والاستسلام الكامل، فإن ذلك يدرج المؤامرة في مسمي اكبر وهو الخيانة! باعتبار أن المؤامرة هي صورة من صور الخيانة.

مفهوم "فوكو" عن القوة التنظيمية

يدعي "ميشال فوكو" أن الجسد لا يصبح قوة نافعة إلا إذا كان ذلك الجسد منتجا وجسدا خاضعا، وان السلطة بمقدورها بفضل تقنيات المراقبة لديها، أن تخضع ذلك الجسد وتهيمن عليه.

إن التحكم الجيد بالأفراد وتطويعهم وفق مفهوم القوة التنظيمية، إنما يتم عبر

الرقابة والتي من شانها أن تؤدي في النهاية إلى التزام الأفراد وخضوعهم الذاتي للسلطة.

إن خلق الإحساس بالمراقبة للأفراد يتم عبر الرقابة الدائمة لنشاطاته وسير عمله، وذلك من خلال ضبط كل فعل من أفعاله ويوجد هذا الضبط داخل الهيكليات القديمة، المدارس، المستشفيات والمشاغل، إلا أن هذه الهيكليات القديمة قد زادت مجالاتها، وأصبح الفرد محاصرا في كل خطوة يخطوها.

لقد جعلت التقنيات الحديثة من الفرد مجرد حالة مكشوفة التفاصيل، ومن الوسائل الانضباطية مثل الإجراءات أن تعمل من اجل تحقيق الانضباط الكامل.

يعتقد "فوكو "أن كل العلوم والتحليلات أو الإجراءات ذات العلاقة الوطيدة مع علم النفس، لها دورا أساسيا ورئيسا في إنشاء ووجود التفرد، بمعنى انه تم وضع تكنولوجيا جديدة للسلطة ذات وظيفة مزدوجة، فهي تستعبد وتقمع وتكبت، وتراقب وتجرد، وتنتج الواقع الحقيقي في نهاية المطاف.

إن السلطة في فكر "فوكو" بآلياتها المختلفة لم تؤدي إلا إلى خلق حالة من المراقبة الدائمة والمستمرة للفرد، وعلى الفرد أن يتحرر من هذا الارتباط، و يدعو

"فوكو" إلى الحياة بمقاومة هذه السلطة التي تسود العالم الحديث والمعاصر وتنساب فيه كما ينساب الدم في الجسم، ويقترح في ذلك طريقة تعتمد على مقاومة مختلف أنواع السلطة، وتشكيل ذاتية الفرد بمعزل عن السلطة وهيمنتها باعتماد النظام اليوناني، حيث الأخلاق لا ترتبط بالدين أو العلم أو القانون.

في ذات السياق يرى "حسين موسى" في (ميشال فوكو _الفرد والمجتمع) أن النظام التصوري أو ما يسميه "فوكو" بالابستيمي، هو عبارة عن نظرية كبرى تهيمن في عصر معين، وتحدد الكيفية التي يفكر من خلالها البشر، لقد عملت السلطة على ترويض مختلف القوى الاجتماعية والسياسية داخل النسق القائم، وقد أدى ذلك إلى إعادة تذويت الأفراد سواء كان ذلك في القوالب اللغوية أو النحوية؛ إذ يرى "فوكو" أن اللغة لا تكتسب قيمتها من الدلالات أو الإحالات المباشرة التي تشير إليها، بل من نظام العلاقات العامة التي تنتظم وفقها، فهي تفوق في حقيقة الأمر سلطة الأفراد، إن "استيطيقا الوجود" يقصد بها "فوكو" الكيفية التي يحول بها الفرد ذاته كي تصبح ذاتا أخلاقية،

لا يهمها الخضوع إلى قواعد أو أوامر أو مواعظ خارجية، بقدر ما تبحث على إعطاء وجودها بعدا جماليا.

إن قيمة التجربة اليونانية بالنسبة ل "فوكو" تكمن في اكتشاف الذات، وذلك من خلال تحكم الفرد في ذاته بهدف التحكم في الآخرين.

إن ما أراد أن يستعيده "فوكو" من الثقافة اليونانية الرومانية، هو قدرة الفرد على قيادة ذاته، لأن أرقى ما تحققه حكمة الفيلسوف هو الكيفية التي يتمكن بها من توجيه سلوكه وسط الآخرين، إن لم يكن قادرا على توجيه نفسه في انفعالاتها وأهوائها وأحوالها، إن هذه الآليات السلطوية التي أنتجتها الحضارة لم تؤدي سوى إلى قمع الأفراد عبر خلق سياج من المراقبة المستمرة الدائمة، بتوظيف التقنيات الدقيقة من أجل تطويع الأجسام وتقويمها، أو من أجل استخراج الحقيقة الكامنة في الفرد، هذا ما نستشفه من خلال التصنيف الذي تقوم به السلطة للأفراد، إن عودة "فوكو" إلى اليونان واليونانيين واستحضار أسلوب عيش الأفراد في هذه المجتمعات، ليس إلا دعوة إلى أن نحذو حذو

اليونانيين ليس تقليدا واتباعا ولكن هذه المرة ابتكارا وتجديدا.

مفهوم قوة تحديد جدول الأعمال

وهي قدرة الفواعل على تقديم وفرض قضايا بصورة رئيسية وآنية، في مقابل تهميش قضايا وموضوعات أخري.

أكد "بيتر باشـراش "و"مورتون باراتز " في دراسة بعنوان (وجهان للقوة) على ضرورة اعتبار مفهوم قوة تحديد جدول الأعمال، كقوة خفية سـابقة للصـراع، لا يمكن إنكارها أو التغاضـي عنها، لما لها من أثر كبير في توجيه الصـراع، وتوجيه القوة إلى مسـارات تتفق مع ميول الفاعلين.

ورغم أن "بيتر باشراش "و"مورتون باراتز " أكدا على عدم الاكتفاء فقط بتحليل القوة في مجالات الصـراع، لما لقوة تحديد جدول الأعمال من الأهمية في إدارة الصـراع، إلا أن مفـاهيم القوة الأخرى على اختلاف أنواعهـا وتعدد منظريها، ربما تكون متضـمنة لقوة أو قدرة الفاعلين على تحديد وفرض الأعمال والقضايا.

في ذات المعنى يذكر "علي جلال معوض" في (مفهوم القوة الناعمة) أن قوة تحديد جدول

الأعمال تشير إلى القدرة علي تصعيد أولوية بعض الموضوعات والقضايا (أو حتي بعض الفواصل المرتبطة بهذه القضايا)مقابل تهميش قضايا أخرى، أو حتى حجبها من دخول حيز النقاش والمساومات أو تفاعلات القوة عموما (وهو ما قد يشمل استبعاد الفواعل المعبرة عن هذه القضايا)ورغم الاهتمام المحدود نسبيا بتطوير مفهوم تحديد جدول الأعمال في الدراسات السياسية، حيث يتم توظيفه في السياقات والتفاعلات الأكثر مؤسسية وتحديدا، مثل التفاعلات داخل المؤسسات التشريعية والدولية والعمليات التفاوضية، فإنه يظل أحد المفاهيم الأساسية الهامة في دراسات الإعلام والاتصال، باعتباره احد المداخل التي يتم تناولها في كيفية التأثير في توجهات الجمهور، من خلال تحديد القضايا المطروحة أو موضع النقاش، جنبا إلى جنب مع مفهوم التأطير، حيث تقديم القضايا المثارة بصورة معينة، والتهيئة أو البرمجة النفسية بالاعتماد علي استمرارية وكثافة تغطية مناسبات وقضايا معينة، وخلق تاريخ محدد لها، حيث يتم التأثير عبر الإيماءات، أو الكلمات العابرة اللاواعية التي سبق وأن تشكل لها رابط قوي.

مفهوم القوة المعيارية

وهو المفهوم الذي قدمه "إيان مانرز" في مقال نشر عام 2002 عن القوة المعيارية، ثم في كتاب متخصص بذات الموضوع في عام 2006، ويعتبر فيه القوة المعيارية: هي القدرة على تحديد وتشكيل ما يتم اعتباره عاديا، ويقترب المفهوم في مقصد "مانرز" من مقاصد "كار" في قوة الرأي التي تحدث الأخير عنها، ومقاصد "جالتونج" في قوة الأيدلوجيا، وهي كلها تهتم بالقدرة على التأثير في أفكار وتوجهات الأخرين من خلال التأثير في أفكارهم.

انطلق "مانرز" في توضيح مفهوم القوة المعيارية من تعريف " روسا نكرنس" الذي يصنف به الأخير أوروبا قوة معيارية بدلا من قوة تجريبية، وعليه يفترض "مانرز" أن خصوصية الاتحاد الأوروبي تستند إلى المعايير ما بعد الوستفالية، ويقترح أن دور أوروبا في العالم لا يمكن فهمه بمجرد مقارنته مقارنة بسيطة مع باقي الدول، فهو يعتبر أن الاندماج السياسي لأوروبا استند منذ 1950 إلى هذا التفضيل المعياري، مع احترام المبادئ المعيارية الرئيسة: السلم والحرية والدفاع وحقوق الإنسان.

في ذات المفهوم فان "رومانو برودي" يعتبر أن الرغبة في نقل المعايير وتقاسم النموذج المجتمعي مع شعوب أوروبا الجنوبية وأوروبا الشرقية، الذين يتطلعون إلى السلام والعدالة والحرية لا يعد مشروعا امبرياليا، بل يجب على أوروبا أن تذهب إلى ابعد من ذلك، حيث يستوجب أن يصوب الهدف لتحقيق قوى عالمية تكون في خدمة التطور العالمي المستدام.

قياس قوة الدولة: الاتجاهات والمحاولات

إن تحديد معيار يتسم بالدقة والصدق لقياس قوة الدولة يعتبر أمرا شاقا وصعبا بمكان، وذلك لكثرة العوامل والمتغيرات المتداخلة في ذلك.

ورغم أهمية عوامل القوة الكامنة (عدد السكان والثروات الطبيعية) والقوة الفعلية (الجيش) في تحديد مقياس القوة للدول، إلا أن العوامل غير المادية (مثل وضع الخطط والاستراتيجيات مثلا) ربما تغير من نتائج الحروب التي تدخل اتونها الدول.

في ذلك يذكر "ميرشايمر" في (مأساة القوى العظمى): أن الألمان استخدموا استراتيجية الحرب الخاطفة في ربيع 1940 لهزيمة

الجيشين البريطاني والفرنسي، الذين كانا في نفس حجم الفيرماخت وقوته تقريبا.

إن القوات الفرنسية التي تقدمت لغزو روسيا في 1812 كانت تتفوق في العدد على الجيوش الروسية، ورغم ذلك دمر الروس جيش نابليون تدميرا كاملا في الشهور الستة التالية وحققوا نصرا كاسحا، إن الطقس والمرض والاستراتيجية الروسية الذكية هي التي هزمت نابليون، فقد رفض الروس أن يشتبكوا مع القوات الغازية على طول حدودهم الغربية وانسحبوا نحو موسكو ونفذوا سياسة الأرض المحروقة، وهم يتحركون شرقا.

إن الدولة ذات التعداد السكاني الكبير تتميز عن غيرها بميزتين: الأولى أنها تستطيع حشد جيوش جرارة في وقت وجيز لملاقاة الدول المتنافسة، وثانيا: أن هذا العدد الكبير يمكن الدولة أن تنتج ثروة كبيرة وضخمة، وتلك الأخيرة هي لبنة البناء الثانية للقوة العسكرية.

يضيف "ميرشايمر": أن ثمة معان مختلفة لمفهوم الثروة ويمكن أن تقاس بطرق مختلفة، وينبغي أن يتضمن هذا المؤشر ثروة الدولة القابلة للتعبئة ومستوى تطورها التقني، وترمز "الثروة القابلة للتعبئة" إلى

الموارد الاقتصادية التي تملكها الدولة لبناء قواتها العسكرية، وهي اهم من الثروة الإجمالية لان المهم ليس مدى ثراء الدولة بل مقدار الثروة المتاحة للإنفاق على الدفاع ويعتبر الناتج القومي الإجمالي الذي يشكل كامل ناتج الدولة على مدى عام المؤشر الأكثر استخداما لثروة الدولة، إلا انه لا يكون دائما مؤشرا جيدا للقوة الكامنة.

إن توزيع القوة الكامنة بين الدول يعكس توزيع القوة العسكرية، لأن الدول تترجم ثرواتها إلى قوة عسكرية، إلا أن القوة الاقتصادية ربما لا تكون دائما مؤشرا صحيحا للقوة العسكرية.

الاستراتيجية التي تتبناها الدول هي المحرك للدولة الغنية في أن تكون قوية عسكريا أو لا تكون، المملكة المتحدة في القرن التاسع عشر كانت مثالا للدولة التي امتنعت عن تحويل ثروتها الكبيرة إلى قوة عسكرية، فكانت بين عامي 1820 و 1890 أغنى دولة في أوروبا على الإطلاق، ولو كانت الثروة وحدها مؤشرا صحيحا للقوة لكانت المملكة المتحدة القوة المهيمنة الأولى في أوروبا، أو على الأقل دولة مهيمنة كامنة تسعى القوى العظمى الأخرى إلى فرض التوازن عليها، لكن

السجل التاريخي يبين أن ذلك لم يحدث، فالمملكة المتحدة رغم ثروتها الوفيرة لم تبن قوة عسكرية تشكل تهديدا خطيرا على فرنسا أو ألمانيا أو روسيا، ولم تحشد المملكة المتحدة جيشا جرارا أو تحاول أن تغزو أوروبا، لأنها ربما كانت تواجه مشكلات كبيرة إن هي حاولت أن تظهر القوة عبر القنال الإنجليزي على أرض القارة الأوروبية، إذ تميل المساحات المائية الكبيرة إلى سلب القدرة الهجومية للجيوش ، لذا ارتأت الحكمة الإنجليزية انه من غير الاستراتيجي أن تبني جيشا كبيرا قليل النفع في الهجوم، وغير ضروري للدفاع عن الوطن.

الولايات المتحدة كمثال أخر من القرن التاسع عشر لدولة غنية احتفظت بمؤسسة عسكرية صغيرة نسبيا، إلا أنها شرعت في بناء جيش قوي استطاع أن ينافس جيوش القوى العظمى الأوروبية.

ثمة سبب أخر يدفع الدول أحيانا لأن تضع حدا لميزانيتها العسكرية وهو إدراكها أن الإنفاق العسكري العدواني من جانبها ربما يضر بالاقتصاد، مما يقوض الدولة في النهاية لأن القوة الاقتصادية هي أساس القوة العسكرية.

الصعوبات التي تواجه عملية تقييم وتحديد مقياس قوة الدولة عديدة ، فمنها صعوبة حصر العوامل المادية والمعنوية التي تدخل في تركيب القوة للدولة، وإعطاء وزن نسبي لكل متغير على حدة، العوامل المعنوية بشكل خاص يعتبر تحديدها وتقييمها من أشق الأمور، فعامل قوة الإرادة ودرجة الروح المعنوية لا يمكن إخضاعهما للحساب أو التقييم بالمقاييس المادية، ومن بين الصعوبات المتوقعة أيضا : ضمان الحياد والنزاهة والموضوعية في التحليل، لان التحيز وعدم الشفافية يفسد التقييم، ثم انب اشتراط الموضوعية في تقييم عناصر يفتقر الكثير منها إلى الطبيعة الموضوعية، يبدو أمرا مجافيا للمنطق.

بصورة عامة فإن هناك شبه اتفاق على أن المكونات التالية يمكن اعتبارها اهم عناصر القوة:

1_مساحة الدولة وموقعها

إذا كانت الدولة ذات مساحة كبيرة فهذا يعطيها ميزات عديدة منها :

أ_ احتواء عدد كبير من السكان خلافا للدولة ذات المساحة الصغيرة.

ب_ تنوع ووفرة الموارد الطبيعية.

ج_ يساعد اتساع مساحة الدولة من تمكينها في توزيع مراكزها ومنشأتها العسكرية والحيوية في مناطق متباعدة، مما يجعل من مهمة القضاء عليها بضربات استراتيجية أمرا صعبا.

د_ تفيد المساحة الكبيرة في إعطاء الدولة عمقا استراتيجيا يمكنها الانسحاب للخلف وتنظيم صفوفها، إذا دعت ضرورات الحرب لذلك.

2_الموارد الطبيعية التي تتحكم بها الدولة فعليا

تمثل الموارد الطبيعية عاملا أساسيا أو مكملا أساسيا في زيادة قوة الدولة والمحافظة عليها، عليه فان أي تهديد مباشر أو غير مباشر لموارد الدولة الطبيعية، إنما يعني تهديدا لأمنها القومي أو تهديدا لحجم قوتها.

3_ السكان

عنصر السكان هو من أهم عناصر القوة للدولة، وحجم السكان الأصليين الكبير يجعل من القوات النظامية المسلحة جيشا كبيرا يعتمد عليه في الحروب، وقد أشار إلى ذلك

"ابن خلدون" في مقدمته، فقد قال: أن عنصري المال والرجال هما من أهم عناصر ومكونات الدولة.

أما القوات المرتزقة التي تستخدمها الدولة في الدفاع عن حدودها وذاتها فأنها وان حققت نجاحا ملحوظا، إلا انه لا يمكن مقارنتها بالقوات المكونة من السكان الأصليين، فالأخيرة إنما تقاتل من اجل المال لا من اجل قضية أخرى، وهو ما يجعلها اقل حماسا أن لم تكن متراخية، خلافا للقوات النظامية المكونة من السكان الأصليين فإنها تقاتل من اجل ذاتها ووجودها.

4_المستوى الاقتصادي والمستوى العسكري المتقدم

إن مستوى النمو الاقتصادي المتقدم يعطي الدولة ميزة عن غيرها من الدول الفقيرة.

ربما تكون الثروة هي أهم مكون للدولة أو الأفراد في بناء قوة الدولة، لأن القوة الاقتصادية هي أساس القوة العسكرية، بقاء الدولة والنمو الاقتصادي هما وجهان لعملة واحدة كما ذهب إلى ذلك "فيبر".

إن استغلال الثروات الموجودة في الدولة ومن ثم تحويل ذلك المكون إلى نمو اقتصادي

سريع وكبير، يتوقف على الإرادة لدى الدولة ونظرتها البعيدة المدى فيما تحب أن تكون عليه، إرادة الدولة والأفراد يعتبر عاملا أساسيا لتحقيق الطفرات والقفزات الاقتصادية والعسكرية، هذه الإرادة القوية في حد ذاتها تشكل تهديدا للقوى العظمى، التي يرعبها أن تشاهد نموا اقتصاديا وعسكريا مدفوعا بإرادة قوية لدى دولة ليست من الدول القوية والعظمى؛ لهذا السبب تنظر الدول العظمى اليوم للصين بنظرة الارتياب، لما تمتلكه الصين من تعداد سكاني كبير ونمو اقتصادي كبير، ومنتوجات ربما غزت كل الأسواق.

مهما يكن، فقد تباينت المفاهيم في تحديد مقياس ثابت يتسم بالدقة والمحدودية والشفافية لقياس قوة الدولة، وبصورة عامة فإنه توجد ثلاثة مناهج لقياس قوة الدولة:

1_منهاج قياس قوة الدولة من منظور العوامل المادية.

2_منهاج قياس قوة الدولة من منظور العوامل المادية والمعنوية.

3_منهاج قياس قوة الدولة في حالة توظيفها.

منهاج قياس قوة الدولة من منظور العوامل المادية

اهتم هذا الاتجاه من مناهج قياس قوة الدولة، باعتبار القدرة العسكرية والاقتصادية كأهم مكون في درجات قياس القوة.

إن الاهتمام بالقدرة العسكرية وجاهزية الأفراد للقتال في أي وقت، والانشغال بالتدريب المستمر والدائم في حالتي السلم والحرب، من شأنه أن يخلق المهابة والتوجس والريبة في نفوس الخصوم والأصدقاء على السواء، وليس مثل هذا في الوحدات التي تهتم براحة أفرادها وجنودها في السلم، وهذا المعني سبق في ذكره وتفصيله "مكيافيللي" في كتابه سيء الذكر (الأمير).

إن التنمية العسكرية والاهتمام بالمراكز البحثية العلمية لتطوير التقنية العسكرية، هو فارق مهم لتصنيف وقياس قوة الدولة؛ كوريا الشمالية مثلا دولة قوية اذا تم إخضاعها لمنظور قياس قوة الدولة من الناحية المادية العسكرية، غير أن اهتمامها بالتقنية العسكرية وتطويرها، هو الذي مكنها من الوقوف ندا الولايات المتحدة الأمريكية وتهديدها، وهو ما زاد من حدة

التوتر بينهما ؛ من علامات هذا التوتر هو التصعيد الأخير بين بيونغ يانغ وواشنطن الذي وصل إلى حد التهديدات الكلامية المتبادلة، والتنابز القبيح، بعد أن نفذت كوريا الشمالية تجربة إطلاق صاروخ باليستي عابر للقارات يمكنه أن يصل إلى أجزاء من الولايات الأمريكية، ففي الوقت الذي يري فيه باحثون ومؤرخون من كوريا الشمالية، أن زعيمهم ابعد ما يكون عن الجنون بل إن "ترامب" هو الشخص الذي لا يمكن التنبؤ بتصرفاته، فان السيناتور "جون ماكين" يصف الزعيم الكوري "كيم جونغ أون" بالفتي السمين الأخرق، وعندما كان ماكين" يطلق وصفه ذاك علي زعيم الكوريين فان كوريا كانت قد فرغت من وضع خطة الهجوم علي جزيرة غوام، التي توجد بها قواعد عسكرية.

ورغم كل التهديدات والتراشقات الكلامية والتنابز القبيح والتأهب للدرجات القصوى التي أعلنها كلا البلدين، بما يصور أن حربا نووية وشيكة ستندلع بينهما على الأرجح، وستقضي علي الأخضر واليابس بل تهدد بفناء البشر، فان الفتي "أون" كما يسميه "ماكين"، إنما كان يخطط في واقع الأمر لاستنزاف الإدارة الأمريكية اقتصاديا ومعنويا، ويضفي من ثم

على امتلاكه وتطويره للأسلحة النووية صبغة شرعية، تارة بالتهديد، وتارة بإظهار الإذعان التام والالتزام الكامل بمعاهدة حظر انتشار الأسلحة النووية.

من رواد منهج قياس قوة الدولة باعتبار القدرة العسكرية والاقتصادية "جورج مودلسكي" و " الكوك" و "ألان نيوكمب" و "جرمان"، يشير "جمال زهران" في كتاب (منهج قياس قوة الدول واحتمالات تطور الصراع العربي _الإسرائيلي) إلى أن "جورج مودلسكي" حدد عددا من المؤشرات لقياس قوة الدولة هي: النفقات العسكرية، وحجم القوات المسلحة، والدخل القومي، والسكان، ويفترض أن الدول لديها القدرة والسيطرة علي ثرواتها، وفي محاولة " الكوك" و "ألان نيوكمب " حددا عنصرين هما : إجمالي الدخل القومي والنفقات العسكرية كمؤشرين لقياس قوة الدولة، وقاما بتطبيق هذه المحاولة في دراسة ميدانية ؛ كذلك يحدد "غونار سجو ستدت" عنصرين فقط هما : إجمالي الإنتاج المحلي، واستهلاك الطاقة كمؤشرين للدلالة علي قوة الدولة، كما توجد محاولة "جرمان" لقياس قوة الدولة، وقد حدد عوامل رئيسية لها أثر بالغ في قوة الدولة هي: الاقتصاد

القومي ويشمل :الموارد الزراعية والمعدنية والصناعية، والأرض والسكان، والقوة العسكرية .18

منهاج قياس قوة الدولة من منظور العوامل المادية والمعنوية

يهتم أصحاب هذا المنهج بدمج العوامل المعنوية مع العوامل المادية في معادلة واحدة أو فصلهما، مع اعتبار أهمية العوامل المعنوية في تحديد المقياس، ورغم كثرة المحاولات التي تعرف مقياس الدولة في هذا المنهاج إلا أن بعض العوامل ظلت ثابتة ومشتركة، مما يؤكد أهميتها الأساسية والمفصلية في هذا الإطار.

اغلب العوامل المادية، مثل الموارد الطبيعية والقدرات الاقتصادية والعسكرية والسياسية والجغرافيا والثروات وغيرها، ظلت ثابتة ومشتركة في كل محاولات تحديد مقياس القوة، أما العوامل المعنوية فقد تباينت من محاولة لأخري.

العوامل المعنوية المدمجة في محاولة "ويلكنسون" هي قدرة الوحدات علي العمل الجماعي اجتماعيا وأخلاقيا ومعنويا وسياسيا، وهي الأخلاق القومية في محاولة "أورغانسكي"، ومن ثم فإن العامل المعنوي

الأخلاقي هو عامل مشترك في مفهوم "ويلكنسون" و"اورغانسكي"، ومحدد معنوي لقياس قوة الدولة، لكن السؤال هو أي عامل أخلاقي ينبغي أن يؤخذ في الاعتبار، أهي أخلاق البشر الذئبية عند "هوبس"، أم أخلاق الشيوعية أم الرأسمالية؛ ربما تكون عبارة "لويس فيشر" المملوءة بالإحباط واليأس من تلك الأنظمة هي إجابة على هذا التساؤل، فهو يقول: بعض الناس يقض مضاجعهم ما يقترفه العالم الرأسمالي من جرائم وآثام، فيظلون عميا لا يرون جرائم البلشفية وإفلاسها، وكثير منهم يستغلون نقائض العالم الغربي ليصرفوا الانتباه عن فظائع موسكو البشعة، أما أنا فأقول: لعن الله كليهما"!19

الاتجاه الواقعي ينكر وجود الأخلاق في السياسة الدولية، ويعتبر أن المصلحة القومية هي الدافع الرئيس الذي يتحكم في العلاقات الدولية وان الأخلاق لا تكون عائقا ضد أهداف الدولة ومصالحها، أما الاتجاه الثاني فهو لا يعتقد في توحد النواحي الأخلاقية في كل الوحدات السياسية، وإنما يعترف بوجود نوع من الاختلاف حتى وان لم يكن اختلافا كاملا بينهم، أما القسم الثالث فيرى أن الأخلاق لا تتجزأ، بل إن الشخصية

الإنسانية هي الأصل التي تتمركز حولها كل هذه القيم ، عليه فإنه يمكن اعتبار الدول على نفس هذا النمط، وهي بهذا الاعتبار تستطيع أن تغير من السلوك الأناني القومي لدى الدول الأخرى.

ورأينا الخاص في ذلك أنه إذا كانت الأخلاق تؤخذ من البشر وأعرافهم وتقاليدهم وأفكارهم وأنظمتهم ، فهي أخلاق لا ترفع الأمم أو تزيد في قوتها أما إن كانت مستمدة من دين الله لا البشر ، فهي ترفع الأمم وتزيد في قوتها .

عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" .20

الخلق الإسلامي عند رسول الله صلى الله عليه وسلم هو القرآن، وقد سئلت عائشة رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: كان خلقه القرآن. عن سعد بن هشام قال: أتيت عائشة فقلت: يا أم المؤمنين أخبريني بخلق رسول الله صلى الله عليه و سلم ؟ فقالت: كان خلقه القرآن، أما تقرأ قول الله عز وجل : (وإنك لعلي خلق عظيم) [القلم :4] ؟21

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق".22

وقد حدد الله جل شأنه هذه الموجهات والأخلاق الكريمة، التي تعتبر مقياسا لقوة الدولة قال الله تعالى: (وان جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل علي الله إنه هو السميع العليم) [الانفال:61]، وقال تعالى: (إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوا قومهم ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم فان اعتزلوكم فلم يقاتلوكم والقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا) [النساء:90]، (وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين) [البقرة:190]، (يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهادا في سبيلي وابتغاء مرضاتي تسرون إليهم بالمودة وانا اعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضل سواء السبيل) [الممتحنة:1].

هذه الآيات الكريمة تخبر عن العامل المعنوي الأخلاقي في الإسلام وما ينبغي أن يكون عليه الفرد، فكيف كانت أخلاق الغرب.

إن الإسلام يأمر باحترام المعاهدات والمواثيق، قال الله تعالى :(وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا) [الإسراء:34]، (إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين) [التوبة :4]، بل انه يأمر بمعاملة القوى غير المعاندة معاملة حسنة (لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين) [الممتحنة :8].

إن ما نشاهده كل يوم من الحروب والدمار ليس إلا انتهاكا للقوانين والأعراف والمواثيق، أو التفافا عليها، وتسمية للأشياء بغير أسمائها وتضييع لقيم الأخلاق، والأمثلة على ذلك كثيرة وعديدة؛ إذا تتبعنا كل حادثة وأرجعناها إلى أصولها فإنها لا تخرج عن ذلك، إسرائيل مثلا تزعم أنها في حالة دفاع شرعي عن النفس في الحرب الزبون مع غزة الأبية، مع أن الحقيقة غير ذلك فهي

تسمي كيفما رأت، وكيفما شاءت والأصل أنها باغية ومعتدية ودولة احتلال!

إن إسرائيل والولايات المتحدة تمتلكا من أسلحة الدمار الشامل والأسلحة البيولوجية والنووية ما لا يمتلكهم غيرهما، فهم محكومون بمواثيق عدم انتشار الأسلحة النووية وحظرها، إلا انهما لا ترعيا حرمة للبشر، وتفجر نجازاكي بأفظع القنابل النووية ويهلك حرثهم ونسلهم سنين عددا، ويصاب من نجا من الموت بالسرطانات من الإشعاعات النووية المؤذية.

إن إمطار بغداد المسلمة بحمم القنابل وقتل الأبرياء والعزل، وتنصيب "بريمر" حاكما عسكريا علي العراق هو من أعمال الولايات المتحدة البربرية التي لم تعرف الأخلاق القويمة، وكل معرفتها تعزيز الأهداف الإمبريالية لإسرائيل، وهي وبريطانيا من اعترفوا بكذبة نزع وتدمير أسلحة الدمار الشامل من العراق، فهم من يكذبون علي شعوبهم قبل الكذب علي المجتمع الدولي، وهم من حاصرتهم برلماناتهم قبل أن يحاصرهم المجتمع الدولي، ويصدق ذلك مشهد "توني بلير" الذي كان يشرب الماء من قارورة أمامه في منصة البرلمان البريطاني عدة

مرات لجفاف حلقه، بعد أن عرف الجميع كذبته وإهلاكه لجنده!

إن الأخلاق المرذولة كانت في تدمير العراق، تارة بالبحث عن أسلحة الدمار الشامل كذبا وبهتانا، وتارة بالقضاء علي تنظيم الدولة الإسلامية، وهي الذريعة والوسيلة التي اتخذوها لتدمير هذا البلد المسلم، وسرقة نفطه؛ البلد الذي كان يقض مضاجع إسرائيل، فقصفت قوات التحالف الفلوجة والموصل، حتي المآذن التاريخية والأثرية مثل مئذنة الحدباء تم تدميرها ودكها، ولم تسلم أضرحة الأنبياء والصالحين من التدمير والخراب، وهم لا يجدون في قتل الأبرياء والأطفال ما يستحق الوقوف عنده، ومحاسبة النفس لهذه الجرائم المنكرة، وعندما سألت "ليسلي شتال" "مادلين اولبرايت" التي كانت سفيرا للولايات المتحدة في الأمم المتحدة وقتذاك، عن إحساسها تجاه مقتل نصف مليون طفل عراقي، أجابت عجوز السوء :نعتقد بأن الثمن كان يستحق.

ولم تسلم سوريا من الأخلاق القذرة والحرب المقدسة التي باركتها الكنيسة الأرثوذكسية، وأظهر " بوتين" نابه الأزرق وعاث في بلاد

بنو أمية قتلا وتدميرا، وناوبه "بشار الأسد" القذارة ورجم أهله وعشيرته بالبراميل المتفجرة والغازات السامة المحرمة دوليا، وأهلك قرابة نصف السكان، وشرد الباقين إلى حيتان البحار ومدن أوروبا، ومخيمات اللاجئين في تركيا والأردن، فأي نهاية شنيعة يستحقها الأسد وشيعته؟

الأخلاق المتسخة والمنتنة كانت في احتلال فلسطين بأباطيل وأساطير وخرافات يرسمها الحاخامات، وكانت في قتل الفلسطينيين علي مدي عمر الاحتلال الاستيطاني الأرعن، وقتل "محمد الدرة" الطفل الصغير أمام ناظري والده، وحرق الطفل الصغير" علي الدوابشة"، واضطهاد الفلسطينيين وتطبيق نظام الابارتايد عليهم، واعتقالهم في السجون الإسرائيلية، وتجريف أراضيهم والاستيلاء علي أراضيهم عنوة، بتطبيق محاكمهم الباطلة التي لا يعترف بها احد إلا هم أنفسهم، واغتصاب الحرائر الفلسطينيات ورشقهم بالصواريخ والقنابل الفسفورية وغير ذلك من جرائمهم النكراء، التي إن تابعتها فلن اصل إلى نهاية الكتاب، وصدق الله :(ولن ترضي عنك اليهود ولا النصارى حتي تتبع ملتهم) [البقرة :120].

مع ذلك، فان غزة الأبية صمدت في الحرب صمود الأبطال، ليس صمودا وحسب لكنها كشفت عن حقيقة موجعة لإسرائيل ولغيرها، وهي أن ميزان القوى في طريقه للاختلال، وكشفت عن حقيقة موجعة ثانية، وهي أن عرابي الخراب والموت في جمهوريات الموز في المنطقة، صاروا كما اليهود مثلا بمثل وسواء بسواء.

ولم تتجاوز الأخلاق القذرة "حفتر" فاشعل ليبيا من أقصاها إلى أقصاها، وضاع اليمن بالأخلاق القذرة ذاتها، وأينما شرقت أو غربت وجدت أخلاق الشيطان والأبالسة وراء كل فاجعة ومصيبة للبشر، هيهات هيهات ليس بقية إنسانيه أو أخلاق.

ومما أخطأ فيه بعض علماء النفس، انهم انصرفوا في تعريف النفس الإنسانية إلى دراسة المجالات التي تحيط به وتؤثر عليه، مثل المجال الاقتصادي الذي يتعامل فيه والمجال البيئي الذي يحيطه والمجال المادي، ومكمن الخطأ هنا هو إهمال دراسة النفس الإنسانية وعلاقتها بربها، والله تعالي يقول: (هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا. إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعا بصيرا) [الانسان:2_1]، إن الله يسخر للإنسان كل

المجالات الاقتصادية والمادية والبيئية، ويلين له الحديد.

يقول "محمد قطب" في كتاب (دراسات في النفس الإنسانية): يدرس "العلماء" النفس الإنسانية في مجالات التأثر المختلفة ..وليس من بينها جميعا تأثير الإرادة الإلهية في حياة الإنسان! فمرة يدرس الإنسان تحت التأثير الجغرافي والمناخي والبيئي والمادي، ومرة يدرس تحت التأثير الاقتصادي، ومرة يدرس تحت التأثير الاجتماعي، ولكنه لا يدرس مرة واحدة متأثرا بقدر الله الذي يقرر مصير كل شيء بما في ذلك مصير الإنسان !الإنسان في مجموعه وكل كائن فرد من بني الإنسان، وينشأ من ذلك خطأ فاحش بل جملة أخطاء، فهذه المذاهب والنظريات كلها تغفل من حسابها توجه النفس البشرية توجها فطريا إلى خالقها واستمدادها منه مكونات حياتها كلها، وقوانين حركتها ومجالات تحركها و طاقاتها ، ومدي هذه الطاقات، كما تهمل تأثير الديانات السماوية في رسم خطوط جوهرية وحاسمة في تاريخ البشر كله، وفوق ذلك تهمل حقيقة "كونية" هي تأثر الإنسان بقدر الله "المباشر" الذي يسير أحداث حياته و يشكلها، كما تغفل أن التأثير الجغرافي

والمادي والاقتصادي والاجتماعي ..الخ هي كلها إطار لقدر الله وليست شيئا مستقلا عن إرادة الله !23

وهدي الله الإنسان النجدين، طريق الخير والهدي، وطريق الضلال والهلاك، يقول الله تعالي: (وهديناه النجدين) [البلد:10]، وأرسل الرسل مبشرين ومنذرين، فمن ابتغي العصمة واعتصم بحبل الله المتين، فان الله يهديه سبيل الرشاد، ومن ابتغي الغواية سلك طريق النار، وبلغ رسول الله صلي الله عليه وسلم الرسالة وأتم الدعوة وتركنا على البيضاء، ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا هالك.

عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي أنه: سمع عرباض بن سارية السلمي يقول: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم موعظة دمعت منها الأعين ووجلت منها القلوب، قلنا: يا رسول الله: إن هذه موعظة مودع فبما تعهد إلينا؟ فقال: " قد تركتكم على البيضاء ليلها ونهارها، لا يرجع عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا، فعليكم بما عرفتم من سنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ، وعليكم

بالطاعة وان كان عبدا حبشيا، وإنما المؤمن كالجمل الأنف حيث انقيد انقاد".24

ولكن الله لا يترك الإنسان وشانه يقول "محمد قطب" : لقد خلقه وهو يحبه ويعطف عليه ويريد له الخير، ولذلك يرسل الرسل يعرفونه المنهج الصحيح ويردونه إليه، والرسالات إذن ذات مهمة رئيسية في حياة البشرية وليست نافلة تستغني عنها حين تريد، والإنسان أما أن يهتدي بهذا الهدي الإلهي فيجعل لروحه قيادكيانه الممتزج المترابط، ويكون في وضعه الصحيح بالنسبة للفطرة، وأما أن يرفض الهدي ويجعل القياد لجسمه وشهواته فهو كالأنعام بل هو أضل، وهو منتكس بروحه إلى اسفل وغارق بكيانه في الطين، وهذا هو التفسير "النفسي" للخير والشر في كيان الإنسان، وهو تفسير واضح بسيط لا يتخبط تخبط "الفلسفات" التي تشطح هنا وتشطح هناك، وتتجافى المنبع الأصيل الذي ينبغي أن ترجع إليه في قياس الخير والشر في كيان الإنسان، وهو فطرة ذلك الإنسان.25

منهاج قياس قوة الدولة في حالة توظيفها

يعتمد منهج قياس قوة الدولة في حالة توظيفها على قدرة الدولة على توظيف وحشد قوتها عند حادثة معينة أو ظرف معين، أو في إطار متشابك من العلاقات، سواء كانت ثنائية أو إقليمية أو على مستوى المجتمع العالمي كله، ويتطلب هذا المنهج دراسة الموارد لدى الدولة والقدرة على توظيفها.

القوة الإلهية والضوابط المنهاجية لقياس قوة الدولة

يعتبر قياس قوة الدولة من الصعوبة بمكان، ولا يوجد تصنيف أو تعريف ثابت لهذا المقياس، لكثرة العوامل والمتغيرات والمعايير والأفهام التي ربما تتداخل في تحديد مقياس قوة الدولة، واختلاف وتباين الرؤي التي تنظر بها كل مجموعة.

مع ذلك فان اعتبار بعض الضوابط المنهاجية مثل حدود القوة والطبيعة النسبية للقوة، واختلاف قياس قوة الدولة من وقت لآخر، يمكن أن يضيق من اتساع مفهوم مقياس القوة، وتساعد في تعريفه على نحو أقرب للدقة بالرغم من كثرة المتغيرات والمعايير.

هناك شبه اتفاق على أن هناك عددا من النقاط تشكل في مجموعها عددا من الضوابط المنهاجية، لابد من أخذها في الاعتبار عند قياس قوة الدولة، وهي:

1 _ إن تحديد قوة أي دولة يتم بالمقارنة مع وحدات دولية أخرى، وبين فترة زمنية وأخري، ومن موقف إلى آخر، ومن الخطأ في عملية التقييم والتحديد أن ينظر إلى قوة الدولة على أنها مطلقة، وليست نسبية بالمقارنة بقوة غيرها من الدول، ومثالا على ذلك فان بريطانيا كان ينظر إليها على أنها من اقوى دول العالم على الإطلاق، ولكن تغير ذلك الوضع بعد الحرب العالمية الثانية، لا بسبب أنها أقدمت على تخفيض حجم قوتها العسكرية من ضمن الاستراتيجية الجديدة التي اتبعتها، والتي تقضي بعدم إرهاق كاهل الدولة عسكريا فيما لا طائل وراءه ، ولكن نسبة لبروز الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي كقوى عظمى، ذات إمكانيات عسكرية ضخمة.

2_ان مفهوم قوة الدولة هو مفهوم نسبي إزاء الهدف الذي تسعي الدولة إلى تحصيله، فليس للقوة معني إلا إذا ارتبطت بهدف معين

أو بطبيعة الأهداف التي تتوخى الدولة تحقيقها .

3_عدم اقتصار قوة الدولة علي مجموعة العناصر والموارد التي تمتلكها دولة ما فحسب، ولكن تمتد قوة الدولة إلى ما تستطيع أن تعبئه من قدرات لحلفائها .

4_ان قياس قوة الدولة يختلف من وقت إلى آخر، ومن الأخطاء الشائعة اعتبار أن مكونات القوة للدولة ذات طبيعة دائمة لا يطرأ عليها التغيير، وان شأنها البقاء والثبات دائما .

5_ حدود القوة: حيث أن لقوة الدولة حدودا معينة لا تستطيع تجاوزها ، فلا يمكن لأي دولة مهما كانت قوتها ، أن تستخدم قوتها بالكامل في كل الأوقات.

إن التركيز على عامل واحد والإفراط فيه يجعل من عملية التقييم أمرا ناقصا ، والتقييم السليم هو الذي يأخذ كل العناصر مجتمعة دون تفريق أو تمييز بين أي منها ، حتى يكون التقييم متوازنا .

بالرغم إن هذه الضوابط يصح أخذها في الاعتبار لقياس قوة الدولة وتحديدها علي نحو أقرب للدقة والصواب، إلا أنه لا يمكن

اعتبارها في نواحي أخرى أو قوى أخرى، فاذا كانت قوة الدولة تتكون من مواردها البشرية والعسكرية والسياسية والاقتصادية والعقائدية، فان القوة العقائدية والتي هي أهم مكون للقوة في الدولة المسلمة، والمحرك الأول للقوي الاقتصادية والعسكرية وغيرها، لا ينطبق عليها أو يتوافق معها القول بنسبية القوة إزاء الهدف، فقوة الهدف أو قوة الخصم ربما تتناسب بنسب غير متساوية وفقا لمعطيات ومخرجات القوة في كل، غير أن المعادلة تكون صفرية اذا ما تناسبت تلك القوي مع القوة العقائدية أو القوة الإلهية.

يقول "محمد قطب" في كتابه (هل نحن مسلمون): إنك وأنت جالس تحلم، يخيل إليك أنك بدفعة صغيرة قد تستطيع أن تحرك الكون!! ثم تحاول تحريك منضدة من مكانها، فإذا هي تثقل عليك وإذا أنت محتاج _لكي تزحزحها من مكانها _ان تزيد من قوتك الدافعة أو أن تنمي الرصيد الواقعي للرغبة الكامنة في نفسك، حتى تتعادل مع المقاومة أولا ثم تأخذ في الزيادة بعد ذلك، وبقدر ما تزيد، تكون الحركة المحسوسة في عالم الواقع، وتكون الحركة هي المقياس الحقيقي للرصيد وليست هذه حقيقة خاصة بعالم الإنسان وحده،

ولكنها حقيقة من حقائق الكون الأكبر وجزء من ناموس الوجود، وقد أدرك كل مخترع لآلة متحركة أن القوة الكامنة وحدها لا تكفي، وانها ينبغي أولا أن تتحول من قوة كامنة إلى قوة ظاهرة _أي تتحول من النية إلى العمل _ثم تكون بالقدر الذي يكفي لا لمعادلة المقاومة فحسب، بل للزيادة عليها حتى تنتج الحركة الحقيقية المطلوبة في واقع الحياة، والحركة _قانون الوجود الأكبر _ قائمة على هذه الحقيقة :تحويل القوة الكامنة إلى قوة ظاهرة، وزيادة هذه القوة بحيث تتغلب على المقاومة ثم تتحرك في الاتجاه المطلوب، والنفس الإنسانية _وهي طاقة كونية _تسير على القانون ذاته، فلا فرق في طاقات الكون العظمى بين الماديات والمعنويات، والمادة والطاقة شيء واحد في عرف العلم الحديث، النية وحدها لا تكفي.. لأنها قوة كامنة لم تتحول إلى حركة وعمل، ولم تجرب نفسها أمام العقبات، والآن فلننظر: ما المعوقات "الطبيعية" في حياة الإنسان التي لا تكفي "النية" لمقاومتها.. والتي ينبغي تحويل هذه النية إلى قوة حقيقية، لتعادلها أولا ثم تزيد عليها لتنتج الحركة الحقيقية في واقع الحياة؟! معوقات كثيرة كامنة في داخل النفس وموجودة كذلك في واقع

الحياة، فمن داخل النفس: الإلف.. والعادة.. والتقليد.. والرغبة في الحياة السهلة..وكراهة الجهد.. وكراهة التعرض للتعب والأخطار.. والعنوان العام الذي يجمعها هو "الهوى" أي الرغبة في الاستجابة لما تهواه النفس من نزعات، وفي الواقع الخارجي: العرف الاجتماعي الظالم والقوة المنحرفة التي قد توجد في المجتمع وتسيطر عليه، والعنوان العام الذي يجمعها هو "الطاغوت" أي كل قوة طغت من حدها وتجاوزت خطها المستقيم، الهوى من داخل النفس والطاغوت من خارجها هما "المقاومة" التي ينبغي أن تتحول النية إلى قوة حقيقية لتعادلهما أولا، ثم تزيد عليهما لتنتج الحركة المستقيمة المتمشية مع ناموس الكون وإرادة الله، والهوى من داخل النفس والطاغوت من خارجها قوى "حقيقية" واقعة متحركة ذات ضغط وثقل واندفاع، ومن ثم فإن النية وحدها لا تكفي لمقاومتها فضلا عن التغلب عليها لإحداث الحركة المستقيمة في الطريق الصحيح، وتلك بديهية من بديهيات النفس وبديهيات الحياة، كان الرسول صلى الله عليه وسلم يدركها حق إدراكها وهو يقول: "ليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن هو ما وقر في القلب وصدقه العمل".26

وهذا حديث إذا أرجعت البصر فيه مرتين تأكد لك صدقه ودقته، وقبل أن انتقل إلى الفصل الرابع في مباحث توازن القوى، فإنني أود أن اسجل أن مما تميز به قوة الدولة العقائدية أو القوة الإلهية، أو بتعبير أخر قوة الدولة التي تعتمد وتكل أمرها وقيادها لله القوي، هو ثباتية تلك القوة وديمومتها، فهي ليست مؤقتة أو منقطعة، بل دائمة ومستمرة في كل الأمكنة والأزمنة، وذلك مما يعلمه الله، قال الله تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة اني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء ونحن نسبح بحمدك ونقدس لك قال إني اعلم ما لا تعلمون) [البقرة:30].

هوامش الفصل الثالث

1_علي جلال معوض، مفهوم القوة الناعمة وتحليل السياسة الخارجية، (الإسكندرية: مكتبة الإسكندرية، ط. 1، 2019)، ص18.

2_ المصدر السابق، ص79.

3_ جوزيف س ناي، ترجمة محمد إبراهيم العبد الله، هل انتهي القرن الأمريكي، (الرياض: العبيكان للنشر، ط.1، 2016)، ص 59.

4_ عبد القادر محمد فهمي، الفكر السياسي والاستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية، (عمان: دار الشروق للنشر والتوزيع، ط.1، 2009)، ص92_93.

5_رونالد تيرسكي، جون فان اودينارن، ترجمة طلعت الشائب، السياسات الخارجية الأوروبية هل ما زالت أوروبا مهمة، (القاهرة: المركز القومي للترجمة، ط. 1، 2016)، ص 21_22.

6_علي جلال معوض، المصدر السابق، ص7.

7_مايكل كولينز بايبر، ترجمة عبد اللطيف أبو البصل، كهنة الحرب الكبار، (الرياض: مكتبة العبيكان، ط.1 ، 2006) ، ص241_242.

8_المصدر السابق 245.

9_جيمس دورتي وروبرت بالتسغراف، ترجمة د. وليد عبد الحي، النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية، (الكويت: كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، ط.1، 1985) ، ص173.

10_تشالمرز جونسون ، ترجمة صلاح عويس، أحزان الإمبراطورية، النزعة العسكرية، والسرية، ونهاية الجمهورية ، (القاهرة: الهيئة العامة المصرية للكتاب، ط.1 ، 2011) ، ص26.

11_زبغنيو بريجنسكي، رقعة الشطرنج الكبرى، (بيروت: مركز الدراسات العسكرية، ط.2، 1999)، ص27.

12_عبد القادر محمد فهمي، المصدر السابق، ص107_106.

13_المصدر السابق، ص139.

14_المصدر السابق، ص140.

15_محمد قطب، هل نحن مسلمون، (القاهرة: دار الشروق، ط. 6 ،2002)، ص49_51.

16_علي جلال معوض، المصدر السابق، ص41.

17_بيير بورديو، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، الرمز والسلطة، (الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ط. 3، 2007)، ص56_55.

18_جمال زهران، منهج قياس قوة الدول واحتمالات تطورا لصراع العربي _الإسرائيلي، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط.1، 2006)، ص35_36.

19_سفر بن عبد الرحمن الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وأثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، (دار الهجرة)، ص257_258.

20_ أبو بكر احمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، تحقيق عادل بن سعد، البحر الزخار المعروف بمسند البزار، الجزء الخامس عشر، (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ط.6،2001)، ص364.

21_أبو جعفر احمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، شرح مشكل الآثار، الجزء الحادي عشر، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط .1 ،1994)، ص266_265.

22_المصدر السابق، ص 262.

23_محمد قطب، دراسات في النفس الإنسانية، (القاهرة: دار الشروق، ط.10، 1993)، ص25_26.

24_أبو القاسم هبة الله ابن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي، شرح أصول اعتقاد

أهل السنة والجماعة، المجلد الأول، (الإسكندرية: دار البصيرة، ط. 1، 2001)، ص74.

25_محمد قطب، المصدر السابق، ص341-342.

26_محمد قطب، هل نحن مسلمون، (القاهرة: دار الشروق، ط.6 ،2002)، ص16_13.

الفصل الرابع

توازن القوى

السياسات المتبعة في تعظيم القوة

بالإمكان اعتبار الدول عددا من الأفراد أو الأشخاص، يفكر كل منهم في طريقة أو وسيلة لزيادة وتعظيم القوة لديه، وبهذا التشبيه وبهذا الاعتبار فإنها تعد محاولة من محاولات العقل في التفكير والإبداع، والنظرة السليمة التي من ورائها تتحقق فوائد عظيمة .

فإذا كان الأفراد أو الدولة متميزين في المستوى الاقتصادي والإنتاج، فهذه دولة يصح وصفها دولة قوية اقتصاديا ، وان كانت الدولة أو الأفراد متميزين في النواحي الثقافية والأدبية فهي دولة قوية ورائدة في فن الأدب، وان كانت متميزة في الطب والصحة فهي قوية في الطب والاستشفاء ، وعلى ذلك قس. العبرة بالناتج والمردود .

وفي مجال السياسة يقوم بعض الأفراد باستثمار القوة ، فهم ينفقون قوتهم على قيم

أخرى، بطريقة تجعل هذه القيم تعود عليهم بقوة أكثر من التي بذلت بدفعهم إلى ذلك _كما قال" توماس هوبس" منذ أكثر من ثلاثمائة عام: التعطش للقوة بعد القوة دون أن يتوقف هذا التعطش إلا بالموت. ولكي يتم الاستثمار بهذه الطريقة لابد لهم من استغلال التأييد السياسي الذي يتمتعون به في وقت ما، حتى يتمكنوا من صنع قرارات ملزمة من نوع يعود عليهم بتأييد اكبر، وحينئذ يجب أن يستغلوا هذا التأييد الزائد في اتخاذ قرارات جديدة، توفر لهم تأييدا اكبر لاتخاذ قرارات أخرى في دائرة أكثر اتساعا من التغذية الاسترجاعية، طالما استطاعوا الاستمرار في ذلك، و هذا الشيء في جوهره هو الذي حث "ميكافيللي" أميره عليه، قال "ميكافيللي" :إن الأمير الذي لا يتمنى فقد مملكته، يجب أن يفكر ويتصرف دائما بلغة القوة، ويجب عليه أن يدخر موارده ويزيد منها لا أن يبددها، وان يحاول تعزيز قوته وهيبته، والتقليل من قوة وهيبة منافسيه، وان يبقي الجماهير سلبية قانعة ولكن على استعداد للحرب بإخلاص تحت قيادته، وان يحكم بالقوة والخداع، وان يكون محط إعجاب وخشية مواطنيه، والا يكون محتقرا، وان يحافظ على وعوده أو يتملص منها بسرعة حسبما كان

الوفاء أم الغدر (في أية لحظة) هو الذي سيعزز قوته. واعتقد "ميكافيللي" أن الأمير الحكيم يجب أن لا يبقى محايدا في حرب تقوم بين جيرانه، لأنه اذا ترك جاره الضعيف يتجرع كؤوس الهزيمة على يد أمير آخر، فان الأمير المنتصر سينقلب عليه بعد ذلك، فهو اذا ساعد جاره الضعيف فقد يشتركا معا في قهر جارهم القوي، الذي كان يشكل تهديدا كبيرا لكليهما، وفي تحالفهما معا حتى في حالة هزيمتهما، فسيكون الأميران الضعيفان على الأقل حليفين في نفس المحنة، وبوجه عام فان حليف اليوم هو عدو الغد، واقوى حليف للفرد هو اكبر تهديد يملكه، لان الأمير الذي يعضد قوة غيره يدمر قوته هو، هكذا كان حساب التفاضل والتكامل هذا في سياسة القوى من الناحية النظرية عنيد لا يرحم.1

لدى الدول عدة استراتيجيات لتعظيم القوة أو الحفاظ على القوة، فهي إما أن تحارب خصومها بغرض تعظيم القوة، وفي مثل هذه الحالة فان الطرف الآخر يكون أقل منها قوة، ولدى الطرف الأول مصالح وأغراض توجد في الطرف الثاني، كأن يكون لدى الطرف الثاني ثروات وموارد طبيعية تغري بالدخول في الحرب لاكتساب كل تلك المغانم، وتكون

محصلة الحرب هنا اكتساب تلك المصالح والموارد الطبيعية، بما يزيد من ثروة الدولة وتعظيم القوة لديها.

وإذا كانت الدولة المنافسة في نفس حجم القوة، وسواء لديها موارد وثروات طبيعية أم ليس لديها، فان دخول الحرب هنا إنما يكون للحفاظ فقط على مستوى القوة لا لزيادتها، ولا تحارب في هذه الحالة إلا لتثبيت بقاءها ووجودها.

أما الاستراتيجيات الأخرى فتتمثل في أن تنأى الدولة بنفسها عن الحرب، ويكون هدفها في هذه الحالة هو الحفاظ على القوة، ويتضح ذلك في سياسة الاسترضاء أو الوقوف على الحياد، واستخدام سياسة صفر مشاكل، أو مسايرة الدول العظمى وعدم مشاكستها، أو تمرير مسؤولية الحرب إلى آخرين (حروب بالوكالة) أو دعم الحروب الاستنزافية بين الدول المنافسة، أو التحريض وإيقاد الفتن أو الابتزاز المادي.

1_سياسة الانعزال أو الانكفاء

تتبع بعض الوحدات السياسية سياسة الانعزال والانكفاء قدر الإمكان مع المحيط الخارجي، في سبيل الحفاظ على أمن واستقلال الدولة، وفي حالات التفاعلات الحادة والكثيفة

في النظام الدولي، فان الدولة تحاول ما أمكن اتباع سياسة الامتناع، بحيث تكون قدر الإمكان في البقاء على الهامش، وعدم الظهور أو التورط في مواقف ربما تفرض عليها سلوكا نشطا ، إلا أن مثل هذه السياسة ربما تكون من الصعوبة بمكان إذا أرادت الدولة تطبيقها ، فعالم اليوم تتداخل فيه المصالح والضرورات شاءت الدولة وساستها أم أبوا.

2_سياسة الحياد

تفرض بعض الدول سياسة الحياد على توجهها بملء إرادتها ، ويتم تفعيل الحياد بتحقيق الدولة لواجبين: واجب "الامتناع" الذي يفرض على الدولة المحايدة الامتناع عن تقديم أي نوع من أنواع المساعدات العسكرية، سواء كانت مباشرة أم غير مباشرة إلى أحد طرفي النزاع، وعدم قبول الدولة باستخدام أراضيها للقيام بأية أعمال عسكرية من قبل الأطراف المتصارعة، ويتوجب على الدولة المحايدة أيضا لزوم التجرد، الذي يعني معاملة الأطراف المتنازعة بقدر متساوي دون محاباة أو زيادة.

3_فرض حالات الاستعمار أو الوصاية أو الانتداب

إن سياسة الاستعمار التي كانت تقوم بها الدول العظمى في السابق، كانت وسيلة من وسائل تعظيم القوة لديها، فقد كانت الأطماع تتجه إلى موارد المستعمرات الطبيعية وثرواتها الكبيرة قبل أن ترسل لها الجيوش، يمكن تقييم هذه الاستراتيجية بأن الدول تزيد من حدودها بهذه الحروب الاستعمارية، ومن ناحية ثانية فإنها تضيف رصيدا أخرا من ثروات الدول التي يتم استعمارها ومن مواردها الطبيعية والبشرية، أما إعلان الحرب ضد دول أخرى ذات سيادة واستقلال، فان المعتدين هم أول الخاسرين في أغلب الأحوال، وتؤدي مستويات الإنفاق العسكري العالية إلى انهيار اقتصاديات الدولة بمرور الوقت.

4_الاسترضاء

في حالة الاسترضاء تقدم الدولة (أ) للدولة (ب) تنازلات كبيرة في كثير من الأمور المتنازع عليها بينهم، بغرض دفع سلوك (ب) في اتجاه سلمي أكثر، وان أمكن تحويلها إلى قوة وضع راهن، وهذا من شأنه أن يخفض من شعورها بعدم الأمان، ويقلل من دوافع الحرب عندها، لكن لا شيء يمنع في عالم السياسة والفوضى الدولية من أن يكون هذا الفرض وهما كبيرا.

5_محاولات تعطيل قوة الآخرين

إذا بقيت الدول المنافسة للدولة في حالة ضعف دائم، فان هذا من شأنه أن يفرغ الدولة إلى المضي قدما في زيادة وتعظيم قوتها، ولتحقيق ذلك الغرض فان الدولة ربما تعمد إلى تعطيل قوة الآخرين.

إن ما تقوم به دولة الاحتلال الغاشم يعتبر نموذجا لتلك الاستراتيجية، فهي تميل إلى أن تبقى جميع دول الطوق العربي والدول الإسلامية مجتمعة، في حالة ضعف مستديم، وذلك بتوجيه الضربات الاستباقية عليها بغرض تعطيل قوتها.

6_الابتزاز

وهو وسيلة تلجأ إليها الدول العظمى والقوية، لزيادة وتعظيم القوة لديها عن طريق استجلاب المال وجمعه من الدول، الولايات المتحدة في دورة الرئيس "ترامب" مارست هذا الابتزاز بصورة علنية ومكشوفة أمام العالم، فقد قدمت عروض الحماية والدفاع للمملكة العربية السعودية من تهديدات إيران، التي دأبت على رشقها بزخات من صواريخها البالستية، كما قدمت الولايات المتحدة نفس العروض لقطر، وربما دول غيرهم ونجح الرئيس

أو التاجر الماكر "ترامب" في ذلك نجاحا كبيرا.

7_التحريض والاستنزاف

بعض الدول تلجأ للتحريض والاستنزاف كوسيلة لحفظ قوتها في الوقت الراهن، فتقوم بالتحريض بين دولتين يقفان حجر عثرة أمامها، وإدخال الاثنين في موجة حروب طويلة، بهدف إفقار كليهما وتدميرهما معا وخلو الجو _ إن صح هذا التعبير _للدولة المحرضة. دخول روسيا وإيران المستنقع السوري ربما يكون مثالا لذلك، فقد دعمت الولايات المتحدة أولا المعارضة السورية، ثم انسحبت تاركة الملعب لروسيا وإيران وبقية المرتزقة وتجار الحروب، الذين تدافعوا من كل حدب إلى المحرقة.

النموذج الثاني على سبيل المثال لا الحصر لهذه الاستراتيجية، هو محاولات روسيا في أعقاب الثورة الفرنسية 1789 لإغراء النمسا وبروسيا لبدء الحرب مع فرنسا، وكان غرض روسيا هو توسيع قوتها في أوروبا الوسطى آنذاك، قالت الزعيمة "كاثرين" وقتها: أفكر جديا في تأليب قادة فيينا وبرلين على فرنسا.. ثمة أسباب لا أستطيع التحدث عنها، أريد أن أحرضهم على ذلك لكي تصبح يداي

طليقتين، فلدي أعمال كثيرة لم تكتمل ولا بد أن ينشغلوا بعيدا عن طريقي.

8_ الاستنزاف

تعتمد هذه الاستراتيجية على دخول الخصمين المنافسين للدولة في حروب طويلة الأمد، ووقوع خسائر بشرية ومادية لكلا الطرفين، علق " هاري ترومان" على الاجتياح النازي للاتحاد السوفيتي (عندما كان عضوا بمجلس الشيوخ): إذا رأينا ألمانيا تربح الحرب يجب أن نساعد روسيا، وإذا رأينا روسيا تربح يجب أن نساعد ألمانيا، لكي تأكل الحرب أكبر عدد منهما.

9_ تمرير المسؤولية للأخرين (الحروب بالوكالة)

في تمرير المسؤولية الآخرين تقوم الدولة بتحويل عبء الدخول في الحرب لدولة أخرى، ومن اجل إنجاز مهمة تمرير المسؤولية، فان الدولة تتصرف ببراءة كاملة مع الدولة المنافسة، وتقيم معها علاقات دبلوماسية جيدة، وتدفع الدولة التي ستخوض غمار الحرب إنابة عنها من غير أن تشعر الأخيرة بأنها مدفوعة للحرب، وغالبا ما تكون أسباب الحرب

بين الدولة المنافسة والدولة الوسيط التي تمرر إليها المسؤولية أسباب منطقية، ويستحيل التنازل فيها، على سبيل المثال افتعال المشاكل الحدودية بين البلدين.

هناك احتمالين إما أن تنجح الدولة (ب) في الحرب على الدولة (أ) المنافسة والخصم الرئيس، وأما أن تفشل وتهزم في الحرب هزيمة نكراء، نجاح الدولة (ب) في الحرب وتحقيق نصر كاسح على(أ) هو مطلب الدولة الممررة للمسؤولية، أما إذا تضخمت قوة الدولة (ب) بعد هذا الانتصار المؤزر، فربما يكون هذا في حد ذاته قلقا جديدا للدولة الممررة، وإذا فشلت الدولة (ب) في الحرب على الدولة (أ) فإنه لن يكون أمام الدولة الممررة إلا أن تلزم هدوءها المصطنع.

توازن القوى

يعتبر مفهوم توازن القوى من أكثر المفاهيم المثيرة للجدل، لكثرة معانيه وغموضه أحيانا وكثرة الانتقادات ضده والآراء المؤيدة له، وهناك من لا يعتبر الغموض المصاحب لتوازن القوى أمرا سلبيا، لأن النظام الدولي غامض بطبيعته! والحروب المدمرة فيه تندلع بأسباب غامضة.

يعتبر "كار" في كتاب (أزمة الأعوام العشرين) أن العلاقات الدولية يتعين أن تقوم على أساس توازن القوى باستلهام الدور المحوري الذي لعبته بريطانيا العظمى في السياسة العالمية، ويعتبر "كار" أن التاريخ هو سلسلة من الأسباب والنتائج يمكن فهمها بطبيعة الحال من خلال الجهد الفكري، لكنها أبدا ليست من محض الخيال، وان النظرية لا تخلق التطبيق أو الممارسة، ولكن التطبيق هو الذي يخلق النظرية، وكذا أن الأخلاق لا تحكم السياسة وإنما السياسة هي التي تحدد الأخلاق.

إن واقع الحياة الدولية يقول "سمعان بطرس فرج الله" في (جدلية القوة والقانون في العلاقات الدولية المعاصرة) يؤكد أن الدول اذا ما تخلت عن سياسة القوة في علاقاتها بعضها مع البعض الأخر، فإنه سوف يجنب شعوبها بل الإنسانية جميعا ويلات الحروب المدمرة لعناصر الحياة، خاصة في ظل التطور التكنولوجي الكبير للدول في صناعة أسلحة الدمار الشامل، لذلك فإن الدول لا تلجأ وتنزع إلى استخدام القوة العسكرية إلا كحل وتدبير أخير، بعد ثبوت عدم فائدة الوسائل السلمية في تسوية الصراعات الدولية تسوية

مقبولة ترضاها جميع الأطراف المتنازعة، وقد درجت الدول علي اتباع هذا المسلك منذ عهد بعيد، وبتعاقب الزمن تحول هذا السلوك المتواتر إلى قواعد عرفية عامة، تم جمعها وكتابتها في عدة وثائق دولية أبرزها هو ميثاق الأمم المتحدة الذي يؤكد (في المادة 2فقرة3) على أن "يفض جميع أعضاء الهيئة منازعاتهم الدولية بالوسائل السلمية، علي وجه لا يجعل السلم والأمن والعدل الدولي عرضة للخطر".2

ويضيف في (جدلية القوة والقانون في العلاقات الدولية المعاصرة): أن التسوية السلمية تعتبر إجراء وقائيا تعمد إليه الدول لتفادي تصاعد وتحول المنازعات إلى صراعات مسلحة، ومنهج التسوية السلمية في حد ذاته يقوم على فرضية أن الحرب ووسائل القهر العسكري الأخرى، التي لا ترقى إلى درجة الحرب في مفهومها القانوني ، إنما هي أداة مشروعة لتسوية المنازعات الدولية، فإذا توصل المجتمع الدولي إلى وسائل فعالة للتسوية السلمية فإن الحرب وغيرها من وسائل العنف العسكري سوف تفقد مبرر نشوبها واندلاعها، غير أن هذا الافتراض الذي ينطوي على قدر كبير من الحقيقة لا

يتضمن كل الحقيقة، لأنه إذا تعارضت مصالح الدول الحيوية تعارضا مطلقا وتشبثت كل دولة بتحقيق جميع مصالحها دون انتقاص من هذه المصالح والأهداف، فإن التسوية السلمية الحقيقية التي تفترض المواءمة بين المصالح تصبح مستحيلة، عليه فإن استخدام القوة العسكرية أو التهديد باستخدامها هو الوسيلة الوحيدة لإرغام الطرف الثاني على قبول جميع مطالب الطرف الأول أي الاستسلام، ومن ثم فإن التسوية السلمية ليست بديلا للحرب في جميع الأحوال.3

ورغم أهمية توازن القوى في فهم العلاقات الدولية وحالات الاستقرار التي تمر بها، إلا أنه لم يسلم من توجيه الانتقادات، يقدم "ريتشارد ليتل" في كتابه (توازن القوى في العلاقات الدولية الاستعارات والأساطير والنماذج) نموذجين لهذه الانتقادات: فقد أعلن "ريتشارد كوبدن" (المؤيد للتجارة الحرة في القرن التاسع عشر) في عام 1836 تأكيده على الأهمية المرتبطة بميزان القوى، عندما راجع أقوال المنظرين من القرن الثامن عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر، إلا أنه توصل إلى حقيقة بأن المتناقضات المحيطة بالمفهوم تجعله مجرد كلام لا يوصل

أفكارا للعقل، ودفع "فريدريك" الكبير في (الاعترافات): أنه على الرغم من أن كلمة توازن هي كلمة استخدمها العالم كله، إلا أننا يجب أن ندرك أن هذا التوازن نفسه في الحقيقة ليس أكثر من كلمة خاوية أو صوت خاو.

ويعتقد "كينيث والتز "وهو من أشد المؤيدين لفكرة توازن القوى، بأنه إذا كان هناك نظرية سياسية متميزة بشأن السياسة الدولية فإنها حتما توازن القوى، مع هذا فإن دراسة توازن القوى تعتبر مرشدا لفهم الأنماط المتكررة لسلوك الدول في الأوضاع التي تتسم بالفوضى الدولية.

يمكن القول إن توازن القوى هو الحالة أو الوضع الذي يصل إليه الطرفين من المساواة أو قريبا من المساواة في مقدار القوة التي يمتلكها كل طرف، بالدرجة التي تكون كابحا لكليهما من فكرة الصراع والحرب.

في ذات المفهوم جمع "مايكل شيهان" في (توازن القوى التاريخ والنظرية) تسعة طرق مختلفة للتعبير عن توازن القوى:

1_هو إجراء تتخذه الدولة لمنع جيرانها من أن يصبحوا أقوياء بدرجة كبيرة، لأن تضخم

أمة لما وراء حدود معينة يغير من النظام العام لجيرانها من الأمم.

2_هو توزيع متساو للسلطة فيما بين أمراء أوروبا، بحيث لا يجد أحد منهم فائدة عملية من إزعاج الأخرين.

3_ايا كان تعريف توازن القوى، فإن الدول ملتزمة بالمحافظة على توازن يحمي الطرف الضعيف من الانسحاق بسبب اتحاد الأقوياء.

4_باستقراء التاريخ فان الخطر الذي يهدد استقلال هذه الأمة أو تلك يأتي (عامة أو إلى حد ما) نتيجة للهيمنة المفاجئة لدولة مجاورة، تتمتع بقوة عسكرية وكفاءة اقتصادية، وطموح لتوسيع حدودها، أو نشر تأثيرها، ويتناسب الخطر بشكل مباشر مع درجة هذه القوة وكفأتها وتلقائية و(حتمية) طموحاتها، والضابط الوحيد لسوء استغلال الهيمنة السياسية الناتجة عن مثل هذا الوضع، كانت تتمثل دائما في وجود معارضة من منافس كبير مكافئ لها، أو من تحالف بين عدد من الدول تشكل كتلة دفاع واحدة، ويعرف التوازن الذي يتحقق عن طريق مثل هذه القوى المتجمعة من الناحية الفنية بتوازن القوى.

5_ترتيب الأمور بحيث لا تكون أي دولة في وضع يسمح لها بالهيمنة المطلقة على الآخرين.

6_يفترض توازن القوى أنه لن يسمح لأي قوة أو مجموعة من القوى، من خلال تبديل التحالفات والضغوط بالنمو المطرد، إلى درجة تهديد أمن الدول الأخرى.

7_يعمل توازن القوى بشكل عام على إبقاء متوسط قوة الدول منخفضا من حيث كل معيار لقياس السلطة السياسية، بحيث تتعرض الدولة التي تهدد بزيادة قوتها عن المتوسط السائد، إلى الضغط تلقائيا من جميع الدول الأخرى الأعضاء بنفس المجموعة السياسية.

8_يشير توازن القوى إلى الوضع الفعلي للشؤون التي يتم فيها توزيع السلطة بين عدة دول بالتساوي على وجه التقريب.

9_عندما تصبح أي دولة أو كتلة قوية بصورة مبالغ فيها أو تهدد بأن تصبح كذلك، يجب أن تدرك الدول الأخرى أن هذا يمثل تهديدا لأمنها.

ويضيف أن " هيدلي بول " في (المجتمع الفوضوي) استند إلى تعريف القانوني والدبلوماسي السويسري "إمريك دو فاتيل"

لتوازن القوى :بأنه وضع لا تكون فيه أي قوة في موقع يجعلها متفوقة على الآخرين، أو يمكنها من فرض قوانينها عليهم، فوصف "هيدلي بول" توازن القوى بأنه مؤسسة أو مجموعة من العادات والممارسات التي تشكلت في سبيل تحقيق الأهداف المشتركة، وأن توازن القوى يعني ضبط النفس وكذلك ضبط الأخرين عليه ، وينبغي على الدول أن تمنع قيام دولة مهيمنة تقضي على استقلالية الوحدات التي تؤلف المجتمع الدولي، وعليها أيضا أن تمتنع عن الانقياد لرغباتها بالسيطرة.

يدعي "الواقعيون الجدد" أو "البنيويون" أن طبيعة النظام الذي تنشأ فيه جميع الدول، يعتبر عاملا حاسما في تحديد سلوكهم وإجبارهم على المشاركة في توازن القوى إن كانوا يريدون البقاء، عليه فإن توازن القوى في طرحهم يعتبر المجتمع الدولي مجتمعا غير متكافئ في القوة، غير أنه يمكن موازنة عدم التكافؤ بوضع جميع الدول في خانات مقابل بعضها البعض، وبالتالي يزيد من منع الهيمنة ويسمح للدول في المحافظة على وحدة أراضيها.

من جانبه وضع "ارنست هاس" أربعة معان مختلفة لتعريف توازن القوى:

1_السلام والاستقرار هو المحصلة المرجوة من توازن القوى.

2_توازن القوى يعني الحرب، أما السلام فهو الصورة المثالية لتسوية جميع المسائل الاقتصادية والأخلاقية.

3_معاني مصطلح التوازن هي نفسها معاني تاريخ القانون الدولي، وبمعنى أخر فان توازن القوى هو تعبير عن القانون في حياة الأمم.

4_مصطلح توازن القوى تم استعماله في فترات محددة في التاريخ الأوروبي بغرض الدعاية السياسية وحسب، فمثلا التمدد الألماني أثناء الحرب العالمية الأولى والتوسع الفرنسي خلال القرن الثامن عشر، كان غطاءهما هو استخدام مفهوم توازن القوى مع أن شيئا من ذلك لم يحدث، بل نقيضه هو ما وصلا إليه.

لا تعتبر فكرة توازن القوى فكرة واحدة، وليس هناك اتفاق مستقر على اعتبارها ذات معنى واحد، بل توجد معان عديدة لها ومن هذه المعاني يذكر "جمال زهران" في (منهج قياس قوة الدول واحتمالات تطور الصراع العربي _الإسرائيلي): أن توازن القوى يعني توزيعا متساويا للقوى بين أعضاء المجتمع

الدولي أو توزيعا قويا متساويا بين مجموعة معينة محددة من الدول، أو توزيعا متساويا بين تحالفات أو ائتلافات دولية، أو توزيعا غير متساو لصالح دولة معينة.4

بتعبير أخر هو مفهوم يعبر عن الحالة التي تكون فيها كل الدول على مستوي متقارب من القوة، لأن أي تميز لواحدة منها بامتلاك كل وسائل القوة من شأنه أن يجعل الدول الباقية تحت رحمتها وسيطرتها، مما يؤدي إلى اختلال في المنظومة العالمية، وتبرز من ثم سياسات القطب الأوحد وسيطرة الدولة القوية.

يقول "جون برايت" فيما جمعه "والتز" في كتاب (الإنسان والدولة والحرب): إن مجمل الفكرة العامة لتوازن القوي وهم وتضليل موقع للشقاق انحدر إلينا من العصور الماضية، فتوازن القوى شيء مستحيل مثل الحركة الدائمة، امل خادع أنفقت بريطانيا من أجله الملايين من الجنيهات، أما "هيوم "فقد قال قبل مائة عام _ووافقه "مورجانثو" بعده بمائة عام_ان توازن القوى ليس سرابا وأملا خادعا ولا هو وهم وتضليل، ولكنه حقيقة واقعة من حقائق السياسة وقانون علمي وصفي.

إن طبيعة الصراع والنزاعات بين الدول يعتبر من الأسباب الموضوعية والعامل الرئيس لزيادة القوة، وتسخير المؤسسات العلمية والبحثية والعسكرية والمعلوماتية لهذا الغرض، وقد تميل الدول إلى إقامة الاتحادات والتكتلات والتحالفات لزيادتها، أو تلجأ إلى هذه الفرضيات باعتبارها ذرائع متاحة لسد النقص والضعف الذي يضرب الدولة، وكلا يدعي الوصل بليلي!

يمكن القول دون وجل أن سياسة توازن القوى تعتبر كابحا من كوابح الضرورة التي تفتضيها المعاملات والعلاقات الدولية، والتي نجحت في عدم تمكن دولة واحدة بالهيمنة والسيطرة العالمية.

يدل استخدام هذه العبارة بطريقة موضوعية أو وصفية على توزيع القوى بين الدول بشكل متساو أو غير متساو، وهي تدل عادة على حالة لا تتفوق فيها دولة على أخرى، ومن الناحية الفرضية فإنها تعبر عن سياسة ترويج تساوي القوى القائمة على افتراض أن عدم توازنها أمر خطير، لذلك يتعين علي الدول الحذرة التي لا تقف في الطرف المتضرر من ميزان القوى أن يتحالف بعضها مع بعض ضد دولة مهيمنة، أو أن تتخذ تدابير أخرى من

شانها أن تعزز قدرتها على وضع حد لأي معتد ، كما يمكن لأي دولة أن تختار دورها التوازني فتغير انحيازها مع طرف ما لمصلحة أخر متى دعت الحاجة من أجل المحافظة على هذا التوازن، وتستدعي سياسة توازن القوى أن تهدئ أي دولة من مسعاها المستقل إلى القوة، لأن توافر الكثير من القوة لدولة واحدة قد يولد لدي الدول الأخرى شعورا بالخوف منها والعدوانية نحوها .5

الفكرة الكامنة وراء نظام توازن القوى في العلاقات الدولية هي أن الطابع المميز لهذه العلاقات هو الصراع، يستقر "إسماعيل صبري مقلد" في (العلاقات السياسية الدولية، دراسة في الأصول والنظريات) على أن هذا الصراع لا تمليه عوامل الاختلاف في المصالح القومية للدول فحسب، وإنما ينبع في الجانب الأكبر منه من محاولة كل دولة زيادة قوتها القومية على حساب الدول الأخرى، ويترتب على ذلك أنه إذا تمكنت دولة واحدة من أن تحصل على تفوق ضخم وساحق في قواها ، فإن هذا من شأنه أن يدفع بها إلى تهديد حرية الدول الأخرى واستقلالها ، وهذا التحدي في حد ذاته هو الذي سيدفع بالدول محدودة القوة إلى مواجهة القوة بالقوة، وذلك عن

طريق التجمع في محاور القوي المضادة المتعادلة أو شبه المتعادلة، حتى لا تتمكن دولة أو مجموعة من الدول من الاعتداء على غيرها، تحت وهم الاعتقاد بأنها تتمتع بالتفوق الذي يتيح لها مثل هذه الهيمنة والسيطرة.6

تختلف الأسباب والعوامل التي تدعو الوحدات السياسية وتجبرها لخوض غمار الحروب، فقد تكون هذه العوامل متغيرات سياسية أو اقتصادية أو أيدلوجية أو أطماع توسعية أو غيرها، وهي تختلف باختلاف المكان والزمان، وبحسب المستجدات والأحداث المتغيرة، بعبارة أخرى فإن الواقع يفرض على الوحدات السياسية الدخول بالضرورة في الحروب وبالتالي حوجته إلى اتزان القوى.

في ذات المعنى يعتقد "مورجانثو" في (السياسة بين الأمم) أن التطلع إلى السلطان من جانب دول عدة تسعى كل واحدة منها، إما إلى الحفاظ على الوضع القائم أو إلى الإطاحة به بحكم الضرورة، يؤدي إلى صورة أو تشكيلة تسمى بتوازن القوى، وإلى سياسات تهدف إلى الحفاظ عليه.

ويعتبر "كينيث والتز" أن تعبير توازن القوى لا يفرضه رجال الدولة على الأحداث، بقدر ما تفرضه الأحداث على رجال الدولة.

لإبعاد وإخفاء الحرب الظالمة التي تزهق فيها أرواح الأبرياء وإفناء البشر، من المفيد توزيع وبعثرة القوة على الوحدات السياسية في المجتمع الدولي، أن هذا التوزيع والتوازن من شأنه تقليل إن لم يكن منع الحروب الظالمة، التي تستخدم فيها القوة بكافة أشكالها استخداما مرعبا، خاصة في حالة النظام أحادي القطبية.

يجادل كل من" كارل دويتش" و"ديفيد سنفر" أن البنية الدولية ما عادت تتسم بالثنائية القطبية كما كانت الحال بعد الحرب العالمية الثانية، وان النظام الدولي اتجه من جديد نحو تعدد الأطراف، إذن حسب الكاتبين صار هناك عودة لتبعثر القوة الذي كان سائدا ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية، وبالتالي عودة إلى نوع من نظام ميزان القوى، ويعتبر الكاتبان أن تبعثر القوة في النظام الدولي هو الذي أدى إلى الاستقرار في الميزان، وتجدر الإشارة إلى أن الاستقرار في هذا السياق يعرف بعدم قيام حرب بين القوي الرئيسية في النظام الدولي، ولا يعني

بأي شكل من الأشكال عدم قيام حروب صغيرة أو إقليمية، ويعتبر الكاتبان أيضا أن ازدياد التفاعل والاتصال بين الدول كانا من العوامل الرئيسية في الاستقرار.7

الجذور التاريخية لمفهوم (توازن القوى)

جذور مفهوم (توازن القوى) ترجع إلى عصر اليونانيين القدماء، ويرى "مورجانثو" أن المفهوم يرجع إلى ظهور نظام الدولة الحديثة في بداية القرن السادس عشر، وفي ذات التأريخ يرى "مايكل شيهان" أن مؤتمر وستفاليا هو الحدث الأهم في اعتبار توازن القوى أساسا للعلاقات الدولية الأوربية، لأنه أوجد نظام دولي تتمتع فيه الوحدات السياسية بالاستقلال والسيادة.

يعتبر المؤرخ الإغريقي "ثيوسيديدس" في كتابه (تاريخ الحروب البيلوبونيزية) أن النفس البشرية وقت الحرب هي نفس شريرة لا تتردد عن الأعمال القبيحة، ولا تراعي أي قيم للعدالة والإنسانية ولا كابح للعواطف لديها.

وفي دراسته لأسباب الحرب بين أثينا وإسبارطة، يعتقد "ثيوسيديدس" أن العلاقات

بين الدول هي علاقات نزاع في الأصل، وفي ظل انعدام التكافؤ في القوة بين الدول فإن المصلحة تقتضي تكيف الدول مع الواقع الخارجي لضمان حفظ القوة وبقاء الدولة، أو تواجه الدمار والاندثار مثل اندثار الإمبراطوريات والدول عبر التاريخ.

دارت رحى الحرب البيلوبونيزية بين ائتلافين كبيرين للقوى: العصبة البيلوبونيزية تحت قيادة إسبارطة، وعصبة ديلوس (نسبة إلى جزيرة ديلوس التي تم اختيارها ليكون بها خزانة الحلف الأثيني المالية) بقيادة أثينا، وكانت إسبارطة قد توسعت بشكل كبير خلال القرن السادس قبل الميلاد، حتى سيطرت على شبه جزيرة البيلوبونيز بفعل نظامها العسكري الصارم، وكانت كل من أثينا وإسبارطة حليفتين خلال الحروب التي خاضها اليونانيون ضد الفرس.

إسبارطة كانت على الدوام "قوة عظمى "في بلاد اليونان ولكن أثينا لم تصبح كذلك سوى بعد الحرب الفارسية، عندما تحولت إليهم الدويلات اليونانية المحاذية لبحر إيجة (بحر إيجة هو أحد فروع البحر المتوسط ويقع بين شبه الجزيرة اليونانية والأناضول)حتى تقودهم في الصراع المستمر مع بلاد فارس،

وذلك بعد ما قامت إسبارطة بسحب قواتها من بحر ايجة، وقد أدى ذلك إلى تشجيع غالبية الدويلات الإغريقية أو إجبارها قسرا على الانضمام إلى أحد الحلفين، مثل مدينة ثاسوس التي تم إخضاعها بقوة السلاح عندما أرادت الانفصال عن الحلف الأثيني.

ما أن تم تفادى الخطر المباشر للاجتياح الفارسي، حتى قامت الدويلات المطلة على بحر إيجة بتشكيل عصبة ديلوس لمواصلة الكفاح ضد الفرس، وسيطرت أثينا على هذه العصبة بفعالية كبيرة، لدرجة أن المؤرخين صاروا يشيرون إليها في سنواتها اللاحقة بالإمبراطورية الأثينية! وهذا في حد ذاته (كونها أشبه بالإمبراطورية أو إمبراطورية بالفعل) أدى مع مرور الوقت إلى زيادة الشعور بالحقد والغيرة بل والخصومة مع العصبة البيلوبونيزية، وإذا أضيف لكل ذلك ما وصلت إليه أثينا من ثراء فاحش ونمو اقتصادي كبير، وازدهار علوم المنطق والفلسفة والرياضيات وترحيب أثينا بالمد الديمقراطي، فإن ذلك كان يقابله لدى الحلف الاسبارطي حياة تتسم بالخشونة والتقشف والفقر، تصاحبه أمية بين السكان فإن في

ذلك في حد ذاته كان عاملا في زيادة الخصومة والتوتر بينهما.

وقد وقعت الأزمة في عام 432 ق.م عندما التمست كرسيرا التي دخلت في صراع مع كورنثة، التي تعتبر المدينة الأم لها المساعدة إلا أن تدخل الأخيرة في شؤون كرسيرا الداخلية فجر الصراع بينهما، وطلبت وقتذاك كرسيرا المساعدة من أثينا فيما لجأت كورنثة إلى إسبارطة.

كانت كورنثة حليفا لاسبارطة، وكان الأثينيون يدركون تمام الإدراك أن مساعدتهم لكرسيرا ستؤدي إلى الدخول في حرب مباشرة مع اسبارطة وحلفائها، إلا أنه كان من الصعب عليهم مقاومة الالتماسات الصادرة من كرسيرا .وكانت اسبارطة قوة برية وكذلك كان حال جميع حلفائها باستثناء كورنثة التي كانت تمتلك ثالث اكبر أسطول في بلاد اليونان، أما أثينا فكانت قوة بحرية بشكل كامل إذ اعتمدت تجارتها وثروتها وقدرتها على السيطرة على عصبة ديلوس وعلى بحر إيجة، وكانت كرسيرا تمتلك ثاني أكبر أسطول في اليونان، ولهذه الاعتبارات فقد تمكن مبعوثي كرسيرا من إقناع الاثينين بأن الحرب بين أثينا وإسبارطة أمر لا مفر منه،

وان أثينا لا يمكنها أن تسمح بسقوط أسطول كرسيرا في أيدي حليف لاسبارطة.

ترجع أسباب نشوب الحرب بين أثينا وإسبارطة إلى التحول في توازن القوى، ففي الوقت الذي كانت فيه أثينا قوة صاعدة ومتزايدة كانت مخاوف الإسبارطيين تتزايد تبعا لذلك مما جعلهم يقومون بحرب وقائية ضد أثينا.

وفي ذلك يعتقد "هيوم" أن السياسة الدولية في العصر اليوناني القديم كان تحكمها أفهام توازن القوى، يقول: سياسة الحفاظ على التوازن كانت واضحة لدرجة يستحيل معها أن يكون قد غفل عنها الأقدمون، الذين وصلنا منهم فيما يتعلق بالخصوصيات الأخرى علامات كثيرة تدل على عمق التفكير والتدبر.

ويدعي "مايكل شيهان" في كتابه (توازن القوى التاريخ والنظرية): أن كتابا مثل "ارسطو" رغم انهم كتبوا بشيء مطول عن طبيعة الحكومة في المدينة، إلا انه لم يكن هناك أي تصور مكافئ حول العلاقات فيما بين الدويلات اليونانية أو بينها وبين العالم الأوسع، ولم يكن هناك أي نظرية سياسية إغريقية قديمة، ما يمكن أن يقال هو أنه في

مؤلف "ثيوسيديدس" (تاريخ الحروب البيلوبونيزية) الذي تمت كتابته قبل ميلاد المسيح بثلاثة قرون، لا يوجد دليل على التفكير الخاص بتوازن القوى.

وقد اعتقد "ثيوسيديدس" بأن السبب الرئيسي للحروب البيلوبونيزية كان ممثلا في تنامي قوة أثينا، وما تبع ذلك من مخاوف لدى اسبارطة، ويعتقد أن مفهوم القوة والتوسع الإمبريالي لدى الاثينيين إنما يرجع إلى الدوافع الذاتية ودوافع المصلحة لديهم، ووفقا لمفهوم الاثينيين فإن الأقوياء تدفعهم القوة لأن يحكموا غيرهم، وأن الضعفاء لا يبقى لهم إلا الإذعان والاستسلام.

أيا ما كانت الأسباب في اندلاع الحرب في تلك الأزمان السحيقة، فإن تعاظم وتنامي قوة الدولة أو الإمبراطورية، وما يتبع ذلك من دخول حلفاء وفواعل جدد لها وتحت لوائها، هذا في حد ذاته ربما يقلل من مقدرة الدولة على فرض سيادتها على كل النظام، إن أي خطأ يرتكبه حلف من الأحلاف المتاخمة، ربما تكون عاقبته وخيمة على الدولة أو الإمبراطورية، وربما يأتي بالانهيار الكامل للنظام مثلما انهارت الإمبراطورية الأثينية على عظمتها ورفعة شأنها، وهذا هو الدرس

المستفاد وربما دروس عديدة أخرى أشار إليها "ثيوسيديدس"، والتي ربما تتشابه كثيرا مع بعض الأزمات والحروب في وقتنا الراهن.

مهما يكن فإنه على الرغم من استقراء توازنات القوى من حين لآخر في السجلات التاريخية، إلا أن هناك شبه اتفاق على الظهور الحقيقي لتوازن القوى لم يبدأ إلا في أواخر عصر النهضة في أوروبا.

السياسات المتبعة في توازن القوى

صنف كل من" جيمس دورتي "و"روبرت بالتسغراف" في (النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية) عدة وسائل تقليدية كانت تستخدم لخلق أو المحافظة على التوازن وهي:

1_ سياسة فرق تسد والتي تهدف إلى إضعاف الطرف الأقوى.

2_ التعويضات الإقليمية بعد الحرب.

3_ خلق دول عازلة.

4_ إقامة التحالفات.

5_ مناطق النفوذ.

6_ التدخل.

7_ المساومة السياسية (التفاوض).

8_ التسويات السياسية والقانونية للنزاعات.

9_ تخفيض التسلح.

10_ سباق التسلح.

11_الحرب.8

1_سياسة فرق تسد

لجأت بعض الدول إلى هذه الطريقة الاستعمارية في وسيلة منها لإبقاء الضعف المستديم لمنافسيها أو لتمزيق صفوفهم ، أو على اضعف الإيمان في المحافظة على التمزق القائم فيها ، وأوضح مثال في تلك الدول المتبعة لهذه السياسة ، هي فرنسا تجاه المانيا وتلك التي اتبعها الاتحاد السوفياتي إلى باقي أنحاء أوروبا ، أن السياسة الفرنسية الخارجية كانت تتركز في هذه القاعدة منذ القرن السابع عشر ، وعلى مبدأ ثابت قلما تتحول عنه وهو تأييد تجزئة الإمبراطورية الألمانية إلى عدد من الدول الصغيرة المستقلة، أو الحؤول دون اندماج هذه الدول في دولة موحدة، إن ما لقيه الأمراء البروتستانت الالمان من تأييد "ريشليو"، وما وجدته عصبة مدن الراين من تأييد "نابليون الأول"، وما لقيه أمراء

المانيا الجنوبية من تأييد "نابليون الثالث"، وما لقيته الحركات الانفصالية الفاشلة في المانيا بعد الحرب العالمية الأولى من تأييد فرنسا والمعارضة لتوحيد المانيا بعد الحرب العالمية الثانية، كلها ظواهر تتوحد وتجتمع في اتجاه واحد هو توازن القوى في أوروبا، الذي يفرض على فرنسا حالة من الشعور بالخطر والارتياب من جراء قيام دولة المانية قوية واحدة آنذاك.

تقوم هذه السياسة في مضمونها على محاولة الإبقاء على الدول المتنافسة مع دولة في حالة من التفكك والانقسام، لإضعاف قواها وخلق الثغرات التي يمكن النفاذ منها، ضمانا لعدم حدوث اختلال قوة في غير صالح هذه الدولة.

الدول الاستعمارية كانت تضع هذه القاعدة (وهي تعتبر قاعدة ذهبية لها ولكل دولة باغية مستعمرة، أو تحاول أن تفرض شئيا من سياسة الاستعمار وتركيع الدول التي بينها وبينها عداء وضغائن) نبراسا هاديا لها، لأن من شأنها أن تنقل جزءا من تحمل المسؤولية والنصب الذي ربما تلاقيه في إدارة مستعمراتها البعيدة، إلى السكان من نفس البلد المستعمر، خاصة إذا كان هناك تباين

وتمايز عرقي أو ديني في نسيج الدولة الواقعة تحت الاستعمار.

إن تأييد بريطانيا الاستعمارية لتمييز الجنوب عن الشمال في المستعمرة (غالبا توجه الدول الاستعمارية تأييدها ودعمها للطرف الأضعف والأقل نصيبا في المستعمرة) يعتبر عاملا مساعدا لها في توطيد أركانها في كل مستعمراتها لفترات طويلة، بما تخلقه من إحساس مستديم بالاضطهاد لدى الطرف الضعيف (الجنوب) تجاه الشمال.

تعتبر بريطانيا من أكبر القوي الأوروبية التي طبقت بنجاح سياسات فرق تسد، للحيلولة دون نشوب محاور قوى دولية مضادة لمصالحها، فبالإضافة إلى تقييدها المستمر بهذه القاعدة الأساسية في سياساتها الأوروبية، وبخاصة في القرن التاسع عشر، حيث أمكنها أن تقلم أظافر فرنسا النابليونية وان تقيم ضدها حلفا مقدسا، وان تنفرد بالتفوق والسيطرة.9

2_ التحالفات

يعتبر قيام التحالفات بين الدول من أفضل الطرق لتعزيز توازن القوى، والدول لا تقوم بتكوين التحالف ما لم يكن هناك تصور حقيقي بوجود تهديد ما، وكلما زادت عدوانية

الدول و أظهرت نوايا توسعية، كان الاحتمال كبيرا أن تتسبب في تكوين تحالف مناهض لها، يمكن بصورة عامة في تكوين التحالفات اعتبار جميع الدول حلفاء، وربما أعداء محتملين، ويعد هذا السلوك مقبولا وفاشيا في توازن القوى، غير أن الدول ينبغي لها أن تسعى للتحالف مع حلفاء لهم القدرة على معادلة قوة الخصوم أو موازنة القوة بالقوة.

3_خيار الحرب

يعتبر بعض المنظرين أن خيار الحرب هو أداة للحفاظ على توازن القوى أو استعادته، يفترض "مورجانثو" أن التسلح هو الأداة الرئيسية التي تحاول أية دولة عن طريقها وبما يقع تحت تصرفها من قوى، الحفاظ على التوازن القائم للقوى أو إعادة فرضه، وليس السباق على التسلح الذي تحاول الدولة (أ) أن تحافظ عن طريقه على موازنة قواها وسلاحها مع الدولة (ب)، أو التفوق عليها إلا الأداة النموذجية لتوازن دائم الحركة، ومفتقر إلى الاستقرار في السلطان، ويؤدي هذا السباق بصورة حتمية إلى نتائج تزيد باستمرار من أعباء الإعداد العسكري الذي يبتلع حصة تتزايد باستمرار من الموازنة القومية،

ويخلق مخاوف وشكوكا وافتقارا إلى الأمن مستمرة التزايد.

ويذكر "مايكل شيهان" في ذات الخيار أن هناك من قالوا بأن أنظمة توازن القوى يمكن أن تحقق السلام، مثل "اورغانسكي" و"كوجلر" اللذان يقترحان :انه عندما تكون القوة موزعة بصورة شبه متساوية تقريبا فيما بين القوى الكبرى، أو أعضاء التحالفات الرئيسة، فان السلام سوف يتحقق تبعا لذلك، إلا انهما يؤكدان على أن توزيعات القوة لن تحدد بشكل عام مدى احتمالية وقوع الحرب، وبشكل عام لم يقم دعاة توازن القوى بدرج منع اندلاع الحرب كأحد أهداف تبني سياسة لتوازن القوى، وبدلا من ذلك كان الهدف يتمثل في منع قيام احدى الدول أو تحالف ما، بفرض هيمنته على النظام واللجوء إلى الحرب، لتحقيق هذه الغاية اذا اقتضى الامر ذلك، فلم يكن يتم تمجيد الحرب حيث أنها تعتبر ببساطة ثمنا مرا يجب أن يتم دفعه، غالبا للحفاظ على استقلال الدول التي يشتمل عليها النظام..لقد افضى توازن القوى إلى مناسبات كثيرة للغاية توجب فيها دفع الثمن المر.

4_التقسيمات والتعويضات

استخدام مبدأ التقسيم والتعويضات والتنازلات الإقليمية يظهر بصورة واضحة في الحالات الاستعمارية، الدول المستعمرة الإمبريالية تقتسم المناطق والأنصبة فيما بينها، وترسم حدودها بما يضمن أن لكل دولة استعمارية مناطق خاصة بها.

ورد ذكر هذه الوسيلة صراحة في معاهدة اوترخت عام 1713، وبها تم اعتبار التعويضات الإقليمية وسيلة مشروعة ومقبولة للإبقاء على توازن القوى دون تغيير.

القارة الأفريقية بصفة خاصة كانت الوجهة الرئيسة لهذا النوع من توازنات القوى، والذي كان في معظمه يعتمد على اتفاقيات ومعاهدات لتوزيع أماكن النفوذ، مثل توزيع وتقسيم مناطق النفوذ بأثيوبيا بين إيطاليا وفرنسا وبريطانيا.

5_ سباق التسلح

يعتبر سباق التسلح أيضا وسيلة من وسائل توازن القوى الذي لجأت إليه الدول، في محاولة منها بالإبقاء على درجة من التوازن في القوة سائدا في جميع الوحدات السياسية، إلا أنه من ناحية ثانية ونسبة للتطور الكبير الذي دخلت فيه بعض الدول في صناعة

السلاح والآليات، فإنه كان يضاعف من الشعور بالخوف بدلا من تمكين الشعور بالأمن.

6_اقامة المناطق العازلة

تعمل المنطقة العازلة (في الغالب هي مناطق أو دول ضعيفة) على خلق توازن قوى بين الدولتين المتصارعتين، لأن أي محاولة من أحد الطرفين المتصارعين على ضم هذه الدولة الضعيفة إليه، فإنه سيقابل برد فعل مكافئ إن لم يكن اشد، لذلك تحرص كلا الدولتين على وجود وبقاء هذه الدولة العازلة الضعيفة.

توازن القوى الصلب أو "التقليدي"

تظل الهيمنة المطلقة والسيطرة الأبدية في ظل العالم أحادي القطبية أمرا متعسرا لا يتوقع له بالدوام ، في ذلك يدعي "والتز" أن استحالة دوام تلك الاستمرارية يرجع إلى سببين رئيسين: الأول هو أن انشغال الدولة المهيمنة بأعباء كثيرة جدا خارج حدودها، يكون عاملا حقيقيا من عوامل إضعافها وتناقص قوتها على المدى الطويل، والثاني يرجع إلى حجم القلق الذي ستبديه الدول الأضعف من استراتيجيات القوة المهيمنة في المستقبل، ويذكر أن السياسة الدولية تأبى القوة غير المتوازنة كما تأبى الطبيعة الفراغ،

ويعتقد "والتز" أن سلوك الدول العظمى العدواني، هو الدافع الرئيس لتحالف الدول المتضررة وتشكيلها بطبيعة الحال للتوازن في القوى، لذلك فان الأفضل للدول العظمى أن تمتنع عن السعي لتعظيم قوتها فوق الحاجة، ويعتقد أن توازن القوى الصلب ضد الولايات المتحدة القطب الأحادي قد بدأ بالفعل ، وان المسألة لا تعدو كونها مسألة وقت، وهذا التوازن سيظهر ببطء وأنه سيتم "برمشة عين" وفق المنظور التاريخي.

توازن التهديد

يعتقد "والت" في تقديمه لمفهوم توازن التهديد، أن الدول العظمى لا تعتمد على مقدار وحجم القوة الفعلية التي بحوزتها وحسب، بل على مجموعة عوامل أساسية تشكل بها الدولة توازنا من نوع جديد خلافا لتوازن القوى التقليدي، وهذا التوازن الجديد هو توازن التهديد.

العوامل الأساسية هي موقع الدولة الجغرافي، فالدولة العظمى المتاخمة هي مهدد قوى أكبر من الدولة البعيدة، وحجم القوة الفعلية يعتبر عاملا ثانيا في توازن التهديد، ووفقا لذلك فان الدولة التي تمتلك قوة عسكرية واهنة لا تمثل تهديدا مثل

التي تمتلك قوة ضاربة، وكلما كانت الدولة عدوانية النوايا فان تهديدها يظل أكبر من الدول غير العدوانية التي جل همها هو الحفاظ على الوضع الراهن، ويعتقد "والت" أن النظرية يمكن أن تقدم حلولا وإجابات حول قلة وجود توازنات ظاهرة ضد الولايات المتحدة، منذ انتهاء الحرب الباردة.

التوازن الناعم

استمرار الولايات المتحدة الأمريكية كقطب احادي في العالم بعد انتهاء الحرب الباردة، نتيجة عدم ظهور قوى كبرى تمثل توازنا صلبا أمامها، ربما جذب الانظار بعيدا عن انواع من السلوك للدول الرئيسية من الدرجة الثانية.

يعتقد "بابي" ان التوازن الناعم هو الأفعال التي لا تتحدى غلبة القوة العسكرية بشكل مباشر، بل تستخدم أدوات غير عسكرية لتأخير واحباط وتقويض السياسات العسكرية التي تتسم بالعدوانية والاحادية، ويعتقد "تي في بأول" ان التوازن الناعم يحدث عند قيام الدول بتطوير احلاف او تفاهمات امنية

محدودة مع بعضها البعض، بقصد موازنة دولة مهددة محتملة او قوة صاعدة.

يستخدم التوازن الناعم آليات ومناهج متنوعة بغرض تقويض القوة العسكرية للدولة المهيمنة وتأخير عدوانها الوشيك ، منها :

1 _الحرمان الإقليمي: بمعنى رفض طلب الدولة المهيمنة لاستخدام اراضي الدول المتاخمة، بغرض بدء وتنفيذ عملياتها الهجومية العدائية.

2_ الدبلوماسية المتشابكة: التي تستخدم المؤسسات الدولية، وتقوم بدعم المعارضة الداخلية للدولة المهيمنة لتأخير واضطراب تنفيذ اى مغامرات عدائية محتملة، بهدف احتواء وتقييد القوة لديها .

3_ التعزيز الاقتصادي: الذي يعتمد على تحويل القوة الاقتصادية النسبية لصالح الجانب الضعيف من خلال المعاملات التجارية الإقليمية، الشئ الذي يكون له مردود سلبي على معدلات النمو الاقتصادي للدولة المهيمنة.

4_إ شارات العزم على التوازن التي تنطوي على الاقتناع بضرورة التنسيق بين الدول، لمجابهة الدولة المهيمنة والتخلص من اوهام الفشل في تلك المهمة.

التوازن الإقليمي

يرى "جون ميرشايمر" انه برغم انتهاء الحرب الباردة بين الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفياتي، وصيروة الهيمنة الدولية لقطب وحيد هي الولايات المتحدة، فان التنافس بين الدول على القوة لم يتغير أو يتبدل في عالم يتسم بالفوضى، ولم يتغير الهيكل الأساسي للنظام الدولي باندثار الاتحاد السوفياتي، وان الدول لا تزال هي الفواعل الرئيسية وبالتالي فان القطب الأحادي لابد له من موازنون حتما رغم اختفاء الاتحاد السوفياتي، وفرق "ميرشايمر" بين الهيمنة العالمية والهيمنة الإقليمية، ففي الأولى تتم الهيمنة على العالم برمته، أما الإقليمية فتتم فيها الهيمنة على إقليم بعينه.

ويعتقد "ميرشايمر" أن كمال التوازن الإقليمي لا يتم إلا في حال بسط القوى الإقليمية المهيمنة سيطرة وهيمنة تامة على أقاليمها، عليه فان الدولة الإقليمية تعمل على منع ورفض أي سيطرة إقليمية من الدول الأخرى داخل أقاليمها، وان الأفضل وجود قوتين إقليميتين متنافستين منشغلتين ببعضهما داخل الأقاليم الأخرى، وان تعمل

هاتين القوتين على منع وكبت أي قوى إقليمية كامنة وصاعدة داخل مجالهما، وألا فان مهمة القمع والإخماد تكون من أولوياتها رغم البعد الجغرافي، ومن ثم فان انفراد أي دول عظمى بالقوة الإقليمية المهيمنة في النظام العالمي يعني تحولها لقوة وضع راهن، بينما يتسبب ظهور قوة مهيمنة إقليمية في منطقة أخرى إلى تحولها إلى قوة تعديلية، تعمل على اقتلاع المنافس، أو إضعافه على أضعف الإيمان.

توازن المصالح

يجادل "راندل شويللر" في نظريته (توازن المصالح) أن الوحدات السياسية في النظام تنقسم إلى صنفين: صنف قانع بالوضع الراهن، وصنف غير مقتنع به، والثاني إما أن يكون عدوانيا جامحا وأما أن يكون ضعيفا، وبناء على ذلك فإن الدول العدوانية غير القانعة بالوضع الراهن هي من تنزع إلى القوة وإحداث التوازن المفترض، أما الأخرى فتتجه إلى مسايرة الركب والوقوف بجانب الأقوياء.

نسبة لارتفاع تكلفة أحداث التوازن فضلا عن خطورته ومصاعبه يرى " شويللر" أن الدول الضعيفة تفضل "مسايرة الركب" مع الدول

العظمى، ودلل على ذلك بإيراد أمثلة تاريخية للدول الأوروبية منذ القرن السابع عشر.

في تفسيره للنظرية يدعي "شويللر" أن (توازن المصالح) "مفهوم يمتلك معنى مزدوج: الأول على مستوى الوحدة، والثاني على مستوى النظام، فعلى مستوى الوحدة قدم "شويللر "نموذجا صنف فيه الدول إلى اسود وحملان، وأبناء آوى وذئاب.

تمثل الأسود الدول المستعدة لدفع تكاليف مرتفعة لحماية ما تمتلكه، وثمنا قليلا لزيادة مكانتها؛ فهي دول دفاعية ومعظمة للأمن، وقوى وضع راهن من الدرجة الأولى، واعتبر الحملان هي الدول الضعيفة والتي تمتلك قدرات قليلة نسبيا، وتعاني من سوء علاقتها بالمجتمع المحلي، ووفقا لذلك فان الدول الحملان تلجأ في الغالب للمسايرة بغرض تحييد التهديدات وتسكينها، كما تلجأ لعدم الانحياز والنأي بنفسها عن الدول المهددة، أملا بان تكون أخر من يؤكل.

أما أبناء آوى يرمز إلى الدول المستعدة لدفع تكاليف عالية للدفاع عن ممتلكاتها وتكاليف أكبر لتوسيع مكانتها، والذئاب هي دول تقدر ما تتمنى امتلاكه أكثر من تقديرها لما تمتلكه، فهي دول مفترسة وجائعة جدا

ومستعدة لتحمل مخاطر كبيرة، حتى لو تسببت خسارتها بانقراضها.

ووفقا للنظرية فان النظام يتسم بالاستقرار؛ عندما تكون قوى الوضع الراهن أقوى بكثير من القوى أو الائتلاف التعديلي، أما عندما تكون القوى أو الائتلاف التعديلي أقوى من المدافعين عن الوضع الراهن، فان هذا يعني عدم استقرار النظام نتيجة خضوعه للتغيير في نهاية الأمر.

توازن الرعب Balance of terror

تعتمد الدولة بشكل رئيس على القوة سواء كانت كامنة أو فعلية، القوة الكامنة للدولة تتألف من عدد السكان ومستوى الثروة، أما القوة الفعلية فتتمثل في الجيش بقواته البرية والجوية والبحرية.

الدول المتنافسة التي تمتلك قوة نووية تكون طبيعة العلاقات بينها يغلب عليها الخوف والحذر الدائم، بدرجة اقل مما لو كانت هذه الدول لا تمتلك سلاحا نوويا فتاكا. الأسلحة النووية يمكن أن تلحق دمارا واسعا وشاملا في فترة وجيزة ضد خصومها، وهو الشيء الذي يجعل المتنافسين النوويين يترددون كثيرا قبل الدخول في مواجهات.

قيمة التوازن النووي تنشأ من السلاح النووي نفسه، الذي يعتبر قوة كامنة للدولة تستطيع به تغيير الموازين في فترة زمنية قصيرة، إلا انه في الوقت نفسه يعتبر ميزانا جديدا، وكابحا من كوابح استعمال القوة العسكرية.

إن امتلاك الولايات المتحدة الأمريكية والاتحاد السوفيتي لأسلحة الدمار الشامل بكميات كبيرة، يعمل في حد ذاته توازنا يكف أي منهما على فكرة المبادأة بشن حرب نووية، لأن ذلك يعني دمار وإفناء كلا الدولتين، أو بعبارة أخرى انتحار كليهما.

"مير شايمر" يذكر طريقتين لتفسير الآلية التي يؤثر بها السلاح النووي على توازن القوى، فيما اصطلح على تسميته بتوازن الرعب.

الأولى هي أن البعض يعتقد أن الأسلحة النووية تقضي تماما على سباق التسلح التقليدي والتنافس الأمني بين القوى العظمى، لأنه ليس من العقل أن تبدأ أحداها هجوما نوويا على الأخرى خوفا من إفناء نفسها بنفسها ، والخوف من بداية الهجوم النووي لكليهما هو ما يمثل حاجزا لعدم الاستمرارية في زيادة وتقوية التسليح

التقليدي، آخرون يعتقدون بصحة عكس ذلك الفهم تماما، وهو أن الأسلحة النووية نظرا لقدرتها التدميرية المخفية، فلن يلجأ قائد عقلاني لاستخدامها أبدا حتى لأغراض الدفاع عن النفس، ولذلك لا تخفف الأسلحة النووية من حدة التنافس الأمني، ويظل توازن القوة العسكرية التقليدية هو الأهم.

في مجتمع الدول النووية، تحقق الدولة النووية تفوقا ناجحا إذا استطاعت المقدرة على تحييد الأسلحة النووية لمنافسيها، وهو ما يتطلب امتلاك القدرة على "الضربة الأولى الهائلة" للترسانات النووية لخصومها، أو تمتلك القدرة على الدفاع عن نفسها ضد الهجوم بأسلحة نووية.

توازن الرعب عمل على تكوين بعض التأثيرات في العلاقات الدولية:

1_اثر على الوحدات السياسية الكبرى في المجتمع الدولي، التي اتخذت من عملية التحييد المتبادل سلوكا جديدا تحت تأثير الخوف من الأخطار الكارثية، التي يجلبها اللجوء إلى الهجوم النووي.

2_زيادة فعالية الردع النووي المتبادل، أدت إلى تناقص احتمالات اندلاع الحرب النووية، ولم يعد من المتصور وقوع الحرب

النووية إلا بطريق الخطأ، أي بغير تدبير متعمد من جانب أي منهما.

3_فعالية أسلوب الردع النووي قد تسببت في إيجاد نوع من الاستقرار العسكري، في بعض المناطق التي تعاني من التوترات السياسية.

4_الشعور المتبادل بأخطار الردع النووي، ولدت شعورا بالتضامن بين القوى النووية، خاصة في المواقف التي تطغى فيها المخاطر المحتملة على الأهمية الفعلية للمصالح موضع التنازع أو الصراع.

الدولة القانعة وغير القانعة

تحديد مصالح أو أهداف الدولة يتم عبر مؤسسات عديدة ومتباينة، سواء كانت مصالح اقتصادية أو سياسية أو حضارية أو غيرها، وهي تختلف بطبيعة الحال من دولة لأخرى ومن زمان لآخر.

ثمة مفاهيم عديدة تؤثر على تحديد مصالح الدولة، يأتي في مقدمتها مفهوم القوة، وعلى أساس هذا المفهوم تقسم الوحدات السياسية في النظام الدولي، إلى دول قوية قادرة على حماية ذاتها وأمنها، ودول ضعيفة ودول فاشلة ومارقة، ومن حيث إمكانياتها من القوة تصنف الوحدات

السياسية إلى دول قوية وقانعة بالأوضاع القائمة، أو دول قوية وغير قانعة، أو دول ضعيفة غير قانعة بالوضع أو دول ضعيفة وقانعة.

كون الدولة قوية أم ضعيفة فإن ذلك يرجع إلى عدة عوامل وأسباب، مثل قوة الإرادة المتوفرة لديها في المقام الأول، وعدد السكان في الدولة والمستوى الاقتصادي والموارد الطبيعية التي تتحكم فعليا بها، أما كونها قانعة أم غير قانعة بالأوضاع القائمة، فهذا يعتمد بصورة أساسية على التناسب المفترض بين حجم القوة لدى الدولة، بما ينطوي عليه من إمكانيات عسكرية متقدمة ومتطورة وجيش نظامي قادر على استخدام هذه الإمكانيات، مقارنة بالأهداف أو المصالح التي تتوخاها في مدي معين، وبهذا الاعتبار فإن معدل التناسب يكون متزايدا لدى الدولة القوية، ومتناقصا ومختلا لدى الدول الضعيفة.

وبالرغم أن تحديد معايير تتسم بالدقة والصدق لقياس قوة الدولة يعتبر أمرا شاقا وذلك لكثرة العوامل والمتغيرات المتداخلة في ذلك خاصة العوامل المعنوية، بالرغم من ذلك فإن قياس قوة الدولة بهذه المقاييس

والمعايير ربما يعطي نتيجة تقترب من الصحة، غير أنه من الصعوبة بمكان الحكم على قناعة الدولة القوية بالوضع الراهن، لأن ما تعتقد الدولة أنها وصلت فيه إلى تحقيق الـهدف أو المصلـحة في وجود حجم متعاظم من القوة، يتم الحكم عليه من جهات أخرى داخل الدولة ذاتها أو خارجها بأنها حادت عن الصواب، بل أنها فشلت فيه فشلا ذريعا، بحسب المنظور الذي تنظر به تلك الجهات في تحديد المصلحة، إضافة إلى أن التطلع الدائم للأمن يجعل الدولة في حالة قلق وتوجس مستديمين، فأعداء الأمس من الممكن أن يكونوا هم أصدقاء اليوم وأصدقاء اليوم من المحتمل أن يكونوا هم أعداء الغد، وفي ظل المتغيرات السياسية والمصالح المتعاقبة والمتلاحقة فإنه لا يمكن التكهن بما يضمره الطرف الأخر مهما كانت متانة العلاقات بين الطرفين، ومهما كان تطور الطرف الأول المعلوماتي والتقني ومهما بلغت درجته الاستخباراتية.

إذا أسقطنا حالة الاقتناع بمقاربة تحديد المصالح وحجم القوة المتوفر بالدولة، فإن التجربة التاريخية برهنت أن الدولة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

وخلفائه الراشدين ومن اهتدى بهديهم، هي دولة قوية وقانعة لأن حجم القوة الموجود هو أكبر مما لدى الأطراف الأخرى بل أكبر بكثير من أي قوة أخرى على وجه الأرض، ولأن الإسلام دين عملي وواقعي ويقود إلى سعادة الدنيا والدين، وليس نظرية خيالية لا وجود لها في الواقع.

مع هذا فإن ما تتميز به هذه القوة هو ثباتها وديمومتها، فهي ليست مؤقتة أو منقطعة، بل دائمة ومستمرة في كل الأمكنة والأزمنة، أما الدول الضعيفة والقانعة، فإنها إضافة لضعفها، تسلم قيادها للركب وللأهواء والشيطان، وعلى الأرجح هي دول وحكومات مستبدة أو حكومات أوباش.

مع هذا فإن ثمة أسباب عديدة تقود إلى حالة عدم الاقتناع والرضا في الدولة سواء من داخل أطرافها أو من خارجها، ومع الأسف هي أسباب موجودة في كثير من الوحدات السياسية في الواقع المنظور في المجتمع الدولي منها:

1_أن تخالف الدولة المواثيق والمعاهدات الدولية، وأن تبدل فيها وفق مقتضى الحال أو بالأحرى وفق المصالح الآنية لديها، وان

تنكص عن الاتفاقيات وتمرق منها كيفما تشاء ووقتما تشاء.

2_أن تحتل الدول الضعيفة، وأن تدمر دولا أخرى عن طريق أباطيل وأكاذيب وتلفيقات، هم يعلمون يقينا ببطلانها.

3_أن تهتدي بهدي اليهود والشيطان.

4_أن تسمي الأشياء بغير مسمياتها، كأن تسمي غزو واجتياح الدول (تحريرا) وأن تسمي التقسيم (فيدرالية) والعملاء (أصدقاء) والدعوة للانفصال هو (حق تقرير المصير).

5_أن تتدخل الدولة في الشؤون الداخلية للدول الأخرى وتنتهك سيادتها واستقلالها، وأن تدعم الحركات المتمردة وتدعم الانفصاليين.

6_أن تدعو الدولة إلى الدياثة والإباحية والانحلال والفجور، وأن تآخي الشيطان.

7_أن تدعي العمل لنشر الديمقراطية في العالم، وتعمل في الوقت نفسه على وأد الحرية وتصفية المخالفين والمعارضين.

8_أن تقبل الدولة الظلم والاستبداد والطغيان.

9_ أن تدعو إلى تحكيم العقل والتجريب، والتخلص من النقل والنصوص.

الانتقادات الموجهة لمفهوم توازن القوى

رغم أن توازن القوى هو من كوابح الضرورة الذي نجح في تحقيق التهدئة النسبية في كثير من الدول المتعاركة، إلا أنه من الصعوبة بمكان فرض حالة توازن القوى في المجتمع الدولي برمته، بالطريقة التي كما لو كان هناك شرطي أوحد للعالم وللمجتمع الدولي، يدير حركته ويفصل خصوماته وينظم تحركاته واندفاعاته، وأوضح مثال في ذلك هو مواثيق الأمم المتحدة التي تجرم قتل الأطفال والمدنيين والعزل، بل أنها تصنف ذلك بعبارات واضحة؛ أن من يرتكب ذلك هو مجرم حرب، غير أن دولا عديدة لا تأبه أو تكترث بهذا الميثاق المكتوب، فتطحن البسطاء علي مرأي ومسمع العالم، ومن ثم فإن توازن القوى وان كان يقصد به توزيعا متساويا أو غير متساوي للقوة، فإنه ربما تتخلله الثغرات والهفوات، ورؤية المصالح والأهداف، ولا عزاء للضعفاء والمساكين.

إضافة إلى الانتقادات التي تناولت الدلالة اللفظية لتوازن القوي، وجهت عدة

انتقادات لهذا المفهوم من حيث عدم قدرته على تفسير السلوك الدولي بشكل كاف.

أما " مورجانثو "فحدد نقاط الضعف في توازن القوي في إشارات مختلفة حول فشل هذا المنهج، فهو لم يتمكن من الحفاظ على استقلال عدد من الدول منذ القرن الثامن عشر، كما أن التحالفات لمواجهة هيمنة دولة معينة وتحقيق التوازن في القوي، كان يتم من خلال حروب باهظة التكاليف، وبالتالي فان توازن القوي من وجهة نظر "مورجانثو ":

أ_ غير محدد المعني: إذ ليس ثمة من وسائل وسبل يمكن الركون إليها في تقويم ومقارنة القوي الموجودة.

ب_ غير واقعي: حيث أن رجال السلطة يسعون لتحقيق التفوق لدولهم نتيجة الشك في دور هذا التوازن.

ج_ غير كاف: إذ انه يهمل الجوانب الأخلاقية والمعنوية، من زاوية دورها في تقليل فرص الحرب إلى حد ما.10

ويعتقد "مورجانثو" أن مفهوم توازن القوى يمثل مفهوما يفتقر إلى اليقين، ويستقر على أن فكرة التوازن بين مجموعة من الدول هي للحيلولة من اكتساب أحداهما القوة

الكافية لتهديد استقلال الدول الأخرى، وهي مشتقة كاستعارة مجازية من علم الميكانيكا، ومن المحتمل أن تكون هذه الفكرة صالحة لطراز التفكير الذي ساد القرون السادس عشر والسابع عشر والثامن عشر، وهو التفكير الذي كان يميل إلى تصوير المجتمع بل الكون كله وقتذاك كأنه آلة ضخمة هائلة، أو مثل جهاز أو كتركيب ساعة خلقها الله وهو الذي يتولى الإبقاء على حركتها، وكان الاعتقاد بأن العلاقات المتبادلة بين الأجزاء الفردية التي تؤلف ذلك الجهاز، تتقرر على ضوء الحسابات الآلية وان في الإمكان مسبقا حساب حركاتها والحركات المضادة لها، ووفقا لروح هذه الفلسفة الآلية الميكانيكية وفكرتها المستقرة في الأفهام، فإنها قد طبقت بنصها على القضايا العملية للسياسات الدولية، ويحتاج ميزان القوى على ضوء هذا المفهوم الميكانيكي إلى معيار كمي يمكن تمييزه بيسر، وتقاس على أساسه القوى النسبية لعدد من الدول كما تجري الموازنة بينهما، فمثل هذا المعيار وحده الذي يقاس بالأرطال والدراهم، هو القادر على تمكين الإنسان من أن يقول بدرجة من الثقة، بأن هذه الدولة تميل إلى مضاعفة قوتها بالنسبة إلى دولة أخرى، أو أن تلك تميل إلى الحفاظ على توازن

القوى بينها وبين الدول الأخرى، وهذا المعيار أيضا هو الذي يستطيع أن يحول التباينات في القوى إلى وحدات عددية تتنقل من كفة في الميزان إلى أخرى، لإعادة التوازن.

إن عدم اليقين في حسابات توازن القوى يرجع بصورة رئيسة إلى صعوبة تقييم القوة نفسها، عليه فإنه يمكن القول إن التكافؤ الذي ينسب إلى تحالفات القوى، هو تكافؤ وهمي اكثر من كونه تكافؤ فعلى أو حقيقي.

ويعتقد " مورجانثو" أن الافتقار إلى اليقين والصحة في حسابات القوى والسلطان، يكمن في طبيعة السلطان القوى نفسه، وهو يظهر بوضوح وجلاء حتى في ابسط أنواع توازن القوى واقلها تعقيدا، أي عندما تقف دولة واحدة موقف التعارض من دولة أخرى، لكن هذا الافتقار يبدو على أي حال في شكل ضخم وواسع، عندما تكون الأثقال في أي من كفتي الميزان أو في كلتيهما ممثلة في أحلاف دولية لا في دول فرادى، ففي مثل هذه الحالة يغدو من الضروري عدم الاكتفاء بحساب الدولة الواحدة لقوتها أو لقوة خصمها القومية للربط بينها ومقارنتها، بل والقيام بالعملية نفسها بالنسبة إلى السلطان القومي لحلفائها من

ناحية وحلفاء خصمها من الناحية الأخرى، وتزداد خطورة التخمين شدة وحدة، عندما يصل التقويم في حتمية، إلى حساب سلطان دول تمت إلى حضارات تختلف عن حضارة الدولة التي تقوم بالعملية الحسابية.

إن ذروة هذا الافتقار إلى اليقين تتمثل في الحقيقة الواحدة، وهي أن أية دولة لا تستطيع أن تكون على ثقة دائمة من أن هذه الدول هي حليفة لها، أو أنها قد تنقلب إلى خصوم في أي حين، فالأحلاف التي تقررها معاهدات التحالف لا تكون دائما هي عين الأحلاف التي تصبح معارضة بالفعل في حالة نشوب الحرب الفعلية.11

ويضيف في (السياسة بين الأمم الصراع من أجل السلطان والسلام) أنه لما كانت الرغبة في الوصول إلى الحد الأقصى من السلطان عالمية وشاملة، فإن على الدول كلها أن تظل في حالة خوف دائم من أن تؤدي حساباتها الخاطئة للقوى والزيادة المستمرة في قوى الدول الأخرى، إلى ضعف وتدن في مركزها، عليها أن تحاول تجنبه مهما كان الثمن، ومن هنا يكون الميل لدى جميع الدول التي حققت شيئا من التفوق على الآخرين أن تستغل هذا التفوق وتثبت أقدامه، وتستخدمه لتغيير

توزع القوى بصورة دائمة لمصلحتها، ويمكن تحقيق هذا عن طريق الضغط الدبلوماسي، بفرض كل ما لذلك التفوق الذي حققته على الدول الأخرى، مرغمة إياها على تقديم التنازلات التي تضمن تحويل تلك الميزة المؤقتة من التفوق إلى تفوق دائم، ويمكن تحقيق ذلك عن طريق الحرب أيضا، ولما كانت جميع الدول تعيش في أي نظام لتوازن القوى في خوف دائم من أن يحرمها منافسوها، في أول فرصة تتاح لهم من سلطانها، فإن مصلحة هذه الدول كلها تكون في توقع مثل هذا التطور وفي أن تنزل بالآخرين ما لا تريد منهم أن ينزلوه بها، وليست الحرب الوقائية وهي اصطلاح كريه في اللغة الدبلوماسية ومكروه من الرأي العام الديمقراطي، إلا النتيجة الطبيعية لتوازن القوى.

وقد يظل من المستحيل حتى النهاية تأييد الادعاء القائل، بأن توازن القوى بما يفرضه من استقرار، قد عمل على تجنب الكثير من الحروب أو نفيه نفيا قاطعا وليس في وسع المرء أن يتابع سير التاريخ، جاعلا من وضع يقوم على أساس الفرض نقطة البداية التي يشرع منها، لكن بالرغم من استحالة تعداد الحروب، حال توازن القوى دوم نشوبها،

انه من السهل على المرء أن يرى أن أسباب معظم الحروب التي وقعت منذ بداية نظام الدولة الحديثة تمت إلى توازن القوى ذاته، وهناك ثلاثة أشكال من الحروب تتصل اتصالا وثيقا بدقائق توازن القوى وأساليبه، وهي الحروب الوقائية التي يسير فيها الطرفان على سياسات إمبريالية، والحروب المناهضة للإمبريالية، والحروب الإمبريالية نفسها.12

هوامش الفصل الرابع

1_كارل دويتش،ترجمة شعبان محمد محمود شعبان، تحليل العلاقات الدولية، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط.1، 1983) ، ص 70.

2_ سمعان بطرس فرج الله، جدلية القوة والقانون في العلاقات الدولية المعاصرة، (القاهرة: مكتبة الشروق الدولية، ط.1،2008) ، ص17_18.

3_المصدر السابق، ص 17_18.

4_ جمال زهران، منهج قياس قوة الدول واحتمالات تطور الصراع العربي _الإسرائيلي، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط.1، 2006) ، ص32.

5_ مارتن غريفيثس، تيري أوكالاهان، المفاهيم الأساسية في العلاقات الدولية، (دبي: مركز الخليج للأبحاث، ط. 1،2008) ، ص 154.

6_اسماعيل صبري مقلد ، العلاقات السياسية الدولية دراسة في الأصول والنظريات، (القاهرة: المكتبة الاكاديمية،1991) ، ص 265_266.

7_ناصيف يوسف حتى، النظرية في العلاقات الدولية، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط.1، 1985)، ص126.

8_جيمس دورتي، روبرت بالتسغراف، ترجمة د. وليد عبد الحي، النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية، (الكويت: كاظمة للنشر والترجمة والتوزيع، ط.1، 1985)، ص 30.

9_اسماعيل صبري مقلد، المصدر السابق، ص 267_268.

10_جيمس دورتي، روبرت بالتسغراف، المصدر السابق، ص 32.

11_هانز.جي.مورجنتاو، تعريب خيري حماد، السياسة بين الأمم الصراع من أجل السلطان والسلام، الجزء الأول، (القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر، ط. 1، 4 196)، ص 282_283.

12_المصدر السابق، ص 287_288.

الباب الثاني
القوة الإلهية

الفصل الأول

الملائكة عليهم السلام

قدرة الله

إذا كانت القوة تعرف بالمقدرة التي لولا وجودها ما استطاع الكائن إنجاز شيء، وهي بذلك تحمل المعني المغاير تماما لمفهوم ومعني الضعف والوهن، فإنه يمكن القول إن القدرة هي جزء لا يتجزأ من القوة.

قوة الله سبحانه وتعالى وقدرته أكبر من كل قوة وقدرة، قال الله تعالى: (فاطر السماوات والأرض جعل لكم من أنفسكم أزواجا ومن الأنعام أزواجا يذرؤكم فيه ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) [الشورى:11]، (أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليما قديرا) [فاطر:44]، وقال تعالى :(تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير) [الملك:1]، (ولكل وجهة هو

موليها فاستبقوا الخيرات أين ما تكونوا يأت بكم الله جميعا أن الله على كل شيء قدير) [البقرة:148]، (أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وإن الله علي نصرهم لقدير) [الحج: 93]، وقال تعالى :(أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون) [الزخرف: 42].

حرفت المعتزلة المعني المفهوم من قوله تعالي :(والله على كل شيء قدير) [البقرة:284] فقالوا: إنه قادر على كل ما هو مقدور له، وأما نفس أفعال العباد فلا يقدر عليها عندهم، وتنازعوا: هل يقدر على مثلها أم لا؟ ولو كان المعنى على ما قالوا، لكان هذا بمنزلة أن يقال: هو عالم بكل ما يعلمه، وخالق لكل ما يخلقه، ونحو ذلك من العبارات التي لا فائدة فيها، فسلبوا صفة كمال قدرته على كل شيء.

وأما أهل السنة فعندهم أن الله على كل شيء قدير.1

إسراء النبي محمد صلى الله عليه وسلم من المسجد الحرام ليلا إلى المسجد الأقصى، ومعراجه بعد ذلك إلى السماوات العلى، يمثل شيئا يتعدى المفهوم والمعقول، في حدود القدرة الطبيعية، ويعتبر للفرد المسلم

وغير المسلم ظاهرة تتجاوز المعقول والطبيعي.

كونه يعتبر للفرد غير المسلم ظاهرة غير طبيعية يصعب على العقل البشري تصديق وقوعها، لأنه لا يؤمن بالله ولا ملائكته، أما الفرد المسلم فإنه يصدق ذلك ويؤمن به، يؤمن بأن الله هو القوي القدير، لا شيء يعجزه أو يغلبه جل وعز، قال الله تعالى :(سبحان الذي أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصا الذي باركنا حوله لنريه من ءايتنا انه هو السميع البصير) قال ابن كثير: يمجد تعالى نفسه ويعظم شأنه لقدرته على ما لا يقدر عليه أحد سواه، فلا إله غيره ولا رب سواه.2

والحق انه عليه السلام اسري به يقظة لا مناما من مكة إلى بيت المقدس راكبا البراق، فلما انتهى إلى باب المسجد ربط الدابة عند الباب، ودخله فصلى في قبلته تحية المسجد ركعتين، ثم أتى بالمعراج وهو كالسلم ذو درج يرقى فيها، فصعد فيه إلى السماء الدنيا، ثم إلى بقية السماوات السبع فتلقاه من كل سماء مقربوها، وسلم على الأنبياء الذين في السماوات بحسب منازلهم ودرجاتهم، حتى مر بموسى الكليم في السادسة،

وإبراهيم الخليل في السابعة، ثم جاوز منزلتهما صلى الله عليه وسلم وعليهما وعلى سائر الأنبياء، حتى انتهى إلى مستوى يسمع فيه صريف الأقلام، أي أقلام القدر بما هو كائن، ورأى سدرة المنتهى، وغشيها من امر الله تعالى عظمة عظيمة من فراش من ذهب والوان متعددة، وغشيتها الملائكة، ورأى هناك جبريل على صورته وله ستمائة جناح، ورأى رفرفا اخضر قد سد الأفق، ورأى البيت المعمور وإبراهيم الخليل باني الكعبة الأرضية مسند ظهره إليه، لأنه الكعبة السماوية، يدخله كل يوم سبعون الفا من الملائكة يتعبدون فيه، ثم لا يعودون إليه إلى يوم القيامة، ورأى الجنة والنار، وفرض الله عليه هنالك الصلوات خمسين، ثم خففها إلى خمس رحمة منه ولطفا بعباده، وفي هذا اعتناء عظيم بشرف الصلاة وعظمتها، ثم هبط إلى بيت المقدس وهبط معه الأنبياء، فصلى بهم فيه لما حانت الصلاة، ويحتمل أنها الصبح من يومئذ، ومن الناس من يزعم انه أمهم في السماء، والذى تظاهرت به الروايات انه ببيت المقدس، ولكن في بعضها انه كان أول دخوله إليه، والظاهر انه بعد رجوعه اليه، انه لما مر بهم في منازلهم، جعل يسال عنهم جبريل واحدا واحدا، وهو يخبره

بهم وهذا هو اللائق، لأنه كان أولا مطلوبا إلى الجناب العلوي ليفرض عليه وعلى امته ما يشاء الله تعالي، ثم لما فرغ من الذي أريد به، اجتمع به هو وإخوانه من النبيين، ثم اظهر شرفه وفضله عليهم بتقديمه في الإمامة، وذلك عن إشارة جبريل عليه السلام له في ذلك، ثم خرج من بيت المقدس، فركب البراق وعاد إلى مكة بغلس _والله سبحانه وتعالى اعلم_واما عرض الآنية عليه من اللبن والعسل، أو اللبن والخمر، أو اللبن والماء أو الجميع، فقد ورد انه في بيت المقدس وجاء انه في السماء، ويحتمل أن يكون ههنا وههنا، لأنه كالضيافة للقادم _والله اعلم_ثم انه اسرى ببدنه وروحه يقظة لا مناما، والدليل على هذا قوله تعالى :(سبحان الذي اسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام إلى المسجد الاقصا الذى باركنا حوله)فالتسبيح إنما يكون عند الأمور العظام، فلو كان مناما لم يكن فيه كبير شيء، ولم يكن مستعظما، ولما بادرت كفار قريش إلى تكذيبه، ولما ارتدت جماعة ممن كان قد اسلم، وأيضا فان العبد عبارة عن مجموع الروح والجسد، وقد قال تعالى : (اسرى بعبده ليلا) وقال تعالى: (وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس) قال ابن عباس : هي رؤيا عين

أريها رسول الله صلى الله عليه وسلم، ليلة اسري به، والشجرة الملعونة هي شجرة الزقوم، رواه البخاري، وقال تعالى : (ما زاغ البصر وما طغى) والبصر من الآت الذات لا الروح، وأيضا فانه حمل على البراق وهو دابة بيضاء براقة لها لمعان، وإنما يكون هذا للبدن لا للروح، لأنها لا تحتاج في حركتها إلي مركب تركب عليه، والله اعلم 3.

روى الإمام احمد عن انس بن مالك، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أتيت بالبراق وهو دابة ابيض فوق الحمار ودون البغل، يضع حافره عند منتهى طرفه، فركبته فسار بي حتى أتيت ببيت المقدس، فربطت الدابة بالحلقة التي يربط فيها الأنبياء، ثم دخلت فصليت فيه ركعتين، ثم خرجت فاتاني جبريل بإناء من خمر وإناء من لبن فاخترت اللبن، فقال جبريل :أصبت الفطرة قال :ثم عرج بي إلى السماء الدنيا، فاستفتح جبريل فقيل له : من أنت ؟ قال: جبريل قيل :ومن معك ؟قال: محمد قيل :وقد ارسل إليه؟ قال :قد ارسل إليه، ففتح لنا فاذا أنا بآدم فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلي السماء الثانية فاستفتح جبريل فقيل له :من أنت قال: جبريل قيل :ومن معك ؟

قال :محمد قيل :وقد ارسل إليه؟ قال: قد ارسل إليه، ففتح لنا فاذا أنا بابني الخالة يحي وعيسى فرحبا بي ودعوا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الثالثة، فاستفتح جبريل فقيل له :من أنت؟ قال :جبريل قيل: ومن معك؟ قال: محمد قيل : وقد ارسل إليه؟ قال : قد ارسل إليه، ففتح لنا فاذا أنا بيوسف عليه السلام، واذا هو قد أعطي شطر الحسن، فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء الرابعة، فاستفتح جبريل فقيل :من أنت؟ قال :جبريل قيل: ومن معك؟ قال :محمد قيل: وقد ارسل إليه؟ قال :قد بعث إليه، ففتح لنا، فاذا أنا بإدريس فرحب بي ودعا لي بخير، ثم قال : يقول الله تعالى : (ورفعناه مكانا عليا : 57) ثم عرج بنا إلى السماء الخامسة، فا ستفتح جبريل فقيل :من أنت ؟ قال: جبريل قيل :ومن معك ؟ قال :محمد قيل :وقد ارسل إليه ؟قال :قد بعث إليه، ففتح لنا فاذا أنا بهارون فرحب بي ودعا لي بخير، ثم عرج بنا إلى السماء السادسة فاستفتح جبريل فقيل :من أنت؟ قال :جبريل قيل :ومن معك ؟ قال : محمد قيل : وقد بعث إليه ؟ قال : قد بعث إليه، ففتح لنا فاذا أنا بموسى عليه السلام فرحب بي، ودعا لي بخير ثم عرج بنا إلى السماء السابعة

فاستفتح جبريل فقيل :من أنت؟ قال :جبريل قيل : ومن معك؟ قال : محمد قيل : وقد بعث إليه ؟قال: قد بعث إليه، ففتح لنا فاذا أنا بإبراهيم عليه السلام، واذا هو مستند إلى البيت المعمور واذا هو يدخله كل يوم سبعون الف ملك :ثم لا يعودون إليه ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فاذا ورقها كآذان الفيلة واذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من امر الله ما غشيها، تغيرت فما احد من خلق الله تعالى يستطيع أن يصفها من حسنها، قال :فأوحى الله إلي ما أوحى، وقد فرض علي في كل يوم وليلة خمسين صلاة، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، قال: ما فرض ربك على امتك؟ قلت: خمسين صلاة في كل يوم وليلة قال: ارجع إلى ربك فأساله التخفيف لأمتك، فان امتك لا تطيق ذلك، واني قد بلوت بني إسرائيل وخبرتهم، قال: فرجعت إلى ربي فقلت :أي رب خفف عن امتي، فحط عني خمسا، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى، فقال :ما فعلت ؟فقلت :قد حط عني خمسا فقال :أن امتك لا تطيق ذلك، فارجع إلى ربك فأساله التخفيف لامتك، قال: فلم أزل ارجع بين ربي وبين موسى، ويحط عني خمسا خمسا حتى قال: يا محمد هن خمس صلوات في كل يوم وليلة، بكل صلاة عشر فتلك خمسون صلاة، ومن هم بحسنة فلم

يعملها كتبت له حسنة، فان عملها كتبت عشرا، ومن هم بسيئة فلم يعملها لم تكتب شئيا، فان عملها كتبت سيئة واحدة ، فنزلت حتى انتهيت إلى موسى فأخبرته، فقال: ارجع إلى ربك فأساله التخفيف لامتك، فان امتك لا تطيق ذلك، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :لقد رجعت إلى ربي حتى استحييت.4

الفرد المسلم الموحد يوقن بقوة الله وقدرته، إن قوة الله وقدرته جل شأنه تعني أنه المتصرف في الكون ومدبر أمره، الآن ازددت هدى ولا تخالجك أدنى ريبة أو شك. انه لن يضيرك أن نزيدك ما قاله "محمد قطب"، ليزداد اليقين يقينا، والحجة دليلا وبرهانا: لم يفهم المسلمون من شهادة :أن لا اله إلا الله وان محمدا رسول الله، أنها كلمة تقال باللسان دون أن يكون لها مدلول مستقر في أعماق النفس وفي واقع الحياة، وإنما فهموا من شهادة :ان لا اله إلا الله أن الله هو المالك الوحيد لهذا الكون، والمدبر الوحيد لكل ما يقع فيه من أحداث، وانه هو وحده الذي ينبغي أن يعبد، وان تتوجه إليه القلوب بالخشية والتقوى، وانه هو وحده واهب الحياة ومقدر الموت، وهو وحده الرزاق ذو القوة المتين، وان التوجه إلى غيره

بالعبادة أو الخشية والظن بأن أحدا غيره، أو أية قوة من قوى السماوات والأرض، تملك للناس نفعا أو ضرا هو لون من الشرك يستعيذون منه بالله، وفهموا فوق ذلك من معنى لا إله إلا الله، انه وحده الذي يملك ويحكم، وهو الذي يشرع للبشر ويضع لهم قوانين حياتهم ودستور معيشتهم وليس احد غيره، أو أية قوة من قوى السماوات والأرض.5

كانت حصيلة هذا الإدراك لمفهوم الإسلام أن أحست تلك الجماعة المسلمة أنها _بطاعتها لله واتباعها لشريعته واوامره_هي القوة العليا في هذه الأرض، هي القوة المسيطرة المهيمنة التي ينبغي أن تأخذ بزمام البشرية كلها وتقودها إلى الطريق القويم، لم يدخل في هذا الإحساس أي تقدير أو مقارنة، للقوى المادية أو المعنوية بين هذه الجماعة المسلمة، وجماعات الأرض الأخرى التي لا تهتدي بهدي الله، ولو دخل في حسابهم أي تقدير أو مقارنة بين عدد الرجال وقوة السلاح وقوة العلم، وقوة الحضارة وقوة التنظيم.. إلى آخر تلك القوى المادية والمعنوية، لنكص المسلمون على أعقابهم، بل لما فكروا قط في التحرك، بل لانزووا في داخل أنفسهم مدحورين مهزومين.. يحسون بالضآلة ويحسون بالهوان،

وإنما دخل في حسابهم شيء واحد، هو الحقيقة التي تنبع منها جميع الحقائق، انهم هم المؤمنون، هم الطائعون لله ورسوله، وأذن فهم الأعلون، وكل قوى الأرض إزاءهم ضئيلة ضئيلة لا يقام لها حساب، ثم كان هذا حقا.. فبطاعتهم لله ورسوله أصبحوا حقا هم القوة العليا في هذه الأرض، القوة المسيطرة المهيمنة التي أخذت بزمام البشرية كلها، وقادتها إلى الطريق القويم.6

صفة الفعل والإرادة

إن الله جل وعز فعال لما يريد، وأمره بين الكاف والنون، قال الله تعالى:(انه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد) [البروج 16_13]، قال" ابن كثير" (فعال لما يريد): أي مهما أراد فعله، لا معقب لحكمه، ولا يسأل عما يفعل، لعظمته وقهره وحكمته وعدله، وقال تعالى :(إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) [يس:82]، وقال تعالى :(إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون) [النحل:40].

إن الله سبحانه وتعالى يفعل ما يريده، فالإرادة الكاملة والمطلقة هي إرادته، وإرادة الله هي أكبر من كل إرادة، ولا شيء

يشبهه أو يكافئه في أفعاله وإرادته، قال الله تعالى: (ليس كمثله شيء وهو السميع البصير) [الشورى:11].

إن صفة (فعال) تفيد الاستمرارية، والله سبحانه وتعالى يفعل ما يريد في دوام لا انتهاء له، أما أفعال ما دون الله فهي منقطعة وذات محدودية، ولا يمكن لها الاستمرار والدوام، والله سبحانه وتعالى له علم كل شيء ما يستحق الفعل وما لا يستحق الفعل.

إن إراداته وفعله سبحانه وتعالى يعنيان علمه الواسع بكل شيء، قال الله تعالى: (وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) [الانعام:59]، وقال تعالى: (هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم) [الحشر:22]، وقال تعالى: (إن الله يعلم غيب السماوات والأرض والله بصير بما تعملون) [الحجرات:18].

تفسير قوله تعالى: (فعال لما يريد) [البروج:16]: أي مهما أراد شيئا فعله، إذا أراد شيئا قال له كن فيكون، وليس أحد فعالا لما يريد إلا الله، فان المخلوقات لو أرادت شيئا فلابد لإرادتها من معاون وممانع،

والله لا معاون لإراداته ولا ممانع له مما أراد، وقد استنبط المؤلف من هذه الآية الأمور التالية:

1_انه تعالى يفعل بإرادته ومشيئته.

2_انه لم يزل كذلك لأنه ساق ذلك في معرض المدح والثناء على نفسه، وان ذلك من كماله سبحانه، ولا يجوز أن يكون عادما لهذا الكمال في وقت من الأوقات.

3_انه إذا أراد شيئا فعله، فإن "ما" موصولة عامة كل ما يريد أن يفعله، وهذا في إرادته المتعلقة بفعله، وأما إرادته المتعلقة بفعل العبد فهذه لها شأن آخر.

4_ان فعله وإرادته متلازمان، فما أراد أن يفعل فعل وما فعله أراده، بخلاف المخلوق فانه قد يفعل ما لا يريده ويريد ما لا يفعل.

5_اثبات إرادات متعددة بحسب الأفعال، وان كل فعل له إرادة تخصه.

6_أن كل ما صح أن تتعلق به إرادته جاز فعله، فإذا أراد أن ينزل كل ليلة إلى سماء الدنيا لم يمتنع عليه فعله.7

الملائكة عليهم السلام

خلق الله سبحانه وتعالى الأنس والجن لغاية واحدة، هي عبادته، قال الله تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون. ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) [الذاريات 58_56]، وخلق الله الملائكة للعبادة، قال الله تعالى: (ولله يسجد ما في السماوات وما في الأرض من دابة والملائكة وهم لا يستكبرون) [النحل:49].

والملائكة مخلوقون من نور، والإيمان بهم من أركان الإيمان وأفضل الملائكة هم الذين شهدوا معركة بدر، ففي صحيح البخاري عن رفاعة بن رافع: أن جبريل جاء للنبي صلي الله عليه وسلم فقال: ما تعدون من شهد بدرا فيكم؟ قلت: خيارنا، قال: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة هم عندنا من خيار الملائكة.8

وإذا أحب الله عبدا أحبته الملائكة، فقد روى البخاري في الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "إذا أحب الله العبد نادى جبريل: إن الله يحب فلانا فأحببه فيحبه جبريل، فينادي جبريل في أهل السماء: إن الله يحب فلانا فأحبوه فيحبه أهل السماء، ثم يوضع له القبول في الأرض".9

الملائكة خلق كثير، لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم (وما يعلم جنود ربك إلا هو) [المدثر: 31].

وإذا أردت أن تعلم كثرتهم فأسمع ما قاله صلى الله عليه و سلم في البيت المعمور، الذي في السماء السابعة: "فإذا هو يدخله كل يوم سبعون ألف ملك، لا يعودون إليه آخر ما عليهم". رواه البخاري ومسلم.

وفي صحيح مسلم عن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "يؤتى بجنهم يومئذ لها سبعون ألف زمام، مع كل زمام سبعون ألف ملك"، فعلى ذلك فإن الذين يأتون بجهنم يوم القيامة أربعة آلاف وتسعمائة مليون ملك.

وإذا تأملت النصوص الواردة في الملائكة التي تقوم على الإنسان_ علمت مدى كثرتهم _ فهناك ملك موكل بالنطفة، وملكان لكتابة أعمال كل إنسان، وملائكة لحفظه، وقرين ملكي لهدايته وإرشاده.10

ومن الملائكة ملك الجبال، وقد بعث الله تعالى لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ملك الجبال، في حديث عائشة رضي الله عنها، أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم :هل أتي عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ قال: "لقد لقيت من قومك ما لقيت :وكان أشد ما لقيت منهم

يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فاذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال :أن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا عليك وقد بعث الله إليك ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم علي، ثم قال :يا محمد فقال: ذلك فيما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده لا يشرك به شيئا ".11

والملائكة منهم الموكلون بقبض الأرواح، قال الله تعالى:(قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) [السجدة :11]، أما روح المؤمن فتسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، وفي حديث البراء بن عازب رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فانتهينا إلى القبر ولما يلحد، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مستقبل القبلة وجلسنا حوله وكأن على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت في الأرض، فجعل ينظر إلى السماء وينظر إلى

الأرض، وجعل يرفع بصره ويخفضه ثلاثا ، فقال : " استعيذوا بالله من عذاب القبر مرتين أو ثلاثا ، ثم قال :اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ثلاثا ، ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه ملائكة من السماء بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجئ ملك الموت عليه السلام حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الطيبة (وفي رواية: المطمئنة) أخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كم تسيل القطرة من في السقاء فيأخذها (وفي رواية: حتى إذا خرجت روحه صلى عليه كل ملك بين السماء والأرض، وكل ملك في السماء، وفتحت له أبواب السماء ليس من أهل باب إلا وهم يدعون الله أن يعرج بروحه من قبلهم) فاذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يأخذوها فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، فذلك قوله تعالى: (توفته رسلنا وهم لا يفرطون) ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت علي وجه الأرض، قال: فيصعدون بها فلا يمرون _يعني - بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا : ما هذا الروح الطيب؟ فيقولون: فلان بن فلان _بأحسن أسمائه التي

كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا فيستفتحون له، فيفتح لهم، فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله عز وجل: اكتبوا كتاب عبدي في عليين (وما أدراك ما عليون. كتاب مرقوم. يشهده المقربون) فيكتب كتابه في عليين، ثم يقال: اعيدوه إلى الأرض فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فيرد إلى الأرض وتعاد روحه في جسده، قال: فإنه يسمع خفق نعال أصحابه إذا ولوا عنه مدبرين، فيأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقولان له: وما عملك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينتهره فيقول: من ربك؟ ما دينك؟ من نبيك؟ وهي آخر فتنة تعرض على المؤمن، فذلك حين يقول الله عز وجل :(يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت في الحياة الدنيا) فيقول :ربي الله، وديني الإسلام، ونبيي محمد صلى الله عليه وسلم، فينادي مناد في السماء :أن صدق عبدي فافرشوه من الجنة

والبسوه من الجنة، وافتحوا له بابا إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، قال :ويأتيه (وفي رواية: يمثل له) رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول :أبشر بالذي يسرك، أبشر برضوان من الله وجنات فيها نعيم مقيم، هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول له :وأنت فبشرك الله بخير من أنت ؟فوجهك الوجه يجئ بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فوالله ما علمتك إلا كنت سريعا في طاعة الله، بطيئا في معصية الله، فجزاك الله خيرا، ثم يفتح له باب من الجنة وباب من النار، فيقال: هذا منزلك، لو عصيت الله أبدلك الله به هذا، فإذا رأى ما في الجنة قال: رب عجل قيام الساعة كيما أرجع إلى أهلي ومالي، فيقال له: أسكن

قال: وإن العبد الكافر (وفي رواية :الفاجر) إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكة غلاظ شداد، سود الوجوه، معهم المسوح من النار، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجئ ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة أخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده فينتزعها

كما ينتزع السفود الكثير الشعب من الصوف المبلول، فتقطع معها العروق والعصب، فيلعنه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء، وتغلق أبواب السماء ليس من أهل باب ألا وهم يدعون الله إلا تعرج روحه من قبلهم، فيأخذها فاذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلا قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون :فلان بن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم (لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتي يلج الجمل في سم الخياط) فيقول الله عز وجل :اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، ثم يقال :أعيدوا عبدي إلى الأرض فإني وعدتهم أني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، فتطرح روحه من السماء طرحا حتي تقع في جسده، ثم قرأ :(ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير أو تهوي به الريح في مكان سحيق) فتعاد روحه في جسده، قال: فإنه ليسمع خفق نعال أصحابه إذا ولو عنه.

ويأتيه ملكان شديدا الانتهار فينتهرانه ويجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري فيقولان: فما تقول في هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فلا يهتدي لاسمه فيقال: محمد! فيقول: هاه هاه لا أدري سمعت الناس يقولون ذاك! قال: فيقال: لا دريت ولا تلوت، فينادي مناد من السماء أن: كذب فافرشوا له من النار وافتحوا له بابا إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها، ويضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه (وفي رواية: ويمثل له) رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوؤك، هذا يومك الذي كنت توعد فيقول: وأنت فبشرك الله بالشر من أنت؟ فوجهك الوجه يجئ بالشر! فيقول: أنا عملك الخبيث فوالله ما علمت إلا كنت بطيئا عن طاعة الله، سريعا إلى معصية الله فجزاك الله شرا، ثم يقيض له أعمى أصم أبكم في يده مرزبة! لو ضرب بها جبل كان ترابا، فيضربه ضربة حتى يصير بها ترابا، ثم يعيده الله كما كان فيضربه ضربة أخرى، فيصيح صيحة يسمعه كل شيء إلا الثقلين، ثم يفتح له باب من النار ويمهد من فرش النار، فيقول: رب لا تقم الساعة 12."

وإذا جاء الموت ونزل بالعبد المؤمن، فإن الملائكة تتنزل عليه تبشره وتثبته (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون. نحن أولياؤكم في الحياة الدنيا وفي الآخرة ولكم فيها ما تشتهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون) [فصلت:31_30].

وهي تبشر الكفرة بالنار، وغضب الجبار، وتقول لهم: (أخرجوا أنفسكم اليوم تجزون عذاب الهون) [الأنعام :93].13

ذكر الملائكة في القرآن الكريم وصفاتهم عليهم السلام

جاء ذكر الملائكة في القرآن العظيم في آيات عديدة، مثل كلمة (ملك)، و(الملكين)، و(الملائكة)، و(ملكا)، و(ملائكته)، وقد أحصيتها فوجدتها ثمانية وثمانين آية، وأنا أن شاء الله اذكر بعضها هنا.

قال الله تعالى: (قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ثم إلى ربكم ترجعون) [السجدة:11]، وقال تعالى: (والملك علي أرجائها ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية) [الحاقة:17]، وقال تعالى: (ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما

يلبسون) [الانعام:9]، وقال تعالى:(قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا) [الإسراء:95]، وقال تعالى: (فوسوس لهما الشيطان ليبدئ لهما ما ورى عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين) [الاعراف:20].

وقال الله تعالى: (وإذ قال ربك للملائكة إني جاعل في الأرض خليفة) [البقرة:30]، وقال تعالى:(وعلم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة) [البقرة:31]، وقال تعالى: (هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام والملائكة) [البقرة:210]، وقال تعالى: (فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب) [آل عمران:39]، وقال تعالى:(ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون) [آل عمران:80]، وقال تعالى: (لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون) [النساء:172]، وقال تعالى :(إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك بكلمة منه) [آل عمران:45].

وقال الله تعالى:(لكن الله يشهد بما أنزل إليك أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى

بالله شهيدا) [النساء:166]، وقال تعالى: (ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم) [الانعام:93]، وقال تعالى: (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) [الأنفال:9]، وقال تعالى: (ويسبح الرعد بحمده والملائكة من خيفته) [الرعد: 13]، وقال تعالى: (ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أنه لا إله إلا أنا فاتقون) [النحل:2]، وقال تعالى: (تعرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة) [المعارج:4]، وقال تعالى: (إن الله وملائكته يصلون على النبي يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما) [الأحزاب:56]، وقال تعالى: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة) [فصلت:30]، وقال تعالى: (إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليسمون الملائكة تسمية الأنثى) [النجم:27]، وقال تعالى: (وترى الملائكة حافين من حول العرش يسبحون بحمد ربهم) [الزمر :75].

وقال تعالى: (تكاد السماوات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض ألا إن الله هو الغفور

الرحيم) [الشورى:5]، وقال تعالى:(جنات عدن يدخلونها ومن صلح من أبآئهم وأزواجهم وذرياتهم والملائكة يدخلون عليهم من كل باب. سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار) [الرعد: 24_23]، وقال تعالى:(الحمد لله فاطر السماوات والأرض جاعل الملائكة رسلا أولي أجنحة مثنى وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء إن الله على كل شيء قدير) [فاطر:1]، وقال تعالى:(ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلا. الملك يومئذ الحق للرحمن وكان يوما على الكافرين عسيرا) [الفرقان:26_25]، وقال تعالى:(وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا في أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا. يوم يرون الملائكة لا بشرى يومئذ للمجرمين ويقولون حجرا محجورا) [الفرقان:22_21]، وقال تعالى:(من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين) [البقرة:98]، وقال تعالى:(يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) [التحريم:6].

والملائكة عباد مكرمون لا يعصون الله ويفعلون ما يؤمرون، وأنا ذكرت جزءا من الآيات التي تذكر الملائكة وإلا فإنها كثيرة، والإيمان بهم من أركان الإيمان.

وذكر "ابن كثير" حديث الإمام أحمد فقال: عن أبي ذر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني أرى ما لا ترون واسمع ما لا تسمعون، أطت السماء وحق لها أن تئط، ما فيها موضع أربع أصابع إلا عليه ملك ساجد، لو علمتم ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا، ولما تلذذتم بالنساء على الفرشات، ولخرجتم إلى الصعدات تجأرون إلى الله عز وجل". فقال أبو ذر: والله لوددت أنى شجرة تعضد.

وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني: عن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" ما في السماوات السبع موضع قدم ولا شبر ولا كف، إلا وفيه ملك قائم أو ملك ساجد أو ملك راكع، فإذا كان يوم القيامة قالوا جميعا: ما عبدناك حق عبادتك إلا أنا لا نشرك بك شيئا". فدل هذان الحديثان على أنه ما من موضع في السماوات السبع إلا وهو مشغول بالملائكة، وهم في صنوف من العبادة، منهم من هو قائم أبدا، ومنهم من

هو راكع أبدا ومنهم من هو ساجد أبدا، ومنهم من هو في صنوف أخر والله أعلم بها.

وهم دائمون في عبادتهم وتسبيحهم وأذكارهم وأعمالهم التي أمرهم الله بها، ولهم منازل عند ربهم كما قال تعالى: (وما منا إلا له مقام معلوم. وانا لنحن الصافون. وانا لنحن المسبحون) [الصافات :164_166].

وقال صلى الله عليه وسلم: "ألا تصفون كما تصف الملائكة عند ربها؟ قالوا: وكيف يصفون عند ربهم؟ قال: يكملون الصف الأول ويتراصون في الصف". وقال: "فضلنا على الناس بثلاث: جعلت لنا الأرض مسجدا وتربتها لنا طهورا وجعلت صفوفنا كصفوف الملائكة"، وكذلك يأتون يوم القيامة بين يدي الرب جل جلاله صفوفا، كما قال تعالى: (وجاء ربك والملك صفا صفا) [الفجر :22]، ويقفون صفوفا بين يدي ربهم عز وجل يوم القيامة، كما قال تعالى: (يوم يقوم الروح والملائكة صفا لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا) [النبأ : 38].

والمراد بالروح ههنا بنو آدم..وقيل: ضرب من الملائكة يشبهون بني آدم في الشكل.. وقيل: جبريل.14

وقد ورد في صفة جبريل عليه السلام أمر عظيم، قال الله تعالى: (علمه شديد القوى)

[النجم :5] ، قالوا : كان من شدة قوته أنه رفع مدائن قوم لوط، وكن سبعا بمن فيها من الأمم وكانوا قريبا من أربعمائة ألف، وما معهم من الدواب والحيوانات وما لتلك المدن من الأراضي والمعتملات والعمارات وغير ذلك، رفع ذلك كله على طرف جناحه حتى بلغ بهن عنان السماء، حتى سمعت الملائكة نباح الكلاب وصياح ديكتهم، ثم قلبها فجعل عاليها سافلها فهذا هو شديد القوى.15

وقال البخاري: حدثنا عبد الله بن يوسف حدثنا ابن وهب حدثني يونس عن ابن شهاب، حدثني عروة أن عائشة زوج النبي صلي الله عليه وسلم حدثته أنها قالت للنبي صلي الله عليه وسلم :هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد، قال: لقد لقيت من قومك ما لقيت، وكان أشد ما لقيت منهم يوم العقبة، إذ عرضت نفسي على ابن عبد ياليل بن عبد كلال، فلم يجبني إلى ما أردت، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي فلم استفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي فإذا أنا بسحابة قد أظلتني، فنظرت فإذا فيها جبريل فناداني فقال: إن الله قد سمع قول قومك لك وما ردوا به عليك، وقد بعث إليك ملك الجبال لتامره بما شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم

علي، ثم قال:يا محمد، فقال: ذلك فما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: "بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئا". ورواه مسلم من حديث ابن وهب به.16

والحافظ" ابن كثير "ذكر كلاما قيما فقد قال:

الملائكة عليهم السلام بالنسبة إلى ما هيأهم الله له أقسام:

_فمنهم حملة العرش.

_ومنهم الكروبيون الذين هم حول العرش، وهم أشرف الملائكة مع حملة العرش، وهم الملائكة المقربون كما قال تعالى:(لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون) [النساء :172].

_ومنهم جبريل وميكائيل عليهم السلام، وقد ذكر الله عنهم أنهم يستغفرون للمؤمنين بظهر الغيب كما قال تعالى:

(ويستغفرون للذين آمنوا ربنا وسعت كل شيء رحمة وعلما فأغفر للذين تابوا واتبعوا سبيلك وقهم عذاب الجحيم. ربنا وأدخلهم جنات عدن التي وعدتهم ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم إنك أنت العزيز الحكيم.

وقهم السيئات ومن تق السيئات يومئذ فقد رحمته وذلك هو الفوز العظيم) [غافر:7_9].

ولما كانت سجاياهم هذه السجية الطاهرة كانوا يحبون من اتصف بهذه الصفة، فثبت في الحديث عن الصادق المصدوق أنه قال: "إذا دعا العبد لأخيه بظهر الغيب، قال الملك آمين ولك بمثل".

_ومنهم سكان السماوات السبع، يعمرونها عبادة دائبة ليلا ونهارا، صباحا ومساء كما قال تعالى: (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) [الأنبياء:20].

فمنهم الراكع دائما والقائم دائما والساجد دائما، ومنهم الذين يتعاقبون زمرة بعد زمرة إلى البيت المعمور كل يوم، سبعون ألفا لا يعودون إليه آخر ما عليهم، ومنهم الموكلون بالجنان وإعداد الكرامة لأهلها، وتهيئة الضيافة لساكنيها من ملابس ومصاغ ومساكن ومأكل ومشارب، وغير ذلك مما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

_وخازن الجنة ملك يقال له رضوان جاء مصرحا به في بعض الأحاديث.

_ومنهم الموكلون بالنار، وهم الزبانية ومقدموهم تسعة عشر، وخازنها مالك وهو مقدم

علي جميع الخزنة، وهم المذكورون في قوله تعالى:(وقال الذين في النار لخزنة جهنم أدعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب) [غافر: 49]، وقال تعالى:(ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون. لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون) [الزخرف: 77_78]، وقال تعالى:(عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون) [التحريم: 6]، وقال تعالى:(عليها تسعة عشر. وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ليستيقن الذين أوتوا الكتاب ويزداد الذين آمنوا إيمانا ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون ماذا أراد الله بهذا مثلا كذلك يضل الله من يشاء ويهدي من يشاء وما يعلم جنود ربك إلا هو) [المدثر: 31_30].

_ومنهم الموكلون بحفظ بني آدم، كما قال الله تعالى:(سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار. له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم وإذا أراد الله بقوم سوءا فلا مرد له وما لهم من دونه من وال) [الرعد:11_10].

قال الوالبي عن ابن عباس: (له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله) وهي الملائكة، وقال عكرمة عن ابن عباس: يحفظونه من أمر الله. قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه. وقال مجاهد: ما من عبد إلا وملك موكل بحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، وليس شيء يأتيه يريده إلا قال: وراءك، إلا شيء يأذن الله فيه فيصيبه.

وقال أبو أمامة: ما من آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذي قدر له، وقال أبو مجلز: جاء رجل إلى علي فقال: إن نفرا من مراد يريدون قتلك فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، إن الأجل جنة خصينة.

_ومنهم الموكلون بحفظ أعمال العباد، كما قال تعالى: (عن اليمين وعن الشمال قعيد. ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد) [ق: 17_18]، وقال تعالى: (وإن عليكم لحافظين. كراما كاتبين. يعلمون ما تفعلون) [الانفطار 10_12].

قال الحافظ أبو محمد عبد الرحمن بن أبي حاتم الرازي في تفسيره: حدثنا أبي، حدثنا علي بن محمد الطنافسي، حدثنا وكيع، حدثنا

سفيان ومسعر عن علقمة بت مرثد عن مجاهد قال: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: "أكرموا الكرام الكاتبين الذين لا يفارقونكم إلا عند إحدى حالتين: الجنابة والغائط فإذا اغتسل أحدكم فليستتر بجذم حائط أو ببعيره، أو يستره اخوه "هذا مرسل من هذا الوجه.17

أولياء الله

إن الولاء كلمة جامعة للعديد من المعاني، منها الحب والفداء والنصح، وبذل الحماية والدفاع عن الأفراد، والولاء هو عامل من عوامل زيادة القوة للأفراد، لأنه رباط معنوي وايدلوجي يعتبر به الكل في واحد، والواحد في الكل، فما يتضرر منه فرد يتعدى ضرره إلى الجماعة، وما تتضرر منه الجماعة يمس الفرد وإن كان في طرف قصي، وفي حديث النعمان بن بشير قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ترى المؤمنين في تراحمهم وتوادهم وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشتكى عضو تداعى له سائر جسده بالسهر والحمى".18

المسلمون مثل الجسد الواحد، والسهر والحمى هو الولاء وبذل الحماية والدفاع، والفرد المسلم لا يوالي إلا المسلم في جميع الأنحاء، لا يوالي الكافرين، قال الله تعالى: (لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء

من دون المؤمنين) [آل عمران:28]، وقال تعالى :(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) [التوبة:71].

وبذل الحماية هي إرادة السلامة والنجاة للفرد، سواء كانت حماية بالأفعال أو معنوية، إذا كان الفرد مظلوما أو ظالما، فإن الجسد يتداعى له بالسهر والحمى والنصر، روى البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أنصر أخاك ظالما أو مظلوما قالوا: يا رسول الله هذا ننصره مظلوما، فكيف ننصره ظالما؟ قال: "تأخذ فوق يديه".19

قال تعالى :(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين امنوا وكانوا يتقون) [يونس63_62]، الآية. الولي: من الولاية بفتح الواو التي هي ضد العداوة، وقد قرأ حمزة:(ما لكم من ولايتهم من شيء) [الأنفال :72] بكسر الواو، والباقون بفتحها، وقيل هما لغتان. وقيل بالكسر النصرة، وبالكسر الإمارة..فالمؤمنون أولياء الله، والله تعالي وليهم، قال الله تعالى:(الله ولي الذين

آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور.والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات) [البقرة:257]، وقال تعالى:(ذلك بأن الله مولى الذين آمنوا وأن الكافرين لا مولى لهم) [محمد: 11].

والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، قال تعالى :(والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض) [التوبة:71].20

إن الله هو ولي الفرد المسلم ، وغير المسلم وليه الشيطان الرجيم، قال الله تعالى :(إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) [الأعراف:196]،(الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات)[البقرة:257]، (ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام ولأمرنهم فليغيرن خلق الله ومن يتخذ الشيطان وليا من دون الله فقد خسر خسرانا مبينا) [النساء :119]، وقال تعالى:(يا أبت إني أخاف أن يمسك عذاب من الرحمن فتكون للشيطان وليا) [مريم:45]،(فريقا هدى وفريقا حق عليهم الضلالة إنهم اتخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون) [الاعراف:30].

وقال تعالى: (إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض) [الأنفال: 72] إلى آخر السورة. وقال تعالى: (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون. ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون) [المائدة:56_55].

فهذه النصوص كلها ثبت فيها موالاة المؤمنين بعضهم لبعض، وأنهم أولياء الله، وان الله وليهم ومولاهم، فالله يتولى عباده المؤمنين، فيحبهم ويحبونه، ويرضى عنهم ويرضون عنه، ومن عادى له وليا فقد بارزه بالمحاربة، وهذه الولاية من رحمته وإحسانه، ليست كولاية المخلوق للمخلوق لحاجة إليه، قال تعالى: (وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرا) [الاسراء:111].21

إن ولاية الله سبحانه وتعالى هي محبة الله عز وجل للعبد الصالح، وهي استجابة الله سبحانه وتعالى لدعاء عباده المؤمنين، قال الله تعالى :(ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم

البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم) [يونس:62_64].

وأما أولياء الله الكاملون فهم الموصوفون في قوله تعالى: (ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون) _إلى قوله_ (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) [يونس:62_64].

والتقوى هي المذكورة في قوله تعالى :(ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين) إلى قوله :(أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون) [البقرة :177]، وهم قسمان: مقتصدون ومقربون، فالمقتصدون الذين يتقربون إلى الله بالفرائض من أعمال القلوب والجوارح، والسابقون الذين يتقربون إلى الله بالنوافل بعد الفرائض.22

المسلم الصالح الموحد وليه الله، قال الله تعالى :(إن ولي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين) [الأعراف :196]، ومن نتائج هذا الولاء إذا توفر الإخلاص والعمل الصالح: إخلاص العمل والقصد لرب العالمين لا إشراك به ولا تعطيل لصفاته، ولا الحاد في أسمائه، والعمل الصالح الموافق لما أمر به رسول الله

صلى الله عليه وسلم، من نتائجه هو محبة الله سبحانه وتعالى، ورضاه وانعدام الخوف والحزن؛ انعدام الخوف يعني القوة الإلهية.

إن القوة الإلهية هي إعانة الله سبحانه وتعالى للعبد، الإعانة التي يدعو بها الفرد في صلواته الخمس، قال الله تعالي :(إياك نعبد وإياك نستعين) [الفاتحة:5].

(إياك نعبد وإياك نستعين)..وهذه هي الكلية الاعتقادية التي تنشأ عن الكليات السابقة في السورة، فلا عبادة إلا لله ولا استعانة إلا بالله.

وهنا كذلك مفرق طريق.. مفرق طريق بين التحرر المطلق من كل عبودية وبين العبودية المطلقة للعبيد! وهذه الكلية تعلن ميلاد التحرر البشري الكامل الشامل، التحرر من عبودية الأوهام، والتحرر من عبودية النظم، والتحرر من عبودية الأوضاع، وإذا كان الله وحده هو الذي يعبد والله وحده هو الذي يستعان، فقد تخلص الضمير البشري من استذلال النظم والأوضاع والأشخاص، كما تخلص من استذلال الأساطير والأوهام والخرافات.

وهنا يعرض موقف المسلم من القوى الإنسانية، ومن القوى الطبيعية.. فأما القوى الإنسانية _بالقياس إلى المسلم _فهي

نوعان: قوة مهتدية تؤمن بالله وتتبع منهج الله..وهذه يجب أن يؤازرها ويتعاون معها على الخير والحق والصلاح.. وقوة ضالة لا تتصل بالله ولا تتبع منهجه وهذه يجب أن يحاربها ويكافحها ويغير عليها.

ولا يهولن المسلم أن تكون هذه القوة الضالة ضخمة أو عاتية، فهي بضلالها عن مصدرها الأول -قوة الله_تفقد قوتها الحقيقية، تفقد الغذاء الدائم الذي يحفظ لها طاقتها، وذلك كما ينفصل جرم ضخم من نجم ملتهب، فما يلبث أن ينطفئ ويبرد ويفقد ناره ونوره، مهما كانت كتلته من الضخامة، على حين تبقى لأية ذرة متصلة بمصدرها المشع قوتها وحرارتها ونورها :(كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله).. غلبتها باتصالها بمصدر القوة الأول، وباستمدادها من النبع الواحد للقوة وللعزة جميعا، وأما القوى الطبيعية فموقف المسلم منها هو موقف التعرف والصداقة، لا موقف التخوف والعداء، ذلك أن قوة الإنسان وقوة الطبيعة صادرتان عن إرادة الله ومشيئته، محكومتان بإرادة الله ومشيئته، متناسقتان متعاونتان في الحركة والاتجاه.

إن عقيدة المسلم توحي إليه أن الله ربه قد خلق هذه القوى كلها لتكون له صديقا مساعدا متعاونا، وان سبيله إلى كسب هذه الصداقة أن يتأمل فيها ويتعرف إليها ويتعاون وإياها، ويتجه معها إلى الله ربه وربها، وإذا كانت هذه القوى تؤذيه أحيانا، فإنما تؤذيه لأنه لم يتدبرها ولم يتعرف إليها، ولم يهتد إلى الناموس الذي يسيرها.23

وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب، وما تقرب إلى عبدي بشـيء أحب إلى مما افترضـته عليه، وما يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به، وبصره الذي يبصر به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها، وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذ بي لاعيذنه، وما ترددت عن شيء أنا فاعله، ترددي عن نفس المؤمن، يكره الموت وانا أكره مساءته". 24

الإخلاص والقوة الإلهية

لعل من حقك علينا أن تسـأل الآن، هل يرتبط مفهوم القوة الإلهية بمفهوم الإخلاص؟ نعم يرتبط مفهوم القوة الإلهيـة بمفهوم الإخلاص والإيمان، قال الله جل وعز :(لقد أرسلنا

من قبلك رسلا إلى قومهم فجآءوهم بالبينات فانتقمنا من الذين أجرموا وكان حقا علينا نصر المؤمنين) [الروم :47]، وقال تعالى :(إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) [غافر:51]، وقال تعالى:(يا أيها الذين آمنوا إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) [محمد:7]، فإذا أخلص الفرد العبادة لله فإنه سبحانه وتعالى ينصره، والله تعالى لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) [البينة:5].

يقرر القران الكريم أن الطاعة لابد أن تكون خالصة لله، وأنه لابد من اتباع قانونه وحده، وحرام على المرء أن يترك هذا القانون ويتبع قوانين الآخرين، أو شرعة ذاته ونزوات نفسه :(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين. إلا لله الدين الخالص) [الزمر: 3_2]. 25

والإخلاص في العبادة ، أن يقصد الفرد بها الله سبحانه وتعالى وحده ولا يشرك به ، قال تعالى :(قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما الهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء

ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا) [الكهف :110]، فيصلي لله لا يصلي لشمس أو قمر، أو نهر أو حجر، قال تعالى :(قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين) [الانعام :162]، ولا يذبح إلا لله، قال تعالى :(فصلي لربك وانحر) [الكوثر: 2]، ويدعو الله، قال الله تعالى:(وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى ألا أكون بدعاء ربي شقيا) [مريم :48] ويستغيث الله، ويخاف ويخشى الله، قال الله تعالى: (إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين) [آل عمران:175]، ويوحد الله في أسمائه وصفاته، ويؤمن بها من غير تمثيل أو تعطيل أو تحريف أو تشبيه، ويوحد الله في ربوبيته، فالخالق واحد والرازق واحد والقوي واحد، جل وعز.

والإخلاص في العبادة أن يكون العمل متابعا وموافقا لهدى وطريقة النبي صلى الله عليه وسلم، فهو المبين للوحي ومبلغ الرسالة، ومن أعمل مخه وأجهد فكره بأعمال وعبادات يتقرب بها إلي الله على غير طريقة النبي صلى الله عليه وسلم، فعمله مبتدع مردود، لا يقبله الله، وفي حديث العرباض بن سارية قال: وعظنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما بعد صلاة

الغداة موعظة بليغة، ذرفت منها العيون، ووجلت منها القلوب، فقال رجل: إن هذه موعظة مودع، فماذا تعهد إلينا يا رسول الله؟ قال: "أوصيكم بتقوى ا، لله والسمع والطاعة وان عبد حبشي، فإنه من يعش منكم يري اختلافا كثيرا، وإياكم ومحدثات الأمور فإنها ضلالة، فمن أدرك ذلك منكم فعليكم بسنتي، وسنة الخلفاء الراشدين المهديين، عضوا عليها بالنواجذ". 26

هذا القانون الذي أمرنا الله في الآيات السالفة باتباعه والسير عليه، ليس من وسيلة لتبليغه للإنسان سوى رسول الله، فهو وحده الذي يوصل أحكام الله وشرائعه إلى البشر، وهو وحده الذي يفسرها ويشرحها بقوله وفعله، فالرسول إذن هو ممثل حاكمية الله القانونية في حياة البشر، وعلى هذا فطاعته هي عين طاعة الله، والله نفسه يأمر بقبول أوامر الرسول ونواهيه والتسليم بها دون نقاش، ويقول إن الناس لا يؤمنون حتى يحكموا الرسول فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجا مما قضى ويسلموا تسليما. 27

والإخلاص هو توجيه العبودية لله وحده، وأن يكون التوجيه والقصد وإفراد الله سبحانه وتعالى بالعبادة على ما أمر به رسول الله

صلى الله عليه وسلم، ويقترب معنى الإخلاص من معنى التقوى والإحسان، فإن الإحسان هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تراه فإنه يراك، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم بارزا يوما للناس فأتاه رجل فقال :ما الإيمان؟ قال: "الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وبلقائه ورسله وتؤمن بالبعث" قال: ما الإسلام؟ قال: "الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به، وتقيم الصلاة، وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان" قال: ما الإحسان؟ قال: "أن تعبد الله كأنك تراه فان لم تكن تراه فإنه يراك" قال :متى الساعة؟ قال :"ما المسئول عنها بأعلم من السائل: وسأخبرك عن أشراطها :اذا ولدت الأمة ربها، واذا تطاول رعاة الإبل البهم في البنيان، في خمس لا يعلمهن إلا الله" ثم تلا النبي صلى الله عليه وسلم (إن الله عنده علم الساعة) الآية. ثم أدبر، فقال: "ردوه" فلم يروا شيئا، فقال: "هذا جبريل جاء يعلم الناس دينهم".28

والإخلاص والتقوى عاقبتهما الجنة قال الله تعالى :(تلك الجنة التي نورث من عبادنا من كان تقيا) [مريم :63]، وقال تعالى:(ولو أن

أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض) [الأعراف:96]، وقال تعالى: (إن للمتقين مفازا) [النبأ:31] وقال تعالى: (إن المتقين في جنات وعيون) [الذاريات:15]، وقال تعالى: (إن المتقين في جنات ونعيم) [الطور:17].

والذي أريد أن أبلغه أن مرتبة الإخلاص والتقوى من المنازل التي ينبغي أن تكون من ثوابت أي مسلم، وأن النصر والتوفيق في كل شيء مناط بهما، فإذا ظننت وقدرت أن تنتصر في حرب ومواجهة وأنت تعصي الله وأبعد ما تكون عن الإخلاص والتقوى، فقد أسأت التقدير والظن.

ويستخدم أعداء الإسلام القوة بكافة أضرابها لإطفاء نور الله، ولكنهم واهمون وضعفاء، لأن الله سبحانه وتعالى يقول: (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون. هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون) [التوبة:33_32]، أن إراداتهم وقوتهم لا تساوي شيئا أمام إرادة القوي المريد جل وعز.

في التوضيح عن هذا الفهم الذي يراود الأعداء يقول "محمد الغزالي" في كتاب (حصاد

الغرور): ألا لعنة الله على تجار الحروب وموقدي نارها.! كم نود أن يتوطد السلام في عالم تستقر فيه حقوق الإنسان وكرامات الأمم.. لكن هل مستقبل الإنسانية يأخذ هذا الاتجاه؟ كلا.. ونحن المسلمين في هذه الآونة الحاسمة، نشعر بأن الآخرين يقيمون كيانهم على أنقاضنا، ويبنون سعادتهم على شقوتنا، وعندما يضع نفر من الناس خطتهم في الثراء على ثروة مسروقة، أو خطتهم في البناء على أرض منهوبة، فهيهات أن يتمخض هذا البدء عن نهاية صالحة، إنه كمسلك أخوة يوسف عندما رسموا الطريق لراحتهم المنشودة فقالوا (اقتلوا يوسف أو اطرحوه أرضا يخل لكم وجه أبيكم وتكونوا من بعده قوما صالحين) [يوسف :9]، هكذا تتعاون الصهيونية والصليبية على إقامة السلام العالمي ومنع الحروب الدينية أو المدنية. اسحقوا العرب والإسلام وأقيموا لبني إسرائيل دولة كبرى على أطلال هذا الماضي الكريه، وبعدئذ سيحظى العالم بالاستقرار والرفاهية، هذه هي سياسة الآخرين تجاهنا.29

إن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طبقوا الإسلام في حياتهم ومعاشهم تطبيقا عمليا، وتمثلوا كلام الله جل وعز، وسنة نبيه

صلى الله عليه وسلم، في كل سكناتهم وحركاتهم، فسادوا بهذا التمثل والالتزام الأرض، وأصبحوا فيها قوة عليا ومسيطرة.

إن الإسلام يفجر طاقات الأفراد، ويحول القوى الكامنة فيهم إلى قوى حرة ظاهرة، لا إلى قوة أرضية صغيرة لها بدايات ونهايات، لكن إلى قوة أكبر، قوة كونية.

قال الله تعالى: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين) وقال: (إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين. ألا لله الدين الخالص)، وقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: (قل الله أعبد مخلصا له ديني فاعبدوا ما شئتم من دونه)، وقال له: (قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين. لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين)، وقال: (الذي خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا)، قال الفضيل ابن عياض: هو أخلصه وأصوبه، قالوا: يا أبا علي ما أخلصه وأصوبه ؟فقال: إن العمل إذا كان خالصا ولم يكن صوابا لم يقبل، وإذا كان صوابا ولم يكن خالصا لم يقبل، حتى يكون خالصا صوابا، والخالص: أن يكون لله، والصواب أن يكون على السنة، ثم قرأ قوله تعالى: (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة

ربه أحدا)، وقال تعالى :(ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن) فإسلام الوجه :إخلاص القصد والعمل لله، والإحسان فيه: متابعة رسوله صلى الله عليه وسلم وسنته، وقال تعالى: (وقدمنا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثورا)، وهي الأعمال التي كانت على غير السنة أو أريد بها غير وجه الله، قال النبي صلى الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: "انك لن تخلف فتعمل عملا تبتغي به وجه الله تعالى: إلا ازددت به خيرا ودرجة ورفعة"، وفي الصحيح من حديث أنس بن مالك رضى الله عنه قال :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثلاث لا يغل عليهن قلب مسلم :إخلاص العمل لله، ومناصحة ولاة الامر، ولزوم جماعة المسلمين، فإن دعوتهم تحيط من ورائهم"، أي لا يبقى فيه غل ولا يحمل الغل مع هذه الثلاثة، بل تنفي عنه غله وتنقيه منه وتخرجه عنه، فإن القلب يغل على الشرك أعظم غل، وكذلك يغل على الغش، وعلى خروجه عن جماعة المسلمين بالبدعة والضلالة، فهذه الثلاثة تملؤه غلا ودغلا، ودواء هذا الغل واستخراج أخلاطه :بتجريد الإخلاص والنصح ومتابعة السنة. وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الرجل: يقاتل رياء، ويقاتل شجاعة، ويقاتل حمية: أي ذلك في سبيل الله؟ فقال:

"من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله." وأخبر عن أول ثلاثة تسعر بهم النار: قارئ القرآن والمجاهد والمتصدق بماله، الذين فعلوا ذلك ليقال: فلان قارئ، فلان شجاع، فلان متصدق، ولم تكن أعمالهم خالصة لله، وفي الحديث الصحيح الإلهي يقول الله تعالى: "أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه غيري فهو للذي أشرك به، وأنا منه برئ". وفي أثر آخر: يقول له يوم القيامة: "اذهب فخذ أجرك ممن عملت له لا أجر لك عندنا".

وفي الصحيح عنه صلى الله عليه وسلم: " إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم، ولكن ينظر إلى قلوبكم "، وقال تعالى: (لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم). وفي أثر مروي إلهي "الإخلاص: سر من سري، استودعته قلب من أحببته من عبادي".

وقد تنوعت عباراتهم في "الإخلاص" و "الصدق" والقصد واحد، فقيل: هو أفراد الحق سبحانه بالقصد في الطاعة، وقيل: تصفية الفعل عن ملاحظة المخلوقين، وقيل: التوقي من ملاحظة الخلق حتى عن نفسك، و "الصدق" التنقي من مطالعة النفس. فالمخلص لا رياء له، والصادق لا إعجاب له، ولا يتم الإخلاص إلا

بالصدق، ولا الصدق إلا بالإخلاص، ولا يتمان إلا بالصبر، وقيل: من شهد في إخلاصه الإخلاص، احتاج إخلاصه إلى إخلاص، فنقصان كل مخلص في إخلاصه: بقدر رؤية إخلاصه، فإذا سقط عن نفسه رؤية الإخلاص، صار مخلصا مخلصا.

وقيل: الإخلاص استواء أعمال العبد في الظاهر والباطن، والرياء: أن يكون ظاهره خيرا من باطنه، والصدق في الإخلاص: أن يكون باطنه اعمر من ظاهره.

وقيل: الإخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق، ومن تزين للناس بما ليس فيه سقط من عين الله، ومن كلام الفضيل: ترك العمل من أجل الناس: رياء، والعمل من أجل الناس: شرك، والإخلاص أن يعافيك الله منهما ".30

هوامش الفصل الأول

1_محمد بن عبد الرحمن الخميس، التوضيحات الجلية على شرح العقيدة الطحاوية، الجزء الأول، (الرياض: دار ابن الجوزي، ط.1، 1429هـ)، ص269.

2_ صفي الرحمن المباركفوري، المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير، (القاهرة: المكتبة الإسلامية، ط.1، 2008)، ص 663.

3_صفي الرحمن المباركفوري، المصدر السابق، ص 667_668.

4_ صفي الرحمن المباركفوري، المصدر السابق، ص 663_664.

5_محمد قطب ، هل نحن مسلمون، (القاهرة: دار الشروق،ط.6، 2002) ، ص11_10.

6_المصدر السابق، ص 60_61.

7_محمد بن عبد الرحمن الخميس، المصدر السابق، ص264.

8_ عمر سليمان الأشقر، عالم الملائكة الأبرار، (الكويت: مكتبة الفلاح، ط.3، 1983)، ص13.

9_أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم

وسننه وأيامه، الجزء الثاني، (القاهرة: المكتبة السلفية، ط.1، 1403هـ)، ص424.

10_عمر سليمان الأشقر، المصدر السابق، ص16.

11_أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المصدر السابق ،ص428_429.

12_محمد ناصر الدين الألباني، أحكام الجنائز وبدعها، (الرياض: مكتبة المعارف ،ط.1، 1992)، 198_202.

13_عمر سليمان الأشقر، المصدر السابق، ص51.

14_أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق عادل أبو المعاطي، بداية خلق الكون، (القاهرة: دار البشير للطباعة والنشر والتوزيع ،ط.1، 1998)، ص 119_121.

15_أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، المصدر السابق ،ص123.

16_المصدر السابق، ص136_137.

17_أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، المصدر السابق، ص137_139.

18_أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، الجامع الصحيح

المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، الجزء الرابع ، (القاهرة: المكتبة السلفية، ط.1، 1403هـ) ، ص93.

19_أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، الجزء الثاني، (القاهرة: المكتبة السلفية، ط.1، 1403هـ) ، ص190.

20_محمد بن عبد الرحمن الخميس، المصدر السابق، ج 2، ص864.

21_المصدر السابق، ص864.

22_ المصدر السابق، 866.

23_سيد قطب ، في ظلال القرآن ، (القاهرة: دار الشروق ، ط.23، 2003) ، ص 25.

24_أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، الجزء الرابع ، (القاهرة: المكتبة السلفية، ط.1، 1403هـ) ، ص192.

25_أبو الأعلى المودودي، تعريب أحمد إدريس، الخلافة والملك، (الكويت: دار القلم ، ط.1،1978) ، ص16.

26_أبو عيسي محمد بن عيسي، تحقيق وتعليق إبراهيم عطوه عوض، الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، الجزء الخامس ، (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي ، ط.1، 1962) ، ص44.

27_أبو الأعلى المودودي، المصدر السابق، ص17.

28_ أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، الجزء الأول ، (القاهرة: المكتبة السلفية، ط.1، 1403هـ) ، ص33.

29_ محمد الغزالي، حصاد الغرور، (القاهرة: دار الشروق) ، ص 74.

30_أبوعبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، مدارج السالكين بين منازل (إياك نعبد وإياك نستعين) ، الجزء الثاني ، (بيروت: دار الكتاب العربي،ط.7، 2003) ، ص 88_92.

الفصل الثاني

محاولات تفكيك القوة الإسلامية

محاولات تفكيك القوة الإسلامية

ليس هناك جزاء أكبر من الجنة؛ جنة عرضها السماوات والأرض أعدت للمتقين.

قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: "قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض"، فقال عمير بن الحمام الأنصاري رضى الله عنه: يا رسول الله جنة عرضها السماوات والأرض؟ قال: "نعم". قال: بخ بخ. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما يحملك على قول بخ بخ؟". قال: لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن أكون من أهلها قال: "فإنك من أهلها"، فاخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منه، ثم قال: لئن أنا حييت حتى آكل تمراتي هذه إنها لحياة طويلة، قال: فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل.

في كتابه (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) يقول "فرانسيس فوكوياما ":

وبالرغم من القوة التي أبداها الإسلام في تجدده الحالي، إلا أن هذا الدين لا يبدو انه يمارس أية جاذبية خارج الأصقاع التي كانت إسلامية ثقافيا منذ بداياتها، فقد ولى زمن الغزو الثقافي للإسلام كما يبدو، انه يستطيع استعادة بلدان فلتت منه لفترة، ولكنه لا يقدم أبدا الإغراءات لشبيبة برلين وطوكيو باريس أو موسكو، فاذا كان هناك مليار من الناس تقريبا ينتمون للثقافة الإسلامية (أي خمس سكان العالم) فانهم لن يتمكنوا من منافسة الديمقراطية الليبرالية في عقر دارها في مجال الأفكار، وعلى المدى الطويل قد يبدو العالم الإسلامي اكثر تعرضا للأفكار الليبرالية مما هو العكس، لان لهذه الأفكار عددا كبيرا وقويا من المؤيدين في العالم الإسلامي، تعاقبوا على مر السنين المئة والخمسين الماضية، ويعود جزء من سبب التجدد الأصولي الراهن إلى قوة التهديد إلى تمارسه قيم الغرب الليبرالي، على المجتمعات الإسلامية التقليدية.1

إن الإغراءات في الإسلام هي الترغيب في الجنة، لا الترغيب في الدنيا ونسيان الآخرة،

لأن الدنيا زائلة وفانية، والدار الآخرة هي الباقية، ومن كان له قلب فانه يختار ما رغب الله فيه وأمر، ويجتنب ما نهي الله عنه وزجر، وليست الإغراءات بنعيم الدنيا ومتاعها وقصورها وزينتها، بل إن الإسلام يجعل من ذلك كله مطية للآخرة ونعيمها المقيم، ولكن هو لا يدري ولا يدري أنه لا يدري.

إن النبي صلى الله عليه وسلم عندما أثر الحصير في جنبه الشريف، في الحديث الذي يرويه علقمة عن عبد الله قال: نام رسول الله صلى الله عليه وسلم على حصير، فقام وقد أثر في جنبه فقلنا: يا رسول الله لو اتخذنا لك وطاء فقال: "مالي وما للدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكب استظل تحت شجرة ثم راح وتركها ".2

كان يقرر_ صلى الله عليه وسلم معاني الزهد الذي ينبغي أن يتصف به المسلمين، وأن يشمروا سواعدهم للرحيل وللإغراءات الحقيقية الكبيرة، إن المقارنة التي يعقدها "فرانسيس" بين الإسلام والفكر الليبرالي، الذي يتوهم بأن يظهر ويطغي آخر الامر والزمان، وان نهاية التاريخ هي بسيادة وظهور الليبرالية والرأسمالية الأمريكية،

ليست المقارنة إلا للذر في العيون، ومحاولة من محاولات التضليل.

أن التجدد الأصولي لا يعود في جزء منه إلى قوة ضغط القيم الليبرالية التي يقدمها الغرب الليبرالي إلى مجتمعات الشرق، بل إن التجدد إنما ينشأ من معرفة المسلم ربه، وقيامه بالدعوة إليه والإنابة إليه، إن نهاية التاريخ عندنا هي قيام الساعة، إن قوة المسلمين لا تستمد من تأثير الفكر الليبرالي و ضغطه، قوة المسلمين تستمد من الدين، والليبرالية هي الانحلال والعلمانية واللا دين، والفرق بين القوة التي تستمد وتؤخذ من الدين، والقوة التي تستمد من اللا دين، كالفرق بين الليل والنهار.

لقد نطق "لويس فيشر" كلمة يائسة فيها مقدارين كبيرين من الشقاء والبؤس، قال: بعض الناس يقض مضاجعهم ما يقترفه العالم الرأسمالي من جرائم وآثام، فيظلون عميا لا يرون جرائم البلشفية وإفلاسها، وكثير منهم يستغلون نقائض العالم الغربي ليصرفوا الانتباه عن فظائع موسكو البشعة، أما أنا فأقول: لعن الله كليهما 3.

أكثر من ذلك فإن بعض أسباب وجود وظهور الفكر الليبرالي في أوروبا والغرب، يرجع

إلى الانحلال والفساد الذي كان يوجد في النظام الكنسي وعند رجال الاكليروس، الذين جعلوا من صكوك الغفران تجارة رابحة يقتات منها أئمة الضلال والكفر، وهو الفساد الذي أدى إلى موجات الإلحاد والمروق من عباءة الكنيسة.

انحطت أخلاق الباباوات انحطاطا كبيرا ، فكانوا يحلون المحرمات ويبيحون المحظورات، ويؤجرون غرف الجنة حسب أهوائهم ، ويبيعون تذاكر الغفران للمذنبين، وأعطت الكنيسة لنفسها حق الفهم الكامل للكتاب المقدس وتفسيره من عندها، وابتدعت العشاء الرباني في الشعائر التعبدية، فمن يأكل خبزا ويشرب خمرا في عيد الفصح، فقد ادخل المسيح في جسده، لأن الخمر يستحيل إلى دم المسيح والخبز يتحول إلى جسده ، أما كيف يتم ذلك فالإجابة أن هذا "سر"، وعلى الأمة قبول هذه الفريضة والإذعان لها وعدم مناقشتها ، ومن يعترض فعاقبته الطرد والحرمان!

وعززت الكنيسة سلطتها الدينية الطاغية، بادعاء حقوق لا يملكها إلا الله، مثل حق الغفران وحق الحرمان وحق التحلة، ولم تتردد في استعمال هذه الحقوق واستغلالها، فحق الغفران أدى إلى المهزلة التاريخية

(صكوك الغفران) وحق الحرمان عقوبة معنوية بالغة، كانت شبحا مخيفا للأفراد والشعوب في آن واحد، فإما الذين تعرضوا له من الأفراد فلا حصر لهم، منهم الملوك أمثال "فريدريك" و"هنري" الرابع الألماني، و"هنري" الثاني الإنجليزي، ورجال الدين المخالفين من "آريوس" حتى "لوثر"، والعلماء والباحثون المخالفون لأراء الكنيسة من "برونو" إلى "ارنست رينان" وأضرابه.

وأما الحرمان الجماعي فقد تعرض له البريطانيون عندما حصل خلاف بين الملك يوحنا ملك الإنجليز وبين البابا، فحرمه البابا وحرم أمته، فعطلت الكنائس من الصلاة، ومنعت عقود الزواج، وحملت الجثث إلى القبور بلا صلاة، وعاش الناس حالة من الهيجان والاضطراب حتى عاد "يوحنا" صاغرا يقر بخطيئته ويطلب الغفران من البابا، ولما رأى البابا ذله وصدق توبته، رفع الحرم عنه وعن الأمة.4

الفساد أدي إلى موجات الإلحاد والمروق من عباءة الكنيسة، الملحدون دعوا إلى تحكيم العقل وأعماله في كل شيء في حياتهم، وأباحوا كل الملذات، ودعوا إلى مصطلحات جديدة، واستبدلوا كلمة "الرب" بكلمة"

السماء" و"الطبيعة" وارجعوا كل شيء إلى الطبيعة وإلى السماء، حتى باتت هذه المصطلحات جزءا من لغتهم العادية، فيقسمون "بحق السماء" ويلعنون ب "عليك لعنة السماء"، وتاهت أوروبا ومفكروها وفلاسفتها في ظلام الإلحاد والكفر.

إن أخلاقيات الملاحدة الجديدة التي ظهرت، تسمى الأخلاق الطبيعية وهي مستقلة عن اللاهوت والفكر الديني المسيحي، فحلت فيها قضية الإخلاص للجنس البشري، محل عبادة الله ومريم والقديسين في العقيدة المسيحية، وكتب" جريم" و" دي هولياخ" و"مايلي" و"سانتا لامبير" كتيبات تفسر (الأخلاق الطبيعية الجديدة) للأطفال، وتحض على الإلحاد، وتدعو إلى حب الذات، وأن كل الملذات مباحة ومسموح بها، كما تدعو هذه الكتيبات إلى إعمال العقل ونبذ المعتقدات اللاهوتية الكنسية، ولكن واجه الفلاسفة مشكلة معلقة مرهقة وهي:

كيف يكتب البقاء لدولة دون ديانة تدعم النظام الاجتماعي وتحفظه من التحلل والفساد؟ وظلت هذه المشكلة التي واجهت فلاسفة الإلحاد، وهي المشكلة التي يعاني منها الفكر الليبرالي الحديث والمجتمعات الغربية الحديثة، معلقة بدون حل حتى وقتنا

الراهن، وقد بدت مظاهر تلك المشكلة تلقي بظلالها على المجتمعات الغربية، وتزداد تفاقما كلما انحسر المد الاستعماري والنهب الاستعماري، والاستغلال الاستعماري للشعوب.5

الأفكار الليبرالية التي يعتز بها "فرانسيس فوكوياما " هي في حد ذاتها أفكار هزيلة بل تافهة، وتتسم بالغموض والضبابية، يقول "جون ديوي" وهو من أبرز ممثلي الحركة التقدمية في علم التربية بالولايات المتحدة الأمريكية :الليبرالية اليوم ليست اكثر من مجرد حالة فكرية، يطلق عليها بغموض اسم التطلع إلى الأمام، دون أن تكون واثقة من الاتجاه الذي تتطلع إليه، أو الأشياء التي ترمي إليها، ولا ريب في أن هذه الحقيقة بالنسبة للكثيرين من الأفراد وبالنسبة لنتائجها الاجتماعية، ليست اقل من مأساة قد لا يحس بها الجماهير تماما، ولكنهم في انجرافهم بدون هدف يظهرون حقيقتها، بينما ينزعج المفكرون منها بصورة واعية، لان الطبيعة الإنسانية لا تمتلك أمرها، إلا اذا وجدت أهدافا تستطيع أن تربط نفسها بها.

ويقول عنها "برتراند رسل": تسمية أقرب إلى الغموض، يستطيع المرء أن يدرك في ثناياها عددا من السمات المتميزة.

ويقول "دونالد سترومبرج": والحق أن كلمة الليبرالية مصطلح عريض وغامض، شأنه في ذلك شأن مصطلح الرومانسية، ولا يزال حتى يومنا هذا على حالة من الغموض والإبهام.

يقول "د. عبد الرحيم بن صمايل السلمي" في كتابه (حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها) :يعتبر مفهوم الليبرالية من المفاهيم الغامضة وغير الواضحة، فقد اخذ أشكالا متعددة ومختلفة، وقد اطلق هذا المصطلح على أفكار متباينة، فقد اطلق على تقييد دور الدولة في الإنتاج، وتنظيم السوق، وحريات الأفراد الشخصية، وبلغت مرحلة التقييد ذروتها بتقييد الدولة من رعاية المواطنين في الصحة والتعليم والضمان الاجتماعي، ودعم السلع الضرورية وغيرها، واعتبر هذا الفكر الليبرالي دور الدولة سلبيا يكتفي "بمنع الإكراه" فحسب، بينما اطلق اسم الليبرالية على فكر ليبرالي مختلف يرى ضرورة تدخل الدولة لدعم الحريات وتنظيم الحياة المدنية، لتحقيق اكبر قدر ممكن من الحرية، ويدخل في ذلك تنظيم السوق، ودعم المواطنين بالضمانات الاجتماعية المختلفة، وكل واحد من هذين الفكرين يطلق على نفسه اسم "الليبرالية"،

ويقوم بنقد الفكر الآخر ويعتبره غير ليبرالي.6

إن التجدد إنما ينشأ من معرفة المسلم ربه، وقيامه بالدعوة إليه، والإنابة إليه. إن قوة المسلمين لا تستمد من تأثير الفكر الليبرالي وضغطه. إن قوة المسلمين تستمد من الدين. إن القوة الإلهية لدى المسلمين هي أضعاف أضعاف ما لدى الدولة من القوة المحسوسة، مع أنه لا يصح المقارنة بينها وبينها، والله هو ذو القوة المتين، ولا شيء يغلبه ويعجزه.

القوة الإلهية هي إعانة الله القوي لعباده المسلمين في كل شيء؛ الإعانة التي يطلبها الفرد المسلم في صلواته الخمس كل يوم، والله يقول في كتابه الكريم: (وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) [غافر:60].

إن معنى القوة الإلهية يتحقق لدى الفرد المسلم الموحد في حياته كلها، في حله وترحاله في حربه وسلمه، إذا توكل عليه وأناب إليه وتاب إليه، واستعان به وحده، ودعاه وحده، ووحده ولم يشرك به شيئا، والله تعالى يقول (إن الله يدافع عن الذين آمنوا إن الله لا يحب كل خوان كفور) [الحج:38].

إن من معاني القوة الإلهية الصبر، فإن قوة الصبر هي نعمة من الله سبحانه وتعالى يمنحها من يشاء من عباده، وبه يتحقق الفلاح، قال الله تعالي: (يا أيها الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطوا واتقوا الله لعلكم تفلحون) [آل عمران :200] وهو يعطي الفرد المنهزم (سواء كانت هزيمة ميدانية أو معنوية) الفرصة في إعادة حساباته وخططه واستراتيجياته، وإعادة الكرة بروح عالية وواثقة، ويعطي معني الإيمان بالقضاء والقدر خيره وشره.

يقول سفر الحوالي في كتابه (المسلمون والحضارة الغربية): إنما العزة في الطاعة والاتباع، والمسلمون بقوة إيمانهم ويقينهم بكل ما ذكر الله، وبطاعتهم لله، يغلبون أعتى الكفار، وليس بالتشبه بهم أو تقليدهم، ورحم الله عمر بن الخطاب حين قال في كتابه لسعد: إنما يغلب المسلمون عدوهم بطاعتهم لله، ومعصية عدوهم له، فإذا استوينا نحن وهم في المعصية، كان لهم الفضل علينا في القوة.

وقد يكون مما يؤنسك في هذا المقام، قول القائد "قتيبة بن مسلم الباهلي" عندما أرسل رجلا يستطلع حال "محمد بن واسع"، عاد

إليه وقال: وجدته رافعا أصبعه يدعو بها. قال قتيبة: أصبعه تلك خير عندي من ثلاثين ألف شاب طرير وسيف شهير.

إن معنى القوة الإلهية لا يخضع لأي توزيع وأنصبة في مفهوم توازن القوى، سواء كانت ضمن التوزيع المتساوي للقوة بين أعضاء المجتمع الدولي، أو توزيعا متساويا بين مجموعة معينة من الدول، أو ضمن توزيع متساوي بين تحالفات دولية، أو ضمن التوزيع غير المتساوي لصالح دولة معينة، وهي من ثم خاصية تنفرد بها الدولة المسلمة، لا يضرها أو ينقص منها في ذلك شيء.

صحيح أن الدولة تحتاج إلى رجال وقوة، ولكن رجال أتقياء موحدين يعرفون الله، وإلى قوة ولكنها في حاجة أعظم إلى القوة الإلهية، إن مشاركة الملائكة القتال مع المسلمين في الميدان في بدر، سواء كانت مشاركة في القتال أو مشاركة بالحضور وليس القتال على اختلاف الروايات، يؤكد معني القوة الإلهية التي ينعم بها الله على عباده المؤمنين، قال الله تعالى:

(ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة

منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) [آل عمران: 123_126].

وقال تعالى: (ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون. إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أنى ممدكم بألف من الملائكة مردفين. وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم. إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام) [الأنفال: 8_11].

الدولة المسلمة التي أنابت إلى ربها وأفردته بالعبودية ووحدته، لا يمكن أن تهزم بأي حال من الأحوال، لا سبيل إلى هزيمتها إلا بتفكيك هذه القوة المتوفرة لديها، وهذه النقطة تحديدا هي التي ينطلق منها أعداء الدين.

وفي ذلك اتخذوا ولا يزالون عدة سبل وطرق:

1_ دعوات العلمانية والإلحاد والليبرالية، وتحكيم العقل والتجريب،

والتخلص من النقل والنصوص، هي جزء من محاولات تفكيك القوة الإسلامية.

2_ تشويه تاريخ الإسلام أو الاستهزاء به بطريقة مواربة غير ظاهرة.

3_محاولات إحياء وتعظيم الحضارات القديمة، مثل الفرعونية والحميرية والآشورية ومحاولة أشغال الفرد بهذه الحضارات بالدرجة التي ربما تصل إلى انقطاع صلته أو قريبا من ذلك بأصوله الإسلامية.

4_محاولات القضاء على التعليم الإسلامي، والمعاهد والمراكز الإسلامية.

5_الدعوة إلى القومية والوطنية والقبيلة.

6_وصف النظام الإسلامي بالاستبدادي والتسلطي.

قال "علي عبد الرازق" في كتابه (الإسلام وأصول الحكم): كما أن تدبير الجيوش الإسلامية وعمارة المدن والثغور ونظام الدواوين لا شأن للدين بها، وإنما يرجع الأمر فيها إلى العقل والتجريب، أو إلى قواعد الحروب أو هندسة المباني وأراء العارفين. لا شيء في الدين يمنع المسلمين أن يسابقوا الأمم

الأخرى في علوم الاجتماع والسياسة كلها، وأن يهدموا ذلك النظام العتيق الذي ذلوا له واستكانوا إليه، وأن يبنوا قواعد ملكهم ونظام حكومتهم على أحدث ما أنتجت العقول البشرية، وامتن ما دلت تجارب الأمم على أنه خير أصول الحكم.7

فأية دعوة علمانية يدعو إليها من هذه أوضح، وأية دعوة إلى الحكم بما تنتجه العقول البشرية وتجارب الأمم أصرح.

قال: إنه لعجب عجيب أن تأخذ بيديك كتاب الله الكريم، وتراجع النظر فيه ما بين فاتحته وسورة الناس، فترى فيه تصريف كل مثل وتفصيل كل شيء من أمر هذا الدين (ما فرطنا في الكتاب من شيء) ثم لا تجد فيه ذكرا لتلك الإمامة العامة أو الخلافة، إن في ذلك لمجالا للمقال.

ليس القرآن وحده هو الذي أهمل تلك الخلافة ولم يتصد لها، بل السنة كالقران أيضا قد تركتها ولم تتعرض لها.8

ولو تأمل "علي عبد الرازق" قول الله تعالى: (ما فرطنا في الكتاب من شيء) لسقط في يده، ولم يتجاوز قد ما في كلامه أو هرطقاته وأباطيله، ولما زعم أن القرآن والسنة تركا الخلافة ولم يتعرضا لها، ولما

تعمد إلقاء التهم والنقائص والعيوب بالدين.

قال: كلما أمعنا تفكيرا في حال القضاء زمن النبي صلى الله عليه وسلم، وفي حال غير القضاء أيضا من أعمال الحكم وأنواع الولاية، وجدنا إبهاما في البحث يتزايد، وخفاء في الأمر يشتد، ثم لا تزال حيرة الفكر تنقلنا من لبس إلى لبس، وتردنا من بحث إلى بحث، إلى أن ينتهي النظر بنا إلى غاية ذلك المجال المشتبه الحائر، وإذا نحن إزاء عويصة أخرى هي كبرى تلكم المعضلات، وهي منشأ ما لقينا من حيرة واضطراب، هي الأصل وما عداها فروع، وهي الأم وما عداها تبع.9

وقال: كان صلى الله عليه وسلم أميا ورسولا إلى الأميين، فما كان يخرج في شيء من حياته الخاصة والعامة، ولا في شريعته عن أصول الأمية، ولا عن مقتضيات السذاجة والفطرة السليمة التي فطر الله الناس عليها، فلعل ذلك الذي رأينا في نظام الحكم أيام النبي صلى الله عليه وسلم، هو النظام الذي تقضي به البساطة الفطرية، ولا ريب في أن كثيرا من نظم الحكم في الوقت الحاضر، إنما هي أوضاع وتكلفات وزخارف طال بنا عهدها، فألفناها حتى تخيلناها من أركان الحكم وأصول

النظام، وهي إذا تأملت ليست من ذلك في شيء. إن هذا الذي يبدو لنا ابهاما أو اضطرابا أو نقصا في نظام الحكومة النبوية لم يكن إلا البساطة بعينها، والفطرة التي لا عيب فيها.10

وقال: معقول أن يؤخذ العالم كله بدين واحد، وان تنتظم البشرية كلها وحدة دينية، فأما اخذ العالم كله بحكومة واحدة وجمعه تحت وحدة سياسية مشتركة، فذلك مما يوشك أن يكون خارجا عن الطبيعة البشرية، ولا تتعلق به إرادة الله.

على أن ذلك إنما هو غرض من الأغراض الدنيوية التي خلى الله سبحانه وتعالى بينها وبين عقولنا، وترك الناس أحرارا في تدبيرها، على ما تهديهم إليه عقولهم وعلومهم ومصالحهم وأهواؤهم ونزعاتهم.11

وقال: وجدنا ذلك، ووجدنا كثيرا غيره، فعلمنا أن الذهاب إلى أن النبي صلى الله عليه وسلم قد بين امر الخلافة من بعده رأي غير وجيه، بل الحق انه صلى الله عليه وسلم ما تعرض لشيء من أمر الحكومة بعده، ولا جاء للمسلمين فيها بشرع يرجعون إليه.12

وقال: إنما كانت ولاية محمد صلى الله عليه وسلم على المؤمنين ولاية الرسالة، غير

مشوبة بشيء من الحكم، هيهات هيهات لم يكن ثمة حكومة ولا دولة ولا شيء من نزعات السياسة، ولا أغراض الملوك والأمراء.13

وهو كلام خطير في معناه، لأنه مصادم لآيات الله البينات، قال الله تعالى :(إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله) [النساء :105].

وما أقرب قول "علي عبد الرازق" مما قاله "كرومر": الإسلام ناجح كدين ولكنه فاشل كنظام اجتماعي. شنشنة أعرفها من اخزم، والحق أن الإسلام علم الناس كل شيء حتى قضاء الحاجة.

انه لا معنى للدين أصلا اذا هو تخلى عن تنظيم الحياة الواقعية، بتصوراته الخاصة ومفاهيمه الخاصة وشرائعه الخاصة وتوجيهاته الخاصة، فهذه الحياة الإنسانية لابد أن يقوم نظامها الأساسي على قاعدة التصور الاعتقادي، الذي يفسر حقيقة الوجود وعلاقته بخالقه، ومركز الإنسان فيه وغاية وجوده الإنساني، ونوع الارتباطات التي تحقق هذه الغاية، سواء الارتباطات بين الإنسان وربه، أو الارتباطات بين الإنسان والكون من حوله، أو الارتباطات بين الإنسان وسائر الأحياء، أو الارتباطات بين بني الإنسان كما يرتضيها الله

لعباده، والا يجيء هذا التفسير الشامل الكامل من عند الله، فهي إذن أهواء البشر، وهي إذن "الجاهلية" التي جاء كل دين من عند الله لإخراج الناس منها، ورفعهم إلى "الربانية".14

ودعا "طه حسين" إلى الالتزام بحكم أوروبا والسير بسيرتها: بل نحن قد خطونا خطوات ابعد جدا مما ذكرت، فالتزمنا أمام أوروبا أن نذهب مذهبها في الحكم، ونسير سيرتها في الإدارة، ونسلك طريقها في التشريع، التزمنا هذا كله أمام أوروبا، وهل كان إمضاء معاهدة الاستقلال ومعاهدة الغاء الامتيازات، إلا التزاما صريحا قاطعا أمام العالم المتحضر بأننا سنسير سيرة الأوروبيين في الحكم والإدارة والتشريع؟ فلو أننا هممنا الآن أن نعود أدراجنا وان نحيي النظم العتيقة، لما وجدنا إلى ذلك سبيلا، ولوجدنا أمامنا عقابا لا تجتاز ولا تذلل، عقابا نقيمها نحن لأننا حراص على التقدم والرقي، وعقابا تقيمها أوروبا، لأننا عاهدنا على أن نسايرها ونجاريها في طريق الحضارة الحديثة.15

واستهزاء ممن زعم أن الحضارة الأوروبية مادية المظاهر، وأنها نتيجة العقل لا حظ للروح فيها، واصفا ذلك بالجهل: إن بين

المصريين خاصة والشرقيين عامة قوما يملؤون به أفواههم، ويجرون به أقلامهم؟ ويلقون به في نفوس الشباب فلا يلقون فيها إلا سما زعاف، من الحق أن الحضارة الأوروبية عظيمة الحظ من المادية، ولكن من الكلام الفارغ والسخف الذي لا يقف عنده عاقل، أن يقال إنها قليلة الحظ من هذه المعاني السامية التي تغذو الأرواح والقلوب، من الحق أن الحضارة الأوروبية مادية المظاهر، وقد نجحت من هذه الناحية نجاحا باهرا فوفقت إلى العلم الحديث ثم إلى الفنون التطبيقية الحديثة، ثم إلى هذه المخترعات التي غيرت وجه الأرض وحياة الإنسان، ولكن من أجهل الجهل واخطأ الخطأ أن يقال: أن هذه الحضارة المادية قد صدرت عن المادة الخالصة، إنها نتيجة العقل، إنها نتيجة الخيال، إنها نتيجة الروح، إنها نتيجة الروح الخصب المنتج، نتيجة الروح الحي الذي يتصل بالعقل فيغذوه وينميه ويدفعه إلى التفكير، ثم إلى الإنتاج ثم إلى استغلال الإنتاج، لا نتيجة هذا الروح العاكف على نفسه الفارغ لها، الفاني فيها، الذي تفسد الأثرة عليه أمره فلا ينفع ولا ينتفع، ولا يفيد ولا يستفيد. 16

وممن نادى بالعلمانية عبد الرحمن الكواكبي، يقول في (طبائع الاستبداد) :يا قوم واعني بكم الناطقين بالضاد من غير المسلمين، ادعوكم إلى تناسي الإساءات والأحقاد، وما جناه الآباء والأجداد، فقد كفى ما فعل ذلك على أيدي المثيرين، وأجلكم من لا تهتدوا لوسائل الاتحاد وانتم المتنورون السابقون، فهذه أمم أوستريا وأمريكا قد هداها العلم لطرائق شتى للاتحاد الوطني دون الديني، والوفاق الجنسي دون المذهبي، والارتباط السياسي دون الإداري، فما بالنا نحن لا نفتكر في أن نتبع احدى تلك الطرائق أو شبهها، يقول عقلاؤنا لمثيري الشحناء من الأعاجم والأجانب :دعونا يا هؤلاء نحن ندبر شأننا، نتفاهم بالفصحاء، ونتراحم بالإخاء، ونتواسى في الضراء ونتساوى في السراء ، دعونا ندبر حياتنا الدنيا ونجعل الأديان تحكم الأخرى فقط، دعونا نجتمع على كلمات سواء ألا وهي: فلتحيا الأمة، فليحيا الوطن، فلنحيا طلقاء أعزاء.17

وأنا ما ذكرت ما ذكرت إلا للتوضيح والإشارة، وإلا فغير ذلك من الدعوات والأفكار التي تخطط للنيل من الدين واجتثاث أصوله، وتفكيكك قوته، الكثير.

إن غاية السلطة في الإسلام ليست السلطة المطلقة، أو إقامة الأنظمة الاستبدادية، ولكن غايتها إقامة حدود الله، وتطبيق شرائعه، وأن يقوم الناس بالعدل، إن الملك المطلق لله رب العالمين، يقول الله تعالى :(الحمد لله رب العالمين. الرحمن الرحيم. مالك يوم الدين) [الفاتحة: 4_2]. ويقول تعالى :(قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) [آل عمران:26].

أما أن تكون السلطة غاية في ذاتها والاستبداد مقصدا، فهذا مما لا يكون إلا عند غير الأسوياء، وفي غير ملة الإسلام.

"جورج اورويل" يقول في روايته (1984): إن مصالح الآخرين لا تعنينا في شيء، فكل همنا محصور في السلطة، نحن لا نسعي وراء الثروة ولا الرفاهية ولا العمر المديد ولا السعادة، وإنما نسعى وراء السلطة، والسلطة المطلقة فقط، ولسوف تفهم عما قريب ماذا نعني بالسلطة المطلقة؛ إننا نختلف عن الأشكال الكثيرة من حكم القلة التي وجدت في الماضي، لجهة أننا نعرف ما نفعل، أما الآخرون بمن فيهم هؤلاء الذين كانوا

يشبهوننا، فكانوا جبناء ومرائين، لقد بلغ النازيون الالمان والشيوعيون الروس حدا جعلهم جد قريبين منا في مناهجهم، لكنهم لم يمتلكوا من الشجاعة ما يكفي للاعتراف بدوافعهم، لقد كانوا ادعوا بل ربما اعتقدوا انهم بلغوا السلطة وهم لها كارهون، وأنهم لن يمكثوا فيها إلا لأجل محدود، وأنه لم يعد يفصلهم شيء عن الفردوس الموعود الذي يحيا فيه الناس أحرارا متساوين ، إننا لا نشبه هؤلاء، إننا ندرك أنه ما من أحد يمسك بزمام السلطة، وهو ينتوي التخلي عنها، إن السلطة ليست وسيلة بل غاية، فالمرء لا يقيم حكما استبداديا لحماية الثورة، وإنما يشعل الثورة لإقامة حكم استبدادي، إن الهدف من الاضطهاد هو الاضطهاد، والهدف من التعذيب هو التعذيب، وغاية السلطة هي السلطة، هل بدأت تفهم ما أقول الآن؟ 18

وقد كفانا "اورويل" بكلماته، مشقة إيضاح نفوس غير الأسوياء الملتاثين.

الاستراتيجية الإسرائيلية لتفكيك القوة الإسلامية

على مدى تاريخها الأسود، قتلت قوات الاحتلال الغاشم الكثير من الفلسطينيين، وأصابت الآلاف بالذخائر الحية والرصاص المطاطي والغاز.

الجرائم التي ارتكبتها دولة الاحتلال الغاشم في فلسطين في حقيقة الأمر أكثر من ذلك، حيث تقوم قواتها البربرية بإصابة وقتل المدنيين من النساء والأطفال، وقتل الإعلاميين وقتل الكوادر الطبية، بل إن إجرام الاحتلال وصل إلى قتل ذوي الاحتياجات الخاصة والمعوقين!

من وجهة نظر القانون الدولي، فإن الاتفاقات الدولية منحت حق الحماية للمتظاهرين السلميين والنساء والأطفال ولذوي الاحتياجات الخاصة والمعوقين، كما نص على ذلك إعلان الأمم المتحدة الذي أكد على ضرورة توفير حماية خاصة لهم (ينص إعلان الأمم المتحدة في المادة 58 من البروتوكول الإضافي الأول، أن الاعتداء على أشخاص عاجزين عن القتال يعتبر جريمة حرب).

لم تلتزم دولة الاحتلال (وهو أمر متصور ومتوقع) باحترام وتطبيق أحكام اتفاقيات

جنيف الأربعة لعام 1949 بالرغم من أنها صادقت عليها، أو أحكام النظام الأساسي لمحكمة الجنائيات الدولية، وقانون لاهاي والإعلان العالمي لحقوق الإنسان، واتفاقيات مناهضة الجرائم الدولية، واتفاقيات حظر الأسلحة المحرمة دوليا، واتفاقيات حقوق المرأة والطفل.

ما تقوم به دولة الاحتلال هو انتهاك بكل المعايير للمواثيق والاتفاقيات والأعراف الدولية، التي تقرر مبدأ الحماية الدولية للمدنيين، ليس ذلك وحسب بل أنها في فعل مجرم أيضا كانت تثمن بلاء قوتها والاحتراف الذي بلغته، وهو ما يؤكده "افيغدور ليبرمان" الذي يقول: إن جنودنا احترفوا قتل المتظاهرين على الحدود الشرقية في قطاع غزة!

لم يكن معني الحماية التي تعرف في فقه القانون الدولي بأنها الإجراءات التي تتخذها الهيئات الدولية إزاء دولة ما للتأكد من مدى التزامها بتنفيذ ما تعهدت والتزمت به في الاتفاقات الدولية لحقوق الإنسان، والكشف عن انتهاكاتها، ووضع مقترحات أو اتخاذ إجراءات لمنع هذه الانتهاكات، لم يكن هذا المعني موجودا، ولم

تتخذ الهيئات الدولية أية إجراءات لمنع المخالفات والانتهاكات ضد دولة الاحتلال.

مع هذا فإن دولة الاحتلال (فيما هو منظور) تعتبر أنها بلغت من القوة العسكرية والتقنية، ما يمنع معها الالتزام بأية قوانين أو أعراف أو مواثيق دولية، وهي من ثم غير معنية بالتقيد أو الالتزام بقانون أو ميثاق، غير أن عدم إنفاذ دولة الاحتلال للقوانين الدولية الذي تعتبره هي من القوة التي بلغتها (مع أن الواقع يؤكد أن قطاع غزة يمثل صداعا مزمنا لها وألما موجعا في خاصرتها، وهي الحقيقة التي يزيد من مضمونها المرابطون في قطاع غزة) يشير من ناحية ثانية إلى الضعف الذي يعتري المنظومة الدولية، التي لا تستطيع إنفاذ مبدأ الحماية الدولية، للمتظاهرين السلميين والنساء والأطفال والمعوقين! أو اتخاذ أي إجراء دولي ضد هذه القوة المتمردة على القوانين والأعراف، والتي تفرض وجودها وطبيعتها الإجرامية والسارقة بقوة النيران!

يمكن مقاربة ذلك بأمرين إثنين: أولا هو حجم التعامل أو بالأحرى التواطؤ الكبير مع دولة الاحتلال، حيث ترتبط العديد من الدول الموقعة على الاتفاقيات والمواثيق الدولية

مع الولايات المتحدة ودولة الاحتلال، بمصالح وأهداف مشتركة في المنطقة، وهو ما يجعلها تتغاضى وتتعامى عن جرائم ودموية الاحتلال، حتى وإن كانت توقن بعدم شرعية الاحتلال ودمويته.

الأمر الثاني هو لغة التهديد والترهيب وسياسة رفع العصا، التي تستخدمها الولايات المتحدة (باعتبارها قوة عظمى) بتوقيع وإنزال العقوبات الاقتصادية أو العسكرية، ضد أية دولة في المجتمع الدولي يمكن من شأنها أن تهدد أو تمس الأمن القومي لدولة الاحتلال، ليس قوة التهديد والترهيب فقط هو ما تستخدمه الولايات المتحدة الأمريكية ضد أي تصرف أو إدانة لإسرائيل ولكنها تستخدم "حق النقض" أو "الفيتو" باعتباره سيفا ماضيا فوق رقاب الجميع، تعرقل به أي مشروع قرار أو قرار إدانة، والعقود السبع من عمر الاحتلال الغاشم تنطق بذلك!

إن مخططا كبيرا تم الفراغ منه من إسرائيل والولايات المتحدة، لإغراق المنطقة العربية بالحروب المذهبية والتوسعية والانفصالية، لإضعاف وتفكيك القوة العربية، إن صفقة السلاح الكبيرة التي تم إبرامها في قصر اليمامة بين الملك" سلمان "وضيفه"

ترامب" إنما هي في واقع الأمر فخ نصبته إسرائيل للمملكة حتى تغرق في مستنقع جديد، إن صهر "ترامب" وهو "كوشنر" (اليهودي الديانة) سهل الكثير في إبرام تلك الصفقة بما فيه اتصاله بالشركة الأمريكية للأسلحة لوكهيد مارتين، حتى يضمن تخفيضا في قيمة الأسلحة خاصة منظومة الرادارات المتطورة، وهو ما وافقت عليه الشركة بالفعل.

إن تنصيب "بريمر" حاكما عاما على العراق؛ يفيد أن الرسالة التي من أجلها استخدمت القوة المفرطة قد وصلت إلى نهايتها ومبتغاها، وهو تأمين إسرائيل من محور وعمود من أعمدة الشر (كما تصف الولايات المتحدة العراق) الذي يقض مضاجعها. وقد نطق بذلك صراحة السيناتور الأمريكي "إرنست ف. هولينغز": يتساءل الناس لماذا ذهبنا إلى العراق، وما السبيل للخروج من هناك.. لقد اعترف الرئيس "بوش" نفسه بأن "صدام حسين" لم يكن له علاقة بهجمات الحادي عشر من أيلول/سبتمبر.. وطبعا لا يوجد في العراق أسلحة دمار شامل، إن جهاز الاستخبارات الإسرائيلي الموساد يعرف ما يجري في العراق. انهم الأفضل، إنه يتحتم عليهم أن يعرفوا ما يحدث هناك، لأن بقاء

إسرائيل يعتمد على ذلك، ولو كانت هناك أسلحة دمار شامل في العراق أو لو أنها نقلت إلى مكان آخر، لقادتنا إسرائيل إلى مكان وجودها، وإذا كان العراق لا يشكل خطرا على الولايات المتحدة، فلماذا إذن احتلال دولة ذات سيادة؟ الجواب هو: سياسة الرئيس "بوش" في حماية وتعزيز أمن إسرائيل.19

يقول "مايكل كولينز بايبر" في (كهنة الحرب الكبار):

إن الحرب على العراق وما يتبعها من خطوات اتخذتها الولايات المتحدة ضد الدول العربية، التي لم تتجاوب تماما مع الرغبات الأمريكية، تعود في جذورها إلى التغلغل الصهيوني في المستويات العليا في مؤسسات الاستخبارات الأمريكية، والتي بدأت منذ السبعينات من القرن الماضي.20

ليس هذا وحسب، بل إن واشنطن ولندن ابتدعتا صفة "المروق" وخلعتاها على العراق ليسهل بعد ذلك تقطيعه ومسحه، يقول "نعوم تشومسكي": في نيسان 1998 أعلنت واشنطن ولندن أن العراق (دولة مارقة) تشكل تهديدا لجيرانها وللعالم بأسره، وأنها (دولة خارجة عن القانون) يقودها متقمص ل "هتلر"، ينبغي أن يحتويه حراس النظام العالمي:

الولايات المتحدة و(شريكتها الأصغر)، هذا إذا تبنينا المصطلح الذي استخدمته بشكل يرثى له وزارة الخارجية البريطانية منذ نصف قرن.21

من المفيد هنا أن أوضح أن الدول المارقة أو محور الشر، هو مصطلح وتعريف قامت بوضعه الولايات المتحدة لتحديد وتصنيف الدول التي لا تلتزم بمعاهدة حظر انتشار السلاح النووي، والتي هي من ثم تشكل خطرا علي الأمن والسلم الدوليين اللذين لا تقبل التفريط فيهما الولايات المتحدة والأمم المتحدة، ومع ذلك فإن الولايات المتحدة ذاتها تغض الطرف عن الأسلحة النووية التي تنتجها المفاعلات النووية في إسرائيل على سبيل المثال، وهذه هي السياسة المزدوجة التي تتبناها، والتي تأخذ بها بعض الدول بالشدة والقهر، وربما بالتدمير الكامل.

إن الجهاد ضد أي دول باغية يعتبر من أعظم الوسائل لحفظ الدين، يقول "محمد سعد بن أحمد اليوبي" في كتاب (مقاصد الشريعة الإسلامية):

من أعظم وسائل حفظ الدين الجهاد في سبيل الله، وذلك لأن الدعوة إلى هذا الدين لن تقابل بالقبول من كل الناس، بل سيقابلها بعضهم

بالرفض والجحود والإنكار، ويبقون حجر عثرة في طريقها وحاجزا قويا يمنع غيرهم من الدخول فيها، وسدا منيعا من إيصال مفهومها إلى الآخرين، وعقبة كؤودا لا يستطيع أن يتجاوزها الراغبون في هذا الدين. ولن يقف الامر عند هذا الحد الذي يعتبر تحجيما للدين، وقصرا لظله على فئة معينة، ومنطقة محدودة، وتضييقا عليه ومنعا له من الانتشار وصفة الشمول والعالمية التي هي من لب طبيعته، ومن أهم خصائصه.

لن يقف الامر عند ذلك بل سيتعدى إلى أعظم من هذا، وهو التسلط على المؤمنين به ومحاربتهم.

لذا كان لا بد من الجهاد في سبيل الله، حماية للدين وإنقاذا للمستضعفين، وتحطيما للحواجز التي تقف في طريق الدين، ليصل إلى الناس أجمعين، وإخراجا للناس من عبادة العباد إلى عبادة رب العالمين.22

تحكيم العقل والجاهلية

وهذا الدين دعا إلى الدولة القوية، وإلى المؤمن القوي، وإلى الأخذ بأسباب القوة. المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كل خير، وقد قال الله تعالى: (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن

رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم) [الأنفال:60]، وعن يحي بن سعيد أنه بلغه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يدعو فيقول: "اللهم فالق الإصباح وجاعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا، اقض عني الدين وأغنني من الفقر، وأمتعني بسمعي وبصري وقوتي في سبيلك".23

إن الإسلام دين متكامل يدعو إلى خير الدنيا والآخرة، قال الله تعالى: (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما أحسن الله إليك ولا تبغ الفساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين) [القصص:77].

يقول "سيد قطب": "هذا الدين (بهذا الاعتبار) ليس مجرد عقيدة وجدانية منعزلة عن واقع الحياة البشرية، في كل مجالاتها الواقعية (إن صح أن هناك دينا الهيا يمكن أن يكون مجرد عقيدة وجدانية منعزلة عن واقع الحياة البشرية) وليس مجرد شعائر تعبدية، يؤديها المؤمنون بهذا الدين فرادى أو مجتمعين، فتكون لهم صفة هذا الدين وليس مجرد طريق إلى الأخرة لتحقيق الفردوس الاخروي، بينما هناك طريق آخر أو طرق أخرى

لتحقيق الفردوس الأرضي غير منهج الدين، وغير نظم وتنظيمات الدين.

وهذا الدين من الوضوح في هذا المعنى (ومن العمق والقوة كذلك) بحيث يبدو أن ليس هنالك أمل في نجاح أية محاولة لتصويره في صورة العقيدة الوجدانية المنعزلة عن واقع الحياة البشرية، والتي لا علاقة لها بتنظيمات الحياة الواقعية وتشكيلاتها وأجهزتها العملية، أو العقيدة التي تعد الناس فردوس الآخرة إذا هم أدوا شعائرها وعبادتها دون أن يحققوا (في واقع مجتمعهم) أنظمتها وشرائعها، وأوضاعها المتميزة المتفردة الخاصة! فهذا الدين ليس هذا ولم يكن هذا، ولا يمكن أن يكون هذا. ربما استطاعت أية نحلة في الأرض تزعم لنفسها أنها (دين)ويزعم لها أهلها أنها (دين) أن تكون كذلك! أما (هذا الدين) فلا، ثم لا، ثم لا.24

إن البشرية إذا حكمت عقلها وعبدت رأيها وألهت عقلها وتجاربها، فإنها لا محالة تمضي إلى الضياع والاضطراب والهلاك، لأن العقل يعتريه الضعف، والنفس يصيبها الهوى والشهوات والأطماع، إن عبادة الله سبحانه وتعالى وإخلاص العبادة له على طريقة النبي صلى الله عليه وسلم، هي المنقذ الوحيد للبشر

من الضياع والهلاك، وهي الطريق الوحيد إلى نعيم الدنيا والآخرة.

إن البشرية قد تمضي في اعتساف تجارب متنوعة هنا وهناك (كما هي الآن ماضية في الشرق وفي الغرب سواء) ولكننا نحن مطمئنون إلى نهاية هذه التجارب، واثقون من الأمر في نهاية المطاف.

إن هذه التجارب كلها تدور في حلقة مفرغة، وداخل هذه الحلقة لا تتعداها _حلقة التصور البشري، والتجربة البشرية، والخبرة البشرية المشوبة بالجهل والنقص والضعف والهوى_ في حين يحتاج الخلاص إلى الخروج من هذه الحلقة المفرغة، وبدء تجربة جديدة أصيلة، تقوم على قاعدة مختلفة كل الاختلاف: قاعدة المنهج الرباني الصادر عن علم (بدل الجهل) وكمال (بدل النقص) وقدرة (بدل الضعف) وحكمة (بدل الهوى).. القائم على أساس: إخراج البشر من عبادة العباد، إلى عبادة الله وحده دون سواه .25

إن تحكيم العقل والتجريب، وتأليه الأنظمة الوضعية، وعبادة الأفكار التي يصوغها البشر، هي التي جرت على البشرية كل أنواع الحروب والظلم، والتأخير والرجعية والضياع، وهي جاهلية نهى الله عنها، قال الله

تعالى: (أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) [المائدة:50]، (قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون) [الزمر:64].

ومن أسباب هذه الجاهلية أو هذا الانحراف العقائدي:

1_تقليد الآباء والأقدمين: وهي صفة موجودة في الوقت الحاضر، كما هي موجودة في الوقت الغابر. قال الله تعالى: (قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين) [الأعراف:70]، (قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد) [هود:87]، (وإذا قيل لهم اتبعوا ما انزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباؤنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير) [لقمان:21].

2_الجحود والإنكار: فيرفض الحق ويتبع الباطل، قال تعالى (وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين) [النمل: 14] ، (وكذلك أنزلنا إليك الكتاب فالذين آتيناهم الكتاب يؤمنون

به ومن هؤلاء من يؤمن به وما يجحد بآياتنا إلا الكافرون) [العنكبوت47].

3_إتباع الهوى والشيطان: قال الله تعالى: (وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم) [إبراهيم: 22]، (وجدتها وقومها يسجدون للشمس من دون الله وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن السبيل فهم لا يهتدون) [النمل:24].

ونحن نسمي هذه النظم التي يتعبد الناس فيها (كما يسميها الله سبحانه) نظما جاهلية، مهما تعددت أشكالها وبيئاتها وأزمانها، فهي قائمة على ذات الأساس الذي جاء هذا الدين (يوم جاء) ليحطمه وليحرر البشر منه، وليقيم في الأرض ألوهية واحدة للناس، وليطلقهم من عبادة العباد، إلى عبادة الله وحده، بالمعنى الواسع الشامل لمفهوم (العبادة)ومفهوم (الإله) ومفهوم (الرب)، ومفهوم (الدين).

لقد جاء هذا الدين ليلغي عبودية البشر للبشر في كل صورة من الصور، وليوحد

العبودية لله في الأرض، كما أنها عبودية واحدة لله في هذا الكون العريض.

(أفغير دين الله يبغون وله أسلم من في السماوات والأرض طوعا وكرها وإليه يرجعون) [آل عمران:83]. 26

ومن خصائص هذا الدين الذي ارتضاه الله تعالى للبشر الدوام للأبد، والفعالية الممتدة، فهو صالح لكل الأزمنة والأمكنة، وهو منهج متكامل لصلاح الدنيا والدين، ومن ابتغي الهدى في غيره أضله الله، ولئن اجتمعت الأنس والجن على أن يأتوا بمثله لا يأتون بمثله، قال الله تعالى :(قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا) [الإسراء :88].

الحروب الدعائية

إذا كانت الحرب هي المكر والدهاء والخديعة، فإن الأطراف المتحاربة تستخدم هذه المفردات وربما وسائل أخرى عديدة لتحقيق النصر وإحرازه، وإلحاق الهزائم الماحقة بالخصوم.

كثيرون من تحدثوا عن الحروب وو سائلها مثل "صن تسو" الذي ألف كتاب (فن الحرب)،

و"نيقولا مكيافيللي" الإيطالي الذي كتب أيضا (فن الحرب) و(الأمير)والأخير يعتبر أسوأ كتاب عرفه البشر لما يحتويه من مفاهيم ومناهج تبيح التحلل من الالتزام بالأخلاق والإنسانية، وان للحاكم الحق في اتخاذ أي طريق مشروع أو غير مشروع، لاكتساب مصالحه وبسط هيمنته وسيطرته!

غير أن الحروب سواء كانت ضد أعداء ومنافسين ظاهرين أو ضد أفكار ومناهج، ربما تتخذ مناحي أخرى فلا تستلزم حشد الآليات وإعداد الجيوش، والدخول في مواجهات ومنازلات مباشرة مع الطرف الآخر، بمعنى انه ربما يستخدم الطرف الأول وسائل وسبل أخرى غير اللجوء للقوة الفجة، أو بالترافق معها، وهذه الوسائل من شأنها أن تحجم أو تقلص أو تجمد حدود دائرة الطرف الثاني، وتمنعه بذلك التحجيم أو الاحتواء، من التمدد والاتساع أو الزيادة.

واحدة من هذه الوسائل هي الحروب الإعلامية أو النفسية أو الدعائية، التي تنطوي على توجيه مجهود دعائي وادعائي كبير يصب في وضع الطرف الآخر في موضع جديد، وهو موضع الشك والاهتزاز، أو موضع المعتدي أو الباغي، أو الظالم، بما يكون محصلته لدى

المتلقين (إن هم صدقوا ذلك) أن الآخر هو بالفعل معتد أثيم وظالم باغ.

وليس بالضرورة أن يكون هؤلاء المتلقين المصدقين فئة كثيرة، لأنه حتى وان كانوا قلة قليلة، فإن ذلك يزيد من رصيد الطرف الأول بقدر ما هو نقصان من المؤيدين أو الموقنين والمقتنعين بأهمية وشرعية الثاني.

اكثر الوسائل شيوعا واستخداما، هي الصاق التهم، التي يتم تركيبها باحتراف كبير، ثم تكرار هذه التهم المركبة ليس على مدى شهر أو اثنين ولكن على مدى سنوات عديدة، وهذا هو الأهم (في تقديرهم) لأنه من ناحية مفاهيمية؛ تكرار الاتهامات الكاذبة أو الباطلة، يساعد في تكوين وترسيخ صورة شائهه ومزيفة لدى الأفراد المتلقين، بعضهم أن لم يكن كلهم، على الأقل هذا البعض أو هذه القلة التي ترسخت وتكونت لديها الصورة الخاطئة أو الشائهة، تعتبر في حد ذاتها مكسبا وإنجازا كبيرا للطرف الأول، ما كان ليجده أو يكتسبه مالم يستخدم أو يتحرى الكذب، وهذه ربما تكون وسيلة ميكافيللية وان كان في ظاهر الأمر أن الطرف

الأول ابعد ما يكون عن الكذب، وعن استخدام قاعدة الغاية تبرر الوسيلة.

وإذا زادت دائرة التصديق بالتهم أو الأخبار أو الأفعال أو الأقوال الملصقة والمركبة، فإن هذا من شأنه أن يساعد في اكتمال دائرة العزل أو الاحتواء أو التحجيم المرسومة من الطرف الأول.

إضافة يمكن القول إن هذه الوسائل تعتبر أن التضليل والنفاق والتلبيس، هي مفردات أساسية، وبهذا الاعتبار فإن الطرف الأول يحتاج إلى مقدرات كبيرة ومتميزة (مادية وبشرية) في خلط الحق بالباطل، والحقيقة بالوهم ومزج الصحيح بالغث الكثير، حتى يتم تصديق ذلك كله بدرجات ونسب كبيرة. ذلك كله يمكن أن يحدث بين دولتين أو أكثر، وليس ما يمنع حدوثه حتى في حدود الدولة الواحدة.

والواقع أن هذه الوسائل وربما غيرها هي مثال يبرهن على مقدرة الدولة أو الأفراد ليس في توصيل صورة مختلفة تماما عن الطرف الآخر، بل في المحاولة التي تتسم بالجدية والاستماتة في إقناع المتلقين بفظاعة الطرف الآخر، ونزع هالة الأخلاق والفضيلة عنه، بغرض إحاطته بعازل معنوي ونفسي عن محيطه.

الوسائل التي يستخدمها المحاربون للمد الديني المجدد مثلا، ربما تكون متشابهة في كثير من النواحي، عندما تعجز الحيلة ويفتقد المنطق وتغيب الحجة ويضيع الدليل، قال أحدهم: أن منطقة نجد مكان في غاية الغرابة، فهي منطقة لم تنتج خلال تاريخها أي فيلسوف أو موسيقي أو مصور أو نحات، أو مفكر أو مصمم هندسي أو طبيب أو عالم في أي منحى من مناحي العلوم التطبيقية أو الاجتماعية، الشكل الفني الوحيد الذي أفرزته هذه المنطقة العاقر هو الشعر.

مع هذا فإن هذا المد الديني يدعو إلى التوحيد الخالص لله جل وعز، وعدم تقديس وتعظيم الصالحين الذين انتقلوا للدار الآخرة، صحيح أنه لا أحد ينكر وجود الصالحين أو الأولياء أو الأتقياء، بل أن درجات الصلاح والتقوى والإخلاص هي مطلب أي فرد، إلا أن تعظيم الصالحين والغلو فيهم والتبرك بهم يؤدي إلى الشرك، والله تعالى يقول: (تبارك الذي بيده الملك وهو على كل شيء قدير) [الملك: 1].

ومن الشرك الاستغاثة بغير الله سبحانه وتعالى، فإن الاستغاثة التي هي حقيقة اللجوء لله سبحانه وتعالى وطلب العون منه

وحده، هي من ركائز التوحيد التي لا ينبغي صرفها وتوجيهها لأي فرد، لا لولي صالح أو رسول مرسل، أو ملك مقرب، وهي من ثم عبادة لا توجه إلا إلى الله سبحانه وتعالى القوي العظيم.

والأمر على ما قد عرفت فإنه يصدق ما قد بينا على الدعوة الوهابية كمثال، التي تدعو إلى التوحيد الخالص لله رب العالمين كما يصدق على أكثر الجماعات الإسلامية تضررا وتأذيا من هذه الحروب وهم الإخوان المسلمين. والإخوان المسلمين هي أيضا دعوة مجددة، تلتقي مع الوهابية في ذات الهدف، وهي جماعة منصرفة إلى السياسة وذات اهتمام بالدعوة، وكان الاوجب أن تكون جماعة دعوية ذات اهتمام بالسياسة، لما لديهم من فضل في نصرة دين الله، ومما يحمد لها أنها حذرت الأمة من المد اليساري، والأفكار التي انتقلت إلينا من الغرب (أوروبا والولايات المتحدة) مثل الشيوعية والاشتراكية والقومية وغيرها.

بعض مظاهر الضعف الذي يصيب الفرد والدولة

إذا ذهبنا نستقصي مظاهر وأشكال الضعف الذي يصيب الفرد والدولة سيطول الباب ويتوسع الكتاب، لكن سأكتفي بذكر بعضها، يكون مقياسا لغيرها وكفاية عنها أن شاء الله تعالى:

1_ الأمراض والأوبئة

المرض يقعد الفرد عن الحركة والإنتاج، ويسلبه قوته كاملة وهو ضعف لا يستطيع الفرد له ردا إلا إذا أخذ بأسباب العلاج والدواء، وهذا الضعف تتسبب فيه مسببات لا تري بالعين، ومع ذلك فإنها تهلكه وتسلب روحه.

وتؤثر الأمراض والأوبئة في اقتصاد الدولة، فينخفض الناتج القومي، وتقل الصادرات تبعا لحالات الأوبئة والأمراض التي تجتاح الدولة، لان الفرد العامل والقوة العاملة في حالة ضعف وعجز.

وهو في حد ذاته سلاح مميت، تستخدمه دول الشر في إزهاق الأرواح باستخدام الأسلحة البيولوجية والكيمائية، والغازات المميتة مثل غاز الخردل وغاز الأعصاب، ورغم أنها أسلحة محرمة دوليا في المواثيق الدولية،

فإنها تستخدم كما لو كانت غير محرمة، أو أنها كتبت بلغة الطير ومنطقه في تلك المواثيق، وقد ضربت إسرائيل الفلسطينيين الأبرياء بهذه الغازات والمحرمات ولا تزال، واستخدمها "بشار الأسد" والروس ضد المعارضة السورية والأبرياء، والمدنيين العزل والنساء والأطفال، فحصدتهم حصدا مفزعا في مناظر يشيب لها الولدان.

إن حالة المرض والوباء الذي يصيب الفرد ويضرب الدولة، هو من المسببات الرئيسة لصفة الضعف في كليهما، إن وباء الكورونا الأخير الذي اجتاح العالم هو مثال واضح لعدو لا تراه العين، ومع هذا فقد حصد من الأرواح عددا كبيرا، إلى الحد الذي لم يتحمل فيه وزير الاقتصاد الألماني هذه المصيبة، وهو يرى الموت يتخطف أهله وعشيرته من كل جانب، والاقتصاد الألماني يتردى إلى انحطاط لم يسبقه انحطاط، فوضع حدا لحياته بأن أقدم على الانتحار تحت عجلات القطار وبئس المصير!

الوباء الذي اجتاح العالم؛ لم يجد له الأطباء (على سعة علمهم واقتدارهم) عقارا يثبطه أو يوقف نموه، فاجتمع الأطباء والعلماء في العالم اجمع من أقصاه إلى

أقصاه، على عجز وحيرة لم يألفوها أو يشاهدوا مثلها، وهم يرون الموت يدخل ألمانيا، فينتزع أرواح ألف نفس في اليوم والليلة، ويدخل إيطاليا فينتزع ألف نفس أو ألفين في اليوم والليلة، ويقتحم الولايات المتحدة وفرنسا وروسيا، وإسبانيا وإسرائيل فينتزع أرواحهم، ورأيت بعيني مستشارا بريطانيا يفر من مباني البرلمان، بعد إعلان إصابة رئيس الوزراء "بوريس جونسون" فر المستشار مذعورا خارج مباني البرلمان لا يلوي على شيء، وتذكرت قول الله سبحانه وتعالى :(قل إن الموت الذي تفرون منه فانه ملاقيكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون)[الجمعة:8].

ولعل الله عاقب هؤلاء القتلة وانتقم منهم شر انتقام، والجزاء من جنس العمل، وما يظلم ربك أحدا، فقد انتقم الله للمسلمين الأبرياء في ميانمار وأفغانستان، وفلسطين وسوريا والعراق، واليمن وليبيا، الذين قتلتهم الولايات المتحدة وروسيا وإسرائيل.

أما ما يجعل الحليم حيرانا، هو حالة الاستثمار التي دخل فيها المنافقون وأذناب اليهود، الذين روجوا أن الإخوان المسلمين هم خلف هذه الجائحة، بل أنهم من مصلحتهم

أن يقضي هذا الفيروس على كل المواطنين، وحتى تدخل البلاد في دائرة أخرى بعد دائرة الفوضى وهي دائرة الخوف، ويخطط الإخوان المسلمون بعدها لمرحلة أخرى وهي مرحلة إدارة التوحش، هذا بزعمهم وإفكهم، والله يعلم أنني لست من الإخوان المسلمين، ولكن كلام الأفاكين ينطق الحجر، ويجعل الحليم حيرانا.

2_الوضع الاقتصادي والمؤسسة العسكرية

إن قوام الدولة إنما يكون على مبنيين، وهما الجند (المؤسسة العسكرية) والمال (وضع وقوام الدولة الاقتصادي) وهذا المعنى سبق إليه ابن خلدون في مقدمته. إن الاهتمام المتزايد بالمؤسسة العسكرية، من توفير آلياتها ومعداتها، ثم الاهتمام بتطويرها إلي أقصى حد ومواكباتها، بل تفوقها علي غيرها من التقنيات المستحدثة، والاهتمام المتزايد بالجيش بالتدريب المستمر علي أنواع القتال، وكيفيات الحروب وخططها ومناهجها، هو مما يقوي بنيان الدولة ، وإنما تخسر وتفقد الدول جولات الحروب؛ إن هي اخلد جنودها إلي الدعة والراحة، وأهملوا التدريب القتالي المستمر، لأن العدو إنما يجد ضالته ومبتغاه فيها، وهو يدقق نظره

وفكره في نقاط الضعف، ومن أين تشن الهجمات وتسدد الرميات في الدولة اللاهية الغافلة، التي يستسلم أجنادها إلي الدعة والحياة المدنية الملهية، أكثر من الذين يصلون ليلهم بنهارهم في التدريب علي القتال، فهم من هؤلاء ابعد والي أولئك أقرب، والاهتمام المتزايد أيضا بالوضع الاقتصادي للدولة وزيادة منتوجها، واستغلال مواردها علي النحو الأمثل، إنما يخرج ذلك مجتمعا الدولة والأفراد من الضعف إلي القوة، ومن الوهن إلي المنعة، ومن التراخي إلى الشدة.

وعلى سوء سيرته ذكر "مكيافيللي" في (فن الحرب): الرجال والأسلحة والمال والمؤن، هم عصب الحرب، ولكن من بين هؤلاء الأربعة أول اثنين هما الأكثر ضرورة، حيث أن الرجال والأسلحة سيقومون دائما بإيجاد المال والمؤن، ولكن المال والمؤن لا يمكنهما دائما تكوين وإنشاء الرجال والأسلحة.

3_التفرق والاختلاف

من أشكال القوة التي يطلبها الأفراد والدول، هو قيام الاتحاد والتكامل بين دولتين أو أكثر ، لأن بها تسد الدولة نقاط ضعفها، وتتقوي بغيرها إن كانت ضعيفة في مؤسساتها وهياكلها ومواردها ، وبالتالي

فإن شكل الدولة التي هي في واقعها مجموع دول متحدة ومتكاملة، هو القوة العملاقة، التي في أصلها تراكم القوي والخبرات في صورة جديدة، أما استغناء الدول عن التقوي ببعضها بل التناحر والاقتتال، ففيه ما يضعف شوكة الأمة، ويغري السفهاء، وقال المستعمر كلمتين ضمنتا انتصاره ودحره لأي قوى قد تقف في طريقه، أو تعرقل سيره وخططه، وهما :فرق تسد.

وليس صحيحا أن البقاء للأقوى، فكم من قوي قصمه الله، وكم من جبار أهلكه الله بأضعف خلقه، إن قارون الذي آتاه الله من المال ما أن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولي القوة، خسف الله به وبداره الأرض، ولم تجد قوته المادية شيئا، وفرعون الذي طغي وقال أنا ربكم الأعلى، أغرقه الله ونجاه ببدنه آية، والله سبحانه وتعالى يقول: (فاليوم ننجيك ببدنك لتكون لمن خلفك آية وان كثيرا من الناس عن آياتنا لغافلون) [يونس:92].

وهذا " شارون "الذي عاث في الفلسطينيين قتلا وتنكيلا، علق الله روحه، فلا هو بالميت فيستراح منه، ولا بالحي يرجي منه، حتى أخذه الله اخذ عزيز مقتدر، ولو تتبعنا سير هلاك الطغاة والجبابرة ممن يدعون البقاء للقوي

والقوة في القديم والحديث، لطال بنا الكتاب، والعبرة من كل ذلك أن البقاء ليس للأقوى، لأن كل من عليها يفنى، وان كل شيء ما خلا الله باطل، وان القوي هو من قواه الله تعالى، وأعانه بتأييده ونصره، والفرد القوي الأصلح هو من تكون قوته مستمده من نصر الله، قال الله تعالي: (أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض أإله مع الله قليلا ما تذكرون) [النمل: 62].

استهداف القوة الإسلامية

ثمة وسائل عديدة اتخذتها القوى المعادية للإسلام لتفكيك الأمة الإسلامية، وتحطيم مفاصلها، سأذكر بعضا منها (على قلة علمي وضاءلة بضاعتي) ولكن ينبغي أن نتفق أن معاني القوة على اختلاف أنواعها وأشكالها، ووسائل زيادتها وتنميتها وتطويرها، ودفع العدو وغلبته وهزيمته، إنما ترتبط ارتباطا وثيقا بالإيمان والعقيدة، ومن هنا تحديدا انطلق أعداء الأمة ليدمروها ويقطعوا أوصالها، ومعرفة البداية في كل شيء هي الضامن للنجاح والنصر في النهاية.

ومن معاني ارتباط القوة بالعقيدة، أن جهاد العدو يعدل في أجره أجر الصائم القائم

القانت بآيات الله، لا يفتر من صوم ولا صدقة حتى يرجع المجاهد إلى أهله، كما أخبر النبي محمد صلى الله عليه وسلم، فقد قال: "ثلاثة كلهم ضامن على الله: رجل خرج غازيا في سبيل الله فهو ضامن على الله حتى يتوفاه فيدخله الجنة، أو يرده بما نال من أجر أو غنيمة، ورجل راح إلى المسجد، فهو ضامن على الله حتى يتوفاه فيدخله الجنة، أو يرده بما نال من أجر أو غنيمة، ورجل دخل بيته بسلام فهو ضامن على الله ".27

وجزاء الجهاد هو الجنة، عن أبي هريرة قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: " إن الله ليضحك إلى رجلين يقتل أحدهما الآخر كلاهما يدخل الجنة، يقاتل هذا في سبيل الله فيستشهد، ثم يتوب الله على قاتله فيسلم فيقاتل في سبيل الله فيستشهد ".28

إن العقيدة الإسلامية ترغب في الجهاد وتعلي من أجره، كيما يكون الفرد المسلم في عزة ومنعة لا يخشى إلا الله، وهي المحرك الفعلي للفرد وانطلاقه لجهاد الأعداء.

من أسباب ضعف القوة الإسلامية الاختلال أو الانحراف العقائدي، واعني به المحاولات التي تمت ولا تزال، من أجل ضرب الأمة وتفكيكها وإفشالها، والتي تتمثل بصورة واضحة في

استهداف الأمة الإسلامية في عقيدتها أولا، لأنه (كما قدمت) هو البداية الفعلية الناجحة لضرب وتفكيك الأمة، إلى دويلات وجماعات تغلب فيها الفوضى والاقتتال والاحتراب بأيديهم، لا بأيدي غيرهم، ومن أجل تلك الغايات الخبيثة انداحت في الأمة دعوات وأفكار تدعو لنبذ الماضي، ويقصدون به الأصول والجذور الإسلامية، والالتحاق بركب الحضارة والتقدم والعلمانية واللادينية، وتحكيم العقل والتجربة والمادة، والتخلي عن النصوص والمنقول، والتخلي عن فكرة الآخرة، والتشبث بفكرة الدنيا، ولا حول ولا قوة إلا بالله، وأباحت تلك الأفكار والدعوات التي يحركها الغرب بأيديهم وأيدي أذنابهم من بنو جلدتنا، عبادة المادة والحجر، والبقر والفأر، ودعاء غير الله تعالي، والاستغاثة بغيره، والتبرك بغيره، والاستعانة بغيره، وتبعهم في ذلك من تبعهم ولو بحيل ملتوية وحجج متهافتة. وهذا أول الأمر في إضعاف القوة الإسلامية.

ومن الأسباب أيضا، إباحة ملذات الحياة الدنيا، وأعني به هو التخلي والتحلل من الضوابط والأوامر والمحرمات التي فرضها الإسلام، فأباح أعداء الأمة (من غير أن نكل

الأمر إلى مؤامرة وهمية مفترضة، لأن شواهد هذه الفرضيات موجودة على الواقع، ويراها الكل رأي العين) أباح أعداء الأمة الزنا واللواط، وان يتزوج الرجل الرجل، والمرأة المراءة، والمعاملات الربوية، و زينوا كل كذلك في فضائياتهم وقنواتهم، ودعوا إلى الحرية الفردية، والليبرالية والعلمانية، وتبعهم في ذلك من تبعهم إلا من رحم ربي، وانا ما ذكرت ما ذكرت إلا جزءا قليلا من الوسائل والطرق التي تستهدف الأمة في عقيدتها وقوتها، والا فإن غيرها كثير.

يقول "محمد الغزالي" في كتاب (قذائف الحق):

كان العالم الإسلامي يعرف بحبه للجهاد، وارتضائه لأشق التضحيات، كي يحق الحق ويبطل الباطل. كان هذا العالم الرحب عارم القوى الأدبية والمادية، حتى يئس المعتدون من طول الاشتباك معه، فقد كبح جماحهم وقلم أظفارهم، ورد فلولهم مذعورة من حيث جاءت، أو الحق بهم من المغارم والآلام ما يظل بينهم عبرة متوارثة، وتأديبا مرهوبا، ويرجع ذلك إلى أمور عدة:

أولها: إن الحقائق الدينية عندنا لا تنفك أبدا عن أسباب صيانتها ودواعي حمايتها،

فهي مغلفة بغطاء صلب، يكسر أنياب الوحوش إذا حاولت قضمها، وذلك هو السر في بقاء عقائدنا سليمة، برغم المحاولات المتكررة لاستباحتها، تلك المحاولات التي نجحت في اجتياح عقائد أخرى، أو الانحراف بها عن أصلها.

ثم إن الإسلام جعل حراسة الحق ارفع العبادات أجرا، اجل فلولا يقظة أولئك الحراس وتفانيهم، ما بقي للإيمان منار، ولا سرى له شعاع.

قيل يا رسول الله ما يعدل الجهاد في سبيل الله؟ قال: "لا تستطيعونه!"، فأعادوا عليه مرتين أو ثلاثة، كل ذلك يقول: لا تستطيعونه! ثم قال: "مثل المجاهد في سبيل الله كمثل الصائم القانت بآيات الله لا يفتر من صلاة ولا صيام..حتى يرجع المجاهد في سبيل الله".

وإذا كان فقدان الحياة أمرا مقلقا لبعض الناس، فان ترك الدنيا بالنسبة لبعض المجاهدين بداية تكريم إلهي مرموق الجلال، شهي المنال، حتى أن النبي صلى الله عليه وسلم حلف يرجو هذا المصير.

"والذي نفس محمد بيده، لوددت أن أغزو في سبيل الله فاقتل، ثم أغزو فاقتل، ثم أغزو

فاقتل" فأي إغراء بالاستماتة في إعلاء كلمة الله، ونصرة الدين أعظم من هذا الأغراء؟

لقد كانت صيحة الجهاد قديما تجتذب الشباب والشيب، وتستهوي الجماهير من كل لون، فاذا سيل لا آخر له من أولى الفداء والنجدة يصب في الميدان المشتعل، فما تضع الحرب أوزارها إلا بعد أن تكوي أعداء الله، وتلقنهم درسا لا ينسى.29

لقد حارب الغرب والدول التي تأبى الإسلام، الحركة الإسلامية والدعوة الإسلامية في ديار المسلمين، ومزقوا دولهم وما يزالون، فاشعلوا الحرب في سوريا وليبيا، واحتلوا العراق، وأوقدوا الفتنة في اليمن، وما كان ذلك كله ليتم إلا بتخطيطهم ومكرهم، وبمعاونة أذنابهم، والرغبة المحمومة في إطفاء النور الإسلامي، وإنهم ليفعلوا ذلك كله مستخدمين كل وسيلة متاحة لديهم لتحقيق ذلك الغرض الخبيث، فاغرقوا الشرق الإسلامي بالأفكار التي يسمونها تقدمية، وبالعقائد الباطلة والخربة، بل إنهم دعوا إلى عبادة الشيطان الرجيم، ودعوا بمعاونة أذنابهم وأشياعهم إلى نبذ اللغة العربية لغة القرآن الكريم كما في تركيا، وزينت الدعوات المشبوهة والحركات المريبة في العالم العربي

والإسلامي، التبرج والسفور والاختلاط والزنا، والحق الكامل في أن يتزوج من يشاء بمن يشاء، فتتزوج المراءة أختها من بنات جنسها، ويتزوج الرجل بالرجل، ورغم كل تلك المحاولات المحمومة والمتسارعة حينا والمبطئة حينا، لإخماد وإطفاء نور الله في الأرض، هل يفلحون؟ هل ينجحون؟ الإجابة هي لا ثم لا، لأن الله هو متم النعمة، ومكمل الدين، وهو متم نوره ولو كره الكافرون، قال تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينا) [المائدة:3]، وقال تعالى: (يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون) [الصف:8]، (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون) [التوبة:32].

ومن يتحدى الله يقصمه، قال الله تعالى: (وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفى بربك بذنوب عباده خبيرا بصيرا) [الإسراء:17]، (أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون في مساكنهم إن في ذلك لآيات أفلا يسمعون) [السجدة:26]، وقال تعالى: (وتلك القرى أهلكناهم لما ظلموا وجعلنا لمهلكهم موعدا) [الكهف:59].

وما فتئ أعداء الإسلام من التربص بالمسلمين والنيل منهم، وأبلغ مثال في ذلك هو ما لجأ إليه النظام في ميانمار في حروب التطهير العرقية التي قاربت نصف قرن كامل، ضد أقلية الروهينغا المسلمة السنية، التي تمثل سبعة بالمائة في ميانمار ذات الغالبية البوذية! والواقع أن هذه الرغبة المؤكدة في إبادة المسلمين الروهينغا، والتي تغذيها وتدفعها العقائد الباطلة الخربة مثل البوذية وغيرها، (لأنه يمكن عندهم أن يكون الفرد معتنقا لمجموعة من المعتقدات والديانات، جنبا إلى جنب مع البوذية في آن واحد!) هذه الرغبة في إبادة المسلمين الروهينغا، ربما كانت خيارا استراتيجيا وسلاحا ماضيا استخدمه النظام الميانماري بالتواطؤ مع المتطرفين البوذيين، لاستئصال المسلمين الروهينغا

وربما كان حرمان النظام العسكري البوذي للمسلمين الروهينغا من حق المواطنة بموجب القانون الجائر الذي أقرته ميانمار عام 1982 واعتبارهم لاجئين غير شرعيين، (مع أن الحقيقة أنهم سكان أصليون يمتد تاريخهم إلى القرن الثامن الميلادي) وما ترتب عليه حرمانهم من تملك العقارات وممارسة أعمال

التجارة وتقلد الوظائف في الجيش والهيئات الحكومية، وحرمانهم من حق التصويت بالانتخابات البرلمانية وتأسيس المنظمات، ربما كان ذلك هو بداية حقيقية ومقدمة لتلك الاستراتيجية، التي تعمد للإبادة على أسس أيديولوجية، لأنه يرونهم لاجئين دخلاء غير معترف بهم!

وثانيا وهذا هو الأهم لأنهم مسلمون ويعبدون إلها واحدا لا يشركون معه إلها آخر، وأنهم بذلك مصدر الإرهاب والشقاء للبشر! وهذا ما يتوافق مع دعوات الكهنة البوذيين، مثل الكاهن المتطرف" آشين ويراثو" الذي يؤكد في دعواته أن المسلمين الروهينغا ليسوا أصلا من ميانمار، ولا يحق لهم البقاء فيها وأن أغلبهم إرهابيون ويرفضون الأديان الأخرى لإيمانهم بإله واحد، وأنهم يخططون للشر دائما وينتشرون كما الطاعون في كل بلاد العالم، لذا يجب قتلهم!

وبالرغم من وعود " أونج سان سو تشي" مستشارة الدولة بتهدئة الأوضاع في ميانمار، وإحلال السلام ووقف عمليات القتل والطرد والاضطهاد للروهينغا، إلا أنها لم تف بشي من ذلك، بل دافعت "أونج" عن عمليات التطهير

ذاتها! وهاجمت الموقف الدولي ووصفته بالتدخل في شؤون بلادها.

ولعمرك إن الحقيقة الظاهرة التي لم تبح بها "أونج سان سو تشي" أنه من مصلحة النظام استمرار هذا الانفلات بين البوذيين والروهينغا، لأن في ذلك ما يشغل ويصرف الأنظار عن فساد الحكومة ووضعها المتردي، وإضافة لذلك فإن توظيف الإرادة العقائدية البوذية على النحو الذي تصبح فيه هذه الإرادة هي القائد الفعلي الذي يأمر ببدء العمليات العسكرية لسحق الروهينغا وتصفيتهم هذا التوظيف إذا تمكنت منه (وقد تحقق بالفعل) فإنه يضمن حصول الإبادة التامة، والتصفية الكاملة للمسلمين الروهينغا على أيدي الأتباع البوذيين المؤمنين الخلص! ودون رجوعهم إلى قيادة سياسية أو دينية ظاهرة لتلقي الأمر بالهجوم أو الانسحاب أو حتى وضع الخطط المحكمة.

إن الجهاد الذي شرعه الله للمسلمين، هو قوة ردع ضد هؤلاء الملاثين، وبه تكون الأبواب مفتوحة وسالكة لنشر دعوة الإسلام، وحماية المستضعفين في كل الأنحاء.

يتساءل "محمد قطب" في كتابه (هل نحن مسلمون): "المستقبل للإسلام؟.. هل يصدق أحد

هذا الكلام؟ بعد هذه الجهود المدمرة التي بذلت لتحطيمه وبعد أن عملت في القضاء عليه كل العوامل المحلية والتيارات العالمية التي وصفناها في هذا الكتاب.

نعم..

لقد بذل الاستعمار الصليبي كل ما في وسعه للقضاء عليه.. فتت العالم الإسلامي إلى دويلات..وأمسك بكل دويلة على حدة يعزلها عن أخواتها ويثير بينها الأحقاد والمنازعات.. وفي كل منها عزل الدين عن المجتمع، وعزل الشريعة عن الحياة..وحارب كل حركة تقوم فيها لإحياء الدين وأعادته إلى الواقع الحي المتحرك البناء، ورسم سياسة تعليمية تبعد الشباب النابت عن منابع دينه، ولا تبقى في نفسه منه غير الشبهات.. وحرص على إخراج جيل من "المثقفين" في كل بلد إسلامي ينفر من الدين، وينسلخ منه، ويري فيه أنه جمود وتأخر، ورجعية وانحطاط.. وحرص على أن يمزق شر ممزق كل حركة تقوم بين المثقفين خاصة، تنادي بالعودة إلى الإسلام ..لأن ذلك معناه إضاعة الجهد كله الذي بذله الاستعمار الصليبي في قرنين من الزمان.. ونجح في ذلك كله.. نجح في إبعاد المسلمين عن دينهم.. ونجح في تعويق أية حركة إسلامية في

الشرق الإسلامي..لجيل أو أجيال.. ثم..؟! ثم تقوم في أمريكا ذاتها التي أنفقت ألوف الملايين الدولارات على الحركة التبشيرية لمحاربة الإسلام ..تقوم حركة إسلامية بين الزنوج هناك يصل اتباعها إلى نصف مليون في ثلاث سنوات! وتعتقل أمريكا الزنوج وتعاملهم في سجونها بالعنف والقسوة (كما تقول مجلة تايم Timeالأمريكية في أحد أعدادها) فإذا الدعوة تنتشر داخل السجون! وإذا هؤلاء المسلمون (كما تقول المجلة) لا يبالون بشيء في سبيل الوصول إلى أهدافهم، لا تصدهم القسوة، ولا يرهبهم العنف ..لأنهم صاروا مسلمين !!

ثم ..؟! ثم تكتشف أمريكا ذاتها التي أنفقت ما أنفقت لوقف المد الإسلامي في أفريقيا، إنها في حاجة إلى مهادنة الإسلام في إفريقيا بالذات، وإلا اكتسحت الشيوعية القارة السوداء !!

فماذا يصنع "الإنسان " إزاء هذه الإرادة الإلهية التي تأبى أن ينطفئ نور الله في الأرض :(يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون) [الصف: 8]. 30

إن الدولة تحتاج إلى رجال وقوة، ولكن رجال أتقياء موحدين يعرفون الله، وإلى قوة ولكنها في حاجة أعظم إلى القوة الإلهية، إن مشاركة الملائكة القتال مع المسلمين في الميدان في بدر سواء كانت مشاركة في القتال أو مشاركة بالحضور وليس القتال على اختلاف الروايات، تؤكد معنى القوة الإلهية التي ينعم بها الله على عباده المؤمنين. قال تعالى:

(ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) [آل عمران: 123_126].

وقال تعالى:

(ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون. إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين. وما جعله الله إلا بشري ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم. إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من

السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام) [الأنفال: 8_11]

هوامش الفصل الثاني

1_ فرانسيس فوكويا ما ،نهاية التاريخ والإنسان الأخير ، (بيروت: مركز الإنماء القومي، ط.1، 1993) ، ص71.

2_ أبو عيسي محمد بن عيسي، تحقيق وتعليق إبراهيم عطوه عوض، الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي، الجزء الخامس ، (القاهرة: شركة مكتبة ومطبعة مصطفي البابي الحلبي ، ط.1، 1962) ، ص588_589.

3_سفر بن عبد الرحمن الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وأثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة، (دار الهجرة) ،ص258_257.

4_المصدر السابق،ص130_129.

5_ محمد الجوهري حمد الجوهري، النظام السياسي الإسلامي والفكر الليبرالي، (القاهرة: دار الفكر العربي،ط.1،1993) ، ص46_47.

6_عبد الرحيم بن صمايل السلمي، حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها ، (جدة: مركز التأصيل للدراسات والبحوث، ط. 1،2009) ، ص111.

7_محمد عمارة ، الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق دراسة ووثائق، (بيروت: المؤسسة

العربية للدراسات والنشر،ط.1، 2000)، ص182.

8_المصدر السابق،ص123.

9_المصدر السابق،ص143.

10_المصدر السابق،ص153.

11_المصدر السابق،ص165.

12_المصدر السابق،ص173.

13_المصدر السابق،ص167.

14_سيد قطب، المستقبل لهذا الدين، (بيروت: دار الشروق،ط.14، 1993)، ص23_22.

15_طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر، (القاهرة: دار المعارف، ط. 2، 1996)، ص 34.

16_المصدر السابق، ص51.

17_عبد الرحمن الكواكبي ،طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، (بيروت: دار الكتاب اللبناني، ط. 1، 2011)، ، ص 151_152 .

18_جورج اورويل، ترجمة أنور الشامي، رواية 1984، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي،ط.1، 2006)، ص 311.

19_مايكل كولينز بايبر، ترجمة عبد اللطيف أبو البصل، كهنة الحرب الكبار، (الرياض: مكتبة العبيكان،ط.1، 2006) ، ص11.

20_المصدر السابق، ص 27.

21_نعوم تشومسكي، تعريب أسامة إسبر، الدول المارقة استخدام القوة في الشؤون العالمية، (الرياض: مكتبة العبيكان، ط.1،2004)، ص33.

22_محمد سعد بن أحمد بن مسعود اليوبي، مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، (الرياض: دار الهجرة للنشر والتوزيع، ط.1،1988)، ص 203.

23_مالك بن أنس، الموطأ، الجزء الأول، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط.1،1985)، ص212_213.

24_سيد قطب، المستقبل لهذا الدين، (بيروت: دار الشروق، ط.14،1993)، ص5_6.

25_المصدر السابق، ص8_9.

26_المصدر السابق، ص9_11.

27_ محمد عبد الرؤوف المناوي، ضبط وتصحيح احمد عبد السلام، فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير،

الجزء الثالث، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط. 1، 2001)، ص421.

28_ أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم ابن أبي شيبة، تحقيق حمد بن عبد الله الجمعة، محمد بن إبراهيم اللحيدان، المصنف، الجزء السابع، (الرياض: مكتبة الرشد ناشرون ط.1، 2004)، ص 14.

29_محمد الغزالي، قذائف الحق، (دمشق: دار القلم، ط.2، 1997)، ص250_249.

30_محمد قطب، هل نحن مسلمون، (القاهرة: دار الشروق، ط.6، 2002)، ص211_ 213.

الفصل الثالث
غزوة بدر الكبرى

أسباب غزوة بدر

قال "إبن هشام" في (السيرة النبوية):

قال إبن إسحاق :ثم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سمع بأبي سفيان بن حرب مقبلا من الشام في عير لقريش عظيمة، فيها أموال لقريش من تجاراتهم، وفيها ثلاثون رجلا من قريش أو أربعون، منهم مخرمة بن نوفل بن اهيب بن عبد مناف بن زهرة، و عمرو بن العاص بن وائل بن هشام .

قال إبن هشام :ويقال:عمرو بن العاص بن وائل بن هاشم .

قال إبن إسحاق :فحدثني محمد بن مسلم الزهري و عاصم بن عمر بن قتادة، و عبد الله بن أبي بكر و يزيد بن رومان، عن عروة بن الزبير وغيرهم من علمائنا ، عن إبن عباس كل قد حدثني بعض هذا الحديث، فاجتمع حديثهم

فيما سقته من حديث بدر قالوا :لما سمع رسول الله صلى الله عليه و سلم بأبي سفيان مقبلا من الشام ، ندب المسلمين إليهم وقال :"هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها "، فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حربا ، وكان أبو سفيان حين دنا من الحجاز يتحسس الأخبار ويسأل من لقي من الركبان، تخوفا على أمر الناس حتي أصاب خبرا من بعض الركبان :أن محمدا قد استنفر أصحابه لك و لعيرك فحذر عند ذلك، فاستاجر" ضمضم بن عمرو" الغفاري فبعثه إلى مكة وأمره أن يأتي قريشا فيستنفرهم إلى أموالهم ، ويخبرهم أن محمدا قد عرض لها في أصحابه ، فخرج " ضمضم بن عمرو " سريعا إلى مكة .1

كانت حالة الاحتقان تزداد بين القوتين :قوة جيش الإسلام في المدينة ، وقوة جيش الكفر في مكة ، و هذا الاحتقان المتزايد جعل أبا سفيان بن حرب يتحسس الأخبار ويتوجس، ومنه أنه فت ابعار الإبل ليحدد أهي أعلاف يثرب أم غيرها ، و إلى الحد الذي جعله يرسل " ضمضم بن عمرو " إلى مكة طلبا لاحاطة أهل مكة بحقيقة الموقف الذي تتعرض له

القافلة، واستنفارهم للمساندة في رد أي عدوان قد تتعرض له، وأيضا إلى الحد الذي جعله يغير وجهة القافلة آخر الأمر لسلامتها ونجاتها من هذه القوة الجديدة، التي يصفها "عمير بن وهب الجمحي" بصورة مفزعة: ما وجدت شيئا ولكني رأيت يا معشر قريش، البلايا 2 تحمل المنايا، نواضح 3 يثرب تحمل الموت الناقع 4 قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم ، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم، فإذا اصابوا منكم اعدادكم فما خير العيش بعد ذلك.

إن القوة الجديدة (قوة الإسلام) المكونة من الأنصار والمهاجرين، لا ترضى بالدونية ولا تقبل الظلم والتعذيب، ونهب الأموال والممتلكات الذي مارسه أهل مكة عليهم، إنها لا تقبل إلا أن تكون ظاهرة لا تخشى إلا الله، وتقبل التمدد والاتساع والانتشار والظهور على غيرها ، على جيش أبي سفيان و أبي جهل ، وعلى كل الجيوش التي لا تؤمن بالله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

مع ذلك هي قوة يحفظها الله جل شأنه وموعودة بالظهور، قال الله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال

الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين) [الصف:14]، وموعودة بالزيادة والتمدد.

عن ثوبان قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إن الله زوى لي الأرض"5 أو قال: "إن ربي زوى لي الأرض" فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن ملك أمتي سيبلغ ما زوى لي منها". 6

ويريد الله أن يحق الحق، ويزهق الباطل، ويقطع دابر الكافرين. إن إرادة الله سبحانه وتعالى أقوى من كل إرادة.

القوة القديمة (مشركي مكة) لم تقبل أن يتعرض أي فرد في القافلة التجارية بقيادة أبي سفيان للأذى، لأن ذلك (إذا حصل) يعد تقليلا لهيبة قريش وقدرها، ونقيصة في شأنها، وتحطيما لشوكتها.

يحدد " أحمد محمد العليمي " في كتاب (مرويات غزوة بدر) عددا من أسباب معركة بدر الكبرى:

أولا: وجود حق وباطل، يتمثل في معسكرين، حق أتى به محمد صلى الله عليه و سلم من ربه، يدعوهم إليه وترك ما عداه وباطل تتمسك به

قريش من عادات الآباء وتقاليدهم، فلابد من الصراع الطويل لإحقاق الحق وإزهاق الباطل.

ثانيا: كون الأنصار آووا الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه في المدينة، وبذلوا المال والنفس في المدافعة عنهم.

ثالثا: وجود الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم قوة في مكان تمر عليه قوافل قريش إلى الشام، ففي ذلك خطر يهدد تجارتهم وحياتهم.

رابعا: ارسال الرسول صلى الله عليه وسلم سراياه وخروجه بنفسه، وخاصة تلك التي أرسلها إلى نخلة بين مكة والطائف هيجت قريشا كثيرا ضده.

خامسا: استيلاء أهل مكة على ممتلكات المسلمين واموالهم، فكان لا بد للمسلمين أن يستعيدوا ما يقدرون عليه منها ،وفي ذلك إضعاف للمشركين اقتصاديا.7

إن قريشا خرجت لملاقاة المسلمين تدفعها حمية الجاهلية والقبلية، ونصر الأصنام ودين الآباء والأجداد، ويدفعها نصر السمعة والرياء والفخر، وكلها نعرات جاهلية تمكنت فيهم تمكنا كبيرا (شأنها في ذلك شأن كل القبائل العربية) حتى لا تسمع القبائل بضعف

أو نقص في قوة قريش المهابة بين القبائل. والفرق كبير بين من يخرج من أجل سمعته وهيبته وسيادته، واتباع عادات ونعرات، وبين من يخرج ابتغاء مرضاة الله ورضوانه، وإعلاء كلمته، بين من يبتغي سيادة الدولة، ومن يقصد سيادة الدين، بين من يبتغي عرض الدنيا ومن يبتغي الآخرة.

بعد أن استمع أهل مكة لنذير أبي سفيان وعلمت الخطر الذي سيلحق بعيرها، قررت أن تخرج لملاقاة محمد صلى الله عليه وسلم ولانقاذ عيرها، وقريش تلك القبيلة التي لا تريد أن تخدش سمعتها بين القبائل العربية، ولا تنحط مكانتها من نفوس الناس، فهي حامية الحمى تدخل الإختبار، فهل تواجه أم تتاخر؟ والتأخر معناه الهزيمة الداخلية والنفسية أمام دعوة الإسلام ودعوة محمد صلى الله عليه، فكان لابد أن تخرج بكل ما تملك من قوة وكبرياء وعدة، وان يسمع بخروجها العرب فلا يزالون يهابونها ما بقيت، خرجت لملاقاة محمد صلى الله عليه وسلم الذي تعرض لعيرها، تريد في قرارة نفسها أن تصفي حسابها مع عدو طالما اقض مضجعها، ونغص حياتها، فكان ما أراد الله، وقد ذكر الله مرادها في قوله تعالى: (ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم

بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله والله بما يعملون محيط) [الأنفال :47]، وفي قوله تعالى :(إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم شئيا ولو كثرت وان الله مع المؤمنين) [الأنفال :19].8

قال ابن إسحاق:

ولما رأى أبو سفيان أنه قد أحرز عيره أرسل إلى قريش: إنكم إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم واموالكم، فقد نجاها الله، فارجعوا. فقال أبو جهل بن هشام: والله لا نرجع حتى نرد بدرا (وكان بدر موسما من مواسم العرب، يجتمع لهم به سوق كل عام) فنقيم عليه ثلاثا، فننحر الجزر، ونطعم الطعام، ونسقي الخمر، وتعزف علينا القيان، وتسمع بنا العرب وبمسيرنا وجمعنا، فلا يزالون يهابوننا أبدا بعدها فأمضوا.9

وقام من جهة ثانية الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، يدعو عشيرته وقومه بالحكمة، وكان مطاعا في قومه.

قال الأخنس بن شريق بن عمرو بن وهب الثقفي، وكان حليفا لبني زهرة، وهم بالجحفة :يا بني زهرة قد نجى الله أموالكم، وخلص لكم صاحبكم مخرمة بن نوفل ، وإنما

نفرتم لتمنعوه وماله، فاجعلوا لي جبنها وارجعوا، فإنه لا حاجة لكم بأن تخرجوا في غير ضيعة، لا ما يقول هذا يعني أبا جهل ، فرجعوا فلم يشهدها زهري واحد، اطاعوه وكان فيهم مطاعا، ولم يكن بقي من قريش بطن إلا وقد نفر منهم ناس، إلا بني عدي بن كعب لم يخرج منهم رجل واحد، فرجعت بنو زهرة مع الأخنس بن شريق، فلم يشهد بدرا من هاتين القبيلتين أحد ومشي القوم.10

غير ذات الشوكة وذات الشوكة

قال الله تعالى :(كما اخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون. يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون.وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين) [الأنفال :7_5].

قال "الطبري" في التفسير:

حدثنا بشر بن معاذ قال حدثنا يزيد، قال حدثنا سعيد عن قتادة، قوله (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم) _الاية.

قال: الطائفتان إحداهما : أبو سفيان بن حرب إذ اقبل بالعير من الشام، والأخرى : أبو جهل معه نفر من قريش، فكره المسلمون الشوكة والقتال، واحبوا أن يلقوا العير ،وأراد الله ما أراد .

قال :حدثني المثنى قال حدثنا عبدالله بن صالح، قال حدثني معاوية عن علي بن أبي طلحة، عن إبن عباس قوله: (وإذ يعدكم الله إحدي الطائفتين) قال :أقبلت عير أهل مكة، يريد من الشام فبلغ أهل المدينة ذلك فخرجوا ومعهم رسول الله صلى الله عليه و سلم، يريدون العير ،فبلغ ذلك أهل مكة فسارعوا السير إليها ،لا يغلب عليها النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فسبقت العير رسول الله صلى الله عليه و سلم، وكان الله وعدهم إحدى الطائفتين، فكانوا أن يلقوا العير أحب إليهم وايسر شوكة ، واحضر مغنما .

فلما سبقت العير وفاتت رسول الله صلى الله عليه وسلم، سار رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمسلمين يريد القوم ،فكره القوم مسيرهم لشوكة في القوم. 11

عن يزيد بن أبي حبيب عن أسلم أبي عمران، حدثه أنه سمع أبا أيوب الأنصاري يقول، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن بالمدينة :

"إني أخبرت عن عير أبي سفيان أنها مقبلة، فهل لكم أن نخرج قبل هذا العير؟ لعل الله يغنمناها" فقلنا: نعم، فخرج وخرجنا، فلما سرنا يوما أو يومين، قال لنا: "ما ترون في القوم فإنهم قد أخبروا بمخرجكم؟" فقلنا: لا والله ما لنا طاقة بقتال العدو، ولكن أردنا العير، ثم قال: "ما ترون في قتال القوم؟ "فقلنا مثل ذلك، فقال المقداد بن عمرو: إذا لا نقول لك يا رسول الله كما قال قوم موسى لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) قال: فتمنينا معشر الأنصار لو أنا قلنا كما قال المقداد أحب إلينا من أن يكون لنا مال عظيم، فانزل الله عز وجل على رسوله (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) ثم أنزل الله عز وجل (أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) وقال (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) والشوكة القوم، وغير ذات الشوكة العير، فلما وعدنا الله إحدى الطائفتين إما القوم وأما العير، طابت أنفسنا.

ثم أن رسول الله صلى الله عليه و سلم بعث ينظر ما قبل القوم؟ فقال: رأيت سوادا ولا أدري، فقال رسول الله صلى الله :"هم هم هلموا أن نتعاد" ففعلنا، فإذا نحن ثلاث مئة وثلاثة عشر رجلا، فاخبرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدتنا، فسره ذلك فحمد الله وقال:" عدة أصحاب طالوت" ثم إنا اجتمعنا مع القوم فصففنا، فبدرت منا بادرة أمام الصف، فنظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم فقال:" معي معي" ثم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال:" اللهم إني أنشدك وعدك" فقال ابن رواحة :يا رسول الله إني أريد أن أشير عليك، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أفضل من يشير عليه، أن الله عز وجل أعظم من أن تنشده وعده، فقال:" يا ابن رواحة لا نشدن الله وعده، فإن الله لا يخلف الميعاد" فاخذ قبضة من التراب فرمى بها رسول الله صلى الله عليه وسلم في وجوه القوم فانهزموا، فانزل الله عز و جل (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) فقتلنا وأسرنا، فقال عمر رضي الله عنه :يا رسول الله ما أرى أن يكون لك أسرى، فإنما نحن داعون مؤلفون، فقلنا معشر الأنصار: إنما يحمل عمر على ما قال حسد لنا، فنام رسول الله صلى الله ثم استيقظ فقال :"ادعوا لي عمر"، فدعي له فقال :"إن الله عز وجل قد أنزل على (ما كان

لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم).12

رؤيا "عاتكة بنت عبد المطلب" وأخبار "ضمضم بن عمرو"

كان الغرض الذي أرسل ابو سفيان بن حرب من أجله مبعوثه إلى مكة، هو المساعدة في إنقاذ القافلة، والتهيؤ لتأمينها والحفاظ على سلامة افرادها وممتلكاتهم، إلا أن هذا الغرض وهذه الرسالة، تم تصويرها وتبليغها بما يشبه إعلان حالة الحرب، ومما زاد المصائب لدى مكة، هو مصادفة تلك الرسالة لليوم الثالث الذي كان محددا للقطع بكذب بيت عبد المطلب، واعتباره أكذب بيت في العرب، كما قطع وجزم بذلك ابو جهل بن هشام، بعد إنتشار حديث رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب.

هاتين تصورا حالة نفسية سئية لدى مشركي مكة، ورعب حقيقي، كان عاملا مبكرا من عوامل الهزيمة التي ساقها الله إليهم.

قال ابن إسحاق :

فأخبرني من لا اتهم عن عكرمة عن إبن عباس، و يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير،

قالا:وقد رأت عاتكة بنت عبد المطلب قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال، رؤيا افزعتها فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب، فقالت له:يا أخي والله لقد رأيت الليلة رؤيا افظعتني وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر ومصيبة، فاكتم عني ما أحدثك به، فقال لها :وما رأيت؟ قالت:رأيت راكبا أقبل على بعير له حتي وقف بالابطح، ثم صرخ بأعلى صوته: ألا انفروا يا لغدر لمصارعكم في ثلاث، فأرى الناس اجتمعوا إليه ثم دخل المسجد والناس يتبعونه، فبينما هم حوله مثل به 13 بعيره على ظهر الكعبة ثم صرخ بمثلها: ألا انفروا يالغدر لمصارعكم في ثلاث:ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس ثم صرخ بمثلها، ثم أخذ صخرة فأرسلها فأقبلت تهوي حتي إذا كانت بالسفل الجبل ارفضت 14 فما بقي بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها فلقة، قال العباس :والله إن هذه لرؤيا وأنت فاكتميها، ولا تذكريها لأحد.

ثم خرج العباس فلقي الوليد بن عتبة بن ربيعة، وكان له صديقا فذكرها له واستكتمه إياها، فذكرها الوليد لأبيه عتبة، ففشا الحديث بمكة حتي تحدثت به قريش في انديتها.

قال العباس :فغدوت لاطوف بالبيت، وأبو جهل بن هشام في رهط من قريش قعود يتحدثون برؤياء عاتكة، فلما رآني أبو جهل قال:يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم، فقال لي أبو جهل:يا بني عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النبية؟ قال قلت:وما ذاك؟ قال:تلك الرؤيا التي رأت عاتكة. قال:فقلت:وما رأت؟ قال:يا بني عبد المطلب أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتي تتنبأ نساؤكم، قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال:انفروا في ثلاث فسنتربص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقا ما تقول فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء نكتب عليكم كتابا أنكم أكذب أهل بيت في العرب، قال العباس :فوالله ما كان مني إليه كبير إلا أني جحدت ذلك، وانكرت أن تكون رأت شيئا، قال:ثم تفرقنا.

فلما أمسيت لم تبق امرأة من بني عبد المطلب إلا أتتني، فقالت:اقررتم لهذا الفاسق الخبيث أن يقع في رجالكم ثم قد تناول النساء وأنت تسمع، ثم لم يكن عندك غير لشئ مما سمعت، قال:قلت:قد والله فعلت ما كان مني إليه من كبير، وأيم الله لاتعرضن له، فإن عاد لأكفيكنه.

قال: فغدوت في اليوم الثالث من رؤيا عاتكة وأنا حديد مغضب، أرى أني قد فاتني منه أمر أحب أن ادركه منه، قال: فدخلت المسجد فرايته، فوالله إني لامشي نحوه اتعرضه ليعود لبعض ما قال فأقع به، وكان رجلا خفيفا حديد الوجه، حديد اللسان، حديد النظر، قال: إذ خرج نحو باب المسجد يشتد، قال: فقلت في نفسي: ماله لعنه الله، أكل هذا فرق مني أن اشاتمه! قال: وإذا هو قد سمع ما لم أسمع: صوت ضمضم بن عمرو الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي، واقفا على بعيره، قد جدع بعيره [15]، وحول رحله، وشق قميصه، وهو يقول: يا معشر قريش اللطيمة اللطيمة [16]، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه، لا أرى أن تدركوها الغوث الغوث. قال: فشغلني عنه، وشغله عني ما جاء من الأمر. [17]

فزع" أمية بن خلف"

كان الرعب والفزع يسيطر على الموقف المكي، وعلى سادة وكبراء مكة، مثل أمية بن خلف، إن الخوف والفزع هو حال قذف الله به روع أعداء الدعوة الإسلامية، ونصر به رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "بعثت بجوامع الكلم، ونصرت بالرعب".18

وكان أمية بن خلف صديقا لسعد بن معاذ، فيما يرويه عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، حدث عن سعد بن معاذ أنه قال: كان صديقا لامية بن خلف، وكان أمية إذا مر بالمدينة نزل على سعد، وكان سعد إذا مر بمكة نزل على أمية، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة انطلق سعد معتمرا، فنزل على أمية بمكة، فقال لامية: انظر لي ساعة خلوة لعلي أن أطوف بالبيت، فخرج به قريبا من نصف النهار فلقيهما أبو جهل، فقال: يا أبا صفوان من هذا معك؟ فقال: هذا سعد. فقال له أبو جهل: ألا أراك تطوف بمكة آمنا وقد أويتم الصباة، وزعمتم أنكم تنصرونهم وتعينونهم، أما والله لولا أنك مع أبي صفوان ما رجعت إلى أهلك سالما. فقال له سعد ورفع صوته عليه: أما والله لئن منعتني هذا لا منعنك ما هو أشد عليك منه: طريقك على المدينة، فقال له أمية: لا ترفع صوتك يا سعد على أبي الحكم سيد أهل الوادي. فقال له سعد: دعنا عنك يا أمية فوالله لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول إنهم قاتلوك. قال: بمكة؟ قال: لا

أدري، ففزع لذلك أمية فزعا شديدا، فلما رجع أمية إلى أهله، قال: يا أم صفوان ألم تري ما قال لي سعد؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعم أن محمدا أخبرهم أنهم قاتلي. فقلت له: بمكة؟ قال لا أدري، فقال أمية :والله لا أخرج من مكة، فلما كان يوم بدر استنفر أبو جهل الناس قال: أدركوا عيركم، فكره أمية أن يخرج فأتاه أبو جهل فقال: يا أبا صفوان إنك متي ما يراك الناس قد تخلفت وأنت سيد أهل الوادي تخلفوا معك، فلم يزل به أبو جهل حتى قال: أما اذا غلبتني، فوالله لأشترين أجود بعير بمكة، ثم قال أمية :يا أم صفوان جهزيني، فقالت له: يا أبا صفوان وقد نسيت ما قال لك أخوك اليثربي؟ قال: ما أريد أن اجوز معهم إلا قريبا، فلما خرج أمية أخذ لا يترك منزلا إلا عقل بعيره، فلم يزل بذلك حتى قتله الله عز وجل ببدر.19

ما بين قريش وكنانة

كانت نفسية الجيش المكي في وضعية غير مستقرة وغير مطمئنة، يغلب عليها الاضطراب والتشويش و الرعب والفزع : رؤيا عاتكة بنت عبد المطلب التي فشت في أندية مكة وتناقلها الناس واحتسبوا أيامها الثلاث أدخلت الشك

والريبة، وفتحت الباب للعديد من الاحتمالات والتخرصات، وجعلت أبو جهل بن هشام يقول في لهجة محتدة :يا بني عبد المطلب أما رضيتم ان يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم، قد زعمت عاتكة في رؤياها أنه قال:انفروا في ثلاث فسنتربص بكم هذه الثلاث، فإن يك حقا ما تقول فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شيء، نكتب عليكم كتابا أنكم اكذب أهل بيت في العرب.

رسالة ضمضم بن عمرو وهو يصرخ: الغوث الغوث، اللطيمة اللطيمة، أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه لا اري أن تدركوها . وهو واقف على بعيره وقد جدع أنفه، وحول رحله و شق قميصه؛ كانت بمثابة إنذار وجرس يدقه للموقف المعقد والمجهول، الذي يمضون إليه بالتزامن مع اليوم الثالث للرؤيا .

حديث عمير بن وهب الجمحي الذي لا يبعث على الاطمئنان من الوضع والمصير الذي يقبل عليه الجيش، ويدعو على استحياء إلى الرجوع، ونبذ فكرة الاشتباك والالتحام: ما وجدت شيئا، ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ

إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك فروا رأيكم؟

إذا أضيف إلى كل ذلك الوقائع والمناوشات القديمة بين قريش وبني بكر، والدماء التي سفكت بين الجانبين، التي كان آخرها قتل مكرز بن حفص لعامر بن يزيد بن عامر، سيد بني بكر، وتعليق سيفه على أستار الكعبة، إذا أضيف ذلك الكر والفر بين الجانبين الذي ربما تكون الجولة القادمة منه هي هجوم مرتقب من جانب بني بكر، انتقاما لمقتل زعيمهم عامر بن يزيد، إذا أضيف ذلك كله فإن من شأنه أن يثبط ويقلل من معنويات وهمة الجند، ويزيد الموقف المأزوم تعقيدا.

قال ابن إسحاق:

ولما فرغوا من جهازهم واجمعوا المسير ذكروا ما كان بينهم وبين بني بكر بن عبد مناة بن كنانة من الحرب، فقالوا: إنا نخشى أن يأتونا من خلفنا، وكانت الحرب التي كانت بين قريش وبين بني بكر _كما حدثني بعض بني عامر بن لؤي عن محمد بن سعيد بن المسيب _في ابن لحفص بن الاخيف أحد بني معيص بن عامر بن لؤي، خرج يبتغي ضالة له بضجنان وهو غلام حدث في رأسه ذؤابة، وعليه

حلة له، وكان غلاما وضيئا نظيفا، فمر بعامر بن يزيد بن عامر بن الملوح أحد بني يعمر بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر بن عبد مناة بن كنانة وهو بضجنان، وهو سيد بني بكر يومئذ، فرآه فأعجبه فقال: من أنت يا غلام؟ قال: أنا ابن لحفص بن الأخيف القرشي، فلما ولى الغلام قال عامر بن زيد: يا بني بكر ما لكم في قريش من دم؟ قالوا: بلى والله إن لنا فيهم لدماء، قال: ما كان رجل ليقتل هذا الغلام برجله إلا كان قد استوفى دمه، قال: فتبعه رجل من بني بكر فقتله بدم كان له في قريش، فتكلمت فيه قريش، فقال عامر بن يزيد: يا معشر قريش قد كانت لنا فيكم دماء، فما شئتم إن شئتم فادوا علينا مالنا قبلكم، ونؤدي ما لكم قبلنا، وإن شئتم فإنما هي الدماء: رجل برجل، فتجافوا عما لكم قبلنا ونتجافى عما لنا قبلكم، فإن ذلك الغلام على هذا الحي من قريش، وقالوا :صدق رجل برجل، فلهوا عنه فلم يطلبوا به.

قال: فبينما أخوه مكرز بن حفص بن الأخيف يسير بمر الظهران، إذ نظر إلى عامر بن يزيد بن الملوح على جمل له، فلما رأه اقبل إليه حتى أناخ به، وعامر متوشح سيفه، فعلاه

مكرز بسيفه حتى قتله، ثم خاض بطنه بسيفه حتى أتى به مكة، فعلقه من الليل بأستار الكعبة، فلما أصبحت قريش رأوا سيف عامر بن يزيد بن عامر معلقا بأستار الكعبة فعرفوه، فقالوا: أن هذا لسيف عامر بن يزيد عدا عليه مكرز بن حفص فقتله، فكان ذلك من أمرهم.

فبينما هم في ذلك من حربهم، حجز الإسلام بين الناس فتشاغلوا به، حتى أجمعت قريش المسير إلى بدر، فذكروا الذي بينهم وبين بني بكر فخافوهم، وقال مكرز بن حفص في قتله عامرا:

لما رأيت أنه هو عامر
تذكرت أشلاء الحبيب الملحب [20]
وقلت لنفسي: إنه هو عامر
فلا ترهبيه وانظري أي مركب
وأيقنت أني إن أجلله ضربة
متي ما أصبه بالفرافر يعطب
خفضت له جأشي وألقيت كلكلي [21]
على بطل شاكي السلاح مجرب
ولم أك لما التف روعي وروعه

عصارة هجن من نساء ولا أب

حللت به وتري ولم أنس ذحله 22

إذا ما تناسى ذحله كل عيهب

قال ابن هشام: الفرافر في غير هذا الموضع: الرجل الأضبط "وفي هذا الموضع". السيف، والعيهب: الذي لا عقل له، ويقال لتيس الظباء وفحل النعام: العيهب، قال الخليل العيهب: الرجل الضعيف عن إدراك وتره.

قال ابن إسحاق: وحدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير، قال: لما أجمعت قريش المسير ذكرت الذي كان بينها وبين بني بكر، فكاد ذلك يثنيهم، فتبدى لهم إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجي، وكان من إشراف بني كنانة فقال لهم: أنا لكم جار من أن تأتيكم كنانة من خلفكم بشيء تكرهونه، فخرجوا سراعا. 23

جيش الكفر يتوجه إلى بدر

كان رأس الكفر حينذاك أبو جهل بن هشام على قيادة جيش مكة، الذي يعتزم استئصال شآفة المسلمين، وأجمع جيش الكفر وأبو جهل بن هشام خيلهم وعتادهم في جيش عرمرم، يضم

ألفا وثلاثمائة من المقاتلين من فلذات أكباد قريش، لرمي المسلمين عن قوس واحدة.

وكان مع الجيش مائة فرس وستمائة درع، وجمال كثيرة لا يعرف عددها بالضبط، وكان قائده العام أبا جهل بن هشام، وكان القائمون بتموينه تسعة رجال من أشراف قريش، فكانوا ينحرون يوما تسعا ويوما عشرا من الإبل.24

إن رفض الإسلام والتوحيد، والقبول بالكفر والشرك والإلحاد، والانحراف والعدول عن دعوة الحق وتوحيد الله تعالى، وتحكيم الأهواء والشهوات والأراء، والأصنام والعصبية، وحمية الجاهلية، هي محركات ودوافع جيش الكفر الذي كان يعتزم اقتلاع دعوة الإسلام، وهي محركات ودوافع منقطعة لا تحقق نصرا أو تحرز تقدما، أمام محركات ودوافع متصلة بقوة الله والإيمان به. إن الإيمان بالله الواحد وتقواه هو أكبر محرك للبشر لتحقيق النصر، وإحراز التقدم أمام أي قوة ظلامية منقطعة. تحقيق النصر أو النصر، أو تحقيق النصر والنصر، النصر أو الحسنيين. النصر الأول أو الحسنة الأولى هي الغلبة في الميدان، النصر الثاني أو الحسنة الثانية هي الفوز بجنة الله، فإما هذا أو هذا وإما هذا وهذا.

خرجوا من ديارهم كما قال الله تعالى : (بطرا ورئاء الناس ويصدون عن سبيل الله) وأقبلوا كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم _"بحدهم وحديدهم ، يحادون الله ويحادون رسوله" (وغدوا على حرد قادرين) وعلى حمية وغضب وحنق على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، لاجتراء هؤلاء على قوافلهم .

تحركوا بسرعة فائقة نحو الشمال في اتجاه بدر ، وسلكوا في طريقهم وادي عسفان ثم قديد ثم الجحفة ، وهناك تلقوا رسالة جديدة من أبي سفيان يقول لهم فيها : إنكم إنما خرجتم لتحرزوا عيركم ورجالكم واموالكم ، وقد نجاها الله فارجعوا .25

تقدير حجم قوة العدو

إن معرفة حجم قوة العدو أمر مهم في الحروب، بل إن معرفة كل تفاصيل العدو أمر مهم ، لأنها تساعد في تحديد نقاط الضعف فيه ، وتحديد الثغرات التي يمكن أن يؤتى منها ، وتحديد خطط الهجوم أو تغييرها أو تعديلها .

إن معرفة النبي صلى الله عليه وسلم لأحوال جيش مكة وتقدير أعدادهم ، كان عاملا مهما في تحديد نوعية الحرب ومسارها ، ويمكن ملاحظة النقاط الأتية :

1_أنه يوجد اهتمام مباشر ولصيق من القيادة العليا باستقاء المعلومات وتحصيل وجمع الأخبار عن العدو.

2_تحليل المعلومات المستقاة تحليلا دقيقا، فقد تم تقدير أعداد القوة المهاجمة بدقة، من معلومة عدد الذبائح التي تنحر كل يوم.

3_معرفة أسماء أشراف مكة وكبار قادتها أو فلذات كبدها المشاركين في المعركة، من شأنه أن يجعلها حربا فاصلة.

قال ابن إسحاق:

ثم رجع رسول الله صلى الله عليه و سلم إلى أصحابه، فلما أمسى بعث علي بن أبي طالب والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص، في نفر من أصحابه إلى ماء بدر، يلتمسون الخبر له عليه_كما حدثني يزيد بن رومان عن عروة بن الزبير _فأصابوا راوية لقريش فيها أسلم غلام بني الحجاج، وعريض أبو يسار غلام بني العاص بن سعيد، فاتوا بهما فسألوهما ورسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلي، فقالا: نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء فكره القوم خبرهما، ورجوا أن يكونا لأبي سفيان فضربوهما فلما اذلقوهما 26 قالا :نحن لأبي سفيان فتركوهما، وركع رسول الله صلى الله عليه

وسلم وسجد سجدتيه ثم سلم وقال: "إذا صدقاكم ضربتموهما وإذا كذباكم تركتموهما، صدقا والله أنهما لقريش، اخبراني عن قريش؟ "قالا: هم والله وراء هذا الكثيب الذي تري بالعدوة القصوى _والكثيب: العقنقل _فقال لهما رسول الله صلى الله عليه وسلم :"كم القوم"؟ قالا: كثير قال: "ما عدتهم". قالا: لا ندري :قال: " كم ينحرون كل يوم"؟ قالا: يوما تسعا ويوما عشرا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : " القوم فيما بين التسعة مائة والألف "ثم قال لهما:" فمن فيهم من أشراف قريش "؟ قالا: عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، وأبو البختري بن هشام وحكيم بن حزام، ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر بن نوفل، وطعيمة بن عدي بن نوفل، والنضر بن الحارث وزمعة بن الأسود وأبو جهل بن هشام، وأمية بن خلف ونبيه ومنبه أبناء الحجاج، وسهيل بن عمرو وعمرو بن عبد ود، فاقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الناس فقال:" هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها ".27

ذكر الأموي أن أول من نحر لهم حين خرجوا من مكة أبو جهل، نحر لهم عشرا، ثم نحر لهم أمية بن خلف بعسفان تسعا، ونحر لهم سهيل

بن عمروا بقديد عشرا، ومالوا من قديد إلى مياه نحو البحر فظلوا فيها وأقاموا بها يوما فنحر لهم شيبة بن ربيعة تسعا، ثم أصبحوا بالجحفة فنحر لهم يومئذ عتبة بن ربيعة عشرا، ثم أصبحوا بالأبواء فنحر لهم نبيه ومنبه أبناء الحجاج عشرا، ونحر لهم العباس بن عبد المطلب عشرا، ونحر لهم على ماء بدر أبو البختري عشرا، ثم أكلوا من أزوادهم.

ومن ذبائحهم استطاع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يعرف عدد القوم، عندما سأل الغلام الذي أسره المسلمون.28

استشارة الأنصار: إعلان وتقييم حقيقة الوضع

إن الإيمان بالله ورسوله؛ الإيمان بأن لا معبود بحق إلا الله، الإيمان برسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وتصديقه فيما أخبر وطاعته فيما أمر، والانتهاء عما نهى الله عنه وزجر، جعل المقداد بن عمرو يقول: يا رسول الله امض لما أراك الله، فنحن معك. والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا هاهنا قاعدون) ولكن أذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون، فو الذي

بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد 29، لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

وجعل الصحابي "سعد بن معاذ" يقول: قد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

إن حقيقة الوضع تكشفه هذه الكلمات الإيمانية، وهو وضع المجموعة المؤمنة التي لا تخاف ولا تخشى إلا الله.

يقول " أحمد محمد العليمي": المشورة في الإسلام مبدأ ثابت مقرر، أكده الرسول صلى الله عليه وسلم نظريا وعمليا، أكده صلى الله عليه وسلم في الجماعة المسلمة في المدينة عندما واجهت الخطر، إذ أعطاها فرصة إبداء الرأي في كيفية مواجهة ذلك الخطر.

وقبل أن يصبح نظام الشورى خاصا بالدولة الإسلامية وأمورها، فإنه صفة المؤمنين كما قال تعالى:

(وأمرهم شورى بينهم) [الشورى :38]، يتصف بها المسلم في كل أمر من الأمور التي يواجهها في حياته، ما لم يجد فيه نصا من كتاب أو سنة .30

قال " ابن هشام ":

نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم سجسج وهي بئر الروحاء، ثم رحل منها حتى إذا كان بالمنصرف ترك طريق مكة بيسار، وسلك ذات اليمين على النازية يريد بدرا، فسلك في ناحية منها حتي جزع واديا يقال له رحقان، بين النازية وبين مضيق الصفراء، ثم على المضيق ثم انصب منه حتى اذا كان قريبا من الصفراء بعث بسبس بن الجهني حليف بني ساعدة و عدي بن أبي الزغباء الجهني حليف بني النجار إلى بدر، يتحسسان له الأخبار عن أبي سفيان بن حرب وغيره، ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قدمها فلما استقبل الصفراء وهي قرية بين جبلين، سأل عن جبليهما ما أسماءهما ؟ فقالوا: يقال لأحدهما هذا مسلح، ويقال للآخر: هذا مخرئ وسأل عن أهلهما فقيل: بنو النار وبنو حراق بطنان من بني غفار، فكرههما رسول الله صلى الله عليه وسلم والمرور بينهما وتفاءل بأسمائهما وأسماء أهلهما : فتركهما رسول الله

صلى الله عليه وسلم والصفراء بيسار وسلك ذات اليمين على واد يقال له: ذفران فجزع فيه، ثم نزل.

وأتاه الخبر عن قريش بمسيرهم ليمنعوا عيرهم فاستشار الناس، وأخبرهم عن قريش: فقام أبوبكر الصديق فقال وأحسن، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن، ثم قام المقداد بن عمرو فقال: يا رسول الله امض لما أراك الله، فنحن معك والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى (اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ها هنا قاعدون) ولكن اذهب أنت وربك فقاتلا، إنا معكما مقاتلون، فو الذي بعثك بالحق لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه، فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم خيرا، ودعا له به.

ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أشيروا على أيها الناس"، وإنما يريد الأنصار، وذلك أنهم عدد الناس وأنهم حين بايعوه بالعقبة، قالوا: يا رسول الله: إنا براء من ذمامك 31حتى تصل إلى ديارنا، فاذا وصلت إلينا فأنت في ذمتنا، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا.

فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتخوف أن لا تكون الأنصار ترى عليها نصره، إلا ممن

دهمه بالمدينة من عدوه، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو من بلادهم.

فلما قال ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له سعد بن معاذ: والله لكأنك تريدنا يا رسول الله؟ قال: أجل.

قال: فقد آمنا بك وصدقناك، وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة لك، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك، فو الذي بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك، ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا، إنا لصبر في الحرب صدق في اللقاء، لعل الله يريك منا ما تقر به عينك، فسر بنا على بركة الله.

فسر رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول سعد ونشطه ذلك، ثم قال: " سيروا وابشروا، فإن الله تعالى قد وعدني إحدى الطائفتين، والله لكأني الآن أنظر إلى مصارع القوم ".

ثم ارتحل رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذفران، فسلك على ثنايا يقال لها الاصافر، ثم انحط منها إلى بلد يقال له: الدبة، وترك الحنان بيمين وهو كثيب عظيم كالجبل العظيم، ثم نزل قريبا من بدر، فركب هو ورجل من أصحابه.

قال ابن هشام: الرجل هو أبو بكر الصديق.

قال ابن إسحاق: كما حدثني محمد بن يحى بن حبان: حتى وقف على شيخ من العرب، فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم، فقال الشيخ: لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أخبرتنا أخبرناك" قال: أذاك بذاك؟ قال: نعم قال الشيخ: فإنه بلغني أن محمدا وأصحابه خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان صدقني الذي أخبرني فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي به رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبلغني أن قريشا خرجوا يوم كذا وكذا، فإن كان الذي أخبرني صدقني، فهم اليوم بمكان كذا وكذا، للمكان الذي فيه قريش، فلما فرغ من خبره، قال: ممن أنتما؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "نحن من ماء" ثم انصرف عنه، قال يقول الشيخ: ما من ماء أمن ماء العراق؟

قال ابن هشام: يقال: ذلك الشيخ: سفيان الضمري.32

"الحباب بن المنذر": قوة الرأي

قال ابن إسحاق:

فحدثت عن رجال من بني سلمة أنهم ذكروا: أن الحباب بن المنذر بن الجموح قال: يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه، أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال: "بل هو الرأي والحرب والمكيدة"؟

فقال: يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل، فأنهض بالناس حتى تأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب 33 ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون.

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لقد أشرت بالرأي، فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ثم أمر بالقلب فغورت، وبني حوضا على القلب الذي نزل عليه، فملئ ماء ثم قذفوا فيه الآنية.34

وقال "ابن كثير" رحمه الله:

قال الأموي: حدثنا أبي قال وزعم الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال:

بينا رسول الله صلى الله عليه وسلم يجمع الاقماص، وجبريل عن يمينه إذ أتاه ملك من الملائكة فقال يا محمد إن الله يقرأ عليك السلام، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: هو السلام ومنه السلام وإليه السلام.

فقال الملك: إن الله يقول لك إن الأمر هو الذي أمرك به الحباب بن المنذر، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم يا جبريل هل تعرف هذا؟ فقال: ما كل أهل السماء أعرف، وإنه لصادق وما هو بشيطان.

فنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن معه من الناس، فسار حتى أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه، ثم أمر بالقليب فغورت وبنى حوضا على القليب الذي نزل عليه، فملئ ماء ثم قذفوا فيه الآنية. 35

إن النبي صلى الله عليه وسلم قائد عظيم ومؤيد بنصر الله. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي: نصرت بالرعب مسيرة شهر، وجعلت لي الأرض مسجدا وطهورا، فأيما رجل من امتي أدركته الصلاة فليصل، وأحلت لي المغانم ولم تحل لاحد قبلي، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة" 36

واختار الله سبحانه وتعالى محمدا صلى الله عليه وسلم لتبليغ الرسالة، فبلغ صلى الله عليه وسلم الرسالة، وأدى الأمانة.

عن المقداد بن الأسود قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لا يبقى على ظهر الأرض بيت مدر ولا وبر 37، إلا أدخل الله عليه الإسلام، إما بعز عزيز أو بذل ذليل، أما يعزهم فيجعلهم الله من أهل الإسلام فيعزوا به، وإما يذلهم فيدينون له". 38

إن قبول النبي صلى الله عليه و سلم لرأى الصحابي الحباب بن المنذر في حد ذاته رسالة بليغة لكل القادة في ملاقاة الحروب ومواجهة الأعداء، فلا استبداد أو انفراد بالرأي والقرار.

قال" عباس محمود العقاد" في كتاب (عبقرية محمد) :لم يكن الاسلام إذن دين قتال، ولم يكن النبي رجلا مقاتلا يطلب الحرب للحرب، أو يطلبها وله مندوحة عنها، ولكنه مع هذا كان نعم القائد البصير، إذا وجبت الحرب ودعته إليها المصلحة اللازمة، يعلم من فنونها بالالهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمرانة، ويصيب في اختيار وقته، وتسيير جيشه، وترسيم خططه إصابة التوفيق وإصابة الحساب، وإصابة الاستشارة، وقد

يكون الأخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة، تقترن بآية الابتكار والانشاء، لأن القيادة الحسنة هي القيادة التي تستفيد من خبرة الخبير ، كما تستفيد من شجاعة الشجاع، وهي التي تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والاجسام.

وقد كانت غزوة بدر هي التجربة الاولي للنبي عليه السلام في إدارة المعارك الكبيرة، فلم يأنف أن يستمع فيها إلى مشورة الحباب بن المنذر، حين اقترح عليه الانتقال إلى غير المكان الذي نزل فيه، ثم وعى من تجربة واحدة ما قل أن يعيه القادة المنقطعون للحرب من تجارب شتى، فلو تتبع حروبه عليه السلام ناقد عسكري من اساطين فن الحرب في العصر الحديث، ليقترح وراء خططه مقترحا أو ينبه إلى خطأ ، لأعياه التعديل.39

ويضيف "العقاد" ايضاحا قويا آخرا فيقول :كان نابليون معتدا برأيه في الفنون العسكرية، ولا سيما الخطط الحربية، ولكنه كان مع هذا الاعتداد الشديد لا يستغني عن مشاورة صحبه في مجلس الحرب الأعلى، قبل ابتداء الزحف او قبل العزم على القتال. ومحمدا عليه السلام كان على رجاحة رأيه يستشير صحبه في خطط القتال، وحيل الدفاع

ويقبل مشورتهم أحسن قبول، ومن ذلك ما صنعه ببدر_و ألمعنا إليه آنفا_حين أشار عليه الحباب بن المنذر بالانتقال إلى مكان غير الذي نزلوا فيه اول الأمر، ثم بتغوير الآبار، وبناء حوض للشرب لا يصل إليه الأعداء.40

إن الشورى التي هي طلب الرأي من الآخر أو الآخرين في أمر لا يستطيع فيه الفرد اتخاذ القرار جملة واحدة، ولا يبلغ درجة الاطمئنان والسكينة فيه إلا بمشاركة الآخرين، ما هي إلا قيمة أساسية من جملة القيم التي على أساسها يتم التحكم في الصراع بدرجة عالية، وتوجه القوة فيه توجيها سليما، والله تعالى يقول: (وشاورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله إن الله يحب المتوكلين) [آل عمران: 159].

ذكر "ابن عبد البر "في (اختصار المغازي والسير): نزل رسول الله صلى الله عليه و سلم على أدنى ماء من مياه بدر إلى المدينة، فاشار عليه الحباب بن المنذر بن عمرو بن الجموح بغير ذلك، وقال لرسول الله: أرأيت هذا المنزل أمنزل انزلكه الله فليس لنا أن نتقدمه أو نتاخر عنه، أم هو الرأى والحرب والمكيدة؟ فقال عليه السلام: " بل هو الرأى والحرب والمكيدة" فقال :يا رسول الله أن هذا

ليس بمنزل، فانهض بنا حتى ناتي أدنى ماء من القوم فننزله ونغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء فنشرب ولا يشربون، فاستحسن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك من رأيه.41

وقال "ابن كثير" في كتاب (البداية والنهاية): قال ابن إسحاق:

فحدثت عن رجال من بني سلمة أنهم ذكروا، أن الحباب بن منذر بن الجموح قال يا رسول الله، أرأيت هذا المنزل أمنزلا أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه؟ أم هو الرأي والحرب والمكيدة؟ قال:" بل هو الرأي والحرب والمكيدة ". قال: يا رسول الله فان هذا ليس بمنزل، فأمض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله، ثم نغور ما وراءه من القلب، ثم نبني عليه حوضا فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم، فنشرب ولا يشربون.

فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "لقد أشرت بالرأي".42

إن المنزل الذي حدده الصحابي الحباب بن المنذر رضى الله عنه، الذي هو أدني وأقرب ماء من معسكر المشركين يمثل رأيا فرديا يصب (تبعا لتقديره) في مصلحة الجماعة، وقد تأكد صحة هذا التقدير والرأي بعد أن رضيه

رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولاحقا بعد انقضاء الحرب.

هذا الرأي لم يكتمه الصحابي الحباب لأن مصلحة الفرد هي عين مصلحة الجماعة، ومصلحة الجماعة هي ذاتها مصلحة الفرد، وأهداف الفرد هي أهداف الجماعة، وأهداف الجماعة هي ذاتها أهداف الفرد، إنه تمازج الكل في الواحد والواحد في الكل، وتفكير وتخطيط الواحد، هو تفكير وتخطيط الكل، إنها إرادة واحدة وثابتة، لا متعددة ومتباينة.

الرأي الذي أشار به الحباب بن المنذر وقبول النبي صلى الله عليه وسلم به، يوضح أهمية الشورى، وكان هذا الرأي عاملا مهما في انتصار المسلمين، وهي قوة سخرها الله للصحابي الحباب بن المنذر.

وقبل أن نتحدث عن بوادر الانشقاق والاختلاف في صفوف الجيش المكي، نود أن نلفت نظركم إلى جملة من الفوائد أو بالأحرى الدروس والمبادئ، التي يقرها رسول الهدى صلى الله عليه وسلم:

1_ أن الصحابي الحباب بن المنذر أشار بالرأي باعتباره فرد من الأمة والجيش الإسلامي المجاهد ، ويهمه ما يهمه. وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم: "المسلمون تتكافا

دماؤهم، ويسعى بذمتهم أدناهم، ويجير عليهم أقصاهم، وهم يد على من سواهم."43

2_لم تكن اعتبارات صغر سن الصحابي الحباب، لتمنعه من إبداء الرأي.

3_أنه لم يكتم رأيا يتوقع فيه أن يكون سببا في النصر، والحاق الهزيمة بالعدو.

4_الإحساس الكبير بالمسؤولية، والانتماء للدين والدعوة.

5_لم تكن أخلاق وسلوك جيش الإسلام فوضوية، كأن تتم المشاورات وو ضع الخطط دون الرجوع إلى قائد الجيش، بل على العكس من ذلك تماما فإن إبداء الصحابي لرايه، تمثل قمة الانضباط والربط.

6_يمثل رأى الصحابي الحباب قوة سخرها الله له.

7_قبول النبي محمد صلى الله عليه وسلم لرأى الحباب بن المنذر، يعني إشراكه صلى الله عليه وسلم لكافة أفراد الجيش في صنع القرار.

8_يمثل قبول واستئناس قائد الجيش لرأى أحد من أفراد جنده، دفعة معنوية عالية لذلك الفرد، بل لكل أفراد الجيش.

9_قبول قائد الجيش مبدأ الشورى والأخذ به، دلالة على وجود المبادئ الإسلامية السامية، مثل مبدأ المساواة والعدل، والإنصاف والتكامل، والتكافل بين الجميع.

10_يمثل قبول قائد الجيش محمد صلى الله عليه وسلم لرأى الصحابي الحباب بن المنذر، إشراك كافة أفراد الصف الإسلامي في القرار، وتحمل المسؤولية.

11_يمثل إقرار النبي صلى الله عليه وسلم لرأى الصحابي الحباب بن المنذر، محصلة بينة للتفكير الجماعي، والوصول للقرار.

12_الاتحاد والوحدة في جسد الأمة الواحد.

13_ يمثل إقرار النبي صلى الله عليه وسلم لرأى الصحابي الحباب بن المنذر تقديرا من القائد الأعلى للجيش، لكافة أفراد الصف الإسلامي، ومساواتهم في الحقوق والواجبات.

14_ يمثل إقرار النبي صلى الله عليه وسلم لرأى الصحابي الحباب بن المنذر، تطبيقا فعليا لقيمة الشورى في الميدان.

15_ الرأي يؤخذ من الصغير مثلما يقبل من الكبير، سواء بسواء.

بوادر الانشقاق والاختلاف في صفوف المشركين

إن حديث المقداد بن عمرو وسعد بن معاذ، الذي كان يمتلئ بالثقة والإيمان، والرغبة الصادقة والمؤكدة التي لا يخالجها شك أو خشية، كان يقابله في معسكر الشرك حديث الرعب والخشية والشك.

قال عمير بن وهب الجمحي، لما جال بفرسه حول معسكر المسلمين ورجع: ما رأيت شئيا، ولكن قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع. قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فروا رأيكم ؟

نواضح يثرب تحمل الموت الناقع: خبر يشبه التهديد، أو يضع احتمالا قويا بتوقع هزيمة وشيكة، وكان هذا الخبر أول مسمار يدق في نعش معسكر الكفار، إذ سرعان ما تضاربت الآراء وتباينت المواقف.

إن من عوامل الانتصار لأي فريق، أن يدب الخلاف في صفوف الفريق المقابل، فتتزعزع جبهته الداخلية وتتفرق كلمته، فيصبح خائر القوى، يمكن تحقيق النصر على حسابه، وهذا

الذي كان، وهو من فضل الله على المسلمين في بدر.44

قال ابن إسحاق:

وحدثني أبي إسحاق بن يسار وغيره من أهل العلم، عن أشياخ من الأنصار، قالوا لما اطمأن القوم بعثوا عمير بن وهب الجمحي، فقالوا: احزروا لنا أصحاب محمد.

قال: فاستجال بفرسه حول العسكر، ثم رجع إليهم. فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون، ولكن أمهلوني حتى أنظر أللقوم كمين أو مدد؟ قال: فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئا، فرجع إليهم فقال: ما وجدت شيئا، ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع. قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم. والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادهم فما خير العيش بعد ذلك، فروا رأيكم؟

فلما سمع حكيم بن حزام ذلك، مشى في الناس فأتى عتبة بن ربيعة، فقال: يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها، فهل لك إلى أن لا تزال تذكر فيها بخير إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم

قال: ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي، قال: قد فعلت أنت على بذلك، إنما هو حليفي فعلي عقله وما أصيب من ماله، فأت ابن الحنظلية.

قال ابن هشام:

والحنظلية أم أبي جهل، وهي أسماء بنت مخربة، أحد بني نهشل بن دارم بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناة بن تميم فاني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره، يعني أبا جهل بن هشام ثم قام عتبة بن ربيعة خطيبا، فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بإن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر في وجه رجل يكره النظر إليه، قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وان كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون.

قال حكيم: فانطلقت حتى جئت أبا جهل فوجدته قد نثل درعا له من جرابها، فهو يهنئها _قال ابن هشام: يهيئها _فقلت له: يا أبا الحكم إن عتبة أرسلني إليك بكذا وكذا للذي قال فقال: انتفخ والله سحره حين رأى محمدا وأصحابه، كلا والله لا نرجع حتى يحكم الله

بيننا وبين محمد، وما بعتبة ما قال ولكنه قد رأى أن محمدا وأصحابه أكلة جزور، وفيهم ابنه فقد تخوفكم عليه، ثم بعث إلى عامر بن الحضرمي فقال: هذا يريد أن يرجع بالناس وقد رأيت ثأرك بعينك، فقم فانشد خفرتك 45 ومقتل أخيك.

فقام عامر بن الحضرمي فاكتشف، ثم صرخ: واعمراه واعمراه، فحميت الحرب وحقب الناس 46، واستوسقوا على ما هم عليه من الشر، وأفسد على الناس الرأي الذي دعاهم إليه عتبة .47

جاهزية الكفار

نحن ننظر في قوتين متجاورتين في الجزيرة العربية، ومحركين لهاتين القوتين: قوة الإسلام وقوة الكفر، أما قوة الإسلام فإن محركها هو إظهار دعوة التوحيد وعبادة رب العباد، ومحرك قوة الكفر هو العصبية وحمية الجاهلية؛ العصبية والحمية التي دفعت مجتمع قريش للخروج ومواجهة هذه القوة، التي مثلت لها قلقا مستديما، فلم يتخلف من أشرافهم أحد.

تجهز الناس سراعا، وقالوا: ايظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي، كلا والله ليعلمن غير ذلك.

فكانوا بين رجلين، أما خارج وأما باعث مكانه رجلا، وأوعبت قريش فلم يتخلف من أشرافها أحد.48

اجتمعت قوى الشر والكفر كلها على قلب رجل واحد، لسحق الدعوة الإسلامية وغلبة الإسلام وجيش محمد صلى الله عليه وسلم، وجعلوا في قلوبهم حمية الجاهلية، وإعلاء دين الأباء والأجداد، ونصر الوثنية واللات والعزى وهبل، ومن أجل تلك الأباطيل والضلالات، خرجت قريش وأشرافها ولم يتخلف منهم إلا سوى أبي لهب، فإنه عوض عنه رجلا كان له عليه دين، وجمع مشركو مكة القبائل العربية المتاخمة، ولم يتخلف عنهم أحد من بطون قريش إلا بني عدي فإنهم أبوا.

مفاوضات وخلافات داخل الجيش

من عوامل الهزيمة التي منيت بها قريش، وربما أي قوى أخرى تتأهب لحروب فاصلة وحاسمة، هو تفكك الجبهة الداخلية وتضعضعها، وفقدان اتزانها وتماسكها، وقريش باتت ليلتها فما أصبحت، حتى كان اختلاف الرأي بين النخبة قد فشا.

عندما ذهب عمير بن وهب لاستجلاء حقيقة الموقف، وعدد الجيش المحمدي فإنه رجع برهبة ورعب عظيمين، القاهما الله في صدره

وصدور بقية جيش الكفر؛ وهذا الرعب من أول عوامل النصر التي ينصر به الله الجيوش المسلمة التي خرجت جهادا في سبيله، وإعلاء كلمته وابتغاء مرضاته، وقد قال صلى الله عليه وسلم: "ونصرت بالرعب" والنصر بالرعب، وإلقاء الخوف والاضطراب، وعدم القدرة على التماسك والثبات في نسيج العدو، هي ميزة وصفة اختص الله بها نبيه صلى الله عليه وسلم.

رجع عمير بن وهب مرتعبا، وقال: ما وجدت شيئا، ولكني يا معشر قريش رأيت البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم، حتى يقتل رجلا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادكم فما خير العيش بعد ذلك، فروا رأيكم. وكانت هذه الكلمات المرتعبة هي أول مسمار يدق في نعش مشركي مكة ومن والاهم من قبائل العرب، ثم تلا ذلك مسمار أخر أشد انغرازا، وأكثر تشكيكا وتوزيعا للقوى الكافرة، وهي خطبة عتبة بن ربيعة: يا معشر قريش أنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين

محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وان كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون.

قضت قريش ليلتها في معسكرها بالعدوة القصوى، ولما أصبحت أقبلت في كتائبها ونزلت من الكثيب إلى وادي بدر، واقبل نفر منهم إلى حوض رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: دعوهم فما شرب أحد منهم يومئذ إلا قتل سوى حكيم بن حزام فإنه لم يقتل وأسلم بعد ذلك وحسن إسلامه، وكان إذا اجتهد في اليمين قال: لا والذي نجاني من يوم بدر، فلما اطمأنت قريش بعث عمير بن وهب الجمحي للتعرف على مدى قوة جيش المدينة، فدار عمير بفرسه حول العسكر ثم رجع إليهم، فقال: ثلاثمائة رجل يزيدون قليلا أو ينقصون ولكن أمهلوني حتى انظر أللقوم كمين أو مدد ؟فضرب في الوادي حتى أبعد فلم ير شيئا فرجع اليهم فقال: ما وجدت شيئا، ولكني قد رأيت يا معشر قريش البلايا تحمل المنايا، نواضح يثرب تحمل الموت الناقع، قوم ليس معهم منعة ولا ملجأ إلا سيوفهم، والله ما أرى أن يقتل رجل منهم حتى يقتل رجلا منكم، فإذا أصابوا منكم أعدادكم فما خير العيش بعد ذلك، فروا رأيكم.

وحينئذ قامت معارضة أخرى ضد أبي جهل _المصمم على المعركة تدعو إلى العودة بالجيش إلى مكة دونما قتال، فقد مشى حكيم بن حزام في الناس، وأتى عتبة بن ربيعة فقال: يا أبا الوليد إنك كبير قريش وسيدها والمطاع فيها فهل لك إلى خير تذكر به إلى آخر الدهر؟ قال: وما ذاك يا حكيم؟ قال: ترجع بالناس وتحمل أمر حليفك عمرو بن الحضرمي _المقتول في سرية نخلة فقال عتبة: قد فعلت أنت ضامن على بذلك، إنما هو حليفي فعلى عقله ديته وما أصيب من ماله.

ثم قال عتبة لحكيم بن حزام: فأت ابن الحنظلية_ابا جهل، والحنظلية أمه _فإني لا أخشى أن يشجر أمر الناس غيره.

ثم قام عتبة بن ربيعة خطيبا فقال: يا معشر قريش إنكم والله ما تصنعون بأن تلقوا محمدا وأصحابه شيئا، والله لئن أصبتموه لا يزال الرجل ينظر إلى وجه رجل يكره النظر إليه قتل ابن عمه أو ابن خاله أو رجلا من عشيرته، فارجعوا وخلوا بين محمد وبين سائر العرب، فإن أصابوه فذاك الذي أردتم، وان كان غير ذلك ألفاكم ولم تعرضوا منه ما تريدون.49

جيش الإسلام يتوجه إلى بدر

كانت غزوات رسول الله صلى الله عليه و سلم سبع وعشرون، وقيل خمس وعشرون، وقيل تسع وعشرون، الأمهات منها سبع، وهي: بدر الكبرى وأحد والفتح، وحنين والخندق وخيبر وتبوك، وقاتلت معه الملائكة في بدر، ونزلت يوم الخندق.

وكانت كل بعوثه وغزواته وسراياه بعد هجرته صلى الله عليه وسلم من مكة إلى المدينة، حيث أخواله صلى الله عليه و سلم من بني النجار.

وقاتل النبي صلى الله عليه و سلم في تسع غزوات هي: بدر وأحد والخندق، وقريظة والمصطلق وخيبر، والفتح والطائف وحنين، أما سراياه وبعوثه، كانت قريبا من الستين.

وأحداث الغزوات بعضها في سورة (الأنفال)، وبعضها في سورة (آل عمران) و(الأحزاب) و(الحشر) و(الفتح)، قال الله تعالى :(يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون) [الأنفال:65]، (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن

يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) [آل عمران:123_125] (يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنودا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا) [الأحزاب :9].

وجرح منها صلى الله عليه وسلم في غزوة واحدة، وهي أحد، وقاتلت معه الملائكة منها في بدر وحنين، ونزلت الملائكة يوم الخندق، فزلزلت المشركين وهزمتهم .50

عندما تحرك جيش الإسلام لمواجهة جيش الكفر كان قوام الجيش يتألف من ثلاثمائة وثلاثة عشر رجل، ا أو أربعة عشر، أو سبعة عشر، على اختلاف الروايات واعتقب كل ثلاثة منهم على بعير من جملة سبعون بعيرا، هي كل معدات الجيش إضافة إلى فرسين إثنين فقط، فرس للزبير بن العوام وفرس للمقداد بن الأسود الكندي.

ولابد هنا من التنبيه على عظمة الأخلاق المحمدية التي تهدي الأمة وتعلمها الخير، وسبل الصراط المستقيم، فقد كان صلى الله عليه وسلم يتبادل الأدوار مع علي بن أبي

طالب، ومرثد بن أبي مرثد الغنوي على البعير الواحد، رغم أنه القائد الأعلى للجيش.

وفي كتابه (شرح السنة) بوب الإمام "البغوي" باب (العقبة) وأورد حديث عبد الله بن مسعود. قال: كنا يوم بدر كل ثلاثة على بعير، قال: فكان أبو لبابة وعلي بن أبي طالب زميلي رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: فكانت إذا جاءت عقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم قالا: نحن نمشي عنك قال: ما أنتما بأقوى مني وما أنا بأغنى عن الأجر منكما .51

كان النبي صلى الله عليه وسلم يتصف بالحنكة والحكمة الكبيرتين، والتدبير العظيم، ومن قيادته الحكيمة توزيع الأدوار والقيادات، ويمكن ملاحظة النقاط التالية التي تدل على الحكمة وحسن التدبير:

1_اهتمامه صلى الله عليه وسلم بأمر وشئون المسلمين في المدينة، كما اهتمامه بالجيش الإسلامي الزاحف إلى بدر، فقد أوكل شئون القيادة الخلفية في المدينة إلى عبد الله بن أم مكتوم، واستبدله لاحقا بأبي لبابة، وهذا تدبير قائد خبير لا تفوته شاردة أو يغيب عنه أمر لتأمين الأمة المسلمة.

2_اهتمامه صلى الله عليه وسلم بجيش الإسلام، وتوزيع قياداته، وتحديد مهامه.

3_اهتمامه صلى الله عليه وسلم بأفراد الجيش الإسلامي، وتقاسمه صلى الله عليه وسلم معه الأعباء والنصب والتعب، وهذا معني جامع يستفيد منه الفرد المسلم معاني الالتزام والإيثار، والتضحية والتواضع والمحبة.

استخلف النبي صلى الله عليه وسلم على المدينة وعلى الصلاة ابن أم مكتوم فلما كان بالروحاء، رد أبا لبابة بن عبد المنذر واستعمله على المدينة.

دفع النبي صلى الله عليه وسلم لواء القيادة العامة إلى مصعب بن عمير القرشي العبدري، وكان هذا اللواء أبيض.

وقسم جيشه إلى كتيبتين:

1_كتيبة المهاجرين وأعطى علمها علي بن أبي طالب.

2_كتيبة الأنصار وأعطى علمها سعد بن معاذ.

وجعل على قيادة الميمنة الزبير بن العوام وعلى الميسرة المقداد بن عمرو، وجعل على الساقة قيس بن أبي صعصعة، وظلت القيادة العامة في يده صلى الله عليه وسلم كقائد أعلى للجيش.52

قبل ساعة الصفر: تسوية الصفوف والترتيب الأخير

كان استعداد المسلمين للمواجهة كبيرا، والروح المعنوية مرتفعة، وهما شيئيان كان لهما أكبر الأثر في قلب الموازين العادية المحسوسة للقوة، فإنه على رغم القلة في العدد: ثلاثمائة وثلاثة عشر جندي في مقابل ألف وثلاثمائة من العدو، وفرسين مقابل مائة فرس، على رغم ذلك فإن الإيمان الكبير الذي يملأ قلوب جند الإسلام، كان كفيلا بتغيير هذه الموازين غير المتساوية، لتصبح كفة المسلمين هي الأرجح والأوفر.

ما يؤكد ارتفاع الروح المعنوية إلى درجات عالية لدى المسلمين، هو موقف الصحابي سواد بن غزية، فقد كان سواد رضي الله عنه بارزا عن الصف، وأرجعه النبي صلى الله عليه وسلم إلى مستوي الصف بقدح كان يساوي به، فقال سواد: يا رسول الله أوجعتني فأقدني، فكشف عن بطنه، وقال: "استقد" 53فاعتنقه سواد وقبل بطنه، فقال: "ما حملك على هذا يا سواد "؟ قال: يا رسول الله قد حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدي جلدك.

إن تقبيله رضى الله عنه لبطن أشرف الخلق صلى الله عليه وسلم، يعبر أصدق تعبير عن درجات كبيرة لا حدود لها في الإيمان والطاعة والمحبة، والتضحية والفداء، والرغبة الكبيرة المدفوعة والمحركة فقط بالإيمان بالخالق، والإيمان بالنبي محمد صلى الله عليه وسلم في نصر الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

أما المشركين وعلى رأسهم قائد الكفر أبو جهل فكانت دعوته مختلفة، فقام يدعو: اللهم اقطعنا للرحم، وآتانا بما لا نعرفه، فأحنه الغداة اللهم أينا كان أحب إليك وأرضى عندك، فانصره اليوم. كانت دعوته مختلفة. ولكنها متشابهة مع دعاء الكفرة وأئمة الضلال في كل الأزمان قال فرعون قبله: (وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد) [غافر:26].

لما طلع المشركون وترآى الجمعان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني اللهم أحنهم الغداة".

ساعة الصفر

وكان أول وقود المعركة الأسود بن عبد الأسد المخزومي _وكان رجلا شرسا سيء الخلق خرج قائلا: أعاهد الله لأشربن من حوضهم، أو لأهدمنه أو لاموتن دونه. فلما خرج إليه حمزة بن عبد المطلب رضي الله عنه، فلما التقيا ضربه حمزة فأطن 54قدمه بنصف ساقه، وهو دون الحوض فوقع على ظهره تشخب 55 رجله دما نحو أصحابه، ثم حبا إلى الحوض حتى اقتحم فيه، يريد أن تبر يمينه، ولكن حمزة ثنى عليه بضربة أخرى أتت عليه وهو داخل الحوض.56

وكان هذا أول قتل أشعل نار المعركة، فقد خرج بعده ثلاثة من خيرة فرسان قريش، كانوا من عائلة واحدة، وهم عتبة وأخوه شيبة أبناء ربيعة والوليد بن عتبة، فلما انفصلوا من الصف طلبوا المبارزة، فخرج إليهم ثلاثة من شباب الأنصار عوف ومعوذ، أبناء الحارث وأمهما عفراء وعبد الله بن رواحة فقالوا: من أنتما ؟قالوا: رهطكم الأنصار، قالوا :أكفاء كرام مالنا بكم حاجة وإنما نريد بني عمنا ثم نادي مناديهم : يا محمد أخرج إلينا أكفاءنا من قومنا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة وقم يا علي "فلما قاموا ودنوا

منهم، قالوا: من أنتم؟ فأخبروهم فقالوا: أنتم أكفاء كرام فبارز عبيدة _وكان أسن القوم_ عتبة بن ربيعة وبارز حمزة شيبة، وبارز علي الوليد، فأما حمزة وعلي فلم يمهلا قرنيهما أن قتلاهما، وأما عبيدة فاختلف بينه وبين قرنه ضربتان، فاثخن كل واحد منهما صاحبه، ثم كر علي وحمزة على عتبة فقتلاه، واحتملا عبيدة وقد قطعت رجله، فلم يزل صمتا حتى مات بالصفراء بعد أربعة أو خمسة أيام من وقعة بدر، حينما كان المسلمون في طريقهم إلى المدينة.

وكان علي يقسم بالله أن هذه الآيات نزلت فيهم (هذان خصمان اختصموا في ربهم) الآية.

ثمة إشارات وملاحظات يجب الوقوف عندها في هذه البداية الجيدة للمسلمين، السيئة على المشركين:

أولا: مبادرة جيش الأنصار في بدء أولى عمليات القتال.

فإن عوف ومعوذ أبناء الحارث، وعبد الله بن رواحة هم من شباب الأنصار الذين تقدموا الصفوف، نصرة لدين الله في أولى عمليات القتال ومبارزة المشركين.

كونهم رضوان الله عليهم شبابا فإنها أيضا دلالة لوحدها لتمكن وعمق الإيمان في قلوب الشباب، مثلما هو عميق وأمكن في قلوب آبائهم _عليهم رضوان الله أجمعين _وان أمة يتسابق شبابها على إعلاء الدين وتمكينه، ينصرها الله تعالى.

ثانيا: أسد الله حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه يوقع أولى الخسائر والهزيمة بالمشركين الممثلة بسيفه في ثلاثة ضحايا، وهم الأسود بن عبد الأسد المخزومي، وشيبة بن ربيعة، وعتبة بن ربيعة.

ثالثا: انخفاض معنويات جيش مكة بعد قتل أربعة منه في أول بداية الحرب، وهي بداية سيئة وقاسية عليه.

رابعا: يقابل ذلك ارتفاع معنويات الجيش المحمدي، بعد كسب أول جولة في بداية الحرب، وهي بداية جيدة ترفع من همتهم واستعدادهم للحرب، رغم قلة عددهم وعتادهم.

خامسا: يعتبر وقوع أربعة قتلى في أول الحرب هي بمثابة ضربات استباقية، غيرت من مسار الحرب، وميزان قوى جديد لم يألفه جيش مكة.

كانت نهاية هذه المبارزة بداية سيئة بالنسبة للمشركين، فقدوا ثلاثة من خيرة فرسانهم وقادتهم دفعة واحدة، فاستشاطوا غضبا وكروا على المسلمين كرة رجل واحد.

أما المسلمون فبعد أن استنصروا ربهم واستغاثوه، وأخلصوا له وتضرعوا إليه، تلقوا هجمات المشركين المتوالية وهم مرابطون في مواقعهم، واقفون موقف الدفاع، وقد الحقوا بالمشركين خسائر فادحة، وهم يقولون: أحد أحد.57

يمكن القول إن هذه البداية السيئة للمشركين، بعد تنفيذ جيش الإسلام ما يمكن تسميته والتعبير عنه بالضربات الاستباقية الرابحة، القول بأنها خلقت ربكة واضطراب في صفوف المشركين، وترتب على ذلك الاضطراب فقدان ذلك الجيش لعنصري النظام والاتزان، وحل مكانهما على أهميتهما الفائقة والقصوى، عنصري الفوضى والاضطراب، وهي نقاط ضعف عجلت باندحارهم وهزيمتهم.

القوة الإلهية: مدد السماء

واغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة واحدة، ثم رفع رأسه فقال: "أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع" (أي الغبار) وفي رواية محمد بن إسحاق: قال:

رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أبشر يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثناياه النقع".

ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من باب العريش وهو يثب في الدرع، ويقول: (سيهزم الجمع ويولون الدبر). [القمر:45] ثم أخذ حفنة من الحصباء فاستقبل بها قريشا وقال: "شاهت الوجوه" ورمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينه ومنخريه وفمه من تلك القبضة، وفي ذلك أنزل الله: (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) [الانفال:17].

وحينئذ أصدر إلى جيشه اوامره الأخيرة بالهجمة المضادة، فقال: " شدوا "وحرضهم على القتال قائلا:"والذي نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا، مقبلا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة "وقال وهو يحضهم على القتال :"قوموا إلى جنة عرضها السموات والارض "(وحينئذ)قال العمير بن الحمام :بخ بخ فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم :" ما يحملك على قولك:بخ بخ؟"قال:لا والله يا رسول الله، إلا رجاء أن اكون من أهلها قال:"فانك من أهلها "فاخرج تمرات من قرنه فجعل ياكل منهن، ثم قال :لئن أنا حييت حتى اكل تمراتي هذه إنها لحياة

طويلة، فرمى بما كان معه من التمر ثم قاتلهم حتى قتل.

وكذلك سأله عوف بن الحارث _إبن عفراء_فقال :يارسول الله ما يضحك الرب من عبده !قال غمسه يده في العدو حاسرا، فنزع درعا كانت عليه فقذفها ثم أخذ سيفه، فقاتل القوم حتى قتل.

وحين أصدر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمر بالهجوم المضاد، كانت حدة هجمات العدو قد ذهبت وفتر حماسه، فكان لهذه الخطة الحكيمة أثر كبير في تعزيز موقف المسلمين، فإنهم حينما تلقوا أمر الشد والهجوم _وقد كان نشاطهم الحربي على شبابه_قاموا بهجوم كاسح مرير، فجعلوا يقلبون الصفوف ويقطعون الاعناق، وزاد نشاطهم وحدة أن رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم يثب في الدرع، ويقول في جزم وصراحة (سيهزم الجمع ويولون الدبر) فقاتل المسلمون أشد القتال، ونصرتهم الملائكة، ففي رواية إبن سعد عن عكرمة قال:كان يومئذ يندر رأس الرجل لا يدري من ضربه، وتندر يد الرجل لا يدري من ضربها، وقال إبن عباس:بينما رجل من المسلمين يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه إذ سمع ضربة بالسوط

فوقه وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم 58، فنظر إلى المشرك أمامه، فجاء الانصاري فحدث بذلك رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال: "صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة".

وقال أبو داود المازني: إني لاتبع رجلا من المشركين لاضربه، إذ وقع راسه قبل أن يصل إليه سيفي، فعرفت أنه قد قتله غيري، وجاء رجل من الأنصار بالعباس بن عبد المطلب اسيرا، فقال العباس: ان هذا والله ما اسرني لقد اسرني رجل اجلح، من أحسن الناس وجها، على فرس ابلق وما أراه في القوم، فقال الانصاري: أنا اسرته يا رسول الله فقال: "اسكت فقد أيدك الله بملك كريم". 59

وقد تباينت الأقوال في مشاركة الملائكة عليهم السلام في القتال في بدر، هل كانت مشاركة بالقتال فعليا، أم مشاركة بالحضور وليس القتال، وكل قول يؤيد ما ذهب إليه، فمن يعتبر قتالهم المشركين فعليا والتحاما مباشرا، يستدل بقوله تعالى:

(ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من

الملائكة مسومين. وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) [آل عمران: 123-126].

وقال تعالى:

(إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين. وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم. إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام) [الأنفال:11__9]. وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في صحيح مسلم في أثناء حديث عن غزوة بدر، من حديث ابن عباس قال: حدثنا زهير بن حرب _واللفظ له حدثنا عمر بن يونس الحنفي، قال حدثنا عكرمة بن عمار قال حدثني أبو زميل هو سماك الحنفي، قال حدثني عبد الله ابن عباس قال حدثني عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف ،وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا ،فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يديه فجعل يهتف بربه:" اللهم أنجز لي ما وعدتني ،اللهم آت ما وعدتني ،اللهم إن

تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض "فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه .فاتاه أبو بكر فاخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه ،وقال :يا نبي الله كذاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك ،فانزل الله عز وجل :(ذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) فأمده الله بالملائكة.

قال أبو زميل: فحدثني ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه وصوت الفارس يقول أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا، فنظر إليه فإذا هو قد خطم 60 أنفه وشق وجهه، كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "صدقت، ذلك من مدد السماء الثالثة". 61

ومن يؤكد أن مشاركة الملائكة كانت بالحضور وليس القتال، فإنه يستدل بحديث "البخاري" رحمه الله: (باب شهود الملائكة بدرا) حدثني إبراهيم بن موسي أخبرنا عبد الوهاب حدثنا خالد عن عكرمة عن ابن عباس

رضي الله عنهما أن النبي صلي الله عليه و سلم قال يوم بدر: " هذا جبريل آخذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب". والحديث الأخر في صحيح البخاري: حدثني إسحاق بن إبراهيم أخبرنا جرير عن يحي بن سعيد عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه _وكان أبوه من أهل بدر قال:

جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: "من أفضل المسلمين "_أو كلمة نحوها _قال وكذلك من شهد بدرا من الملائكة.

كلا القولين يثبتا وجود المشاركة، الاختلاف في نوعية المشاركة هل هي مشاركة بالحضور، أم مشاركة بالحضور والالتحام المباشر الفعلي مع العدو. الخلاصة أننا أمام ثلاثة أقوال:

القول الأول: هو ثبوت مشاركة الملائكة في غزوة بدر.

القول الثاني: هو مشاركة الملائكة بالقتال الفعلي.

القول الثالث: هو مشاركة الملائكة بالحضور وليس القتال.

إن ثبوت المشاركة هو ما يطمئن له كلا الطرفين، لقوله سبحانه وتعالى في الآيات الكريمة، وكلام الله هو الحق لا يزيغ عنه إلا هالك؛ هذه المشاركة إذا تخيلها وتصورها أي فرد، فإنها تمثل شيئا يتعدى المفهوم والمعقول (شأنها في ذلك شأن قصة الإسراء والمعراج التي تقدم الحديث عنها) وتعتبر للفرد المسلم وغير المسلم ظاهرة تتجاوز المعقول والطبيعي، وتعتبر أيضا للفرد غير المسلم ظاهرة غير طبيعية يصعب على العقل البشري تصديق وقوعها، لأنه لا يؤمن بالله ولا ملائكته، أما الفرد المسلم يصدق ذلك ويؤمن به، وهذا هو الفرق بين جيش الإسلام الذي يؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وجيش الكفر الذي لا يؤمن بالله ولا ملائكته وكتبه ورسله.

إن بقاء الدولة واستدامتها هو من بقاء قوتها، فإذا كانت الدولة قوية منيعة فهي باقية وتتمدد، وإن كانت ضعيفة سقطت وتهاوت، والرجال أو الجيش هو الركن الشديد الذي تقوم عليه.

إن الدولة تحتاج إلى رجال وقوة، ولكن رجال أتقياء موحدين يعرفون الله، وإلى قوة ولكنها في حاجة أكبر إلى القوة الإلهية.

ذكر "ابن خلدون" أهم سببين يحدثا الخلل في قوة الدول وتماسكها، وجعلها قاعدة وسنة من سنن البقاء أو الفناء: أعلم أن مبنى الملك علي أساسين لا بد منهما، فالأول الشوكة والعصبة، وهو المعبر عنه بالجند، والثاني المال الذي هو قوام أولئك الجند، وإقامة ما يحتاج إليه الملك من الأحوال، والخلل إذا طرق الدولة طرقها في هذين الأساسين. 62

إن دفع العدو ومجاهدته يحفظ للفرد المسلم نفسه ودينه، وماله ونسله وعقله. قال الله تعالى: (وجاهدوا في الله حق جهاده هو اجتباكم وما جعل عليكم في الدين من حرج ملة أبيكم إبراهيم هو سماكم المسلمين من قبل وفي هذا ليكون الرسول شهيدا عليكم وتكونوا شهداء على الناس فأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير) [الحج :78].

مقصود الشرع من الخلق خمسة، وهو أن يحفظ عليهم دينهم ونفسهم، وعقلهم ونسلهم ومالهم، فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة فهو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول فهو مفسدة ودفعها مصلحة. 63

ذكر ابن إسحاق حديثين ل عبد الله ابن أبي بكر، الأول حدث فيه عن ابن عباس، والثاني عن بعض بني ساعدة عن مشاركة الملائكة في غزوة بدر.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدث عن ابن عباس قال: حدثني رجل من بني غفار قال: أقبلت أنا وابن عم لي حتى أصعدنا في جبل يشرف بنا على بدر، ونحن مشركان ننتظر الوقعة على من تكون الدبرة 64، فننتهب مع من ينتهب، قال: فبينا نحن في الجبل إذ دنت منا سحابة فسمعنا فيها حمحمة الخيل، فسمعت قائلا يقول: أقدم حيزوم. فأما ابن عمي فانكشف قناع قلبه فمات مكانه، وأما أنا فكدت أهلك ثم تماسكت.

قال ابن إسحاق: وحدثني عبد الله بن أبي بكر عن بعض بني ساعدة عن أبي أسيد مالك بن ربيعة وكان شهد بدرا، قال بعد أن ذهب بصره: لو كنت اليوم ببدر ومعي بصري، لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك فيه ولا أتمارى.65

وذكر ابن إسحاق حديثين آخرين عن مقسم مولى عبد الله بن الحارث، عن ابن عباس، عن مشاركة الملائكة في غزوة بدر.

قال ابن إسحاق: وحدثني من لا اتهم عن مقسم مولى عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن عباس قال: كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيضا قد أرسلوها على ظهورهم، ويوم حنين عمائم صفراء.

قال ابن إسحاق: وحدثني من لا اتهم عن مقسم عن ابن عباس قال: ولم تقاتل الملائكة في يوم سوى بدر من الأيام، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عددا ومددا لا يضربون. 66

وبوب الإمام ابن حجر (باب شهود الملائكة بدرا) وشرح فيه حديث البخاري: حدثنا اسحاق بن ابراهيم اخبرنا جرير عن يحي بن سعيد عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي عن أبيه، وكان أبوه من أهل بدر، قال:جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال:ما تعدون أهل بدر فيكم ؟قال :"من أفضل المسلمين"_أو كلمة نحوها_قال :وكذلك من شهد بدرا من الملائكة.. قوله :(باب شهود الملائكة بدرا) تقدم القول في ذلك قبل بابين وأخرج يونس بن بكير في زيادات"المغازي"والبيقهي من طريق الربيع بن أنس قال:كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة من قتلى الناس، بضرب فوق الاعناق وعلى البنان مثل وسم النار.67

قال شيخ الإسلام ابو الحسن السبكي رحمه الله تعالى:سئلت عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي صلى الله عليه وسلم، مع أن جبريل قادر على أن يدفع الكفار بريشة من جناحه، فأجبت: وقع ذلك لارادة أن يكون الفعل للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فتكون الملائكة مددا على عادة مدد الجيوش، رعاية لصورة الأسباب وسننها التي أجزأها الله تعالى في عباده، والله تعالى فاعل الأشياء.68

التوجه إلى الله بالدعاء وقت المواجهة

الفرد المسلم الموحد يدعو الله وحده، ويستغيث به، ويدعوه بأسمائه الحسنى وصفاته العليا في سلمه وحربه وكل سكناته، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدعو في يوم بدر، في الحديث الذي رواه البيهقي من حديث علي بن أبي طالب _رضي الله عنه_قال:"لما كان يوم بدر قاتلت شيئا من قتال، ثم جئت مسرعا لانظر إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فعل، فجئت فاذا هو ساجد يقول :يا حي يا قيوم يا حي يا قيوم، لا يزيد عليها فرجعت إلى القتال، ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك، ثم

ذهبت إلى القتال ثم جئت وهو ساجد يقول ذلك، فلم يزل يقول ذلك حتي فتح الله عليه". 69

إن حقيقة الدعاء في السلم أو الحرب، أن الفرد الموحد يؤمن أن الله سبحانه وتعالى عالم بكل شي، وهو العليم الذي لا يعزب عن علمه شئ، فهو يعلم دبيب النملة السوداء في الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويعلم ما تسقط من ورقة، قال الله تعالى :(وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) [الأنعام :59]،(ان الله عالم غيب السماوات والأرض إنه عليم بذات الصدور) [فاطر:38].

وأنه عالم بجميع المعلومات، محيط بما يجري من تخوم الارضين إلى أعلى السموات، وأنه عالم لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في الارض ولا في السماء، بل يعلم دبيب النملة السوداء على الصخرة الصماء في الليلة الظلماء، ويدرك حركة الذر في جو الهواء، ويعلم السر واخفى، ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر، وخفيات السرائر، بعلم قديم ازلي لم يزل موصوفا به في أزل الآزال،

لا بعلم متجدد حاصل في ذاته بالحلول والانتقال.70

ويعلم الفرد الموحد، وهو يدعو الله أنه سبحانه وتعالى بيده كل شئ، وأن أمره بين الكاف والنون، قال الله تعالى :(إنما أمره إذا أراد شيئا ان يقول له كن فيكون) [يس:82] ،وهو فعال لما يريد، قال الله تعالى :(إن بطش ربك لشديد. إنه هو يبدئ ويعيد. وهو الغفور الودود. ذو العرش المجيد. فعال لما يريد) [البروج:16_12]، وقال تعالى :(فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد في السماء كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون) [الأنعام :125]، ولا يجعل له ندا أو عدلا، قال الله تعالى :(ليس كمثله شئ وهو السميع البصير) [الشورى : 11]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي يرويه إبن عباس رضي الله عنه، قال:جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه و سلم فقال ما شاء الله وشئت قال :"جعلتني عدلا قل ما شاء الله ". 71

وأنه تعالى مريد للكائنات، مدبر للحادثات، فلا يجري في الملك والملكوت قليل أو كثير، صغير أو كبير، خير أو شر، نفع أو

ضـــــر، إيمان أو كفر، عرفان أو نكر، فوز أو خسران، زيادة أو نقصان، طاعة أو عصيان، إلا بقضائه وقدره، وحكمته ومشيئته، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، لا يخرج عن مشيئته لفتة ناظر، ولا فلتة خاطر، بل هو المبدئ المعيد، الفعال لما يريد، لا راد لأمره، ولا معقب لقضائه، ولا مهرب لعبد عن معصيته إلا بتوفيقه ورحمته، ولا قوة له على طاعته، إلا بمشيئته وارادته، فلو اجتمع الأنس والجن، والملائكة والشياطين، على أن يحركوا في العالم ذرة، أو يسكونها دون اراداته ومشيئته، لعجزوا عن ذلك، وان ارادته قائمة بذاته في جملة صفاته، لم يزل كذلك موصوفا بها، مريدا في ازله لوجود الأشياء في أوقاتها التي قدرها، فوجدت في أوقاتها، كما أراده في ازله، من غير تقدم ولا تاخر، بل وقعت على وفق علمه وارادته، من غير تبدل ولا تغير، دبر الأمور لا بترتيب أفكار، ولا تربص زمان، فلذلك لم يشغله شأن عن شأن.. وأنه تعالى سميع بصير، يسمع ويرى، ولايعزب عن سمعه مسموع وان خفي، ولا يغيب عن رؤيته مرئي وان دق، ولا يحجب سمعه بعد، ولا يدفع رؤيته ظلام، ويرى من غير حدقة واجفان، ويسمع من غير أصمخة واذان، كما يعلم بغير قلب، ويبطش بغير جارحة، ويخلق بغير آلة،

إذ لا تشبه صفاته صفات الخلق، كما لا تشبه ذاته ذوات الخلق.72

ويعلم الفرد الموحد، أنه تعالى القادر القدير على كل شيء، وأنه قادر على نصره وإلحاق الهزائم والبوار بالعدو، وأنه تعالى يزهق الباطل، ويحق الحق، قال تعالى: (إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين) [الذاريات:58]، وقال تعالى: (وكأين من قرية هي أشد قوة من قريتك التي أخرجتك أهلكناهم فلا ناصر لهم) [محمد:13].

وأنه تعالى حي قادر جبار قاهر، لا يعتريه قصور ولا عجز، ولا تأخذه سنة ولا نوم، ولا يعارضه فناء ولا موت، وأنه ذو الملك والملكوت، والعزة والجبروت، له السلطان والقهر، والخلق والأمر، والسموات مطويات بيمينه، والخلائق مقهورون في قبضته، وأنه المنفرد بالخلق والاختراع، المتوحد بالايجاد والإبداع، خلق الخلق واعمالهم، وقدر ارزاقهم وآجالهم، لا يشذ عن قبضته مقدور، ولا يعزب عن قدرته تصاريف الأمور، لاتحصى مقدوراته، ولا تتناهى معلوماته73.

دعاء النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم أحنهم الغداة

توجه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الله بالدعاء أن ينصره، وينصر العصبة المسلمة على المشركين.

إن المسلم يدعو الله سبحانه وتعالى في أحواله كلها، إن كان في سلم فهو في حاجة إلى رحمة الله ومعونته ورضاه، وان كان في شدة فهو في حاجة إلى الله لمعونته ورحمته ونصره، لأن الأمر كله لله. رفعت الأقلام وجفت الصحف.

وبوب الإمام "ابن حجر العسقلاني" باب (التوكل والصبر) في كتاب (هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة) وذكر فيه حديث ابن عباس قال: كنت خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقال: "يا غلام! احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف".

فلما نزل جاءه سعد بن معاذ فقال: يا رسول الله نبني لك عريشا من جريد، فتكون فيه ونترك عندك ركائبك، ثم نلقى عدونا فإن أعزنا الله وأظهرنا الله عليهم، كان ذلك مما أحببناه، وإن كانت الأخرى جلست على ركائبك فلحقت بمن وراءنا من قومنا، فقد تخلف عنك أقوام ما نحن بأشد حبا لك منهم، ولو ظنوا أنك تلقى حربا ما تخلفوا عنك، يمنعك الله بهم يناصحونك ويحاربون معك.

فأثنى عليه خيرا ثم بنى لرسول الله صلى الله عليه وسلم عريش، وأقبلت قريش بخيلائها وفخرها فلما رآها قال: "اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها، تحادك 74 وتكذب رسولك اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم 75الغداة ". 76

إن الموقف في ساحة المعركة ليس موقف تفصيل وبيان، وإنما هو موقف تذكير وحث على الثبات، انه موقف لإيقاظ عرى الإيمان في القلوب المؤمنة الصادقة، الطالبة لرضي الله سبحانه وتعالى.

في حديث ساقه الإمام مسلم طويل وفيه:

"...وجاء المشركون فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يقدمن أحد منكم إلى شيء، حتى أكون أنا دونه، فدنا المشركون، فقال رسول

الله صلى الله عليه وسلم : "قوموا إلى جنة عرضها السماوات والأرض ".

وقال ابن إسحاق:

"..ثم خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الناس فحرضهم، وقال:" والذي نفس محمد بيده، لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسبا مقبلا غير مدبر، إلا أدخله الله الجنة 77."

ودعا النبي صلى الله عليه وسلم الله سبحانه وتعالى قبل بدء الحرب: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض". 78

والفرد المسلم يدعو الله النصر، لأن النصر من الله وبيده، وهو يدعوه فيما يملكه سبحانه وتعالى، و هذا الطلب في حد ذاته إقرار وتوحيد لرب العالمين بالربوبية، فهو عز وجل المعطي والمانع، والوهاب والقوي.

إن النصر وغلبة الأعداء لا يظهر بكثرة العدد أو أسباب القوة، وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله، إنما يظهر بإذن الله وإرادته ومشيئته، بالتوكل عليه، والإنابة له.

إن طلب المدد والمعونة في بداية الحرب أو أثناها، هو إقرار واعتراف بحقيقة مضمونها: عدم مقدرة هذه القوة المحاربة للوصول إلى الهدف المناط بها، وإقرار بحقيقة الضعف الذي يجعل من القوة في كفة العدو هي القوة الراجحة، وينبغي الاستعانة بقوة أخرى، بما يمكن معه أحداث الخلل في ميزان القوى غير المتعادل، وترجيح ذلك لهم للوصول للأهداف المطلوبة.

أما جيش الإسلام في بدر، لم يطلب هذه المعونة والمساندة من جيوش أخرى، ولكنه توجه بطلبه إلى من يملك القوة الكاملة والمطلقة، التي لا يشوبها نقص، أو يعتريها ضعف وعطب. طلبها من الله عز وجل: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض".

والحديث رواه مسلم في صحيحه:

حدثنا زهير بن حرب _واللفظ له قال: حدثنا عمر بن يونس الحنفي قال: حدثنا عكرمة بن عمار قال: حدثني أبو زميل: هو سماك الحنفي قال: حدثني عبد الله ابن عباس قال: حدثني عمر بن الخطاب، قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى

المشركين وهم ألف، وأصحابه ثلاثمائة وتسعة عشر رجلا، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة ثم مد يديه، فجعل يهتف بربه: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آت ما وعدتني، اللهم انك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض"، فما زال يهتف بربه، مادا يديه مستقبل القبلة، حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداؤه، فألقاه على منكبيه، ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك، فانزل الله عز وجل: (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) [الأنفال:9] فأمده الله بالملائكة .

قال أبو زميل: فحدثني ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم. فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا، فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة" فقتلوا يومئذ سبعين وأسروا سبعين. قال أبو

زميل: قال ابن عباس: فلما أسروا الأسارى، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وعمر: "ما ترون في هؤلاء الأسارى؟" فقال أبوبكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة، أرى أن تأخذ منهم فدية، فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم للإسلام، فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: " ما تري يأبن الخطاب؟ "قلت: لا والله يا رسول الله، ما أرى الذي رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم، فتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكني من فلان نسيبا لعمر_ فاضرب عنقه، فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها، فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما قال أبو بكر، ولم يهو ما قلت.79

كيفية الحرب

كثرة النيران وتتابعها وكثافتها، تعتبر من الكيفيات التي تستخدمها الفئة الكثيرة أو الجيش الكبير، لضمان القمع التام وتحصيله في وقت وجيز، إلا أن عيوبه ومساوئه هي حدوث انقطاع ونقص في الذخائر المستخدمة بصورة متوالية ومتصلة، وهي نقطة الضعف التي ربما تستغلها الفئة القليلة.

وربما تعمد بأي خدعة كانت إلى تشتيت النيران والهجوم، إلى الدرجة التي ربما

تكون فيها كفتي القوة متساويتان أو قريبا من ذاك.

أما استبقاء النيران واقتصادها وتوجيهها توجيها تتوخى فيه الدقة إلى أبعد حد، فهي من الكيفيات التي تستخدمها الفئة القليلة، وهذا ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم.

عن أبي أسيد قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم بدر: "إذا أكثبوكم فارموهم بالنبل، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم".80

وفي صحيح البخاري:

حدثنا أبو نعيم حدثنا عبد الرحمن بن الغسيل عن حمزة بن أبي أسيد عن أبيه، قال: قال النبي صلى الله عليه وسلم يوم بدر حين صففنا لقريش وصفوا لنا: " إذا أكثبوكم فعليكم بالنبل". 81

حدثني محمد بن عبد الرحيم حدثنا أبو احمد الزبيري حدثنا عبد الرحمن بن الغسيل عن حمزة بن أبي أسيد والمنذر بن أبي أسيد عن أبي أسيد رضي الله عنه قال: قال لنا رسول صلى الله عليه وسلم يوم بدر: "إذا أكثبوكم _يعني أكثروكم_ فأرموهم واستبقوا نبلكم".82

قوله: "إذا أكثبوكم "بمثلثة ثم موحدة أي: إذا قربوا منكم، ووقع في الرواية الثانية: يعني أكثروكم، وهو تفسير لا يعرفه أهل اللغة، وقد قدمت في الجهاد أن الداوودي فسره بذلك وأنه أنكر عليه، فعرفنا الآن مستنده في ذلك وهو ما وقع في هذه الرواية، لكن يتجه الإنكار لكونه تفسيرا لا يعرفه أهل اللغة، وكأنه من بعض رواته، فقد وقع في رواية أبي داود في هذا الموضع يعني: غشوكم، وهو بمعجمتين والتخفيف، وهو أشبه بالمراد ويؤيده ما وقع عند ابن إسحاق: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر أصحابه أن لا يحملوا على المشركين حتى يأمرهم، وقال: "إذا أكثبوكم فأنضحوهم عنكم بالنبل "والهمزة في قوله: " أكثبوكم "للتعدية من كثب بفتحتين وهو القرب، قال ابن فارس: أكثب الصيد اذا أمكن من نفسه فالمعنى: إذا قربوا منكم فأمكنوكم من أنفسهم فارموهم.

قوله: " فارموهم واستبقوا نبلكم " بسكون الموحدة فعل أمر بالاستبقاء، أي طلب الإبقاء قال الداوودي: معنى قوله: " ارموهم " أي: بالحجارة لأنها لا تكاد تخطئ إذا رمى بها في الجماعة، قال: ومعنى قوله: "استبقوا نبلكم " أي: إلى أن تحصل المصادمة كذا قال

وقال غيره: المعني ارموهم ببعض نبلكم لا بجميعها.

والذي يظهر لي أن معنى قوله: "واستبقوا نبلكم" لا يتعلق بقوله: "ارموهم" وإنما هو كالبيان للمراد بالأمر بتأخير الرمي حتى يقربوا منهم، أي أنهم إذا كانوا بعيدا لا تصيبهم السهام غالبا، فالمعنى: استبقوا نبلكم في الحالة التي إذا رميتم بها لا تصيب غالبا، وإذا صاروا إلى الحالة التي يمكن فيها الإصابة غالبا فارموا.83

وما رميت إذ رميت: قوة الله

إن الفهم العميق لقوله تعالى :(وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) [الأنفال:17] هو نسب تلك القوة لله سبحانه وتعالى، فالمخلوق إذا رمى فإن رميته محدودة، مهما بلغت قوة الرامي، ومهما تعاظمت تلك الرمية، أما نسب الرمي إلى الخالق فإنها رمية بلا حدود. إنها قوة الخالق جل وعلا. إنها قوة الله.

إننا لا نتردد لحظة في القطع بتغير موازين الحرب ورجحان الفئة القليلة، ولا نخاف بعد ذلك أن ينتابك قلق أو وسواس؛ لأن الرمي الآن هو رمى الله تبارك وتعالى.

ثم قال لنبيه صلى الله عليه وسلم في شأن القبضة من التراب التي حصب بها وجوه المشركين يوم بدر، حين خرج من العريش بعد دعائه وتضرعه واستكانته فرماهم بها، وقال: "شاهت الوجوه" ثم أمر أصحابه أن يصدقوا الحملة إثرها، ففعلوا فأوصل الله تلك الحصباء إلى أعين المشركين فلم يبق أحد منهم إلا ناله منها ما شغله عن حاله، ولهذا قال تعالى :(وما رميت إذ رميت) أي: هو الذي بلغ ذلك إليهم وكبتهم بها لا أنت.

قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: رفع رسول الله صلى الله عليه وسلم يديه _يعني يوم بدر فقال: "يا رب إن تهلك هذه العصابة فلن تعبد في الأرض أبدا" فقال له جبريل:" خذ قبضة من التراب فأرم بها في وجوههم "فأخذ قبضة من التراب فرمى بها في وجوههم، فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخريه وفمه تراب من تلك القبضة، فولوا مدبرين.

وقال السدي: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه يوم بدر:" أعطني حصبا من الأرض" فناوله حصبا عليه تراب فرمى به في وجوه القوم، فلم يبق مشرك إلا دخل في عينيه من ذلك التراب شيء، ثم ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم، وأنزل

الله : (فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى).

وقال أبو معشر المدني عن محمد بن قيس ومحمد بن كعب القرظي قالا: لما دنا القوم بعضهم من بعض، أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم قبضة من تراب، فرمى بها في وجوه القوم، وقال: "شاهت الوجوه" فدخلت في أعينهم كلهم، واقبل أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقتلونهم ويأسرونهم، وكانت هزيمتهم في رمية رسول الله صلى الله عليه وسلم، فانزل الله : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى).

وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله تعالى : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) قال: هذا يوم بدر، أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاث حصيات، فرمى بحصاة في ميمنة القوم، وحصاة في ميسرة القوم، وحصاة بين أظهرهم، وقال: "شاهت الوجوه" فانهزموا. 84

النبي محمد صلى الله عليه وسلم يعلم البشرية المسارعة إلى الخير وطلب الثواب والأجر من الله

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أصحابه ويعلم البشرية كلها، كيف يكتسب الأجر وكيف الدعوة إلى الخير والحرص في المسارعة إلى الخير والأجر، فإنك إذا اعتقدت وظننت أن مسارعة الناس إلى الخير وابتغاء رضوان الله، وخشية الله حق الخشية، وإذا اعتقدت أن طلب الآخرة والسعى لها، والزهد في الدنيا والإعراض عن زخرفها ومتاعها وزينتها، كان كل ذلك من غير معلم يأمر به، فقد اساءت الظن برسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقد بوب أبو الحسن على بن أبي بكر الهيثمي باب غزوة بدر، في كتاب(مجمع الزوائد ومنبع الفوائد) قال فيه: عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال :كنا يوم بدر كل ثلاثة علي بعير، كان علي بن أبي طالب وأبو لبابة، زميلي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

قال :فكان إذا كانت عقبة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالا:نحن نمشي عنك، فقال :"ما انتما بأقوى مني، ولا أنا أغنى عن الأجر منكما ".85

وهذا الحديث الشريف يجمع الكلم.

العباس بن عبد المطلب يصف جيش الملائكة المقاتل

وأسرت الملائكة في بدر العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه، وقد رأى جيش الملائكة المقاتل رأى العين.

عن البراء أو غيره قال: جاء رجل من الأنصار بالعباس قد أسره، فقال العباس: يا رسول الله ليس هذا أسرني، أسرني رجل من القوم انزع 86 من هيئته كذا وكذا.

فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم: " قد آزرك الله بملك كريم ". رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.87

هوامش الفصل الثالث

1_عمر عبد السلام تدمري، السيرة النبوية لابن هشام، الجزء الثاني، (بيروت: دار الكتاب العربي،ط.3، 1990) ، ،ص249_250.

2_البلايا : النوق التي تربط على قبر الأموات، لا تعلف ولا تسقى حتى تموت، كان يفعلها بعض العرب الذين يقرون بالبعث لأجل أن يحشر عليها الميت وقت بعثه.

3_النواضح: الإبل التي يستقى الماء عليها.

4_الناقع: الثابت.

5_زوى لي الأرض: معناه قبضها وجمعها.

6_أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، إعداد عزت عبيد الدعاس وعادل السيد، سنن أبي داود، الجزء الرابع، (بيروت: دار ابن حزم ،ط.1، 1997) ، ص 290 _291.

7_أحمد محمد العليمي باوزير، مرويات غزوة بدر، (المدينة المنورة: مكتبة طيبة ،ط.1، 1980)، ص90 .

8_المصدر السابق، ص134.

9_عمر عبد السلام تدمري، المصدر السابق، ص261 _262.

10_المصدر السابق، ص262.

11_أحمد محمد العليمي باوزير، المصدر السابق،ص101_103.

12_أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ،تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، المعجم الكبير، الجزء الرابع، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية ،ط.2،1983) ،ص 176 _174.

13_مثل به: قام به.

14_ارفضت: تفتت.

15_جدع بعيره: قطع انفه.

16_اللطيمة: الابل التي تحمل العطر.

17_عمر عبد السلام تدمري، المصدر السابق، ص252_250 .

18_أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، الجزء الثاني ، (القاهرة: المكتبة السلفية، ط.1، 1403هـ) ، ص353.

19_أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، الجزء الثالث ، (القاهرة:

المكتبة السلفية، ط.1 ، 1403هـ) ، ص81_82.

20_الملحب: الملحب الذي ذهب لحمه.

21_الكلكل: الصدر.

22_الذحل: الثأر.

23_ عمر عبد السلام تدمري، المصدر السابق، ص255_253.

24_صفي الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، (قطر: 2007) ،ص206.

25_المصدر السابق، ص207.

26 _اذلقه: بالغ في ضربه.

27_عمر عبد السلام تدمري، المصدر السابق، ص260_259.

28_أحمد محمد العليمي باوزير، المصدر السابق،ص141.

29_برك الغماد: موضع من وراء مكة بناحية الساحل.

30_أحمد محمد العليمي باوزير، المصدر السابق،ص142.

31_ذمامك: الذمة العهد والأمان.

32_عمر عبد السلام تدمري، المصدر السابق، ص257_259.

33_القلب: جمع قليب وهو البئر القديم.

34_عمر عبد السلام تدمري، المصدر السابق،ص263.

35_أحمد محمد العليمي باوزير، المصدر السابق،ص160.

36_أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه، الجزء الأول، (القاهرة: المكتبة السلفية، ط1، 1403هـ)، ص126.

37_مدر ووبر: المدر الطين الصلب، الوبر صوف أو شعر.

38_أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ابن عساكر)، تحقيق وفاء تقي الدين، معجم الشيوخ، الجزء الأول، (دمشق: دار البشائر للطباعة والنشر والتوزيع، ط1، 2000)، ص416_417.

39_عباس محمود العقاد، عبقرية محمد، (القاهرة: نهضة مصر)، ص31_32.

40_المصدر السابق، ص 34.

41_ابن عبد البر، تحقيق شوقي ضيف، الدرر في اختصار المغازي والسير، (القاهرة: مؤسسة دار التحرير للطباعة والنشر، ط.1، 1966) ، ص113.

42_أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، الجزء الثالث، (بيروت: مكتبة المعارف،ط.1، 1991) ، ص267.

43_محمد ناصر الدين الألباني ، إرواء الغليل تخريج أحاديث منار السبيل، الجزء السابع، (بيروت: المكتب الإسلامي ،ط.1، 1979) ،ص265.

44_أحمد محمد العليمي باوزير، المصدر السابق،ص150.

45_ الخفرة: الذمة والجوار وانشد خفرتك اطلب من يجيرك.

46_حقب الناس: اشتدوا.

47_ عمر عبد السلام تدمري، المصدر السابق، ص266_265.

48_المصدر السابق،ص252.

49_صفي الرحمن المباركفوري، المصدر السابق،ص213.

50_ أبو عبدالله محمد ابن أبي بكر ابن أيوب بن قيم الجوزية ، تحقيق شعيب الأرناؤوط، زاد المعاد في هدى خير العباد، الجزء الأول، (بيروت: مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع،ط.3،1998) ، ،ص125.

51_ أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، شرح السنة، الجزء الحادي عشر، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط. 2 ،1983) ، ص 36_35.

52_صفي الرحمن المباركفوري، المصدر السابق،ص205.

53_استقد : اقتص.

54_صفي الرحمن المباركفوري، المصدر السابق، ص 216.

55_فأطن: أطار.

56_ تشخب: تسيل بصوت.

57_صفي الرحمن المباركفوري، المصدر السابق،ص217.

58_أقدم حيزوم: أقدم كلمة تزجر بها الخيل، حيزوم هو فرس جبريل عليه السلام.

59_صفي الرحمن المباركفوري، المصدر السابق، ص219_218.

60_خطم : وسم ، من خطمت البعير اذا كويته خطا من الأنف إلى احد خديه.

61_ مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم ، المجلد الخامس (القاهرة: دار التأصيل، ط. 1، 2014) ص 44_ 47.

62_مسفر بن علي القحطاني،صدام القيم قراءة ما بعد التحولات الحضارية، (بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر،ط.1، 2015) ، ص161_ 160.

63_محمد سعد بن أحمد بن مسعود اليوبي، مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية، (الرياض: دار الهجرة للنشر والتوزيع،ط.1، 1988) ، ص33.

64_الدبرة: الدائرة.

65_عمر عبد السلام تدمري، المصدر السابق،ص274_275.

66_المصدر السابق،ص275.

67_شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق شعيب الأرنؤوط ، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الجزء الثاني

عشر، (دمشق: دار الرسالة العالمية ،ط.1، 2013) ، ص73.

68_ أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي، توثيق عبد المعطي قلعجي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة، السفر الثالث، (بيروت: دار الكتب العلمية ،ط.1، 1988) ، ص 58.

69_ المصدر السابق، ص 49.

70_أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، (بيروت: دار ابن حزم ،ط.1، 2005)، ص107 .

71_أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني ،تحقيق حمدي عبدالمجيد السلفي، المعجم الكبير، الجزء الثاني عشر، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية ،ط.2، 1983) ، ص244.

72_أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، المصدر السابق، ص107.

73_المصدر السابق ،ص107.

74_تحادك: تعاديك وتمتنع عن طاعتك.

75_أحنهم : اهلكهم .

76_ أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد ابن الأثير، تحقيق أبي الفداء عبدالله

القاضي، الكامل في التاريخ، المجلد الثاني، (بيروت: دار الكتب العلمية ،ط.1، 1987) ، ص20.

77_أحمد محمد العليمي باوزير، المصدر السابق،ص180.

78_ مسلم بن الحجاج، المصدر السابق، ص 45.

79_ المصدر السابق، ص 45_47.

80_أبو محمد عبد الحق الأشبيلي، تحقيق أم محمد بنت احمد الهليس، الأحكام الشرعية الصغرى الصحيحة، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية ،ط.1، 1993) ، ص 543.

81_أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، المصدر السابق، الجزء الثاني، ص332.

82_المصدر السابق، الجزء الثالث، ص 88.

83_شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، المصدر السابق ،ص63_62.

84_أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق سامي بن محمد السلامة، تفسير القرآن العظيم، الجزء الرابع، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع ،ط.2، 1999) ، ،ص31_30.

85_أبو الحسن علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق حسين سليم اسد الداراني ، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، المجلد الثالث عشر، (جدة: دار المنهاج للنشر والتوزيع، ط.1، 2015) ، ص134.

86_أنزع: هو الذي انحسر شعره عن جانبي جبهته.

87_أبو الحسن علي بن أبي بكر الهيثمي، المصدر السابق،ص176.

الفصل الرابع
مشاركة الملائكة في بدر الكبرى

تفسير المفسرين للآيات[123_129] من سورة آل عمران

صحيح أن الدولة تحتاج إلى رجال وقوة، ولكن رجال أتقياء موحدين يعرفون الله، وإلى قوة ولكنها في حاجة أعظم إلى القوة الإلهية، إن مشاركة الملائكة القتال مع المسلمين في الميدان في بدر، سواء كانت مشاركة في القتال أو مشاركة بالحضور وليس القتال على اختلاف الروايات، تؤكد معنى القوة الإلهية التي ينعم الله بها على عباده المؤمنين.

قال الله تعالى: (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم

بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين. ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون. ولله ما في السماوات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم) [آل عمران:123_129].

وقال تعالى:

(كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون. يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين. ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون. إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين. وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم. إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام. إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم

فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) [الأنفال:13_5].

سأجمع في هذا الجزء من الكتاب أقوال بعض المفسرين للآيات التي جاء ذكر مشاركة الملائكة بها، لما في ذلك من فوائد جمة؛ ولن أقحم نفسي بإضافة حرف أو إنشاء جملة فأين أناء من أولئك، وأين الثرى من الثريا، وسأتناول في ذلك تفسير "ابن كثير" الدمشقي و"البغوي"، و"القرطبي" وتفسير الحافظ "ابن جرير الطبري" للآيات [123 _129]من سورة آل عمران، والآيات [13_5] من سورة الأنفال بعدها إن شاء الله تعالى.

تفسير المفسرين للآيات[123_129] من سورة آل عمران

أولا: تفسير "ابن كثير" الدمشقي للآيات[123_129] من سورة آل عمران

قال الله تعالى:

(ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة

منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين. ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون. ولله ما في السماوات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم) [آل عمران:123_129].

قال "ابن كثير" رحمه الله تعالى في تفسير قوله جل شأنه :(ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون) أي: يوم بدر وكان في جمعة وافق السابع عشر من رمضان من سنة اثنتين من الهجرة، وهو يوم الفرقان الذي أعز الله فيه الإسلام وأهله، ودمغ فيه الشرك وخرب محله، هذا مع قلة عدد المسلمين يومئذ، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا، فيهم فرسان وسبعون بعيرا، والباقون مشاة ليس معهم من العدد جميع ما يحتاجون إليه، وكان العدو يومئذ ما بين التسعمائة إلى الألف، في سوابغ الحديد والبيض، والعدة الكاملة، والخيول المسومة، والحلى الزائد، فأعز الله رسوله، وأظهر وحيه وتنزيله، وبيض

وجه النبي وقبيله، وأخزى الشيطان وجيله، ولهذا قال تعالى ممتنا على عباده المؤمنين، وحزبه المتقين: (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) أي:قليل عددكم، ليعلموا أن النصر إنما هو من عند الله لا بكثرة العدد والعدد، ولهذا قال في الآية الأخرى: (ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين.ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنودا لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين.ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم) [التوبة: 25_27]. 1

وذكر "إبن كثير" بعد ذلك حديث "عياض الأشعري" لمناسبته:

قال الإمام أحمد :حدثنا محمد بن جعفر، حدثنا شعبة عن سماك قال:سمعت عياضا الأشعري قال:شهدت اليرموك وعلينا خمسة أمراء:أبو عبيدة ويزيد بن أبي سفيان وإبن حسنة، وخالد بن الوليد وعياض _وليس عياضا هذا الذي حدث سماكا_قال:وقال عمر رضي الله عنه: إذا كان قتال فعليكم أبو عبيدة :قال فكتبنا إليه :أنه قد جاش إلينا الموت واستمددناه، فكتب إلينا :إنه قد جاءني كتابكم

تستمدونني، وإني ادلكم على من هو أعز نصرا وأحصن جندا: الله عز وجل فاستنصروه، فإن محمدا صلى الله عليه وسلم قد نصر يوم بدر في أقل من عدتكم، فإذا جاءكم كتابي فقاتلوهم ولا تراجعوني، قال: فقاتلناهم فهزمناهم أربعة فراسخ، قال: وأصبنا أموالا فتشاورنا فاشار علينا عياض، أن عن كل ذي رأس عشرة، قال: وقال أبو عبيدة: من يراهنني؟ فقال شاب: أنا إن لم تغضب، فقال: فسبقه فرأيت عقيصتي أبي عبيدة تنقزانه وهو خلفه على فرس عري.

وهذا إسناد صحيح وقد أخرجه ابن حبان في صحيحه من حديث بندار عن غندر بنحوه، واختاره الحافظ الضياء المقدسي في كتابه.2

إن النصر هو من عند الله يهبه من يشاء، إذا كانت اعداد الجيش قليلة أم كانت كثيرة. لقد كشفت المواجهة بين جيش الإسلام والمشركين في بدر بصورة عملية وواقعية، ان النصر ليس بالعدد او العتاد، وإنما بمقدار الاتصال بالله الذي لا تقف أمامه سبحانه وتعالى قوة، ليوقن المسلمون في عصورهم المختلفة أنهم يملكون في كل زمان ومكان، القدرة للتغلب على اعدائهم ، وإيقاف مد الشرك والظلام، مهما كانوا هم من القلة

وعدوهم من الكثرة ، اذا استوفوا الإيمان الكامل والتوكل الحقيقي.

إن حديث عمر رضى الله عنه يعتبر مفهوما كاملا، يشير إلى أسباب النصر الحقيقية وأسباب القوة الحقيقية، وهي كلمات (على قلتها) ربما أغنت كثيرا عن كل سطور الكتاب وفصوله، وعن ما قد بينته.

قال سفر الحوالي في كتابه (المسلمون والحضارة الغربية): إنما العزة في الطاعة والاتباع، والمسلمون بقوة إيمانهم ويقينهم بكل ما ذكر الله وبطاعتهم لله، يغلبون أعتى الكفار، وليس بالتشبه بهم أو تقليدهم، ورحم الله عمر بن الخطاب حين قال في كتابه لسعد: إنما يغلب المسلمون عدوهم بطاعتهم لله ومعصية عدوهم له، فإذا استوينا نحن وهم في المعصية، كان لهم الفضل علينا في القوة.

ذكر الأقوال في تسمية بدر

سميت بئر بدر بهذا الاسم لروايات مختلفة تناقلها الرواة، منها أن بئر بدر سميت بذلك لأنه حفرها رجل من جهينة يسمى "بدر بن النارين"، وقيل هو بدر بن قريش بن يخلد، والرواية الثانية تنكر تسمية بدر إلى "بدر بن النارين" وتعتقد أن ذلك ليس بشيء،

وإنما هو اسم سميت به البقعة كما سمي سائر البلدان بأسمائها.

قال الحافظ "ابن كثير" في (تفسير القرآن العظيم):

بدر محلة بين مكة والمدينة تعرف ببئرها، منسوبة إلى رجل حفرها يقال له: "بدر بن النارين"، قال الشعبي: بدر بئر لرجل يسمى بدرا.3

وقال" ابن جرير الطبري" في (تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن):

اختلف في المعنى الذي من أجله سمي بدر بدرا، فقال بعضهم :سمي بذلك لأنه كان ماء لرجل يسمى بدرا، فسمي بإسم صاحبه.

حدثنا إبن وكيع قال:ثنا أبي عن زكريا عن الشعبي قال:كانت بدر لرجل يقال له :بدر فسميت به.

حدثني يعقوب قال:ثنا هشيم قال:أخبرنا زكريا عن الشعبي أنه قال:(ولقد نصركم الله ببدر) قال:كانت بدر بئرا لرجل يقال له:بدر فسميت به.

وأنكر ذلك آخرون وقالوا :ذلك إسم سميت به البقعة، كما سمي سائر البلدان بأسمائها .

حدثنا الحارث بن محمد، قال: ثنا ابن سعد، قال: ثنا محمد بن عمر الواقدي، قال: ثنا منصور عن أبي الأسود عن زكريا عن الشعبي، قال: إنما سمي بدرا لأنه كان ماء لرجل من جهينة يقال له: بدر قال الحارث، قال ابن سعد: قال الواقدي: فذكرت ذلك لعبد الله بن جعفر ومحمد بن صالح فأنكراه، وقالا: فلأي شيء سميت الصفراء؟ولأي شيء سميت الحمراء؟ ولأي شيء سمي رابغ، هذا ليس بـ شئ إنما هو اسم الموضع. قال:وذكرت ذلك ليحى بن النعمان الغفاري فقال:سمعت شيوخنا من بني غفار يقولون :هو ماؤنا ومنزلنا، وما ملكه أحد قط يقال له:بدر وما هو من بلاد جهينة، إنما هي بلاد غفار قال الواقدي: فهذا المعروف عندنا.4

وأرجع إلى ما وقفت عنده وهو تفسير "ابن كثير" لآيات سورة آل عمران، قال رحمه الله تعالى في تفسير قوله جل شأنه :(إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. ليقطع طرفا

من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين. ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون. ولله ما في السماوات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم).

أختلف المفسرون في هذا الوعد: هل كان يوم بدر أو يوم أحد؟ على قولين:

أحدهما: أن قوله (إذ تقول للمؤمنين) متعلق بقوله :(ولقد نصركم الله ببدر)، وروى هذا عن الحسن البصري وعامر الشعبي، والربيع بن أنس وغيرهم، واختاره ابن جرير.

قال عباد بن منصور عن الحسن في قوله :(إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة)، قال: هذا يوم بدر، رواه ابن أبي حاتم ثم قال:

حدثنا أبي حدثنا موسي بن إسماعيل حدثنا وهيب عن داود عن عامر _يعني الشعبي أن المسلمين بلغهم يوم بدر أن كرز بن جابر يمد المشركين، فشق ذلك عليهم فانزل الله:(ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) إلى قوله :(مسومين) قال: فبلغت كرزا الهزيمة فلم يمد المشركين، ولم يمد الله المسلمين بالخمسة.

وقال الربيع بن أنس أمد الله المسلمين بألف، ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف. فإن قيل: فما الجمع بين هذه الآية _على هذا القول وبين قوله تعالى في قصة بدر: (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين. وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم) [الأنفال :9_10]، فالجواب: أن التنصيص على الألف ها هنا لا ينافي الثلاثة الآلاف فما فوقها، لقوله (مردفين) بمعنى يردفهم غيرهم ويتبعهم ألوف أخر مثلهم، وهذا السياق شبيه بهذا السياق في سورة آل عمران، فالظاهر أن ذلك كان يوم بدر، كما هو المعروف من أن قتال الملائكة كان إنما كان يوم بدر والله أعلم، قال سعيد ابن أبي عروبة عن قتادة: أمد الله المؤمنين يوم بدر بخمسة آلاف.5

ثم قال "ابن كثير":

القول الثاني: أن هذا الوعد متعلق بقوله :(وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال) وذلك يوم أحد، وهو قول مجاهد وعكرمة والضحاك، والزهري وموسى بن عقبة وغيرهم، لكن قالوا: لم يحصل الإمداد بالخمسة الآلاف لأن المسلمين فروا يومئذ زاد عكرمة:

ولا بالثلاثة آلاف، لقوله: (بلى إن تصبروا وتتقوا) فلم يصبروا بل فروا فلم يمدوا بملك واحد.

وقوله: (بلى إن تصبروا وتتقوا) يعني: تصبروا على مصابرة عدوكم وتتقوني وتطيعوا أمري.

وقوله: (ويأتوكم من فورهم هذا) قال الحسن وقتادة والربيع والسدي: أي من وجههم هذا، وقال مجاهد وعكرمة وأبو صالح: أي من غضبهم هذا، وقال الضحاك: من غضبهم ووجههم، وقال العوفي عن ابن عباس: من سفرهم هذا، ويقال من غضبهم هذا.

وقوله: (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) أي:معلمين بالسيما .6

سيما الملائكة

جمع " إبن كثير" في تفسير سيما الملائكة أقوالا عديدة.

قال أبو اسحاق السبيعي عن حارثة بن مضرب عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه، قال:كان سيما الملائكة يوم بدر الصوف الأبيض، وكان سيماهم أيضا في نواصي خيلهم.

رواه إبن أبي حاتم ثم قال: حدثنا ابو زرعة حدثنا هدبة بن خالد حدثنا حماد بن

سلمة، عن محمد بن عمرو بن علقمة عن أبي سلمة، عن أبي هريرة في هذه الآية :(مسومين)قال بالعهن الأحمر.

وقال مجاهد:(مسومين) أي :محذقة أعرافها معلمة نواصيها بالصوف الأبيض في أذناب الخيل.

وقال العوفي:عن إبن عباس قال:أتت الملائكة محمدا صلى الله عليه وسلم مسومين بالصوف، فسوم محمد وأصحابه أنفسهم وخيولهم على سيما هم بالصوف.

وقال عكرمة وقتادة (مسومين) أي:بسيما القتال، وقال مكحول:(مسومين) بالعمائم 7.

ثم قال "إبن كثير"رحمه الله :روي إبن مردويه من حديث عبد القدوس بن حبيب عن عطاء بن أبي رباح عن إبن عباس، قال:قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله:(مسومين) قال:معلمين وكان سيما الملائكة يوم بدر عمائم سود، ويوم حنين عمائم حمر.

وروي من حديث حصين بن مخارق عن سعيد، عن الحكم عن مقسم عن إبن عباس، قال :لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر.

وقال إبن إسحاق:حدثني من لا اتهم عن مقسم عن إبن عباس، قال:كان سيما الملائكة يوم

بدر عمائم بيض قد أرسلوها في ظهورهم، ويوم حنين عمائم حمرا.ولم تضرب الملائكة في يوم سوى يوم بدر، وكانو يكونون فيما سواه من الأيام عددا ومددا لا يضربون.

ثم رواه عن الحسن بن عمارة عن الحكم عن مقسم عن إبن عباس فذكر نحوه.

وقال إبن أبي حاتم :حدثنا الاحمسي حدثنا وكيع حدثنا هشام بن عروة عن يحى بن عباد :أن الزبير بن العوام رضي الله عنه كان عليه يوم بدر عمامة صفراء معتجرا 8 بها، فنزلت الملائكة عليهم عمائم صفر.

رواه إبن مردويه من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير فذكره.9

وذكر" إبن جرير الطبري" القراءتين في قوله تعالى: (مسومين) في تفسير سيما الملائكة فقال :

اختلفت القراءة في قوله :(مسومين) فقرأ ذلك عامة قراءة أهل المدينة والكوفة :(مسومين) بفتح الواو، بمعنى: أن الله سومها .

وقرأ ذلك بعض قراءة أهل الكوفة والبصرة : (مسومين) بكسر "الواو" بمعنى أن الملائكة سومت أنفسها، وأولى القراءتين في ذلك

بالصواب قراءة من قرأ بكسر الواو لتظاهر الأخبار عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهل التأويل منهم ومن التابعين بعدهم، بأن الملائكة هي التي سومت أنفسها من غير إضافة تسويمها إلى الله عز وجل أو إلى غيره من خلقه.

ولا معنى لقول من قال: إنما كان يختار الكسر في قوله : (مسومين) لو كان في البشر، فأما في الملائكة فوصفهم غير ذلك ظنا منه بأن الملائكة غير ممكن فيها تسويم انفسها إمكان ذلك في البشر، وذلك أنه غير مستحيل أن يكون الله عز وجل مكنها من تسويم انفسها، نحو تمكينه البشر من تسويم أنفسهم، فسوموا أنفسهم نحو الذي سوم البشر، طلبا منها بذلك طاعة ربها، فأضيف تسويمها انفسها إليها وإن كان ذلك عن تسبيب الله لهم أسبابه، وهي إذا كانت موصوفة بتسويمها انفسها تقربا منها إلى ربها، كان أبلغ في مدحها لاختيارها طاعة الله، من أن تكون موصوفة بأن ذلك مفعول بها.10

ثم أفاض "ابن جرير الطبري "رحمه الله تعالى في ذكر الأخبار، فقال:

ذكر الأخبار بما ذكرنا من إضافة من أضاف التسويم إلى الملائكة دون إضافة ذلك إلى

غيرهم، على نحو ما قلنا فيه: حدثني يعقوب، قال: حدثنا ابن علية، قال: أخبرنا ابن عون عن عمير بن إسحاق، قال: أن أول ما كان الصوف ليومئذ _يعني يوم بدر _قال: قال رسول الله صلى الله عليه و سلم: "تسوموا فان الملائكة قد تسومت".

حدثنا أبو كريب قال: ثنا مختار بن غسان، قال: ثنا عبد الرحمن بن الغسيل عن الزبير بن المنذر عن جده أبي أسيد، وكان بدريا فكان يقول: لو أن بصري معي ثم ذهبتم معي إلى أحد، لأخبرتكم بالشعب الذي خرجت منه الملائكة في عمائم صفر قد طرحوها بين أكتافهم.

حدثني محمد بن عمرو قال: ثنا أبو عاصم عن عيسى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد في قوله: (بخمسة الآف من الملائكة مسومين). يقول: معلمين مجزوزة أذناب خيلهم، ونواصيها فيها الصوف أو العهن وذلك التسويم.

حدثنا ابن حميد قال: ثنا حكام عن عنبسة عن محمد بن عبد الرحمن عن القاسم بن أبي بزة عن مجاهد في قوله: (بخمسة الآف من الملائكة مسومين). قال: مجزوزة أذنابها وأعرافها فيها الصوف أو العهن فذلك التسويم.11

ثم قال "ابن جرير الطبري": حدثنا بشر قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد عن قتادة :(مسومين): ذكر لنا أن سيماهم يومئذ الصوف بنواصي خيلهم وأذنابها، وأنهم على خيل بلق.12

حدثنا الحسن بن يحي قال: أخبرنا عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر عن قتادة في قوله:(مسومين) قال: كان سيماها صوفا في نواصيها.

حدثت عن عمار عن ابن أبي جعفر عن أبيه عن ليث عن مجاهد أنه كان يقول: (مسومين). قال: كانت خيولهم مجزوزة الأعراف، معلمة نواصيها وأذنابها بالصوف والعهن.

حدثت عن عمار عن ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع كانوا يومئذ على خيل بلق.

حدثنا القاسم قال: ثنا الحسين قال: ثنا هشيم قال: أخبرنا جويبر عن الضحاك وبعض أشياخنا عن الحسن، نحو حديث معمر عن قتادة.

حدثنا محمد قال: ثنا أحمد قال: ثنا أسباط عن السدي:(مسومين): معلمين.13

ثم قال رحمه الله تعالى: حدثني محمد بن سعد قال: ثني أبي قال: ثني عمي قال: ثني

أبي عن أبيه عن ابن عباس، قوله: (بخمسة الآف من الملائكة مسومين): فإنهم أتوا محمدا النبي صلى الله عليه و سلم مسومين بالصوف، فسوم محمد وأصحابه أنفسهم وخيلهم على سيماهم بالصوف.

حدثنا أبو كريب قال: ثنا ابن يمان قال: ثنا هشام بن عروة عن عباد بن حمزة قال: نزلت الملائكة في سيما الزبير، عليهم عمائم صفر وكانت عمامة الزبير صفراء.

حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال: ثنا هشيم قال: أخبرنا جويبر عن الضحاك في قوله: (مسومين). قال: بالصوف في نواصيها وأذنابها.

حدثنا الحسن بن يحى قال: أخبرنا عبد الرزاق قال: أخبرنا معمر عن هشام بن عروة، قال: نزلت الملائكة يوم بدر على خيل بلق عليهم عمائم صفر، وكان على الزبير يومئذ عمامة صفراء.

حدثنا أحمد بن يحى الصوفي قال: ثنا عبد الرحمن بن شريك قال: ثنا أبي قال: ثنا هشام بن عروة عن عبد الله بن الزبير أن الزبير كانت عليه ملاءة صفراء يوم بدر، فأعتم بها فنزلت الملائكة يوم بدر على نبي

الله صلى الله عليه وسلم، معتمين بعمائم صفر.14

ثم انتهى "ابن جرير" إلى صحة ما اختاره من القراءة قال: فهذه الأخبار التي ذكرنا بعضها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال لأصحابه: "تسوموا فان الملائكة قد تسومت"، وقول أبي أسيد: خرجت الملائكة في عمائم صفر قد طرحوها بين أكتافهم، وقول من قال منهم: (مسومين) معلمين، ينبئ جميع ذلك عن صحة ما اخترنا من القراءة في ذلك، وأن التسويم كان من الملائكة بأنفسها على نحو ما قلنا في ذلك فيما مضى.

وأما الذين قرءوا ذلك: (مسومين)، بالفتح، فإنهم أراهم تأولوا في ذلك ما حدثنا به حميد بن مسعدة، قال: ثنا يزيد بن زريع عن عثمان بن غياث عن عكرمة: (بخمسة آلاف من الملائكة مسومين)، يقول عليهم سيما القتال.

حدثنا بشر قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد عن قتادة: (بخمسة آلاف من الملائكة مسومين)، يقول: عليهم سيما القتال وذلك يوم بدر، أمدهم الله بخمسة الآف من الملائكة مسومين.

حدثت عن عمار عن ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع، قوله: (يمددكم ربكم بخمسة آلاف

من الملائكة مسومين) يقول: عليهم سيما القتال.

فقالوا: كان سيما القتال عليهم لا أنهم كانوا تسوموا بسيما، فيضاف إليهم التسويم، فمن أجل ذلك قرأوا: (مسومين)، بمعنى أن الله تعالى أضاف التسويم إلى من سومهم تلك السيما.

والسيما: العلامة، يقال: هي سيما حسنة وسيمياء حسنة، كما قال الشاعر:

غلام رماه الله بالحسن يافعا

له سيمياء لا تشق على البصر

يعني بذلك: علامة من حسن. فإذا أعلم الرجل نفسه بعلامة يعرف بها في حرب أو غيرها، قيل: سوم نفسه، فهو يسومها تسويما 15.

وذكر "أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي" في (تفسير البغوي معالم التنزيل) تأويلا آخر ، في تفسير قوله تعالى (مسومين) : فقال:

قوله (مسومين) أي: معلمين قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم، بكسر الواو وقرأ الآخرون بفتحها، فمن كسر الواو فأراد أنهم سوموا

خيلهم، ومن فتحها أراد به أنفسهم، والتسويم: الإعلام، من السومة وهي العلامة.

واختلفوا في تلك العلامة؛ قال عروة بن الزبير: كانت الملائكة على خيل بلق عليهم عمائم صفر، وقال علي وابن عباس رضى الله عنهم: كانت عليهم عمائم بيض قد أرسلوها بين أكتافهم (وقال هشام بن عروة والكلبي: عمائم صفر مرخاة على أكتافهم) وقال الضحاك وقتادة: كانوا قد اعلموا بالعهن في نواصي الخيل وأذنابها، وروى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه يوم بدر: "تسوموا، فإن الملائكة قد تسومت بالصوف الأبيض في قلانسهم 16ومغافرهم". 17

وقال" القرطبي "رحمه الله في تفسير قوله تعالى (مسومين):

قال كثير من المفسرين: مسومين أي: مرسلين خيلهم في الغارة.

وذكر المهدوي هذا المعنى في "مسومين" بفتح الواو أي: أرسلهم الله تعالى على الكفار، وقاله ابن فورك أيضا.

وعلى القراءة الأولى اختلفوا في سيما الملائكة فروى عن علي ابن أبي طالب وابن عباس وغيرهما، أن الملائكة أعتمت بعمائم

بيض قد أرسلوها بين أكتافهم _ذكره البيهقي عن ابن عباس، وحكاه المهدوي عن الزجاج _إلا جبريل؛ فإنه كان بعمامة صفراء على مثال الزبير بن العوام، وقاله ابن إسحاق.18

ثم قال: وقال الربيع: كانت سيماهم أنهم كانوا على خيل بلق، قلت: ذكر البيهقي عن سهيل بن عمرو رضي الله عنه، قال: لقد رأيت يوم بدر رجالا بيضا على خيل بلق بين السماء والأرض، معلمين يقتلون ويأسرون، فقوله "معلمين " دل على أن الخيل البلق ليست السيما والله أعلم.

وقال مجاهد: كانت خيلهم مجزوزة الأذناب والأعراف، معلمة النواصي والأذناب بالصوف والعهن.

وروي عن ابن عباس: تسومت الملائكة يوم بدر بالصوف الأبيض في نواصي الخيل وأذنابها.

وقال عباد بن حمزة بن عبد الله بن الزبير وهشام بن عروة والكلبي: نزلت الملائكة في سيما الزبير عليها عمائم صفراء مرخاة على أكتافهم، وقال ذلك عبد الله وعروة أبناء الزبير، قال عبد الله: كانت ملاءة صفراء اعتم بها الزبير.19

وأرجع بعد جمع الأقوال في تفسير سيما الملائكة من التفاسير الأربعة، إلى ما وقفت عنده من تفسير "إبن كثير" رحمه الله تعالى لآيات سورة آل عمران، التي تذكر مشاركة ملائكة الرحمن عليهم السلام للمسلمين في القتال.

قال في تفسير قوله جل ذكره: (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به) أي: وما أنزل الله الملائكة واعلمكم بانزالها إلا بشارة لكم، وتطييبا لقلوبكم وتطمينا، وإلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: (ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم. سيهديهم ويصلح بالهم. ويدخلهم الجنة عرفها لهم) [محمد: 6_4]. ولهذا قال هاهنا: (وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) أي: هو ذو العزة التي لا ترام، والحكمة في قدره والإحكام.20

وبعد تفسيره البشرى بأنها في إنزال الله تبارك وتعالى للملائكة وإعلامه المؤمنين

بذلك، قال "ابن كثير" في تأويل قوله تعالى: (ليقطع طرفا من الذين كفروا) أي: أمركم بالجهاد والجلاد، لما له في ذلك من الحكمة في كل تقدير، ولهذا ذكر جميع الأقسام الممكنة في الكفار المجاهدين، فقال: (ليقطع طرفا) أي: ليهلك أمة (من الذين كفروا أو يكبتهم) أي: يخزيهم ويردهم بغيظهم لما لم ينالوا منكم ما أرادوا، ولهذا قال: (أو يكبتهم فينقلبوا) أي: يرجعوا (خائبين) أي: لم يحصلوا على ما املوا.

ثم اعترض بجملة دلت على أن الحكم في الدنيا والآخرة له وحده لا شريك له، فقال: (ليس لك من الأمر شيء) أي: بل الأمر كله إلى كما قال: (فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب) [الرعد: 40]، وقال: (ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء) [البقرة: 272]، وقال: (إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء) [القصص: 56].

قال محمد بن إسحاق في قوله: (ليس لك من الأمر شيء) أي: ليس لك من الحكم شيء في عبادي إلا ما أمرتك به فيهم.

ثم ذكر تعالى بقية الأقسام فقال: (أو يتوب عليهم) أي: مما هم فيه من الكفر ويهديهم بعد الضلالة (أو يعذبهم) أي: في الدنيا

والآخرة على كفرهم وذنوبهم، ولهذا قال: (فإنهم ظالمون) أي: يستحقون ذلك.21

ثانيا: تفسير "ابن جرير الطبري" للآيات[123_129] من سورة آل عمران

قال "ابن جرير الطبري" رحمه الله تعالى في تفسير قول الله تعالى: (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين. ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون. ولله ما في السماوات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم) [آل عمران:123_129]، القول في تأويل قوله عز وجل: (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون) يعني بذلك جل ثناؤه :وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا وينصركم ربكم، ولقد نصركم الله ببدر على أعدائكم وأنتم يومئذ أذلة، يعني

قليلون في غير منعة من الناس حتى أظهركم الله على عدوكم مع كثرة عددهم وقلة عددكم، وأنتم اليوم أكثر عددا منكم حينئذ، فإن تصبروا لأمر الله ينصركم كما نصركم ذلك اليوم (فاتقوا الله)يقول: فاتقوا ربكم بطاعته واجتناب محارمه (لعلكم تشكرون)يقول: لتشكروه على ما من به عليكم من النصر على أعدائكم، وإظهار دينكم، ولما هداكم له من الحق الذي ضل عنه مخالفوكم.

كما حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق: (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة)يقول:وأنتم أقل عددا واضعف قوة (فاتقوا الله لعلكم تشكرون) أي:فأتقون فإنه شكر نعمتي. 22

ثم قال في تفسير قوله جل شأنه (أذلة) أما قوله: (أذلة)، فإنه جمع ذليل كما الاعزة جمع عزيز، والألبة جمع لبيب، وإنما سماهم الله عز وجل أذلة لقلة عددهم، لأنهم كانوا ثلاثمائة نفس وبضعة عشر، وعدوهم ما بين التسعمائة إلى الألف _على قد ما بينا فيما مضى _فجعلهم لقلة عددهم أذلة.وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل.

حدثنا بشر قال يزيد قال: ثنا سعيد عن قتاده، قوله: (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم

أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون) وبدر ماء بين مكة والمدينة التقي عليه نبي الله صلى الله عليه وسلم والمشركون، وكان أول قتال قاتله نبي الله صلى الله عليه وسلم، قال قتادة: ذكر لنا أنه قال لأصحابه يومئذ: "أنتم اليوم بعدة أصحاب طالوت يوم لقى جالوت"، فكانوا ثلاثمائة وبضعة عشر رجل، اوالمشركون يومئذ ألف أو راهقوا ذلك.

حدثني محمد بن سنان قال ثنا أبوبكر عن عباد عن الحسن، في قوله: (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون) قال: يقول وأنتم قليل أذلة، وهم يومئذ بضعة عشر وثلاثمائة.

حدثت عن عمار قال: ثنا ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع نحو قول قتادة.

حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق: (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة) يقول: وأنتم أقل عددا وأضعف قوة.

وأما قوله جل ثناؤه: (فاتقوا الله لعلكم تشكرون) فإن تأويله كالذي قد بينت.

كما حدثنا ابن حميد قال ثنا سلمة عن ابن إسحاق: (فاتقوا الله لعلكم تشكرون) أي: فاتقوني فإنه شكر نعمتي.23

ثم قال" ابن جرير الطبري "في ذكر مشاركة الملائكة عليهم السلام بدرا: قوله تعالى :(إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا و يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين).

يعني بذلك جل ثناؤه: ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة، إذ تقول للمؤمنين بك من أصحابك :(ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) وذلك يوم بدر.

ثم أختلف أهل التأويل في حضور الملائكة يومئذ حربهم، وفي أي يوم وعدوا ذلك؟ فقال بعضهم: أن الله تبارك وتعالى ذكره كان وعد المؤمنين يوم بدر أن يمدهم بملائكته إن أتاهم العدو من فورهم، فلم يأتوهم ولم يمدوا.

ذكر من قال ذلك:

حدثني حميد بن مسعدة قال: ثنا بشر بن المفضل قال: ثنا داود عن عامر قال: حدث المسلمون يوم بدر أن كرز بن جابر المحاربي يمد المشركين، قال: فشق ذلك على المسلمين فقيل لهم :(ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم

بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) قال: فبلغت كرزا الهزيمة فرجع ولم يمدهم بالخمسة.

حدثني ابن المثنى قال: ثنا عبد الأعلى قال: ثنا داود عن عامر قال: لما كان يوم بدر بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم ذكر نحوه إلا أنه قال: (ويأتوكم من فورهم هذا) يعني كرزا وأصحابه _ (يمدكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) قال: فبلغ كرزا وأصحابه الهزيمة فلم يمدهم، ولم تنزل الخمسة وأمدوا بعد ذلك بألف، فهم أربعة آلاف من الملائكة مع المسلمين.24

ثم قال: حدثني محمد بن سنان قال: ثنا أبوبكر الحنفي عن عباد عن الحسن في قوله: (إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة) الآية كلها قال: هذا يوم بدر.

حدثني يعقوب قال: ثنا ابن علية عن داود عن الشعبي، قال: حدث المسلمون أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين ببدر، قال: فشق ذلك على المسلمين فانزل الله عز وجل: (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم) إلى قوله: (من الملائكة مسومين) قال: فبلغته هزيمة المشركين فلم يمد أصحابه، ولم يمدوا بالخمسة.25

ثم ذكر " ابن جرير الطبري " القول الثاني في حضور الملائكة وفي أي يوم: قال آخرون: كان هذا الوعد من الله لهم يوم بدر، فصبر المؤمنون واتقوا الله، فأمدهم الله بملائكته على ما وعدهم.

حدثني أبو كريب قال:ثنا يونس بن بكير عن محمد بن إسحاق قال:ثني عبد الله بن أبي بكر عن بعض بني ساعدة قال: سمعت أبا أسيد مالك بن ربيعة بعد ما أصيب بصره يقول:لو كنت معكم ببدر الآن ومعي بصري، لاخبرتكم بالشعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا اتمارى.

حدثنا إبن حميد قال ثنا سلمة قال:قال إبن إسحاق وثني عبد الله إبن أبي بكر عن بعض بني ساعدة عن إبن أبي أسيد مالك بن ربيعة، وكان شهد بدرا :أنه قال بعد إذ ذهب بصره :لو كنت معكم اليوم ببدر ومعي بصري، لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة لا أشك ولا اتمارى.

حدثنا إبن حميد قال ثنا سلمة عن محمد بن اسحاق قال :وثني عبد الله بن أبي بكر أنه حدث عن إبن عباس، أن إبن عباس قال:ثني رجل من بني غفار قال :أقبلت أنا وإبن عم لي حتى اصعدنا في جبل يشرف بنا على بدر، ونحن

مشركان ننتظر الوقعة على من تكون الدبرة فننتهب مع من ينتهب، قال:فبينا نحن في الجبل إذ دنت منا سحابة فسمعنا فيها حمحمة الخيل، فسمعت قائلا يقول:أقدم حيزوم، قال:فأما إبن عمي فانكشف قناع قلبه فمات مكانه، وأما أنا فكدت أهلك ثم تماسكت.26

ثم قال" ابن جرير الطبري ": حدثنا إبن حميد قال :ثنا سلمة عن محمد بن إسحاق قال:وثني الحسن إبن عمارة عن الحكم بن عتيبة عن مقسم مولى عبدالله بن الحارث عن عبد الله بن عباس قال:لم تقاتل الملائكة في يوم من الأيام سوى يوم بدر، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عددا ومددا لا يضربون.

حدثنا إبن حميد قال: ثنا سلمة قال:محمد بن إسحاق حدثني أبي إسحاق بن يسار عن رجال من بني مازن بن النجار عن أبي داود المازني _وكان شهد بدرا_ قال :إني لاتبع رجلا من المشركين يوم بدر لاضربه، إذ وقع رأسه قبل أن يصل اليه سيفي، فعلمت أن قد قتله غيري.

حدثنا إبن حميد قال:ثنا سلمة قال:قال محمد :ثني حسين بن عبدالله بن عبيد الله بن عباس عن عكرمة مولى إبن عباس قال:قال أبو رافع مولى رسول الله صلى الله عليه و سلم :كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب، وكان الإسلام قد

دخلنا أهل البيت فاسلم العباس واسلمت أم الفضل واسلمت، وكان العباس يهاب قومه ويكره أن يخالفهم، وكان يكتم إسلامه، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه، وكان أبو لهب عدو الله قد تخلف عن بدر وبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيرة، وكذلك صنعوا، لم يتخلف رجل إلا بعث مكانه رجلا، فلما جاء الخبر عن مصاب أصحاب بدر من قريش كبته الله وأخزاه، ووجدنا في أنفسنا قوة وعزا، قال :وكنت رجلا ضعيفا وكنت أعمل القداح انحتها في حجرة زمزم، فوالله إني لجالس فيها انحت القداح وعندي أم الفضل جالسة وقد سرنا ما جاء من الخبر، إذ أقبل الفاسق أبو لهب يجر رجليه بشر حتى جلس على طنب الحجرة، فكان ظهره إلى ظهري، فبينا هو جالس إذ قال الناس: هذا إبن سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم، قال :قال أبو لهب: هلم إلى يا إبن أخي فعندك الخبر، قال: فجلس إليه والناس قيام عليه، فقال: يا إبن أخي أخبرني كيف كان أمر الناس؟ قال: لا شيئ والله إن كان إلا أن لقيناهم فمنحناهم اكتافنا يقتلوننا ويأسروننا كيف شاءوا، وايم الله مع ذلك ما لمت الناس، لقينا رجالا بيضا على خيل بلق بين السماء والأرض ما تليق شيئا، ولا يقوم

لها شئ، قال أبو رافع:فرفعت طنب 27 الحجرة بيدي ثم قلت:تلك الملائكة .28

ثم قال رحمه الله تعالى: حدثنا إبن حميد قال:ثنا سلمة عن محمد قال:ثني الحسن بن عمارة عن الحكم بن عتيبة عن مقسم عن إبن عباس قال:كان الذي أسر العباس أبو اليسر كعب بن عمرو أخو بني سلمة وكان أبو اليسر رجلا مجموعا ، وكان العباس رجلا جسيما ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي اليسر :"كيف اسرت العباس يا أبا اليسر؟". قال يا رسول الله لقد اعانني عليه رجل ما رأيته قبل ذلك ولا بعده، هيئته كذا وكذا، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"لقد أعانك عليه ملك كريم".

حدثنا بشر قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد عن قتادة قوله :(ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين). أمدوا بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف. (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) وذلك يوم بدر، أمدهم الله بخمسة آلاف من الملائكة.

حدثت عن عمار عن ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع بنحوه.

حدثني محمد بن سعد قال: ثني أبي قال ثني عمي قال: حدثني أبي عن أبيه عن ابن عباس في قوله :(يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) فإنهم أتوا محمدا صلى الله عليه وسلم مسومين.

حدثني محمد بن بشار قال: ثنا عبد الرحمن قال: ثنا سفيان عن ابن خثيم عن مجاهد قال: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر.29

ثم قال" ابن جرير الطبري "رحمه الله تعالى في تفسير آيات سورة آل عمران، التي تذكر مشاركة ملائكة الرحمن عليهم السلام للمسلمين في القتال:

قال آخرون: أن الله عز وجل إنما وعدهم يوم بدر أن يمدهم إن صبروا عند طاعته وجهاد أعدائه، واتقوه باجتناب محارمه، أن يمدهم في حروبهم كلها، فلم يصبروا ولم يتقوا إلا في يوم الأحزاب، فأمدهم حين حاصروا قريظة.

حدثني محمد بن عمارة الأسدي قال: ثنا عبيد الله بن موسى قال: أخبرنا سليمان بن زيد أبو إدام المحاربي عن عبد الله بن أبي أوفى قال: كنا محاصري قريظة والنضير ما شاء الله أن نحاصرهم فلم يفتح علينا فرجعنا، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بغسل، فهو يغسل رأسه إذ جاءه جبريل عليه السلام فقال:

يا محمد وضعتم أسلحتكم ولم تضع الملائكة أوزارها! فدعا رسول الله صلى الله عليه و سلم بخرقة فلف بها رأسه ولم يغسله، ثم نادى فينا فقمنا كالين معيين لا نعبأ بالسير شيئا حتى أتينا قريظة والنضير، فيومئذ أمدنا الله عز و جل بثلاثة آلاف من الملائكة، وفتح الله لنا فتحا يسيرا، فانقلبنا بنعمة من الله وفضل. 30

ثم قال" ابن جرير الطبري "رحمه الله تعالى: و قال آخرون بنحو هذا المعنى غير أنهم قالوا :لم يصبر القوم ولم يتقوا، ولم يمدوا بشيء في أحد.

حدثنا القاسم: قال: ثنا الحسين قال: ثني حجاج عن ابن جريج قال: أخبرني عمرو بن دينار عن عكرمة سمعته يقول: (بلى إن تصبروا وتتقوا و يأتوكم من فورهم هذا) قال: يوم بدر قال: فلم يصبروا ولم يتقوا فلم يمدوا يوم أحد، ولو مدوا لم يهزموا يومئذ.

حدثنا ابن بشار قال: ثنا عبد الرحمن قال: ثنا سفيان بن عيينة عن عمرو ابن دينار قال: سمعت عكرمة يقول: لم يمدوا يوم أحد ولا بملك واحد أو قال: إلا بملك واحد. أبو جعفر يشك.

حدثت عن الحسين بن الفرج قال: سمعت أبا معاذ قال: حدثنا عبيد بن سليمان قال: سمعت الضحاك قوله (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف) إلى (بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) كان هذا موعدا من الله يوم أحد عرضه على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، أن المؤمنين إن اتقوا وصبروا أمددتهم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين، ففر المسلمون يوم أحد وولوا مدبرين فلم يمدهم الله.

حدثني يونس قال: أخبرنا إبن وهب قال: قال إبن زيد في قوله: (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا) الآية كلها، قالوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهم ينتظرون المشركين: يا رسول الله أليس يمدنا الله كما امدنا يوم بدر؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "(ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) وإنما أمدكم يوم بدر بألف" قال: فجاءت الزيادة من الله على أن يصبروا ويتقوا. قال: بشرط أن (يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم) الآية كلها.31

ثم رجح "ابن جرير الطبري" أولى الأقوال فقال:

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: أن الله عز وجل أخبر عن نبيه محمد صلي الله

عليه وسلم أنه قال للمؤمنين :(ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة) فوعدهم ثلاثة آلاف من الملائكة مددا لهم، ثم وعدهم بعد الثلاثة آلاف خمسة آلاف إن صبروا لأعدائهم واتقوا الله، ولا دلالة في الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف ولا بالخمسة آلاف، ولا على أنهم لم يمدوا بهم.

وقد يجوز أن يكون الله عز وجل أمدهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أنه أمدهم، وقد يجوز أن يكون لم يمدهم على نحو الذي ذكره من انكر ذلك، ولا خبر عندنا صح من الوجه الذي يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف ولا بالخمسة آلاف، وغير جائز أن يقال في ذلك قول إلا بخبر تقوم الحجة به، ولا خبر به كذلك فنسلم لأحد الفريقين قوله، غير أن في القرآن دلالة على أنهم أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة، وذلك قوله تبارك وتعالى :(إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) [الأنفال:9] فأما في يوم أحد فالدلالة على أنهم لم يمدوا أبين منها في أنهم أمدوا، وذلك أنهم لو أمدوا لم يهزموا وينال منهم ما نيل منهم، فالصواب فيه من القول :أن يقال كما قال تعالى ذكره.
32

ثم قال:

وأما قوله :(ويأتوكم من فورهم هذا) فإن أهل التأويل اختلفوا فيه، فقال بعضهم: معنى قوله :(من فورهم هذا). من وجههم هذا.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا حميد بن مسعدة قال: ثنا يزيد بن زريع عن عثمان بن غياث عن عكرمة قال:(ويأتوكم من فورهم هذا) قال: من وجههم هذا.

حدثنا بشر قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد عن قتادة :(من فورهم هذا) يقول من وجههم هذا.

حدثنا الحسن بن يحى، قال: أخبرنا عبد الرزاق، قال: أخبرنا معمر عن قتادة مثله.

حدثني محمد بن سنان، قال: ثنا أبوبكر الحنفي، قال: ثنا عباد عن الحسن في قوله :(ويأتوكم من فورهم هذا): من وجههم هذا.33

ثم قال" ابن جرير الطبري "رحمه الله تعالى في تأويل قوله جل ذكره (ويأتوكم من فورهم هذا):

حدثت عن عمار بن الحسن عن ابن أبي جعفر عن أبيه عن الربيع، قوله :(ويأتوكم من فورهم هذا) يقول: من وجههم هذا.

حدثنا محمد بن الحسين قال: ثنا أحمد بن المفضل قال: ثنا أسباط عن السدي قوله:(ويأتوكم من فورهم هذا) يقول: من وجههم هذا.

حدثني محمد بن سعد قال: ثني أبي قال: ثني عمي قال: ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قوله :(ويأتوكم من فورهم هذا) يقول: من سفرهم هذا، ويقال _يعني عن غير ابن عباس _بل هو من غضبهم هذا.

حدثني يونس: قال: أخبرنا ابن وهب قال: قال ابن زيد:(من فورهم هذا) من وجههم هذا.34

ثم قال" ابن جرير الطبري ": وقال آخرون: معنى ذلك: من غضبهم هذا، حدثني محمد بن المثنى قال: ثنا عبد الأعلى قال: ثنا داود عن عكرمة في قوله:(ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة) قال: فورهم ذلك كان يوم أحد، غضبوا ليوم بدر مما لقوا.

حدثني محمد بن عمارة قال: ثنا سهل بن عامر قال: ثنا مالك بن مغول قال: سمعت أبا صالح مولى أم هاني يقول: (من فورهم هذا) يقول: من غضبهم هذا.

حدثني محمد بن عمرو قال: ثنا أبو عاصم عن عيسى عن ابن أبي نجيح، عن مجاهد في قوله: (ويأتوكم من فورهم هذا) قال: غضب لهم _ يعني الكفار _فلم يقاتلوهم عند تلك الساعة، وذلك يوم أحد.

حدثني القاسم قال: ثنا الحسين قال: ثني حجاج فالقال ابن جريج قال مجاهد: (من فورهم هذا) قال: من غضبهم هذا.35

ثم قال" ابن جرير الطبري "رحمه الله تعالى: حدثت عن الحسين بن الفرج قال: سمعت أبا معاذ قال: أخبرنا عبيد بن سليمان قال: سمعت الضحاك في قوله: (ويأتوكم من فورهم هذا) يقول: من وجههم وغضبهم، وأصل الفور ابتداء الأمر يؤخذ فيه ثم يوصل بآخر، يقال منه: فارت القدر فهي تفور فورا وفورانا. إذا ابتداء ما فيها بالغليان ثم اتصل، ومضيت إلى فلان من فوري ذلك، يراد به: من وجهي الذي ابتدأت فيه.

فالذي قال في هذه الآية: معنى قوله :(من فورهم هذا): من وجههم هذا قصد إلى أن

تأويله: ويأتيكم كرز بن جابر وأصحابه يوم بدر من ابتداء مخرجهم الذي خرجوا منه، لنصرة أصحابهم المشركين.36

ثم قال: وأما الذين قالوا: معنى ذلك: من غضبهم هذا، فإنما عنوا أن تأويل ذلك ويأتيكم كفار قريش وتباعهم يوم أحد، من ابتداء غضبهم الذي غضبوه لقتلاهم، الذين قتلوا يوم بدر بها.

(يمددكم ربكم بخمسة آلاف) ولذلك من اختلاف تأويلهم في معنى قوله: (ويأتوكم من فورهم هذا) اختلف أهل التأويل في إمداد الله المؤمنين بأحد وملائكته، فقال بعضهم :لم يمدوا بهم لأن المؤمنين لم يصبروا لأعدائهم، ولم يتقوا الله عز وجل، بترك من ترك من الرماة طاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم في ثبوته في الموضع الذي أمره رسول الله صلى الله عليه وسلم بالثبوت فيه، ولكنهم أخلوا به طلب الغنائم، فقتل من قتل من المسلمين ونال المشركون منهم ما نالوا، وإنما كان الله عز وجل وعد نبيه صلى الله عليه وسلم إمدادهم بهم إن صبروا واتقوا الله.

وأما الذين قالوا: كان ذلك يوم بدر بسبب كرز بن جابر، فإن بعضهم قالوا: لم يأت كرز وأصحابه إخوانهم من المشركين مددا لهم

ببدر، ولم يمد الله المؤمنين بملائكته، لأن الله عز وجل إنما وعدهم أن يمدهم بملائكته إن أتاهم كرز ومدد المشركين من فورهم، ولم يأتهم المدد.

وأما الذين قالوا: أن الله تعالى ذكره قد كان أمد المسلمين بالملائكة يوم بدر، فإنهم اعتلوا بقول الله عز وجل :(إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) [الأنفال :9].

قالوا: فالألف منهم قد أتاهم مددا، وإنما الوعد الذي كانت فيه الشروط فيما زاد على الألف، فأما الألف فقد كانوا أمدوا به لأن الله عز وجل كان قد وعدهم ذلك، ولن يخلف الله وعده.37

ثم قال: القول في تأويل قوله جل ثناؤه: (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم).

يعني تعالى ذكره: وما جعل الله وعده إياكم ما وعدكم من إمداده إياكم بالملائكة الذين ذكر عددهم (إلا بشرى لكم) يعني بشرى يبشركم بها (ولتطمئن قلوبكم به) يقول :وكي تطمئن بوعده الذي وعدكم من ذلك قلوبكم، فتسكن إليه ولا تجزع من كثرة عدد عدوكم، وقلة عددكم (وما النصر إلا من عند الله)يعني وما

ظفركم إن ظفرتم بعدوكم إلا بعون الله، لا من قبل المدد الذي يأتيكم من الملائكة، يقول تعالى ذكره: فعلى الله فتوكلوا وبه فاستعينوا لا بالجموع وكثرة العدد..كما حدثنا محمد بن عمرو قال:ثنا أبو عاصم قال:ثنا عيسى عن ابن أبي نجيح عن مجاهد :(وما جعله الله إلا بشرى لكم) يقول :إنما جعلهم لتستبشروا بهم ولتطمئنوا إليهم، ولم يقاتلوا معهم يومئذ _يعني يوم أحد _قال مجاهد :ولم يقاتلوا معهم يومئذ ولا قبله ولا بعده، إلا يوم بدر.

حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق: (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به): لما أعرف من ضعفكم، وما النصر إلا من عندي بسلطاني وقدرتي، وذلك أن العز والحكم إلى لا إلى أحد من خلقي.

حدثني يونس قال: أخبرنا ابن وهب قال ابن زيد: (وما النصر إلا من عند الله): لو شاء الله أن ينصركم بغير الملائكة فعل (العزيز الحكيم).38

ثم قال "ابن جرير الطبري" رحمه الله تعالى: القول في تأويل قوله: (ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين).

يعني بذلك جل ثناؤه: ولقد نصركم الله ببدر ليقطع طرفا من الذين كفروا، ويعني بالطرف الطائفة والنفر، يقول تعالى ذكره: ولقد نصركم الله ببدر كيما يهلك طائفة من الذين كفروا بالله ورسوله، فجحدوا وحدانية ربهم، ونبوة نبيهم محمد صلى الله عليه وسلم.

كما حدث بشر قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد عن قتادة قوله: (ليقطع طرفا من الذين كفروا). فقطع الله يوم بدر طرفا من الكفار وقتل صناديدهم ورؤساءهم، وقادتهم في الشر.39

ثالثا: تفسير "البغوي" للآيات[123_129] من سورة آل عمران

قال" أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي" رحمه الله في تفسير قول الله تعالى: (ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين. ليس لك من الأمر

شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون. ولله ما في السماوات وما في الأرض يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء والله غفور رحيم) [آل عمران:129_123]، يذكر الله تعالى في هذه الآية منته عليهم بالنصرة يوم بدر (وأنتم أذلة) جمع: ذليل وأراد به قلة العدد، فإنهم كانوا ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا فنصرهم الله مع قلة عددهم (فاتقوا الله لعلكم تشكرون).

(إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم) اختلفوا في هذه الآية، فقال قتادة: كان هذا يوم بدر، أمدهم الله تعالى بألف من الملائكة، كما قال تعالى: (فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة)] الأنفال :9]ثم صاروا ثلاثة آلاف ثم صاروا خمسة آلاف، كما ذكر ها هنا (بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين)، (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين)، فصبروا يوم بدر فاتقوا فأمدهم الله بخمسة آلاف كما وعد، قال الحسن: وهؤلاء الخمسة آلاف ردء المؤمنين إلى يوم القيامة.40

ثم ذكر "البغوي" قول ابن عباس في قتال الملائكة:

قال ابن عباس ومجاهد: لم تقاتل الملائكة في المعركة إلا يوم بدر، وفيما سوى ذلك يشهدون القتال ولا يقاتلون، إنما يكونون عددا ومددا.

قال محمد بن إسحاق :لما كان يوم أحد إنجلى القوم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وبقى سعد بن مالك يرمي وفتى شاب يتنبل له فلما فنى النبل أتاه به فنثره، فقال ارم أبا إسحاق مرتين، فلما انجلت المعركة سئل عن ذلك الرجل فلم يعرف.. عن سعد بن أبي وقاص قال:رأيت رسول الله صلى الله عليه و سلم يوم أحد ومعه رجلان يقاتلان عنه عليهما ثياب بيض كأشد القتال، ما رأيتهما قبل ولا بعد.

ورواه مسلم عن أبي بكر بن أبي شيبة قال أخبرنا محمد بن بشر وأبو أسامة عن مسعر عن سعد إبن إبراهيم عن أبيه عن سعد، يعني إبن أبي وقاص، قال:رأيت عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن شماله يوم أحد رجلين عليهما ثياب بيض، ما رأيتهما قبل ولا بعد. يعني :جبريل وميكائيل.41

ثم قال" البغوي" رحمه الله تعالى:

قال الشعبي: بلغ رسول الله صلى الله عليه وسلم والمسلمين يوم بدر: أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين، فشق ذلك

عليهم، فانزل الله تعالى: (ألن يكفيكم أن يمدكم) إلى قوله (مسومين) فبلغ كرزا الهزيمة فرجع فلم يأتهم، ولم يمدهم الله أيضا بالخمسة آلاف، وكانوا قد أمدوا بألف.

وقال الآخرون: إنما وعد الله تعالى المسلمين يوم بدر، إن صبروا على طاعته واتقوا محارمه: أن يمدهم أيضا في حروبهم كلها، فلم يصبروا إلا في يوم الأحزاب، فأمدهم الله حتى حاصروا قريظة والنضير، قال عبد الله بن أبي أوفى: كنا محاصري قريظة والنضير ما شاء الله فلم يفتح علينا، فرجعنا فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم بغسل فهو يغسل رأسه، إذ جاءه جبريل عليه السلام فقال: وضعتم أسلحتكم ولم تضع الملائكة أوزارها؟ فدعا رسول الله صلى الله عليه و سلم بخرقة فلف بها رأسه ولم يغسله، ثم نادى فينا فقمنا حتى أتينا قريظة والنضير، فيومئذ أمدنا الله تعالى بثلاثة آلاف من الملائكة، ففتح لنا فتحا يسيرا.

وقال الضحاك وعكرمة: كان هذا يوم أحد وعدهم الله المدد إن صبروا، فلم يصبروا فلم يمدوا به. 42

ثم ذكر "البغوي" رحمه الله تعالى الفرق بين المد والإمداد، مستدلا بالآيات البينات،

فقال :قوله تعالى:(أن يمدكم ربكم) و الإمداد :إعانة الجيش بالجيش، وقيل :ما كان على جهة القوة والإعانة يقال فيه: أمده إمدادا، وما كان على جهة الزيادة يقال :مده مدا، ومنه قوله تعالى :(والبحر يمده) [لقمان:27]وقيل المد في الشر والإمداد في الخير، يدل عليه قوله تعالى :(ويمدهم في طغيانهم يعمهون) [البقرة:15]،(ونمد له من العذاب مدا) [مريم :79] ، وقال في الخير :(أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين)، وقال:(وأمددناكم بأموال وبنين) [الإسراء:6].

قوله تعالى :(بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) قرأ ابن عامر بتشديد الزاي على التكثير، لقوله تعالى :(ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة) [الأنعام :111]، وقرأ الآخرون بالتخفيف دليله قوله تعالى :(لولا أنزل علينا الملائكة) [الفرقان:21]، وقوله (وأنزل جنودا لم تروها) [التوبة:26].

ثم قال في تفسيره :(بلى) نمدكم (إن تصبروا) لعدوكم (وتتقوا) أي: مخالفة نبيكم (ويأتوكم) يعني المشركين (من فورهم هذا) قال ابن عباس رضى الله عنهما وقتادة والحسن وأكثر المفسرين: من وجههم هذا وقال مجاهد

والضحاك: من غضبهم هذا لأنهم إنما رجعوا للحرب يوم أحد من غضبهم ليوم بدر (يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة) لم يرد خمسة آلاف سوى ما ذكر من ثلاثة آلاف، بل أراد معهم وقوله (مسومين) أي: معلمين.43

ثم قال في تأويل قوله تعالى :(وما جعله الله) يعني هذا الوعد والمدد (إلا بشرى لكم) أي: بشارة لتستبشروا به.

(ولتطمئن)ولتسكن (قلوبكم به) فلا تجزعوا من كثرة عدوكم وقلة عددكم (وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم) يعني: لا تحيلوا بالنصر على الملائكة والجند، فإن النصر من الله تعالى، فاستعينوا به وتوكلوا عليه لأن العز والحكم له.

قوله تعالى :(ليقطع طرفا من الذين كفروا) يقول :لقد نصركم الله ببدر ليقطع طرفا أي :لكي يهلك طائفة من الذين كفروا وقال السدي: معناه ليهدم ركنا من أركان الشرك بالقتل والأسر، فقتل من قادتهم وسادتهم يوم بدر سبعون وأسر سبعون، ومن حمل الآية على حرب أحد فقد قتل منهم يومئذ ستة عشر ، وكانت النصرة للمسلمين حتي خالفوا أمر الرسول صلى الله عليه وسلم فانقلب عليهم (أو يكبتهم) قال

الكلبي :يهزمهم وقال يمان: يصرعهم لوجوههم قال السدي: يلعنهم وقال أبو عبيدة :يهلكهم وقيل :يحزنهم والمكبوت: الحزين وقيل أصله :يكبدهم أي :يصيب الحزن والغيظ أكبادهم والتاء والدال يتعاقبان كما يقال سبت رأسه وسبده :إذا حلقه وقيل :يكبتهم بالخيبة (فينقلبوا خائبين) لم ينالوا شيئا ، مما كانوا يرجون من الظفر بكم .44

رابعا : تفسير " القرطبي "للآيات[123_129] من سورة آل عمران

ذكر " أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي" ست مسائل في تفسير قوله تعالى :(ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة فاتقوا الله لعلكم تشكرون. إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) :

الأولى: قوله تعالى :(ولقد نصركم الله ببدر) كانت بدر يوم سبعة عشر من رمضان يوم جمعة لثمانية عشر شهرا من الهجرة، وبدر: ماء هنالك وبه سمى الموضع.. (أذلة) معناها : قليلون وذلك أنهم كانوا ثلاث مئة وثلاثة عشر

أو أربعة عشر رجلا، وكان عدوهم ما بين التسع مئة إلى الألف.

و"أذلة" جمع ذليل واسم الذل في هذا الموضع مستعار، ولم يكونوا في أنفسهم إلا أعزة، ولكن نسبتهم إلى عدوهم وإلى جميع الكفار في أقطار الأرض تقتضي عند التأمل ذلتهم، وأنهم يغلبون.

والنصر: العون فنصرهم الله يوم بدر وقتل فيه صناديد المشركين، وعلى ذلك اليوم انبني الإسلام، وكان أول قتال قاتله النبي صلى الله عليه وسلم.45

وقال "القرطبي" رحمه الله:

غزوة بدر الكبرى وهي أعظم المشاهد فضلا لمن شهدها، وفيها أمد الله بملائكته نبيه والمؤمنين، في قول جماعة العلماء وعليه يدل ظاهر الآية لا في يوم أحد، ومن قال: أن ذلك كان يوم أحد، جعل قوله تعالى :(ولقد نصركم الله ببدر) إلى قوله :(تشكرون) اعتراضا بين الكلامين هذا قول عامر الشعبي، وخالفه الناس.46

ثم قال: وتظاهرت الروايات بأن الملائكة حضرت يوم بدر وقاتلت، ومن ذلك قول أسيد مالك بن ربيعة: لو كنت معكم الآن ببدر ومعي

بصري، لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة، لا أشك ولا امتري. رواه عقيل عن الزهري عن أبي حازم سلمة بن دينار.

قال ابن أبي حاتم: لا يعرف للزهري عن أبي حازم غير هذا الحديث الواحد، وأبو أسيد يقال: أنه آخر من مات من أهل بدر، ذكره أبو عمر في "الاستيعاب" وغيره.

وفي صحيح مسلم من حديث عمر بن الخطاب قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم الف وأصحابه ثلاث مائة وسبعة عشر رجلا، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: "اللهم انجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض "فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة حتي سقط رداءه عن منكبيه، فاتاه أبوبكر فاخذ رداءه فالقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فانزل الله عز وجل: (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) [الأنفال: 9] فأمده الله تعالى بالملائكة.

قال أبو زميل: فحدثني ابن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذ سمع ضربة بالسوط فوقه، وصوت الفارس يقول: أقدم حيزوم، فنظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا، فنظر إليه فاذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه، [كضربة السوط] فاخضر ذلك أجمع. فجاءه الأنصاري فحدث بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة"، فقتلوا يومئذ سبعين واسروا سبعين، وذكر الحديث..فتظاهرت السنة والقرآن على ما قاله الجمهور والحمد لله.47

ثم قال "القرطبي":

وعن خارجة بن إبراهيم عن أبيه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجبريل: "من القائل يوم بدر من الملائكة: أقدم حيزوم؟" فقال جبريل: يا محمد ما كل أهل السماء أعرف.

وعن علي رضى الله عنه انه خطب الناس فقال: بينا أنا أمتح من قليب بدر، جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط، ثم ذهبت ثم جاءت ريح شديدة لم أر مثلها قط إلا التي كانت قبلها، قال: وأظنه ذكر: ثم جاءت ريح شديدة فكانت الريح الأولى جبريل نزل في ألف

من الملائكة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت الريح الثانية ميكائيل نزل في ألف من الملائكة عن يمين رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكان أبوبكر عن يمينه وكانت الريح الثالثة اسرافيل نزل في ألف من الملائكة عن ميسرة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأنا في الميسرة.

وعن سهل بن حنيف رضى الله عنه قال:لقد رأيتنا يوم بدر، وإن أحدنا يشير بسيفه إلى رأس المشرك، فيقع رأسه عن جسده قبل أن يصل إليه .

وعن الربيع بن أنس قال: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوهم، بضرب فوق الاعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد أحرق به، ذكر جميعه البيهقي رحمه الله.48

ثم قال :وقال بعضهم :أن الملائكة كانوا يقاتلون، وكانت علامة ضربهم في الكفار ظاهرة لأن كل موضع اصابت ضربتهم اشتعلت النار في ذلك الموضع، حتى أن أبا جهل قال لإبن مسعود:أنت قتلتني؟!.إنما قتلني الذي لم يصل سناني إلى سنبك فرسه وإن اجتهدت.

وإنما كانت الفائدة في كثرة الملائكة لتسكين قلوب المؤمنين، ولأن الله تعالى جعل أولئك الملائكة مجاهدين إلى يوم القيامة،

فكل عسكر صبر واحتسب تأتيهم الملائكة ويقاتلون معهم.

وقال ابن عباس ومجاهد: لم تقاتل الملائكة إلا يوم بدر، وفيما سوى ذلك يشهدون ولا يقاتلون إنما يكونون عددا ومددا.

وقال بعضهم: إنما كانت الفائدة في كثرة الملائكة أنهم كانوا يدعون ويسبحون، ويكثرون الذين يقاتلون يومئذ، فعلى هذا لم تقاتل الملائكة يوم بدر وإنما حضروا للدعاء والتثبيت، والأول أكثر.49

ثم قال "القرطبي" رحمه الله تعالى في تفسير آيات سورة آل عمران، التي تذكر مشاركة ملائكة الرحمن عليهم السلام في بدر الكبرى:

قال قتادة: كان هذا يوم بدر، أمدهم الله بألف ثم صاروا ثلاثة آلاف، ثم صاروا خمسة آلاف، فذلك قوله تعالى: (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) [الأنفال:9] .

وقوله: (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين) وقوله: (بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين)

فصبر المؤمنون يوم بدر واتقوا الله، فأمدهم الله بخمسة آلاف من الملائكة على ما وعدهم، فهذا كله يوم بدر.

وقال الحسن: فهؤلاء الخمسة آلاف ردء للمؤمنين إلى يوم القيامة.

قال الشعبي :بلغ النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه يوم بدر، أن كرز بن جابر المحاربي يريد أن يمد المشركين، فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم وعلى المسلمين، فانزل الله تعالى (ألن يكفيكم) إلى قوله : (مسومين) فبلغ كرزا الهزيمة فلم يمدهم ورجع، فلم يمدهم الله أيضا بالخمسة آلاف، وكانوا قد مدوا بالف.

وقيل :إنما وعد الله المؤمنين يوم بدر أن صبروا على طاعته واتقوا محارمه، أن يمدهم أيضا في حروبهم كلها، فلم يصبروا ولم يتقوا محارمه إلا في يوم الأحزاب، فامدهم حين حاصروا قريظة.

وقيل :إنما كان هذا يوم أحد، وعدهم الله المدة إن صبروا فما صبروا، فلم يمدهم بملك واحد، ولو امدوا لما هزموا، قاله عكرمة والضحاك.50

وذكر "القرطبي" رحمه الله تعالى المسألة الثانية فقال:

الثانية: نزول الملائكة سبب من أسباب النصر لا يحتاج إليه الرب تعالى، وإنما يحتاج إليه المخلوق، فليعلق القلب بالله وليثق به، فهو الناصر بسبب وبغير سبب (إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) [يس: 82]، ولكن أخبر بذلك ليمتثل الخلق ما أمرهم به من الأسباب التي قد خلت من قبل (ولن تجد لسنة الله تبديلا) [الأحزاب: 62]، ولا يقدح ذلك في التوكل، وهو رد على من قال: إن الأسباب إنما سنت في حق الضعفاء لا للأقوياء، فان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا الأقوياء، وغيرهم هم الضعفاء وهذا واضح.

و"مد" في الشر و "آمد" في الخير. وقد تقدم في "البقرة".

وقرأ أبو حيوة: "منزلين" بكسر الزاي مخففا يعني: منزلين النصر، وقرأ ابن عامر مشددة الزاي مفتوحة، على التكثير.

ثم قال: (بلى) وتم الكلام. (إن تصبروا) شرط أي: علي لقاء العدو. (وتتقوا) عطف عليه أي: معصيته. والجواب: (يمددكم).

ومعنى (من فورهم) :من وجههم. هذا عن عكرمة وقتادة والحسن والربيع والسدي وإبن زيد وقيل :من غضبهم عن مجاهد والضحاك، كانوا قد غضبوا يوم أحد ليوم بدر مما لقوا.

وأصل الفور: القصد إلى الشيء والأخذ فيه بجد، وهو من قولهم: فارت القدر تفور فورا وفورانا: إذا غلت، والفور: الغليان. وفار غضبه: إذا جاش. وفعله من فوره أي: قبل أن يسكن. والفوارة: ما يفور من القدر. وفي التنزيل:(وفار التنور) [هود:40]. 51

ثم ذكر " القرطبي " المسألة الثالثة والرابعة والخامسة:

الثالثة: قوله تعالى:(مسومين) بفتح الواو: اسم مفعول، وهي قراءة ابن عامر وحمزة والكسائي ونافع أي: معلمين بعلامات. (مسومين) بكسر الواو: اسم فاعل، وهي قراءة أبي عمرو وابن كثير وعاصم، فيحتمل من المعنى ما تقدم أي: قد اعلموا أنفسهم بعلامة واعلموا خيلهم، ورجح الطبري وغيره هذه القراءة.. قلت ودلت الآية وهي: الرابعة :على إتخاذ الشارة والعلامة للقبائل والكتائب، يجعلها السطان لهم لتمييز كل قبيلة وكتيبة من غيرها عند

الحرب، وعلى فضل الخيل البلق لنزول الملائكة عليها .

قلت:ولعلها نزلت عليها موافقة لفرس المقداد، فإنه كان ابلق ولم يكن لهم فرس غيره، فنزلت الملائكة على الخيل البلق اكراما للمقداد، كما نزل جبريل معتجرا بعمامة صفراء على مثال الزبير والله أعلم .

ودلت الآية أيضا وهي: الخامسة :على لباس الصوف، وقد لبسه الأنبياء والصالحون. وروي أبو داود وإبن ماجة _واللفظ له _عن أبي بردة عن أبيه قال:قال لي أبي :لو شهدتنا ونحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذ اصابتنا السماء لحسبت أن ريحنا ريح الضأن، ولبس صلى الله عليه و سلم جبة رومية من صوف ضيقة الكمين. رواه الائمة.ولبسها يونس عليه السلام. رواه مسلم. 52

وجمع الإمام" القرطبي "رحمه الله تعالى المسألة السادسة فقال:

السادسة: قلت: وأما ما ذكره مجاهد من أن خيلهم كانت مجزوزة الأذناب والأعراف فبعيد، فإن في مصنف أبي داود عن عتبة بن عبد السلمي، أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: "لا تقصوا نواصي الخيل ولا معارفها ولا أذنابها، فان أذنابها مذابها

ومعارفها دفاؤها، ونواصيها معقود فيها الخير"، فقول مجاهد يحتاج إلى توقيف من أن خيل الملائكة كانت على تلك الصفة، والله اعلم.

ودلت الآية على حسن الأبيض والأصفر من الألوان، لنزول الملائكة بذلك.

وقال عليه الصلاة والسلام: "البسوا من ثيابكم البياض، فانه من خير ثيابكم وكفنوا فيها موتاكم". 53

ثم قال: قوله تعالى: (وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم. ليقطع طرفا من الذين كفروا أو يكبتهم فينقلبوا خائبين).

قوله تعالى: (وما جعله الله إلا بشرى لكم) الهاء المدد وهو الملائكة، أو الوعد، أو الإمداد ويدل عليه: (يمددكم) أو للتسويم، أو للإنزال أو للعدد على المعنى، لأن خمسة آلاف عدد.

(ولتطمئن قلوبكم به) اللام لام كي أي: ولتطمئن قلوبكم به جعله كقوله: (وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا) [فصلت: 12]، أي: وحفظا لها جعل ذلك.

(وما النصر إلا من عند الله) يعني نصر المؤمنين ولا يدخل في ذلك نصر الكافرين، لأن ما وقع لهم من غلبة، إنما هو إملاء محفوف بخذلان وسوء عاقبة وخسران.

(ليقطع طرفا من الذين كفروا) أي: بالقتل. ونظم الآية: ولقد نصركم الله ببدر ليقطع. وقيل: المعني: وما النصر إلا من عند الله، ليقطع ويجوز أن يكون متعلقا ب "يمددكم" أي يمددكم ليقطع، والمعنى: من قتل من المشركين يوم بدر. عن الحسن وغيره.

السدي: يعني به من قتل من المشركين يوم أحد، وكانوا ثمانية عشر رجلا.

ومعني (يكبتهم) يحزنهم والمكبوت: المحزون، وروي أن النبي صلى الله عليه و سلم جاء إلى أبي طلحة، فرأى ابنه مكبوتا فقال: "ما شأنه؟" فقيل له مات بعيره.

واصله فيما ذكر بعض أهل اللغة: "يكبدهم" أي: يصيبهم بالحزن والغيظ في أكبادهم، فأبدلت الدال تاء كما قلبت في سبت رأسه وسبده، أي: حلقه. كبت الله العدو كبتا إذا صرفه وأذله، وكبده: أصابه في كبده، ويقال: قد أحرق الحزن كبده وأحرقت العداوة كبده، وتقول العرب للعدو: أسود الكبد، قال الأعشى:

فما أجشمت من إتيان قوم

هم الأعداء والأكباد سود

كأن الأكباد لما احترقت بشدة العداوة اسودت. 54

هوامش الفصل الرابع

1_أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق سامي بن محمد السلامة، تفسير القرآن العظيم، الجزء الثاني، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع،ط.2، 1999)، ص112_111.

2_المصدر السابق،ص112_111.

3_المصدر السابق،ص112.

4_أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق عبدالله بن عبد المحسن التركي، تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آى القرآن، الجزء السادس، (القاهرة: مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر،ط.1، 2001)، ص18_17.

5_أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، المصدر، السابق، ص 112.

6_المصدر السابق،ص113.

7_المصدر السابق،ص113.

8_معتجرا: اعتجر تعمم.

9_أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، المصدر السابق،ص114_113.

10_أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، المصدر السابق،ص33.

11_المصدر السابق،ص 34_35.

12_بلق: البلق سواد وبياض في اللون.

13_أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، المصدر السابق،ص35.

14_المصدر السابق، ص 36_37.

15_المصدر السابق،ص38_37.

16_قلانسهم : هي لباس للرأس.

17_أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ،تحقيق محمد عبد الله النمر، تفسير البغوي" معالم التنزيل" ، المجلد الثاني، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع،ط.1،1989) ، ص101_100.

18_أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان ، الجزء الخامس ، (بيروت: مؤسسة الرسالة ،ط.1،2006) ،ص 301.

19_المصدر السابق،ص302_301.

20_أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ،المصدر السابق،ص114.

21_المصدر السابق،ص114.

22_أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ،المصدر السابق،ص17_16.

23_المصدر السابق،ص18_20.

24_المصدر السابق،ص20_ 21.

25_المصدر السابق،ص 21.

26_أبو جعفر محمد بن جرير الطبري ،المصدر السابق،ص21_22.

27_طنب: حبل طويل يسد به البيت والسرادق وقيل الوتد، والجمع: أطناب وطنبة.

28_أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، المصدر السابق،ص23_24 .

29_المصدر السابق،ص24 _25.

30_المصدر السابق،ص26.

31_المصدر السابق،ص26 _28.

32_المصدر السابق،ص 28 _ 29.

33_المصدر السابق،ص29.

34_المصدر السابق،ص 29_30.

35_المصدر السابق،ص30_ 31.

36_المصدر السابق، ص 31.

37_المصدر السابق،ص31_32.

38_المصدر السابق،ص 38_ 39 .

39_المصدر السابق،ص 40.

40_أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ،المصدر السابق، ص 98_99 .

41_المصدر السابق،ص 99.

42_المصدر السابق،ص 99_100.

43_المصدر السابق،ص 100.

44_ المصدر السابق، ص101.

45_أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي ، المصدر السابق، ص292_293.

46 _المصدر السابق،ص296.

47_المصدر السابق، ص296_297.

48_المصدر السابق،ص 297_298.

49_المصدر السابق،ص298.

50_المصدر السابق،ص299.

51_المصدر السابق،ص 300_301.

52_المصدر السابق،301_303.

53_المصدر السابق،ص304_303.

54_المصدر السابق،ص304_305.

الفصل الخامس
مشاركة الملائكة في بدر الكبرى

تفسير المفسرين للآيات[5_13] من سورة الأنفال

بعد أن جمعت في الفصل السابق أقوال المفسرين الأربعة رحمهم الله تعالى للآيات [123_129] من سورة آل عمران سأتناول في هذا الجزء من الكتاب إن شاء الله تعالى أقوالهم وتفسيرهم للآيات [5_13] من سورة الأنفال التي جاء ذكر مشاركة الملائكة بها.

صحيح أن الدولة تحتاج إلى رجال وقوة، ولكن رجال أتقياء موحدين يعرفون الله، وإلى قوة ولكنها في حاجة أعظم إلى القوة الإلهية، إن مشاركة الملائكة القتال مع المسلمين في الميدان في بدر الكبرى سواء كانت مشاركة في القتال أو مشاركة بالحضور وليس القتال

على اختلاف الروايات، تؤكد معني القوة الإلهية التي ينعم بها الله على عباده المؤمنين.

أولا: تفسير "ابن كثير" الدمشقي للآيات[5_13] من سورة الأنفال

قال الله تعالى:

(كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون. يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين. ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون. إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين. وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم. إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام. إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله

ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) [الأنفال: 13_5].

قال" ابن كثير" في (تفسير القرآن العظيم):

قال الإمام أبو جعفر الطبري: اختلف المفسرون في السبب الجالب لهذه "الكاف" في قوله: (كما أخرجك ربك) فقال بعضهم: شبه به في الصلاح للمؤمنين، اتقاؤهم ربهم وإصلاحهم ذات بينهم، وطاعتهم الله ورسوله.

ثم روى عن عكرمة نحو هذا.

و معنى هذا أن الله تعالى يقول: كما أنكم لما اختلفتم في المغانم وتشاححتم فيها، فانتزعها الله منكم وجعلها إلى قسمه وقسم رسوله صلى الله عليه وسلم، فقسمها على العدل والتسوية، فكان هذا هو المصلحة التامة لكم، وكذلك لما كرهتم الخروج إلى الأعداء من قتال ذات الشوكة _ وهم النفير الذين خرجوا لنصر دينهم وإحراز عيرهم _ فكان عاقبة كراهتكم للقتال _ بأن قدره لكم وجمع به بينكم وبين عدوكم على غير ميعاد _ رشدا وهدى ونصرا وفتحا، كما قال تعالى: (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو

شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) [البقرة: 216].

قال ابن جرير: وقال آخرون: معنى ذلك: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) على كره من فريق من المؤمنين، كذلك وهم كارهون للقتال، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم، ثم روى نحوه عن مجاهد أنه قال: (كما أخرجك ربك) قال: كذلك يجادلونك في الحق، وقال السدي: أنزل الله في خروجه إلى بدر ومجادلتهم إياه فقال: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون) لطلب المشركين (يجادلونك في الحق بعد ما تبين) وقال بعضهم: يسألونك عن الأنفال مجادلة كما جادلوك يوم بدر. فقالوا: أخرجتنا للعير ولم تعلمنا قتالا فنستعد له.1

وبعد أن ذكر قول "أبي جعفر الطبري" لخص "ابن كثير" الغرض فقال: قلت: رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما خرج من المدينة طالبا لعير أبي سفيان التي بلغه خبرها، أنها صادرة من الشام فيها أموال جزيلة لقريش، فاستنهض رسول الله صلى الله عليه وسلم المسلمين من خف منهم، فخرج في ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، وطلب نحو الساحل من على

طريق بدر، وعلم أبو سفيان بخروج رسول الله صلى الله عليه و سلم في طلبه، فبعث ضمضم بن عمرو نذيرا إلى مكة، فنهضوا في قريب من الف مقنع ما بين التسعمائة إلى الألف، وتيامن أبو سفيان بالعير إلى سيف البحر فنجا، وجاء النفير فوردوا ماء بدر، وجمع الله المسلمين والكافرين على غير ميعاد لما يريد الله تعالى من إعلاء كلمة المسلمين، ونصرهم على عدوهم، والتفرقة بين الحق والباطل، كما سيأتي بيانه.

والغرض: أن رسول الله صلى الله عليه و سلم لما بلغه خروج النفير، أوحى الله إليه يعده إحدى الطائفتين: أما العير وأما النفير، ورغب كثير من المسلمين إلى العير لأنه كسب بلا قتال، كما قال تعالى :(وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين).2

ثم قال في تأويل قوله جل شأنه :(كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون. يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون).

قال مجاهد : يجادلونك في الحق: في القتال، وقال محمد بن إسحاق: (يجادلونك في

الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون) أي: كراهية للقاء المشركين، وإنكار لمسير قريش حين ذكروا لهم.

وقال السدي: (يجادلونك في الحق بعد ما تبين) أي: بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله به.

قال ابن جرير: وقال آخرون: عني بذلك المشركين. ومعنى قوله تعالى: (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) أي: يحبون أن الطائفة التي لا حد لها ولا منعة ولا قتال، تكون لهم وهي العير (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته) أي: هو يريد أن يجمع بينكم وبين الطائفة التي لها الشوكة والقتال ليظفركم بهم ويظهركم عليهم، ويظهر دينه ويرفع كلمة الإسلام ويجعله غالبا على الأديان، وهو اعلم بعواقب الأمور، وهو الذي دبركم بحسن تدبيره، وإن كان العباد يحبون خلاف ذلك فيما يظهر لهم، كما قال تعالى: (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون) [البقرة: 216] .3

ثم ذكر الإمام "ابن كثير" حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه، الذي رواه الإمام أحمد في المسند ومسلم في الصحيح، في تفسير قوله

جل شأنه: (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين. وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم).

قال الإمام أحمد: حدثنا أبو نوح قراد، حدثنا عكرمة بن عمار حدثنا سماك الحنفي أبو زميل، حدثني ابن عباس، حدثني عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى أصحابه وهم ثلاثمائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم الف وزيادة، فاستقبل النبي صلى الله عليه وسلم القبلة، ثم مد يديه وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: "اللهم أين ما وعدتني، اللهم انجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام فلا تعبد في الأرض أبدا ". قال: فما زال يستغيث ربه عز وجل ويدعوه حتى سقط رداؤه، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه ثم التزمه من ورائه، ثم قال: يا رسول الله كفاك مناشدتك ربك، فإنه سينجز لك ما وعدك، فانزل الله عز وجل: (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) فلما كان يومئذ والتقوا فهزم الله المشركين، فقتل منهم سبعون رجلا وأسر منهم سبعون رجلا، واستشار رسول الله صلى الله عليه

وسلم أبا بكر وعليا وعمر، فقال أبوبكر: يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإني أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذناه منهم قوة لنا على الكفار، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدا، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما ترى يا ابن الخطاب؟" قال: قلت: والله ما أرى ما رأى أبو بكر، ولكني أرى أن تمكنني من فلان _قريب لعمر_ فاضرب عنقه، وتمكن عليا من عقيل فيضرب عنقه، وتمكن حمزة من فلان _أخيه_ فيضرب عنقه، حتى يعلم الله أن ليس في قلوبنا هوادة للمشركين، هؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم. فهوى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هوى أبو بكر ولم يهو ما قلت، وأخذ منهم الفداء، فلما كان من الغد _قال عمر_ غدوت إلى النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر وهما يبكيان، فقلت: يا رسول الله أخبرني ما يبكيك أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت، وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما! قال النبي صلى الله عليه وسلم: "للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، قد عرض على عذابكم أدنى من هذه الشجرة _لشجرة قريبة" وأنزل الله عز وجل: (ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض) إلى قوله: (لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم) [الأنفال :67_68]. من الفداء ثم

أحل لهم الغنائم، فلما كان يوم أحد من العام المقبل عوقبوا مما صنعوا يوم بدر من أخذهم الفداء، فقتل منهم سبعون، وفر أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم عن النبي صلى الله عليه و سلم، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه وسال الدم على وجهه، فانزل الله عز وجل: (أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير) [آل عمران:165]، بأخذكم الفداء.

ورواه مسلم وأبو داود والترمذي، وابن جرير وابن مردويه، من طرق عن عكرمة بن عمار به وصححه علي بن المديني والترمذي، وقالا: لا يعرف إلا من حديث عكرمة بن عمار اليماني.4

ثم ذكر "ابن كثير" تأويل ابن عباس في قوله تعالى:(مردفين) فقال: وقوله تعالى :(بألف من الملائكة مردفين) أي: يردف بعضهم بعضا كما قال هارون بن عنترة، عن ابن عباس: (مردفين): متتابعين.

ويحتمل أن يكون المراد (مردفين)لكم أي: نجدة لكم، كما قال العوفي عن إبن عباس: (مردفين) يقول: المدد كما تقول: أئت الرجل

فزده كذا وكذا، وهكذا قال مجاهد وابن كثير القارئ وابن زيد: (مردفين): ممدين.

وقال أبو كدينة عن قابوس عن أبيه عن إبن عباس: (ممدكم بألف من الملائكة مردفين) قال: وراء كل ملك ملك.

وفي رواية بهذا الإسناد: (مردفين) قال: بعضهم على أثر بعض، وكذا قال أبو ظبيان والضحاك وقتادة.

وقال ابن جرير: حدثني المثنى حدثنا إسحاق حدثنا يعقوب بن محمد الزهري، حدثني عبد العزيز بن عمران عن الزمعي عن أبي الحويرث، عن محمد بن جبير عن علي رضي الله عنه قال: نزل جبريل في ألف من الملائكة عن ميمنة النبي صلى الله عليه وسلم وفيها أبو بكر، ونزل ميكائيل في ألف من الملائكة عن ميسرة النبي صلى الله عليه وسلم وأنا في الميسرة.

وهذا يقتضي _لو صح إسناده_ أن الألف مردفة بمثلها، ولهذا قرأ بعضهم: (مردفين) بفتح الدال فالله اعلم.5

ثم ذكر "ابن كثير" رحمه الله تعالى حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي بوب له البخاري (باب شهود الملائكة بدرا): قال

البخاري "باب شهود الملائكة بدرا": حدثنا إسحاق بن إبراهيم، حدثنا جرير عن يحى ابن سعيد عن معاذ بن رفاعة بن رافع الزرقي، عن أبيه _ وكان أبوه من أهل بدر_ قال: جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ما تعدون أهل بدر فيكم؟ قال: "من أفضل المسلمين"_ أو كلمة نحوها _ قال: وكذلك من شهد بدرا من الملائكة.

انفرد بإخراجه البخاري، وقد رواه الطبراني في المعجم الكبير من حديث رافع بن خديج، وهو خطأ والصواب رواية البخاري والله تعالى اعلم.6

ثم قال "ابن كثير" في تفسير قوله تعالى: (وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله) الآية أي: وما جعل الله بعث الملائكة، وإعلامه إياكم بهم إلا بشرى(ولتطمئن به قلوبكم)وإلا فهو تعالى قادر على نصركم على أعدائكم بدون ذلك، ولهذا قال: (وما النصر إلا من عند الله)كما قال تعالى: (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فإما منا بعد وإما فداء حتى تضع الحرب أوزارها ذلك ولو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله

فلن يضل أعمالهم .سيهديهم ويصلح بالهم . ويدخلهم الجنة عرفها لهم [محمد: 6 _4]، وقال تعالى: (وتلك الأيام نداولها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين. وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين) [آل عمران: 140-141]فهذه حكم شرع الله جهاد الكفار بأيدي المؤمنين لأجلها، وقد كان تعالى إنما يعاقب الأمم السالفة المكذبة للأنبياء بالقوارع التي تعم تلك الأمة المكذبة، كما أهلك قوم نوح بالطوفان، وعادا الأولى بالدبور، وثمود بالصيحة، وقوم لوط بالخسف والقلب وحجارة السجيل، وقوم شعيب بيوم الظلة، فلما بعث الله تعالى موسى عليه السلام وأهلك عدوه فرعون وقومه بالغرق في اليم، ثم أنزل على موسى التوراة شرع فيها قتال الكفار واستمر الحكم في بقية الشرائع بعده على ذلك، كما قال تعالى: (ولقد آتينا موسى الكتاب من بعد ما اهلكنا القرون الأولى بصائر للناس) [القصص: 43] .7

ثم قال: وقتل المؤمنين الكافرين أشد إهانة للكافرين وأشفى لصدور المؤمنين، كما قال تعالى للمؤمنين من هذه الأمة: (قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم

ويشف صدور قوم مؤمنين. ويذهب غيظ قلوبهم) [التوبة:15_14]ولهذا كان قتل صناديد قريش بأيدي أعدائهم الذين ينظرون إليهم بأعين ازدرائهم، أنكى لهم وأشفى لصدور حزب الإيمان، فقتل أبي جهل في معركة القتال وحومة الوغى، أشد إهانة له من أن يموت على فراشه بقارعة أو صاعقة أو نحو ذلك، كما مات أبو لهب _لعنه الله_ بالعدسة 8 بحيث لم يقربه أحد من أقاربه، وإنما غسلوه بالماء قذفا من بعيد، ورجموه حتى دفنوه، ولهذا قال تعالى: (إن الله عزيز) أي: له العزة ولرسوله وللمؤمنين بهما في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد. يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم) [غافر:52_51] (حكيم)فيما شرعه من قتال الكفار، مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى.9

ثم قال في تفسير قوله جل شأنه: (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام. إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين

كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب. ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار).

يذكرهم الله بما أنعم به عليهم من القائه النعاس عليهم، أمانا من خوفهم الذي حصل لهم من كثرة عدوهم وقلة عددهم، وكذلك فعل تعالى بهم يوم أحد كما قال تعالى: (ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم) [آل عمران:154].. قال الحافظ أبو يعلي: حدثنا زهير حدثنا ابن مهدي عن شعبة عن أبي إسحاق عن حارثة ابن مضرب عن علي رضى الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي تحت شجرة ويبكي، حتى أصبح.

وقال سفيان الثوري عن عاصم عن أبي رزين عن عبد الله بن مسعود رضى الله عنه أنه قال: النعاس أمنة من الله، وفي الصلاة من الشيطان.10

ثم قال: قلت: أما النعاس فقد أصابهم يوم أحد، وأمر ذلك مشهور جدا، وأما يوم بدر في هذه الآية الشريفة إنما هي في سياق قصة

بدر، وهي دالة على وقوع ذلك أيضا، وكأن ذلك كان سجية للمؤمنين عند شدة البأس، لتكون قلوبهم آمنة مطمئنة بنصر الله وهذا من فضل الله ورحمته بهم ونعمه عليهم، وكما قال تعالى: (فإن مع العسر يسرا. إن مع العسر يسرا) [الشرح:5_6].

ولهذا جاء في الصحيح: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما كان يوم بدر في العريش مع الصديق رضي الله عنه وهما يدعوان، أخذت رسول الله سنة من النوم ثم استيقظ مبتسما فقال: "أبشر يا أبا بكر هذا جبريل على ثناياه النقع " ثم خرج من باب العريش، وهو يتلو قوله تعالى: (سيهزم الجمع ويولون الدبر) [القمر:45].

وقوله: (وينزل عليكم من السماء ماء): قال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس، قال: نزل النبي صلى الله عليه وسلم _ يعني: حين سار إلى بدر_ والمسلمون بينهم وبين الماء رملة دعصة 11، فأصاب المسلمين ضعف شديد، وألقى الشيطان في قلوبهم الغيظ يوسوس بينهم: تزعمون أنكم أولياء الله تعالى وفيكم رسوله وقد غلبكم المشركون على الماء، وأنتم تصلون مجنبين! فأمطر الله عليهم مطرا شديدا، فشرب المسلمون وتطهروا واذهب الله

عنهم رجز الشيطان، وانشف الرمل حين أصابه المطر، ومشى الناس عليه والدواب فساروا إلى القوم، وأمد الله نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بألف من الملائكة، فكان جبريل في خمسمائة مجنبة وميكائيل في خمسمائة مجنبة.. وقوله: (ليطهركم به) أي: من حدث أصغر أو أكبر، وهو تطهير الظاهر (ويذهب عنكم رجز الشيطان) أي: من وسوسة أو خاطر سيئ، وهو تطهير الباطن، كما قال تعالى في حق أهل الجنة: (عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة) فهذا زينة الظاهر (وسقاهم ربهم شرابا طهورا) [الإنسان: 21] أي: مطهرا لما كان من غل أو حسد أو تباغض، وهو زينة الباطن وطهارته.

(وليربط على قلوبكم) أي: بالصبر والإقدام على مجالدة الأعداء، وهو شجاعة الباطن (ويثبت به الأقدام) وهو شجاعة الظاهر والله أعلم.[12]

ثم وجه "ابن كثير" النظر إلى النعمة الخفية التي أظهرها الله:

قوله: (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا) وهذه نعمة خفية أظهرها الله تعالى لهم ليشكروه عليها، وهو

أنه _تعالى وتقدس وتبارك وتمجد_ أوحى إلى الملائكة الذين أنزلهم لنصر نبيه ودينه وحزبه المؤمنين، يوحي إليهم فيما بينهم أن يثبتوا الذين آمنوا.

قال ابن اسحاق: وآزروهم. وقال غيره: قاتلوا معهم. وقيل: كثروا سوادهم، وقيل: كان ذلك بأن الملك كان يأتي الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه و سلم يقول: سمعت هؤلاء القوم _يعني المشركين_ يقولون: "والله لئن حملوا علينا لننكشفن" فيحدث المسلمون بعضهم بعضا بذلك فتقوى أنفسهم.

حكاه ابن جرير وهذا لفظه بحروفه.

وقوله: (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) أي: ثبتوا أنتم المسلمين وقووا أنفسهم على أعدائهم عن أمري لكم بذلك، سألقي الرعب والصغار على من خالف أمري، وكذب رسولي. (فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) أي: اضربوا الهام ففلقوها، واحتزوا الرقاب فقطعوها وقطعوا الأطراف منهم، وهي أيديهم وأرجلهم.

وقد أختلف المفسرون في معنى: (فوق الأعناق) فقيل: معناه اضربوا الرؤوس. قاله عكرمة، وقيل: معناه (فوق الأعناق) أي: على

الأعناق وهي الرقاب، قاله الضحاك وعطية العوفي.

ويشهد لهذا المعنى أن الله تعالى أرشد المؤمنين إلى هذا في قوله تعالى: (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق) [محمد :4]

وقال وكيع عن المسعودي عن القاسم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إني لم ابعث لأعذب بعذاب الله، إنما بعثت بضرب الرقاب وشد الوثاق".

واختار ابن جرير أنها قد تدل على ضرب الرقاب وفلق الهام.13

ثم قال: قلت: وفي مغازي "الأموي" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم جعل يمر بين القتلى يوم بدر، فيقول:

"نفلق هاما ...".

فيقول أبو بكر:

من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق وأظلما

فيبتدئ رسول الله صلى الله عليه وسلم بأول البيت، ويستطعم أبا بكر رضى الله عنه إنشاد آخره، لأنه كان لا يحسن إنشاد الشعر كما قال

تعالى: (وما علمناه الشعر وما ينبغي له) [يس: 69].

وقال الربيع بن أنس: كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوا هم، بضرب فوق الأعناق وعلى البنان، مثل سمة النار قد أحرق به.

وقوله: (واضربوا منهم كل بنان) قال ابن جرير: معناه: واضربوه أيها المؤمنون من عدوكم كل طرف ومفصل من أطراف أيديهم وأرجلهم. و "البنان": جمع بنانة كما قال الشاعر:

ألا ليتني قطعت مني بنانة ولاقيته في البيت يقظان حاذرا

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: (واضربوا منهم كل بنان) يعني بالبنان: الأطراف.14

ثانيا: تفسير "ابن جرير الطبري" للآيات[5_13] من سورة الأنفال

قال" ابن جرير الطبري" رحمه الله تعالى في تفسير قوله جل شأنه: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون. يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. وإذ يعدكم

الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين. ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون. إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين. وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم. إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام. إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) [الأنفال:5_13].

اختلف أهل التأويل في الجالب لهذه الكاف التي في قوله: (كما أخرجك) وما الذي شبه بإخراج الله نبيه صلى الله عليه و سلم من بيته بالحق، فقال بعضهم: شبه به في الصلاح للمؤمنين اتقاؤهم ربهم وإصلاحهم ذات بينهم وطاعتهم الله ورسوله، وقالوا: معنى ذلك: يقول الله: وأصلحوا ذات بينكم فان ذلك خير

لكم، كما إخراج الله محمدا صلى الله عليه وسلم من بيته بالحق كان خيرا له.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا محمد بن المثنى قال: ثنا عبد الوهاب قال: ثنا داود عن عكرمة: (فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله أن كنتم مؤمنين) ... (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) الآية: أي أن هذا خير لكم، كما كان إخراجك من بيتك بالحق خيرا لك.

وقال آخرون: معنى ذلك: كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره من فريق من المؤمنين كذلك هم يكرهون القتال، فهم يجادلونك فيه بعد ما تبين لهم.

حدثني محمد بن عمرو قال: ثنا أبو عاصم قال: ثنا عيسى عن ابن ابي نجيح عن مجاهد: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق). قال: كذلك يجادلونك في الحق.

حدثني المثنى قال: ثنا أبو حذيفة قال: ثنا شبل عن ابن ابي نجيح عن مجاهد: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق): كذلك يجادلونك في الحق القتال.15

ثم ذكر "ابن جرير" اختلاف نحاة الكوفة ونحاة البصرة فقال: واختلف أهل العربية في

ذلك فقال بعض نحويي الكوفيين: ذلك أمر من الله لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يمضي لأمره في الغنائم على كره من أصحابه، كما مضى لأمره في خروجه من بيته لطلب العير وهم كارهون.

وقال آخرون منهم: معنى ذلك: يسألونك عن الأنفال مجادلة كما جادلوك يوم بدر فقالوا: أخرجتنا للعير ولم تعلمنا قتالا فنستعد له.

وقال بعض نحويي البصرة: يجوز أن يكون هذا الكاف في (كما أخرجك ربك) على قوله: (أولئك هم المؤمنون حقا)... (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق). وقال: الكاف بمعنى على.

وقال آخر منهم: هي بمعنى القسم. قال: ومعنى الكلام: والذي أخرجك ربك.

قال أبو جعفر: وأولى هذه الأقوال عندي بالصواب، قول من قال في ذلك بقول مجاهد وقال: معناه: كما أخرجك ربك بالحق على كره من فريق من المؤمنين، كذلك يجادلونك في الحق بعد ما تبين لأن كلا الأمرين قد كان، أعني خروج بعض من خرج من المدينة كارها، وجدالهم في لقاء العدو عند دنو القوم بعضهم من بعض، فتشبيه بعض ذلك ببعض مع قرب إحداهما من الأخر، أولى من تشبيهه بما بعد عنه. 16

ثم قال "ابن جرير الطبري" رحمه الله تعالى: وأما قوله: (من بيتك). فإن بعضهم قال: معناه: من المدينة.

حدثني المثنى قال ثنا أبو حذيفة قال عن ابن أبي بزة: (كما أخرجك ربك من بيتك): المدينة إلى بدر.

حدثنا القاسم قال: ثنا الحسين قال: ثنى حجاج عن ابن جريج قال: أخبرني محمد بن عباد بن جعفر في قوله :(كما أخرجك ربك من بيتك بالحق). قال: من المدينة إلى بدر.

وأما قوله: (وإن فريقا من المؤمنين لكارهون) فإن كراهتهم كانت كما حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق قال: ثني محمد بن مسلم الزهري وعاصم بن عمر بن قتادة، وعبد الله بن أبي بكر ويزيد بن رومان عن عروة بن الزبير _وغيرهم من علمائنا _ عن عبد الله بن عباس قالوا: لما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بابي سفيان مقبلا من الشام ندب إليهم المسلمين، وقال: "هذه عير قريش فيها أموالهم، فاخرجوا إليها لعل الله أن ينفلكموها" فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حربا .17

ثم قال رحمه الله تعالى: أختلف أهل التأويل في الذين عنوا بقوله: (يجادلونك في الحق بعدما تبين) فقال بعضهم: عني بذلك أهل الإيمان من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، الذين كانوا معه حين توجه إلى بدر للقاء المشركين.

حدثني محمد بن سعد قال: ثني أبي قال: ثني عمي قال: ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قال: لما شاور النبي صلى الله عليه وسلم في لقاء القوم وقال له سعد بن عبادة ما قال، وذلك يوم بدر أمر الناس فتعبوا للقتال وأمرهم بالشوكة وكره ذلك أهل الإيمان فانزل الله: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وان فريقا من المؤمنين لكارهون. يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون).

حدثني ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق قال: ثم ذكر القوم، يعني أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومسيرهم مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، حين عرف القوم أن قريشا قد سارت إليهم، وأنهم خرجوا يريدون العير طمعا في الغنيمة فقال: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) إلى قوله: (لكارهون). أي

كراهية للقاء القوم، وإنكارا لمسير قريش حين ذكروا لهم.

وقال آخرون: عني بذلك المشركون.18

واختار "ابن جرير " أن الذين عنوا بذلك إنما هم فريق من المؤمنين. قال: قال أبو جعفر: والصواب من القول في ذلك ما قاله ابن عباس وابن إسحاق، من أن ذلك خبر من الله عن فريق من المؤمنين أنهم كرهوا لقاء العدو، وكان جدالهم نبي الله صلى الله عليه وسلم أن قالوا: لم يعلمنا أنا نلقى العدو فنستعد لقتالهم وإنما خرجنا للعير. ومما يدل على صحة قوله: (وإذ يعدكم الله احدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم) ففي ذلك الدليل الواضح لمن فهم عن الله أن القوم قد كانوا للشوكة كارهين، وأن جدالهم كان في القتال، كما قال مجاهد كراهة منهم له وأن لا معنى لما قال ابن زيد لأن الذي قبل قوله: (يجادلونك في الحق) خبر عن أهل الإيمان والذي يتلوه خبر عنهم فأن يكون خبرا عنهم، أولى منه بأن يكون خبرا عمن لم يجر له ذكر.19

ثم قال "ابن جرير الطبري" رحمه الله تعالى: وأما قوله: (بعد ما تبين) فإن أهل التأويل اختلفوا في تأويله. فقال بعضهم:

معناه: بعد ما تبين لهم أنك لا تفعل إلا ما أمرك الله.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا محمد بن الحسين قال: ثنا احمد بن مفضل قال: ثنا أسباط، عن السدي :(بعد ما تبين) أنك لا تصنع إلا ما أمرك الله به، وقال آخرون: معناه يجادلونك في القتال بعد ما أمرت به .20

وقال في تأويل قوله جل شأنه: (كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون). فإن معناه: كأن هؤلاء الذين يجادلونك في لقاء العدو من كراهتهم للقائهم، إذا دعوا إلى لقائهم للقتال_يساقون إلى الموت.

القول في تأويل قوله: (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم)

يقول تعالى ذكره: واذكروا أيها القوم: (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين). يعني إحدى الفرقتين فرقة أبي سفيان بن حرب والعير، وفرقة المشركين الذين نفروا من مكة لمنع عيرهم .

وقوله: (أنها لكم). يقول: أن ما معهم غنيمة لكم (وتودون أن غير ذات الشوكة تكون

لكم). يقول: وتحبون أن تكون تلك الطائفة التي ليست لها شوكة يقول: ليس لها حد ولا فيها قتال _أن تكون لكم. يقول: تودون أن تكون لكم العير التي ليس فيها قتال، لكم دون جماعة قريش الذين جاءوا لمنع عيرهم الذين في لقائهم القتال والحرب.21

ثم قال "ابن جرير الطبري" رحمه الله تعالى في تأويل قوله: (ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين).

يقول تعالى ذكره: ويريد الله أن يحق الإسلام ويعليه: (بكلماته). يقول: بأمره إياكم أيها المؤمنون بقتال الكفار، وأنتم تريدون الغنيمة والمال.

وقوله: (ويقطع دابر الكافرين). يقول: ويريد أن يجب أصل الجاحدين توحيد الله.22

ثم قال في تأويل قوله تعالى: (ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون): يقول تعالى ذكره: ويريد الله أن يقطع دابر الكافرين كيما يحق الحق كيما يعبد الله وحده دون الآلهة والأصنام، ويعز الإسلام، وذلك هو تحقيق الحق: (ويبطل الباطل). يقول: ويبطل عبادة الآلهة والأوثان والكفر، ولو كره ذلك الذين أجرموا، فاكتسبوا المآثم والأوزار من الكفار.

حدثنا بشر قال: ثنا يزيد قال: ثنا سعيد عن قتادة: (ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون): هم المشركون.

وقيل: أن الحق في هذا الموضع الله عز وجل.23

ثم قال في تأويل قوله جل وعز: (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين).

يقول تعالى ذكره: ويبطل الباطل حين تستغيثون ربكم ف(إذ)من صلة (يبطل).

ومعنى قوله: (تستغيثون ربكم): تستجيرون به من عدوكم وتدعونه للنصر عليهم (فاستجاب لكم) يقول: فأجاب دعاءكم بأني ممدكم بألف من الملائكة، يردف بعضهم بعضا، ويتلو بعضهم بعضا.

وبنحو ما قلنا في ذلك قال أهل التأويل، وجاءت الرواية عن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم.24

ثم أفاض "ابن جرير الطبري" رحمه الله تعالى في ذكر الأخبار فقال:

حدثني محمد بن عبيد المحاربي قال: ثنا عبد الله بن المبارك عن عكرمة بن عمار قال: ثنى سماك الحنفي قال: سمعت ابن عباس يقول:

ثني عمر بن الخطاب رضى الله عنه، قال: لما كان يوم بدر ونظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وعدتهم، ونظر إلى أصحابه نيفا على ثلاثمائة فاستقبل القبلة، فجعل يدعو ويقول: "اللهم انجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض". فلم يزل كذلك حتى سقط رداؤه وأخذه أبو بكر الصديق رضى الله فوضع رداءه عليه، ثم التزمه من ورائه، ثم قال: كذاك يا نبي الله بأبي وأمي مناشدتك ربك فانه سينجز لك ما وعدك، فأنزل الله: (إذ تستغيثون ربكم فأستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين)..حدثني محمد بن سعد قال: ثني أبي قال: ثني عمي قال: ثني أبي عن أبيه عن ابن عباس قال: قام النبي صلى الله عليه وسلم فقال: "اللهم ربنا أنزلت على الكتاب، وأمرتني بالقتال، ووعدتني بالنصر ولا تخلف الميعاد". فأتاه جبريل عليه السلام، فأنزل الله (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين) [آل عمران: 124_125] .. حدثني محمد بن الحسين قال: ثنا أحمد بن المفضل قال: ثنا أسباط، عن السدي قال: أقبل النبي صلى

الله عليه وسلم يدعو الله ويستغيثه ويستنصره، فأنزل الله عليه الملائكة.

حدثنا القاسم قال: ثنا الحسين قال: ثني حجاج عن ابن جريج قوله: (إذ تستغيثون ربكم). قال: دعا النبي صلى الله عليه وسلم.

حدثنا ابن حميد قال: ثنا سلمة عن ابن إسحاق: (إذ تستغيثون ربكم). أي: بدعائكم. حين نظروا إلى كثرة عدوهم وقلة عددهم (فاستجاب لكم) بدعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعائكم معه..وأما قوله: (أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين). فقد بينا معناه. وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل.25

ثم ذكر "ابن جرير الطبري" ذكر من قال ذلك فقال:

حدثني محمد بن سعد قال: ثنى أبي قال: ثنى عمي قال ثنى أبي عن أبيه عن ابن عباس: (إني ممدكم بألف من الملائكة مردفين). يقول: المزيد

كما تقول: ائت الرجل فزده كذا وكذا.

حدثنا ابن وكيع قال: ثنا احمد بن بشير عن هارون بن عنترة عن أبيه، عن ابن عباس: (مردفين)قال: متتابعين.

قال: ثني ابي عن سفيان عن هارون بن عنترة، عن ابن عباس مثله.

حدثني سليمان بن عبد الجبار قال: ثنا محمد بن الصلت قال: ثنا أبو كدينة عن قابوس عن أبيه، عن ابن عباس: (ممدكم بألف من الملائكة مردفين). قال: وراء كل ملك ملك.

حدثني ابن وكيع قال: ثنا أبو أسامة عن أبي كدينة يحى بن المهلب عن قابوس عن أبيه عن ابن عباس: (مردفين). قال متتابعين.

قال ثنا هاني بن سعيد عن حجاج بن ارطاة عن قابوس قال: سمعت أبا ظبيان يقول: (مردفين). قال: الملائكة، بعضهم على أثر بعض.

قال: ثنا المحاربي عن جويبر عن الضحاك قال: (مردفين) قال: بعضهم على أثر بعض. .حدثت عن الحسين قال: سمعت أبا معاذ قال: ثنا عبيد بن سليمان قال: ثنا عبيد بن سليمان قال: سمعت الضحاك يقول في قوله: (بألف من الملائكة مردفين) يقول: متتابعين يوم بدر.26

أما البشري فذكر "ابن جرير " أن إرداف الملائكة بعضها بعضا وتتابعها إليكم، إنما هي مدد وبشارة بالنصر.

قال رحمه الله تعالى في تأويل قوله: (وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم).

يقول تعالى ذكره: لم يجعل الله إرداف الملائكة بعضها بعضا، وتتابعها بالمصير إليكم أيها المؤمنون مددا لكم (إلا بشرى)لكم. أي: بشارة لكم تبشركم بنصر الله إياكم على أعدائكم (ولتطمئن به قلوبكم).يقول :ولتسكن قلوبكم بمجيئها إليكم، وتوقن بنصر الله لكم (وما النصر إلا من عند الله).يقول: وما تنصرون على عدوكم أيها المؤمنون إلا أن ينصركم الله عليهم، لا بشدة بأسكم وقواكم، بل بنصر الله لكم، لأن ذلك بيده وإليه، ينصر من يشاء من خلقه (إن الله عزيز حكيم).يقول: وإن الله الذي ينصركم، وبيده نصر من يشاء من خلقه (عزيز) لا يقهره شيء ولا يغلبه غالب، بل يقهر كل شيء ويغلبه لأنه خلقه: (حكيم)، يقول: حكيم في تدبيره ونصره من نصر وخذلانه من خذل من خلقه، لا يدخل تدبيره وهن ولا خلل.

وروي عن عبد الله بن كثير عن مجاهد في ذلك ما حدثنا القاسم قال: ثنا الحسين قال: ثنى حجاج عن ابن جريج قال: أخبرني ابن كثير، أنه سمع مجاهدا يقول: ما مد النبي صلى الله عليه وسلم مما ذكر الله غير ألف من الملائكة مردفين، وذكر "الثلاثة" و "الخمسة" بشرى، ما مدوا بأكثر من هذه الألف الذي ذكر الله عز وجل في الأنفال، وأما "الثلاثة" و"الخمسة" فكانت بشرى.27

ثم قال في تأويل قوله جل شأنه: (إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام. إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا)

يقول تعالى ذكره: ولتطمئن به قلوبكم إذ يغشيكم النعاس، ويعني بقوله: (يغشيكم النعاس): يلقي عليكم النعاس، (أمنة). يقول: أمانا من الله لكم من عدوكم أن يغلبكم، وكذلك النعاس في الحرب أمنة من الله عز وجل.28

ثم قال: وأما قوله عز وجل :(وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به)فإن ذلك مطر أنزله الله من السماء يوم بدر، ليطهر به

المؤمنين لصلاتهم لأنهم كانوا اصبحوا يومئذ مجنبين على غير ماء، فلما أنزل الله عليهم الماء اغتسلوا وتطهروا، وكان الشيطان قد وسوس إليهم بما حزنهم به من إصباحهم مجنبين على غير ماء، فأذهب الله ذلك من قلوبهم بالمطر، فذلك ربطه على قلوبهم وتقويته أسبابهم وتثبيته بذلك المطر أقدامهم، لأنهم كانوا التقوا مع عدوهم على رملة ميثاء فلبدها المطر، حتى صارت الأقدام عليها ثابتة لا تسوخ فيها، توطئة من الله عز وجل لنبيه عليه الصلاة والسلام وأوليائه _أسباب التمكن من عدوهم، والظفر بهم..وأما قوله: (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم): أنصركم (فثبتوا الذين آمنوا)، يقول: قووا عزمهم وصححوا نياتهم في قتال عدوهم من المشركين.

وقد قيل: أن تثبيت الملائكة المؤمنين كان حضورهم حربهم معهم، وقيل: كان ذلك معونتهم إياهم بقتال أعدائهم، وقيل كان ذلك بأن الملك يأتي الرجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم ويقول: سمعت هؤلاء القوم _يعني المشركين_ يقولون: والله لئن حملوا علينا لننكشفن: فيحدث المسلمون بعضهم بعضا بذلك

فتقوى أنفسهم. قالوا: وذلك كان وحي الله إلى ملائكته.29

ثم قال في تأويل قوله تعالى: (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فأضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان): يقول تعالى ذكره: سأرعب قلوب الذين كفروا بي أيها المؤمنون منكم واملؤها فرقا حتى ينهزموا عنكم (فأضربوا فوق الأعناق).

واختلف أهل التأويل في تأويل قوله: (فوق الأعناق) فقال بعضهم:

معناه: فاضربوا الأعناق.

ذكر من قال ذلك:

حدثنا ابن وكيع قال: ثنا ابن إدريس عن أبيه، عن عطية: (فاضربوا فوق الأعناق). قال: اضربوا الأعناق.

قال: ثنا ابي عن المسعودي عن القاسم قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إني لم ابعث لأعذب بعذاب الله، إنما بعثت لضرب الأعناق وشد الوثاق".30

ثم قال: والصواب من القول في ذلك أن يقال: أن الله أمر المؤمنين معلمهم كيفية قتل المشركين وضربهم بالسيف، أن يضربوا فوق الأعناق منهم والأيدي والأرجل..وأما

قوله: (واضربوا منهم كل بنان). فإن معناه: واضربوا أيها المؤمنون من عدوكم كل طرف ومفصل، من أطراف أيديهم وأرجلهم.31

ثم قال "ابن جرير الطبري": ومعنى قوله: (ومن يشاقق الله ورسوله): ومن يخالف أمر الله وأمر رسوله وفارق طاعتهما (فان الله شديد العقاب) له وشدة عقابه له في الدنيا: إحلاله بما كان يحل بأعدائه من النقم، وفي الآخرة الخلود في نار جهنم وحذف(له)من الكلام لدلالة الكلام عليها.32

ثالثا: تفسير البغوي للآيات[13_5] من سورة الأنفال

قال "البغوي" رحمه الله تعالى في تفسير قوله جل شأنه: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون. يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة لكم ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين. ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون. إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين. وما جعله الله إلا بشرى

ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم. إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام. إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) [الأنفال: 13_5]، قوله تعالى: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) اختلفوا في الجالب لهذه الكاف التي في قوله (كما أخرجك ربك) قال المبرد: تقديره الأنفال لله وللرسول وإن كرهوا، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن كرهوا، وقيل: تقديره امض لأمر الله في الأنفال وإن كرهوا، كما مضيت لأمر الله في الخروج من البيت، لطلب العير وهم كارهون.

وقال عكرمة: معناه فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم فإن ذلك خير لكم، كما أن إخراج محمد صلى الله عليه وسلم من بيته بالحق خير لكم، وإن كرهه فريق منكم.

وقال مجاهد: معناه كما أخرجك ربك من بيتك بالحق على كره فريق منهم، كذلك يكرهون القتال ويجادلون فيه.

وقيل هو راجع إلى قوله: (لهم درجات عند ربهم) تقديره: وعد الله الدرجات لهم حق، ينجزه الله عز وجل كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، فأنجز الوعد بالنصر والظفر.33

ثم قال: وقيل: الكاف بمعنى على، تقديره: امض على الذي أخرجك ربك.

وقال أبو عبيدة: هي بمعنى القسم مجازا والذي أخرجك لأن "ما" في موضع الذي وجوابه (يجادلونك)وعليه يقع القسم تقديره: يجادلونك والله الذي أخرجك ربك من بيتك بالحق وقيل: الكاف بمعنى "إذ" تقديره: وأذكر إذ أخرجك ربك.

قيل: المراد بهذا الإخراج هو إخراجه من مكة إلى المدينة، والأكثرون على أن المراد منه إخراجه من المدينة إلى بدر، أي: كما أمرك ربك بالخروج من بيتك إلى المدينة بالحق قيل: بالوحي لطلب المشركين (وإن فريقا من المؤمنين) منهم (لكارهون).

(يجادلونك في الحق) أي: في القتال (بعد ما تبين) وذلك أن المؤمنين لما أيقنوا

بالقتال كرهوا ذلك، وقالوا: لم تعلمنا أنا نلقى العدو فنستعد لقتالهم، وإنما خرجنا للعير، فذلك جدالهم بعد ما تبين لهم أنك لا تصنع إلا ما أمرك وتبين صدقك في الوعد (كأنما يساقون إلى الموت) لشدة كراهيتهم للقتال (وهم ينظرون) فيه تقديم و تأخير. تقديره: وإن فريقا من المؤمنين لكارهون، كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون، يجادلونك في الحق بعد ما تبين. قال ابن زيد: هؤلاء المشركون جادلوه في الحق كأنما يساقون إلى الموت، حين يدعون إلى الإسلام لكراهيتهم إياه وهم ينظرون.34

ثم ذكر "البغوي" رحمه الله تعالى قول ابن عباس وابن الزبير والسدي، فقال: قوله تعالى: (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم) قال إبن عباس وإبن الزبير ومحمد بن إسحاق والسدي: أقبل أبو سفيان من الشام في عير لقريش في أربعين راكبا من كفار قريش، فيهم عمرو بن العاص ومخرمة بن نوفل الزهري، وفيها تجارة كثيرة وهي اللطيمة، حتى إذا كانوا قريبا من بدر فبلغ النبي صلى الله عليه وسلم ذلك، فندب أصحابه إليه واخبرهم بكثرة المال وقلة العدد، وقال:" هذه عير قريش فيها أموالكم فاخرجوا إليها لعل الله

تعالى أن ينفلكموها " فانتدب الناس فخف بعضهم وثقل بعضهم، وذلك أنهم لم يظنوا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يلقى حربا .35

ثم قال: (وتودون) أي: تريدون (أن غير ذات الشوكة تكون لكم) يعني العير التي ليس فيها قتال، والشوكة: الشدة والقوة، ويقال السلاح.

(ويريد الله أن يحق الحق) أي يظهره ويعليه (بكلماته) بأمره إياكم بالقتال. وقيل [بعداته] التي سبقت من إظهار الدين وإعزازه (ويقطع دابر الكافرين) أي: يستأصلهم حتى لا يبقى منهم أحد يعني: كفار العرب.

(ليحق الحق) ليثبت الإسلام (ويبطل الباطل) أي: يفني الكفر (ولو كره المجرمون) المشركون. وكانت وقعة بدر يوم الجمعة، صبيحة سبع عشرة ليلة من شهر رمضان.36

ثم ذكر "البغوي" حديث ابن عباس في استغاثة النبي صلى الله عليه وسلم واستجابة الله جل وعز:

قوله تعالى: (إذ تستغيثون ربكم) تستجيرون به من عدوكم وتطلبون منه الغوث والنصر.

روي عن ابن عباس قال: قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه: لما كان يوم بدر، نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم ألف وأصحابه ثلاثمائة وبضعة عشر رجلا، دخل العريش هو وأبو بكر الصديق رضي الله عنه، واستقبل القبلة ومد يده فجعل يهتف بربه عز وجل: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام، لا تعبد في الأرض " فما زال يهتف بربه عز وجل مادا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فاخذ أبو بكر رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه، وقال: يا نبي الله كفاك منا شدتك، ربك فإنه سينجز لك ما وعدك ، فانزل الله عز وجل (إذ تستغيثون ربكم) (فاستجاب لكم اني ممدكم)مرسل إليكم مددا وردءا لكم (بألف من الملائكة مردفين) قرأ أهل المدينة ويعقوب(مردفين)بفتح الدال أي: اردف الله المسلمين وجاء بهم مددا، وقرأ الآخرون بكسر الدال أي: متتابعين بعضهم أثر في أثر بعض، يقال: أردفته وردفته بمعنى تبعته.

يروى أنه نزل جبريل في خمسمائة وميكائيل في خمسمائة في [صورة] الرجال، على خيل بلق، عليهم ثياب بيض وعلى رؤوسهم عمائم بيض، وقد أرخوا أطرافها بين أكتافهم.37

ثم قال: وروي أن النبي صلى الله عليه وسلم لما ناشد ربه عز وجل وقال أبو بكر: إن الله منجز لك ما وعدك فخفق 38 رسول الله صلى الله عليه وسلم خفقة وهو في العريش، ثم انتبه فقال: "يا أبا بكر أتاك نصر الله هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده، على ثناياه النقع".

أخبرنا عبد الواحد المليحي أنا احمد بن عبد الله النعيمي أنا محمد بن يوسف ثنا محمد بن إسماعيل ثنا إبراهيم بن موسى، ثنا عبد الوهاب ثنا خالد عن عكرمة، عن ابن عباس: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر: "هذا جبريل آخذ برأس فرسه عليه أداة الحرب".

وقال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما: كانت سيما الملائكة يوم بدر عمائم بيض، ويوم حنين عمائم خضر، ولم تقاتل الملائكة في يوم سوى يوم بدر من الأيام، وكانوا يكونون فيما سواه عددا ومددا".

وروي عن أبي اسيد مالك بن ربيعة قد شهد بدرا أنه قال بعدما ذهب بصره: لو كنت معكم اليوم ببدر ومعي بصري؛ لأريتكم الشعب الذي خرجت منه الملائكة".39

ثم قال في تأويل قوله تعالى: (وما جعله الله)يعني: الإمداد بالملائكة (إلا بشرى) أي:

بشارة، (ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم).. (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) وذلك أن المسلمين نزلوا يوم بدر على كثيب اعفر تسوخ فيه الأقدام وحوافر الدواب، وسبقهم المشركون إلى ماء بدر، وأصبح المسلمون بعضهم محدثين وبعضهم مجنبين وأصابهم الظمأ، ووسوس إليهم الشيطان وقال: تزعمون أنكم على الحق وفيكم نبي الله وأنكم أولياء الله، وقد غلبكم المشركون على الماء وأنتم تصلون محدثين ومجنبين، فكيف ترجون أن تظهروا عليهم؟ فأرسل الله عز وجل عليهم مطرا سال منه الوادي فشرب المؤمنون واغتسلوا وتوضؤوا، وسقوا الركاب وملؤوا الأسقية، وأطفأ الغبار ولبد الأرض حتى ثبتت عليها الأقدام، وزالت عنهم وسوسة الشيطان وطابت أنفسهم، فذلك قوله تعالى: (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به) من الأحداث والجنابة.40

ثم قال في تأويل قوله جل شأنه: (ويذهب عنكم رجز الشيطان) وسوسته (وليربط على قلوبكم) باليقين والصبر (ويثبت به الأقدام) حتى لا تسوخ في الرمل بتلبيد الأرض. وقيل: يثبت به الأقدام بالصبر وقوة القلب.

(إذ يوحي ربك إلى الملائكة) الذين أمد بهم المؤمنين (أني معكم) بالعون والنصر (فثبتوا الذين آمنوا) أي: قووا قلوبهم. قيل: ذلك التثبيت حضورهم معهم ومعونتهم أي: ثبتوهم بقتالكم معهم المشركين.

وقال مقاتل: أي: بشروهم بالنصر، وكان الملك يمشي أمام الصف في صورة الرجل ويقول: أبشروا فإن الله ناصركم. (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) قال عطاء: يريد الخوف من أوليائي (فاضربوا فوق الأعناق) قيل: هذا خطاب مع المؤمنين، وقيل: هذا خطاب مع الملائكة وهو متصل بقوله (فثبتوا الذين آمنوا) وقوله: (فوق الأعناق) قال عكرمة: يعني الرؤوس لأنها فوق الأعناق، وقال الضحاك: معناه فاضربوا الأعناق، وفوق صلة كما قال تعالى: (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب) [محمد:4]وقيل: معناه فاضربوا على الأعناق .فوق بمعنى: على.

(واضربوا منهم كل بنان) قال عطية: يعني كل مفصل، وقال ابن عباس وابن جريج والضحاك: يعني الأطراف. والبنان جمع بنانة وهي أطراف أصابع اليدين والرجلين، قال ابن الأنباري: ما كانت الملائكة تعلم كيف يقتل الآدميون فعلمهم الله عز وجل.

أخبرنا إسماعيل بن عبد القادر الجرجاني أنا عبد الغافر بن محمد الفارسي أنا محمد بن عيسى الجلودي ثنا إبراهيم بن محمد بن سفيان ثنا مسلم بن الحجاج ثنا زهير بن حرب ثنا عمرو بن يونس الحنفي، ثنا عكرمة بن عمار ثنا أبو زميل هو سماك الحنفي ثنا عبد الله بن عباس قال: بينما رجل من المسلمين يومئذ يشتد في أثر رجل من المشركين أمامه، إذا سمع ضربة بالسوط فوقه، و صوت الفارس يقول: أقدم حيزوم إذ نظر إلى المشرك أمامه فخر مستلقيا فنظر إليه فإذا هو قد خطم أنفه وشق وجهه كضربة السوط، فاخضر ذلك أجمع، فجاء الأنصاري فحدث ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: "صدقت ذلك من مدد السماء الثالثة".41

رابعا: تفسير القرطبي للآيات[13_5] من سورة الأنفال

قال" القرطبي" رحمه الله تعالى في تفسير قوله جل شأنه: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون. يجادلونك في الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون. وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة لكم ويريد الله أن يحق الحق

بكلماته ويقطع دابر الكافرين. ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون. إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين. وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم. إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام. إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) [الأنفال:5_13]، قوله تعالى: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) قال الزجاج: الكاف في موضع نصب أي: الأنفال ثابتة لك، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق أي: مثل إخراج ربك إياك من بيتك بالحق، والمعنى: امض لأمرك في الغنائم ونفل من شئت وإن كرهوا، لأن بعض الصحابة قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم حين جعل لكل من أتى بأسير شيئا، قال: يبقى أكثر الناس بغير شيء. فموضع الكاف في "كما" نصب كما ذكرنا. وقاله الفراء أيضا.

قال أبو عبيدة: هو قسم أي: والذي أخرجك، فالكاف بمعنى الواو و "ما" بمعنى الذي.

وقال سعيد بن مسعدة: المعنى: أولئك هم المؤمنون حقا، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق، قال: وقال بعض العلماء: (كما أخرجك ربك من بيتك بالحق) فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم 42.

ثم قال "القرطبي" رحمه الله تعالى: وقال عكرمة: المعنى: أطيعوا الله ورسوله كما أخرجك. وقيل: (كما أخرجك) متعلق بقوله: (لهم درجات) المعنى: لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم أي: هذا الوعد للمؤمنين حق في الآخرة، كما أخرجك ربك من بيتك بالحق الواجب له، فأنجزك وعدك، وأظفرك بعدوك، وأوفى لك، لأنه قال عز وجل: (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم) [الأنفال:7] فكما أنجز هذا الوعد في الدنيا، كذا ينجزكم ما وعدكم به في الآخرة، وهذا قول حسن ذكره النحاس واختاره.

وقيل: الكاف في (كما) كاف التشبيه ومخرجه على سبيل المجازاة كقول القائل لعبده: كما وجهتك إلى أعدائي فاستضعفوك، وسألت مددا فأمددتك وقويتك، وأزحت علتك، فخذهم الآن فعاقبهم بكذا، وكما كسوتك وأجريت عليك

الرزق، فاعمل كذا وكذا، وكما أحسنت إليك فاشكرني عليه، فقال: كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وغشاكم النعاس أمنة منه _ يعني به إياه ومن معه _ وانزل من السماء ماء ليطهركم به، وأنزل عليكم من السماء ملائكة مردفين، فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان، كأنه يقول: قد أزحت عللكم وأمددتكم بالملائكة، فاضربوا منهم هذه المواضع وهو المقتل، لتبلغوا مراد الله في إحقاق الحق وإبطال الباطل والله أعلم .

(وإن فريقا من المؤمنين لكارهون) أي: لكارهون ترك مكة وترك أموالهم وديارهم.43

ثم قال في تأويل قوله تعالى :(يجادلونك في الحق بعد ما تبين) مجادلتهم: قولهم لما ندبهم إلى العير وفات العير وأمرهم بالقتال، ولم يكن معهم كبير أهبة، شق ذلك عليهم وقالوا: لو أخبرتنا بالقتال لأخذنا العدة، ومعنى (في الحق) أي: في القتال. (بعد ما تبين) لهم أنك لا تأمر بشيء إلا بإذن الله.

وقيل: بعد ما تبين لهم أن الله وعدهم أما الظفر بالعير أو بأهل مكة، وإذ فات العير فلا بد من أهل مكة والظفر بهم، فمعنى الكلام الإنكار لمجادلتهم .

(كأنما يساقون إلى الموت) كراهة للقاء القوم، (وهم ينظرون) أي: يعلمون أن ذلك واقع بهم قال الله تعالى: (يوم ينظر المرء ما قدمت يداه) [النبأ :40] أي: يعلم.

قوله تعالى: (وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم) "إحدى" في موضع نصب مفعول ثان. "أنها لكم" في موضع نصب أيضا، بدلا من "إحدى".

(وتودون) أي: تحبون. (أن غير ذات الشوكة تكون لكم) قال أبو عبيدة: أي: غير ذات الحد، والشوكة: السلاح. والشوك: النبت الذي له حد، ومنه رجل شائك السلاح أي: حديد السلاح ثم يقلب فيقال: شاكي السلاح، أي: تودون أن تظفروا بالطائفة التي ليس معها سلاح ولا فيها حرب عن الزجاج.

(ويريد الله أن يحق الحق بكلماته) أي: أن يظهر الإسلام والحق حق أبدا ولكن إظهاره تحقيق له من حيث أنه إذا لم يظهر أشبه الباطل.44

ثم ذكر "القرطبي" حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي أخرجه مسلم في الصحيح في تأويل قول الله تعالى (إذ تستغيثون ربكم): الاستغاثة: طلب الغوث والنصر، غوث الرجل قال: واغوثاه، والاسم: الغوث والغواث (بضم

الغين) والغواث (بفتح الغين). واستغاثني فلان فأغثته والاسم: الغياث، عن الجوهري.

وروى مسلم عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال: لما كان يوم بدر نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المشركين وهم الف وأصحابه ثلاث مئة وسبعة عشر رجلا، فاستقبل نبي الله صلى الله عليه وسلم القبلة، ثم مد يديه فجعل يهتف بربه: "اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم آتني ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد في الأرض" .فما زال يهتف بربه مادا يديه مستقبل القبلة ،حتى سقط رداؤه عن منكبيه، فأتاه أبوبكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ثم التزمه من ورائه ،وقال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك ،فإنه سينجز لك ما وعدك ،فأنزل الله تعالى: (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين). فأمده الله بالملائكة. وذكر الحديث.

(مردفين)بفتح الدال قراءة نافع والباقون بالكسر اسم فاعل أي: متتابعين وتأتي فرقة بعد فرقة، وذلك أهيب في العيون.

و(مردفين)بفتح الدال على ما لم يسم فاعله لأن الناس الذين قاتلوا يوم بدر أردفوا بألف من الملائكة أي: انزلوا إليهم

لمعونتهم على الكفار ف"مردفين" بفتح الدال نعت ل "ألف". وقيل هو: حال من الضمير المنصوب في "ممدكم". أي: ممدكم في حال اردافكم بألف من الملائكة، وهذا مذهب مجاهد.

وحكى أبو عبيدة: أن ردفني وأردفني واحد، وانكر أبو عبيد أن يكون أردف بمعنى ردف، قال: لقول الله عز وجل: (تتبعها الرادفة) [النازعات:7]ولم يقل: المردفة..(وما النصر إلا من عند الله) نبه على أن النصر من عنده جل وعز لا من الملائكة أي: لولا نصره لما انتفع بكثرة العدد بالملائكة، والنصر من عند الله يكون بالسيف ويكون بالحجة.45

ثم قال "القرطبي" رحمه الله تعالى: قوله تعالى: (إذ يغشيكم النعاس) مفعولان، وهي قراءة أهل المدينة وهي حسنة لإضافة الفعل إلى الله عز وجل لتقدم ذكره في قوله: (وما النصر إلا من عند الله)، ولأن بعده: (وينزل عليكم) فأضاف الفعل إلى الله عز وجل. فكذلك الاغشاء يضاف إلى الله عز وجل ليتشاكل الكلام.46

ثم قال: والنعاس حالة الآمن الذي لا يخاف، وكان هذا النعاس في الليلة التي كان القتال من غدها، فكان النوم عجيبا مع ما كان بين أيديهم من الأمر المهم، ولكن الله ربط جأشهم،

وعن على رضى الله عنه قال: ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد على فرس أبلق، ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة، يصلي ويبكي حتى أصبح 47.

ثم قال في تأويل قوله تعالى: (وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت الأقدام) ظاهر القرآن يدل على أن النعاس كان قبل المطر، وقال ابن نجيح: كان المطر قبل النعاس.

وحكى الزجاج: أن الكفار يوم بدر سبقوا المؤمنين إلى ماء بدر، فنزلوا عليه وبقي المؤمنون لا ماء لهم، فوجست نفوسهم وعطشوا وأجنبوا وصلوا كذلك، فقال بعضهم في نفوسهم بإلقاء الشيطان إليهم: نزعم أنا أولياء الله وفينا رسوله، وحالنا هذه والمشركون على الماء! فأنزل الله المطر ليلة بدر السابعة عشرة من رمضان، حتى سالت الأودية فشربوا وتطهروا وسقوا الظهر وتلبدت السبخة، التي كانت بينهم وبين المشركين، حتى ثبتت فيها أقدام المسلمين وقت القتال.

وقد قيل: أن هذه الأحوال كانت قبل وصولهم إلى بدر، وهو أصح وهو الذي ذكره ابن إسحاق في سيرته وغيره. 48

ثم ذكر "القرطبي" تبشير الملائكة للمسلمين بالنصر والقتال معهم، أو الحضور معهم من غير قتال: قوله تعالى: (إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم) العامل في "إذ" "يثبت" أي: يثبت به الأقدام ذلك الوقت، وقيل: العامل "ليربط" أي: ليربط إذ يوحى، وقد يكون التقدير: أذكر إذ يوحي ربك إلى الملائكة. (أني معكم) في موضع نصب والمعنى: بأني معكم أي: بالنصر والمعونة. "معكم" بفتح العين ظرف ومن أسكنها فهي عنده حرف.

(فثبتوا الذين آمنوا) أي: بشروهم بالنصر أو القتال معهم أو الحضور معهم من غير قتال ،فكان الملك يسير أمام الصف في صورة الرجل ويقول :سيروا فإن الله ناصركم ،ويظن المسلمون أنه منهم.

وقد تقدم في "آل عمران" ان الملائكة قاتلت ذلك اليوم ،فكانوا يرون رؤوسا تندر عن الأعناق من غير ضارب يرونه ،وسمع بعضهم قائلا يسمع قوله ولا يرى شخصه: أقدم حيزوم ،وقيل:كان هذا التثبيت ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم للمؤمنين نزول الملائكة مددا. 49

ثم قال" القرطبي " في ذكر مشاركة الملائكة عليهم السلام بدرا، (فاضربوا فوق الأعناق) هذا أمر للملائكة. وقيل: للمؤمنين أي: اضربوا الأعناق و"فوق" زائدة، قاله الأخفش والضحاك وعطية. وقد روى المسعودي قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "أني لم ابعث لأعذب بعذاب الله، وإنما بعثت بضرب الرقاب وشد الوثاق". 50

ثم قال: وقال ابن عباس: كل هام وجمجمة. وقيل: أي: ما فوق الأعناق وهو الرؤوس، قاله عكرمة.

والضرب على الرأس ابلغ لأن أدنى شيء يؤثر في الدماغ. 51

ثم قال "القرطبي "رحمه الله تعالى في تفسير قوله جل شأنه (واضربوا منهم كل بنان): قال الزجاج: واحد البنان بنانة، وهي هنا الأصابع وغيرها من الأعضاء والبنان مشتق من قولهم: أبن الرجل بالمكان: إذا أقام به، فالبنان يعتمل به ما يكون للإقامة والحياة، وقيل: المراد بالبنان هنا أطراف الأصابع من اليدين والرجلين، وهو عبارة عن الثبات في الحرب وموضع الضرب، فاذا ضربت البنان تعطل من المضروب القتال بخلاف سائر الأعضاء.

قال عنترة:

وكان فتى الهيجاء يحمي ذمارها ويضرب عند الكرب كل بنان. 52

قول "رشيد رضا" رحمه الله في تفسير آية الأنفال

قال" رشيد رضا" رحمه الله تعالى في تفسير قوله تعالى:

(إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين. وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم. إذ يغشيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام. إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان. ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب) [الأنفال:9_13]

(إذ تستغيثون ربكم) الآية قيل أن هذا بدل من قوله تعالى(وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم)وظاهر هذا أن زمن الوعد والاستغاثة

والاستجابة واحد على اتساع فيه، وحينئذ يرتفع الإشكال الذي اجبنا عنه آنفا من أصله، وظاهر الروايات وكلام المفسرين أن الاستغاثة وقعت بعد الوعد، وقد وجهوا ذلك بما ليس من موضوعنا بيانه مع القطع بأنه عربي فصيح، وقيل أنه متعلق بقوله (ليحق الحق ويبطل الباطل) أو بمحذوف علم من السياق ومن نظائره في آيات أخرى، تقديره "اذكر " أو " اذكروا " إذ تستغيثون ربكم، والاستغاثة طلب الغوث والإنقاذ من الهلكة.

(فاستجاب لكم أني ممدكم) هو في قراءة الجمهور بفتح الهمزة، أي بأني ممدكم وقرأها أبو عمرو بكسرها أي قائلا إني ممدكم أي ناصركم ومغيثكم (بألف من الملائكة مردفين) قرأ الجمهور مردفين بكسر الدال من أردفه إذا اركبه وراءه، وذلك أن الذي يركب وراء غيره يركب على ردف الدابة غالبا، وقرأها نافع ويعقوب بفتحها وفي كل منهما احتمالات لا يختلف بها المراد، أي يردفونكم أو يردف بعضهم بعضا ويتبعه أو يردفهم ويتبعهم غيرهم ، وقد تقدم في تفسير مثل هذه الآية من سورة آل عمران، وتفسير قوله تعالى (واخوانهم يمدونهم في الغي) 53.

ثم قال:

ثم بين تعالى أن هذا الإمداد أمر روحاني يؤثر في القلوب، فيزيد في قوتها المعنوية فقال تعالى (وما جعله الله إلا بشرى لكم) أي وما جعل عز شأنه هذا الإمداد إلا بشرى لكم ، بأنه ينصركم كما وعدكم (ولتطمئن به قلوبكم) أي تسكن بعد ذلك الزلازل والخوف الذي عرض لكم في جملتكم ، فكان من مجادلتكم للرسول في أمر القتال ما كان، فتلقون أعداءكم ثابتين موقنين بالنصر وسيأتي في مقابلة هذا إلقاء الرعب في قلوب الذين كفروا (وما النصر إلا من عند الله)دون غيره من الملائكة أو غيرهم كالأسباب الحسية ، فهو عز وجل الفاعل للنصر كغيره مهما تكن أسبابه المادية أو المعنوية ، إذ هو المسخر لها ، وناهيك بما لا كسب للبشر فيه كتسخير الملائكة تخالط المؤمنين، فتستفيد أرواحهم منها الثبات والاطمئنان.54

ثم قال :

في التفسير المأثور عن إبن عباس رضي الله عنه ، أنه فسر (مردفين)بالمدد وبقوله "ملك وراء ملك"وعن الشعبي قال:كان ألف مردفين وثلاثة آلاف منزلين، فكانوا أربعة آلاف وهم مدد المسلمين في ثغورهم ، وعن قتادة متتابعين، امدهم الله تعالى بألف من ثم

بثلاثة، ثم اكملهم خمسة آلاف (وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم)قال يعني نزول الملائكة عليهم السلام (قال)وذكر لنا أن عمر رضى الله عنه قال: أما يوم بدر فلا نشك أن الملائكة عليهم السلام كانوا معنا، وأما بعد ذلك فالله أعلم .وعن إبن زيد :مردفين قال:بعضهم على أثر بعض، وعن مجاهد في قوله (وما جعله الله إلا بشرى)قال إنما جعلهم الله يستبشر بهم، هذا جملة ما جمعه في الدر المنثور من المأثور في الايتين، وظاهر نص القران أن إنزال الملائكة وامداد المسلمين بهم فائدته معنوية كما تقدم، وأنهم لم يكونوا محاربين، وهنا لك روايات أخرى في أنهم قاتلوا وسيأتي بحثها والدلالة لأنه خبر عن الغيب.

وقد خلطت بعض الروايات بين الملائكة المردفين الذين أيد الله بهم المؤمنين في غزوة بدر، وبين الملائكة المنزلين والمسومين الذين ذكر خبرهم في سياق غزوة أحد من سورة آل عمران، وقد حققنا هذا المبحث في تفسير تلك الآيات فيها واعتمدنا في جله على تحقيق ابن جرير، وذكرنا فيه ما جاء هنا، وجملته أن الله تعالى أمد المؤمنين يوم بدر بألف من الملائكة كان قوة معنوية لهم، وأما يوم أحد

فقد حدثهم الرسول صلى الله عليه وسلم بالإمداد ووعدهم به وعدا معلقا على الصبر والتقوى، ولكن انتفى الشرط فانتفى المشروط. 55

ثم قال "رشيد رضا ":

(إذ يغشيكم النعاس أمنة منه) هذه منة أخرى من منن ه تعالى على المؤمنين، التي كانت من أسباب ظهورهم على المشركين، وهي القاؤه تعالى النعاس عليهم حتى غشيهم _اى غلب عليهم فكان الغاشية تستر الشيء وتغطيه _تأمينا لهم من الخوف الذي كان يساورهم من الفرق العظيم بينهم وبين عدوهم في العدد والعدد وغير ذلك، روى أبو يعلي والبيهقي في الدلائل، عن علي كرم الله وجهه قال" ما كان فينا فارس يوم بدر غير المقداد ولقد رأيتنا وما فينا إلا نائم إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي تحت شجرة حتى اصبح" وذلك أن من غلب عليه النعاس لا يشعر بالخوف، كما أن الخائف لا ينام ولكن قد ينعس والنعاس فتور في الحواس وأعصاب الرأس يعقبه النوم، فهو يضعف الإدراك ولا يزيله كله، فمتى زال كان نوما، ولذلك قال بعضهم هو أول النوم، وفي المصباح: وأول النوم النعاس، وهو أن يحتاج الإنسان إلى النوم، ثم الوسن وهو ثقل

النعاس، ثم الترنيق وهو مخالطة النعاس للعين، ثم الكرى والغمض وهو أن يكون الإنسان بين النائم واليقظان، ثم العفق وهو النوم، وأنت تسمع كلام القوم، ثم الهجود والهجوع .56

وقال في تفسير قوله تعالى :(إذ يوحي ربك إلى الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا):

الظرف هنا غير بدل من (إذ)في الآيات التي قبله ولا متعلق بما تعلقت به، بل هو متعلق بتثبيت والمعنى أنه يثبت الأقدام بالمطر في وقت الكفاح، الذي يوحي ربك فيه إلى الملائكة آمرا لهم، أن يثبتوا به الأنفس بملابستهم لها واتصالهم بها وإلهاما، تذكر وعد الله لرسوله وكونه لا يخلف الميعاد، والمعية في قوله (أني معكم) معية الإعانة، كقوله (إن الله مع الصابرين).

(سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) الرعب بوزن قفل اسم مصدر من رعبه (وتضم عينه) وبه قرأ ابن عامر والكسائي، ومعناه الخوف الذي يملأ القلب، ولما فيه من معنى الملء، يقال رعبت الحوض أو الإناء أي ملأته، ورعب السيل الوادي، وقيل أصل معناه القطع؛ إذ يقال رعبت السنام ورعبته ترعيبا إذا قطعته طولا،

وفســــره الراغب بـما يجمع بين المعنيين، فقـال: الرعـب الانقطـاع من امتلاء الخوف، ويقال: رعبته (من باب فتح) وأرعبته، وأبلغ منه تعبير التنزيل بإلقاء الرعب وبقذف بالرعب في القلب، لما فيه من الإشعار بأنه يصـب في القلوب دفعة واحدة (فاضـربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان) أي فاضربوا الهام وافلقوا الرءوس_أو اضـربوا على الأعناق_وقطعوا الأيدي ذات البنان، التي هي أداة التصرف في الضرب وغيره وهو متعين في حال هجوم الفارس من الكفار على الراجل من المسلمين، فإذا لم يسبق هذا إلى قطع يده، قطع ذاك رأسه. 57

ثم قال: وفي تفسـير ابن كثير عن بعض المغازي أن النبي صلى الله عليه وسلم، جعل يمر بين القتلى ببدر _أي بعد انتهاء المعركة_ويقول "نفلق هاما" فيتم البيت أبو بكر رضي الله عنه، وهو:

نفلق هاما من رجال أعزة علينا وهم كانوا أعق واظلما

وهو يدل على ألمه صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله، من الضرورة التي اضطرتهم إلى قتل صناديد قومه، واسم التفضيل في "أعق وأظلم" هنا على غير بابه مراعاة للظاهر،

فإن المشركين وحدهم هم الذين عقوه صلى الله عليه وسلم وظلموه هو ومن آمن به، حتى أخرجوهم من وطنهم بغيا وعدوانا، ثم تبعوهم إلى دار هجرتهم يقاتلونهم فيها، وروى أنه أوصى بنفر من بني هاشم آله، خرجوا مع المشركين كرها، أن لا يقتلوا كان منهم عمه العباس رضى الله عنه ولم يكن أسلم .58

ثم قال رحمه الله تعالى:

مقتضى السياق أن وحى الله للملائكة قد تم بأمره إياهم بتثبيت المؤمنين، كما يدل عليه الحصر في قوله عن إمداد الملائكة (وما جعله الله إلا بشرى) الخ وقوله تعالى (سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب) الخ بدء كلام خوطب به النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون، تتمة للبشرى، فيكون الأمر بالضرب موجها إلى المؤمنين قطعا، وعليه المحققون الذين جزموا بأن الملائكة لم تقاتل يوم بدر تبعا لما قبله من الآيات، وقيل أن هذا مما أوحى إلى الملائكة، وتأوله هؤلاء بأنه تعالى أمرهم بأن يلقوا هذا المعنى في قلوب المؤمنين بالإلهام، كما كان الشيطان يخوفهم ويلقي في قلوبهم ضده بالوسواس، ولا يرد على الأول ما قيل من أنه لا يصح إلا اذا كان الخطاب قد وجه إلى المؤمنين قبل القتال

والسورة قد نزلت بعده _لأن نزول السورة بنظمها وترتيبها بعده، لا ينافي حصول معانيها قبله وفي اثنائه، فان البشارة بالإمداد بالملائكة وما وليه .قد حصل قبل القتال وأخبر به النبي صلى الله عليه وسلم أصحابه، ثم ذكرهم الله تعالى به بإنزال السورة برمتها تذكيرا بمننه، ولولا هذا لم تكن للبشارة تلك الفائدة، والخطاب في السياق كله موجه إلى المؤمنين، وإنما ذكر فيها وحيه تعالى للملائكة بما ذكر عرضا ، وقد غفل عن هذا المعنى الآلوسي تبعا لغيره، وادعى أن الآية ظاهرة في قتال الملائكة، وقد وردت روايات ضعيفة تدل على قتال الملائكة لم يعبأ الإمام ابن جرير بشيء منها ، ولم يجعلها حقيقة أن تذكر ولو لترجيح غيرها عليها .59

ثم قال :وما ادري أين يضع بعض العلماء عقولهم؛ عندما يغترون ببعض الظواهر وبعض الروايات الغريبة التي يردها العقل ولا يثبتها ، ما له قيمة من النقل، فاذا كان تأييد الله المؤمنين بالتأييدات الروحانية التي تضاعف القوة المعنوية، وتسهيله لهم الأسباب الحسية كإنزال المطر وما كان له من الفوائد، لم يكن كافيا لنصره إياهم على

المشركين بقتل سبعين وأسر سبعين حتى كان ألف_ وقيل آلاف_ من الملائكة يقاتلونهم معهم، فيفلقون منهم الهام ويقطعون من أيديهم كل بنان، فأي مزية لأهل بدر فضلوا بها على سائر المؤمنين ممن غزوا بعدهم، وأذلوا المشركين وقتلوا منهم الألوف؟ وبماذا استحقوا قول الرسول صلى الله عليه وسلم لعمر رضي الله عنه: "وما يدريك لعل الله عز وجل اطلع على أهل بدر، فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم؟" رواه البخاري ومسلم وغيرهما، وفي كتب السير وصف للمعركة؛ علم منه القاتلون والآسرون لأشد المشركين بأسا_ فهل تعارض هذه البينات النقلية والعقلية بروايات لم يرها شيخ المفسرين ابن جرير حرية بأن تنقل، ولم يذكر ابن كثير منها إلا قول الربيع بن أنس " كان الناس يوم بدر يعرفون قتلى الملائكة ممن قتلوا، بضرب فوق الأعناق وعلى البنان مثل سمة النار قد احرق به" ومن أين جاء الربيع بهذه الدعوى؟ ومن ذا الذي رؤى من القتلى بهذه الصفة؟ وكم عدد من قتل الملائكة من السبعين وعدد من قتل أهل بدر غير من سموا، وقالوا قتلهم فلان وفلان؟ كفانا الله شر هذه الروايات الباطلة التي شوهت التفسير وقلبت الحقائق، حتى أنها خالفت نص القرآن نفسه فالله تعالى

يقول في إمداد الملائكة (وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم) وهذه الروايات تقول بل جعلها مقاتلة، وان هؤلاء السبعين الذين قتلوا من المشركين لم يمكن قتلهم إلا باجتماع ألف أو ألوف من الملائكة عليهم مع المسلمين، الذين خصهم الله بما ذكر من أسباب النصر المتعددة!60

ثم قال: إلا أن في هذا من شأن تعظيم المشركين ورفع شأنهم وتكبير شجاعتهم، وتصغير شأن أفضل أصحاب الرسول وأشجعهم، ما لا يصدر عن عاقل إلا وقد سلب عقله، لتصحيح روايات باطلة لا يصح لها سند ولم يرفع منها إلا حديث مرسل عن ابن عباس، ذكره الآلوسي وغيره بغير سند، وابن عباس لم يحضر غزوة بدر لأنه كان صغيرا، فرواياته عنها حتى في الصحيح مرسلة، وقد روى عن غير الصحابة حتى عن كعب الاحبار ومثله.61

جملة الكلام أن "رشيد رضا" رحمه الله تعالى يعترض على الروايات التي جعلت الملائكة مقاتلة مع المسلمين في بدر الكبرى، ولكنه مع هذا يتفق مع الرواية الأولى أو التفسير الأول الذي يذهب إلى أن الإمداد بالملائكة كان إنما كان بالحضور وتثبيت جيش الإسلام، وهذه فائدة فهو يقول: أن ظاهر نص القران

أن إنزال الملائكة وامداد المسلمين بهم فائدته معنوية وأنهم لم يكونوا محاربين.

أما اعتراضه على الروايات التي جعلت الملائكة مقاتلة مع جيش الإسلام، والتي يرى أن في هذا من شأن تعظيم المشركين ورفع شأنهم وتكبير شجاعتهم وتصغير شأن أفضل أصحاب الرسول صلى الله عليه وسلم، فقد قال الشيخ تقي الدين السبكي : سئلت عن الحكمة في قتال الملائكة مع النبي صلي الله عليه وسلم، مع ان جبريل قادر علي ان يدفع الكفار بريشة جناحه فقلت:وقع ذلك لارادة أن يكون الفعل للنبي صلي الله عليه وسلم واصحابه، وتكون الملائكة مددا علي عادة مدد الجيوش رعاية لصورة الاسباب وسننها، التي اجراها الله تعالي في عباده، والله تعالي هو فاعل الجميع والله اعلم. 62

وقال "ابن كثير" رحمه الله تعالى في تفسير قوله :(وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتطمئن قلوبكم به) أي: وما أنزل الله الملائكة وأعلمكم بإنزالها إلا بشارة لكم، وتطييبا لقلوبكم وتطمينا، وإلا فإنما النصر من عند الله الذي لو شاء لانتصر من أعدائه بدونكم ومن غير احتياج إلى قتالكم لهم، كما قال تعالى بعد أمره المؤمنين بالقتال: (ذلك ولو

يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليبلو بعضكم ببعض والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم. سيهديهم ويصلح بالهم. ويدخلهم الجنة عرفها لهم) [محمد :4_6]. 63

وذكر "القرطبي" رحمه الله تعالى أن: نزول الملائكة سبب من أسباب النصر لا يحتاج اليه الرب تعالى، وإنما يحتاج اليه المخلوق فليعلق القلب بالله وليثق به، فهو الناصر بسبب وبغير سبب (إنما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون) [يس:82]لكن أخبر بذلك ليمتثل الخلق ما أمرهم به من الأسباب التي قد اخلت من قبل (ولن تجد لسنة الله تبديلا) [الأحزاب :62]ولا يقدح ذلك في التوكل، وهو رد على من قال: أن الأسباب إنما سنت في حق الضعفاء لا للأقوياء، فان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه كانوا الأقوياء، وغيرهم هم الضعفاء وهذا واضح.64

وقال رحمه الله تعالى: غزوة بدر الكبرى وهي أعظم المشاهد فضلا لمن شهدها، وفيها أمد الله بملائكته نبيه والمؤمنين في قول جماعة العلماء وعليه يدل ظاهر الآية لا في يوم أحد. 65

وقال شيخ المفسرين" ابن جرير الطبري":

وأولى الأقوال في ذلك بالصواب أن يقال: أن الله عز وجل أخبر عن نبيه محمد صلى الله عليه وسلم أنه قال: (ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة) فوعدهم ثلاثة آلاف من الملائكة مددا لهم، ثم وعدهم بعد الثلاثة آلاف خمسة آلاف؛ إن صبروا لأعدائهم واتقوا الله، ولا دلالة في الآية على أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف ولا بالخمسة آلاف، ولا على أنهم لم يمدوا بهم.

وقد يجوز أن يكون الله عز وجل أمدهم على نحو ما رواه الذين أثبتوا أنه أمدهم، وقد يجوز أن يكون لم يمدهم على نحو الذي ذكره من أنكر ذلك، ولا خبر عندنا صح من الوجه الذي يثبت أنهم أمدوا بالثلاثة آلاف ولا بالخمسة آلاف، وغير جائز أن يقال في ذلك قول إلا بخبر تقوم الحجة به، ولا خبر به كذلك فنسلم لأحد الفريقين قوله.

غير أن في القرآن دلالة على أنهم أمدوا يوم بدر بألف من الملائكة، وذلك قوله تبارك وتعالى: (إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين) [الأنفال :9] فأما في يوم أحد فالدلالة على أنهم لم يمدوا، أبين منها في أنهم أمدوا، وذلك انهم لو أمدوا لم يهزموا وينال منهم

ما نيل منهم، فالصواب فيه من القول: أن يقال كما قال تعالى ذكره. 66

وأنا في نهاية هذا الكتاب لم أشاء أن اجعل له خاتمة وتلخيص، كما هي عادة بعض الكتاب، لأنه في اعتقادي ذلك من شأنه أن يضيع النص والمتن، وأكون بذلك قد أضررت بالقارئ من حيث قدرت النفع، ولكني أحببت كما هو شأن كتاب آخرين، أن يستنبط القارئ الكريم العبر والفوائد وحده، من أول النص وأوسطه وآخره وأن يعصف فكره ويتأمل مغازيه وفوائده. لا اله إلا الله، ولا معبود سواه، منه القوة وهو القوي العزيز، وأخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

هوامش الفصل الخامس

1_أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ،تحقيق سامي بن محمد السلامة ، تفسير القرآن العظيم ، الجزء الرابع ، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع ،ط.2، 1999) ، ص14.

2_المصدر السابق ،ص15.

3_المصدر السابق ،ص17_16.

4_المصدر السابق ،ص18_19.

5_المصدر السابق ،ص20.

6_المصدر السابق ،ص20_21.

7_المصدر السابق ،ص21.

8_العدسة : قرحة تتشاءم منها العرب.

9_أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ، المصدر السابق ،ص21_22.

10_المصدر السابق ،ص22.

11_دعصة : تل الرمل المجتمع المستدير .

12_أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ، المصدر السابق ،ص22_24.

13_المصدر السابق ،ص25.

14_المصدر السابق ، 25_26.

15_أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن، الجزء الحادي عشر، (القاهرة: مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر ،ط.1، 2001) ، ص32_33.

16_المصدر السابق،ص34_35.

17_المصدر السابق،ص36.

18_المصدر السابق،ص37_38.

19_المصدر السابق،ص 38_39.

20_المصدر السابق،ص39.

21_المصدر السابق،ص40.

22_المصدر السابق،ص49.

23_المصدر السابق،ص50.

24_المصدر السابق،ص50_51.

25_المصدر السابق،ص51_53.

26_المصدر السابق،ص53_56.

27_المصدر السابق،ص58_59.

28_المصدر السابق،ص59.

29_المصدر السابق،ص61_69.

30_المصدر السابق،ص69_ 70 .

31_المصدر السابق،ص71.

32_المصدر السابق،ص73.

33_أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي ، تحقيق محمد عبد الله النمر، تفسير البغوي" معالم التنزيل" ، المجلد الثالث، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع،ط.1،1989) ،ص327.

34_المصدر السابق،ص328.

35_المصدر السابق،ص328 .

36_المصدر السابق،ص 331_332.

37_المصدر السابق،ص 332.

38_فخفق: خفق أخذته سنة خفيفة من النوم.

39_أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، المصدر السابق،ص 332_333.

40_المصدر السابق، ص333_334.

41_المصدر السابق،334_335.

42_أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، الجزء التاسع،

(بيروت: مؤسسة الرسالة ،ط.1، 2006) ،ص452_453.

43_المصدر السابق،ص453_454.

44_المصدر السابق،ص454_455 .

45_المصدر السابق،ص456_458.

46_المصدر السابق،ص458.

47_المصدر السابق، ص459.

48_المصدر السابق، ص460.

49_المصدر السابق،ص 467 .

50_المصدر السابق، ص 468 .

51_المصدر السابق، ص468.

52_المصدر السابق،ص468_469.

53_محمد رشيد رضا ، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار، الجزء التاسع، (القاهرة: دار المنار ،ط.2، 1367هـ) ، ص607_608.

54_المصدر السابق،ص608.

55_المصدر السابق،ص608_609.

56_المصدر السابق،ص 609.

57_المصدر السابق،ص 612.

58_المصدر السابق،ص 612_613.

59_المصدر السابق،ص 613.

60_المصدر السابق،ص614_613.

61_المصدر السابق،ص614.

62_شهاب الدين احمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق شعيب الأرنؤوط، فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الجزء الثاني عشر، (دمشق: دار الرسالة العالمية،ط.1،2013) ، ص76.

63_أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير ، تحقيق سامي بن محمد السلامة، تفسير القرآن العظيم ، الجزء الثاني، (الرياض: دار طيبة للنشر والتوزيع،ط.2،1999) ،ص 114.

64_أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي،تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان، الجزء الخامس، (بيروت: مؤسسة الرسالة ،ط.1،2006) ،ص 300.

65_المصدر السابق،ص296.

66_أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، تفسير القرآن

جامع البيان عن تأويل آي القرآن ، الجزء السادس ، (القاهرة: مركز البحوث والدراسات العربية والإسلامية بدار هجر،ط.1، 2001) ص 28_ 29.

المراجع

1_القرآن الكريم

2_ابن عبد البر، تحقيق شوقي ضيف، الدرر في اختصار المغازي والسير

3_أبو الأعلى المودودي، تعريب أحمد إدريس، الخلافة والملك

4_أبو الحسن علي بن أبي الكرم محمد بن محمد ابن الأثير، تحقيق أبي الفداء عبد الله القاضي، الكامل في التاريخ

5_أبو الحسن علي بن أبي بكر الهيثمي، تحقيق حسين سليم اسد الداراني، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد

6_أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية

7_أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق سامي بن محمد السلامة، تفسير القرآن العظيم

8_أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تحقيق عادل أبو المعاطي، بداية خلق الكون

9_أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور، لسان العرب

10_أبو القاسم هبة الله ابن الحسن بن منصور الطبري اللالكائي، شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة

11_أبو القاسم سليمان بن أحمد الطبراني، تحقيق حمدي عبد المجيد السلفي، المعجم الكبير

12_أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله (ابن عساكر)، تحقيق وفاء تقي الدين، معجم الشيوخ

13_أبو النور حمدي أبو النور حسن، يورجين هابرماس الأخلاق والتواصل

14_أبو بكر عبد الله بن محمد بن إبراهيم ابن أبي شيبة، تحقيق حمد بن عبد الله الجمعة، محمد بن إبراهيم اللحيدان، المصنف

15_أبو جعفر احمد بن محمد بن سلامة الطحاوي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، شرح مشكل الآثار

16_أبو جعفر محمد بن جرير الطبري، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، تفسير الطبري جامع البيان عن تأويل آي القرآن

17_أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين

18_أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، إعداد عزت عبيد الدعاس وعادل السيد، سنن أبي داود

19_أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، تحقيق محب الدين الخطيب، الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه

20_أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني ابن ماجه، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، سنن ابن ماجه

21_ أبو عبد الله محمد ابن أبي بكر ابن أيوب بن قيم الجوزية، تحقيق شعيب الأرناؤوط، زاد المعاد في هدى خير العباد

22_أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن أيوب بن قيم الجوزية، تحقيق محمد المعتصم بالله البغدادي، مدارج السالكين بين منازل (إياك نعبد وإياك نستعين)

23_أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر القرطبي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، الجامع لأحكام القرآن والمبين لما تضمنه من السنة وآي الفرقان

24_أبو علي إسماعيل بن القاسم القالي، تحقيق هاشم الطعان، البارع في اللغة

25_أبو عيسى محمد بن عيسى، تحقيق وتعليق إبراهيم عطوه عوض، الجامع الصحيح وهو سنن الترمذي

26_أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق شعيب الأرناؤوط، شرح السنة

27_أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي، تحقيق محمد عبد الله النمر، تفسير البغوي" معالم التنزيل"

28_أبو محمد عبد الحق الأشبيلي، تحقيق أم محمد بنت احمد الهليس، الأحكام الشرعية الصغرى الصحيحة

29_أبوبكر أحمد بن الحسين البيهقي، توثيق عبد المعطي قلعجي، دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة

30_أبو بكر احمد بن عمرو بن عبد الخالق البزار، تحقيق عادل بن سعد، البحر الزخار، المعروف بمسند البزار

31_أحمد محمد العليمي باوزير، مرويات غزوة بدر

32_احمد مختار عمر، المعجم الموسوعي لألفاظ القرآن الكريم وقراءاته

33_إسماعيل صبري مقلد ، العلاقات السياسية الدولية دراسة في الأصول والنظريات

34_باتريك ه أونيل، ترجمة باسل الجبيلي، مبادئ علم السياسة المقارن

35_بيير بورديو ، ترجمة عبد السلام بنعبد العالي، الرمز والسلطة

36_تشالمرز جونسون، ترجمة صلاح عويس، أحزان الإمبراطورية ، النزعة العسكرية ، والسرية ، ونهاية الجمهورية

37_توماس هوبز ، ترجمة ديانا حرب وبشرى صعب، اللفياثان الأصول الطبيعية والسياسية لسلطة الدولة

38_جمال زهران، منهج قياس قوة الدول واحتمالات تطور الصراع العربي_ الإسرائيلي

39_جورج اورويل، ترجمة أنور الشامي، رواية 1984

40_جوزيف س ناي، ترجمة محمد إبراهيم العبد الله، هل انتهى 'القرن الأمريكي

41_جوزيف س ناي، تعريب محمد توفيق البجيرمي، مفارقة القوة الأمريكية

42_جون ميرشايمر ، ترجمة د . مصطفى محمد قاسم ، مأساة سياسة القوة العظمى

43_جون ميرشايمر، الوهم العظيم

44_جيمس دورتي، روبرت بالتسغراف، ترجمة د. وليد عبد الحي، النظريات المتضاربة في العلاقات الدولية

45_حسان محمد شفيق العاني، الأنظمة السياسية والدستورية المقارنة

46_حسين موسى، ميشال فوكو الفرد والمجتمع

47_رونالد تيرسكي، جون فان اودينارن، ترجمة طلعت الشائب، السياسات الخارجية الأوروبية هل ما زالت أوروبا مهمة

48_ريتشارد ليتل، ترجمة هاني تابري، توازن القوى في العلاقات الدولية، الاستعارات والأساطير والنماذج

49_زبغنيو بريجنسكي، رقعة الشطرنج الكبرى

50_سفر بن عبد الرحمن الحوالي، المسلمون والحضارة الغربية

51_سفر بن عبد الرحمن الحوالي، العلمانية نشأتها وتطورها وأثارها في الحياة الإسلامية المعاصرة

52_سمعان بطرس فرج الله، جدلية القوة والقانون في العلاقات الدولية المعاصرة

53_سيد قطب، في ظلال القرآن

54_ سيد قطب، المستقبل لهذا الدين

55_السيد محمد مرتضى الحسيني الزبيدي، تحقيق عبد المجيد قطامش، تاج العروس من جواهر القاموس

56_شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق علي بن _حسن عبد الحميد الحلبي، هداية الرواة إلى تخريج أحاديث المصابيح والمشكاة

57_شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تحقيق شعيب الأرنؤوط، فتح الباري بشرح صحيح البخاري

58_صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم

59_صفي الرحمن المباركفوري، المصباح المنير في تهذيب تفسير ابن كثير

60_طه حسين، مستقبل الثقافة في مصر

61_عامر مصباح، نظريات تحليل التكامل الدولي

62_عباس محمود العقاد، عبقرية محمد

63_عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد

64_عبد الرحيم بن صمايل السلمي، حقيقة الليبرالية وموقف الإسلام منها

65_عبد القادر محمد فهمي، الفكر السياسي والاستراتيجي للولايات المتحدة الأمريكية

66_علي جلال معوض، مفهوم القوة الناعمة وتحليل السياسة الخارجية

67_علي عباس مراد، الأمن والأمن القومي مقاربات نظرية

68_عمر سليمان الأشقر، عالم الملائكة الأبرار

69_عمر عبد السلام تدمري، السيرة النبوية لابن هشام

70_فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ والإنسان الأخير

71_كارل دويتش، ترجمة شعبان محمد محمود شعبان، تحليل العلاقات الدولية

72_كينيث والتز، ترجمة عمر سليمان التل، الإنسان والدولة والحرب

73_مارتن غريفيثس، تيري أوكالاهان، المفاهيم الأساسية في العلاقات الدولية

74_مالك بن أنس، الموطأ

75_مايكل شيهان، ترجمة احمد مصطفى، توازن القوى التاريخ والنظرية

76_ مايكل كولينز بايبر، ترجمة عبد اللطيف أبو البصل، كهنة الحرب الكبار

77_مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط

78_محمد الجوهري حمد الجوهري، النظام السياسي الإسلامي والفكر الليبرالي

79_محمد السيد سليم، تطور السياسة الدولية في القرنين التاسع عشر والعشرين

80_محمد الغزالي، قذائف الحق

81_محمد الغزالي، حصاد الغرور

82_محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الرازي، مختار الصحاح

83_محمد بن عبد الرحمن الخميس، التوضيحات الجلية على شرح العقيدة الطحاوية

84_محمد رشيد رضا، تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار

85_محمد سعد بن أحمد بن مسعود اليوبي، مقاصد الشريعة الإسلامية وعلاقتها بالأدلة الشرعية

86_محمد عبد الرؤوف المناوي، ضبط وتصحيح احمد عبد السلام، فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث البشير النذير

87_محمد عمارة، الإسلام وأصول الحكم لعلي عبد الرازق دراسة ووثائق

88_محمد قطب، هل نحن مسلمون

89_محمد قطب، دراسات في النفس الإنسانية

90_محمد ناصر الدين الألباني، أحكام الجنائز وبدعها

91_محمد ناصر الدين الألباني، إرواء الغليل تخريج أحاديث منار السبيل

92_محمد ناصر الدين الألباني، صحيح "الجامع الصغير وزيادته" (الفتح الكبير)

93_مسفر بن علي القحطاني، صدام القيم قراءة ما بعد التحولات الحضارية

94_مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري، صحيح مسلم

95_محمد فؤاد عبد الباقي، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم

96_مونتسكيو، ترجمة عادل زعيتر، روح الشرائع

97_ناصيف يوسف حتى، النظرية في العلاقات الدولية

98_نعوم تشومسكي، تعريب أسامة إسبر، الدولة المارقة استخدام القوة في الشؤون العالمية

99_نيقولا مكيافيللي، ترجمة صالح صابر زغلول، فن الحرب

100_نيقولا مكيافيللي، ترجمة أكرم مؤمن، الأمير

101_نيل فرجسون، ترجمة معين محمد الإمام، الصنم صعود وسقوط الإمبراطورية الأمريكية

102_هارولد ج.لاسكي، الدولة نظريا وعمليا

103_هانز.جي.مورجنتاو، تعريب خيري حماد، السياسة بين الأمم الصراع من أجل السلطان والسلام

104_يفجيني بريماكوف، تعريب عبد الله حسن، العالم بعد 11 سبتمبر وغزو العراق

المحتويات

_أبو محمد التجاني صلاح عبد الله المبارك
_الميلاد مدينة الخرطوم 1969
_تلقى تعليمه الابتدائي و الثانوي بمدرسة الكلاكلة
_تلقى تعليمه الثانوي العالي بمدرسة المقرن الثانوية
_درس كلية الصيدلة جامعة الأزهر بمصر و أتمها في كلية الصيدلة جامعة الخرطوم
_نال بكالوريوس الصيدلة جامعة الخرطوم عام 1998
_كاتب مقالات رأي مستقل في عدة مواقع الكترونية
_الايميل

eltigani999921@hotmail.com
anaas4444@hotmail.com